

بسم الله الرحمن الرحيم

١٠١٢
١٠١٢
١٠١٢

الجامعة الأردنية
كلية الدراسات العليا
=====

"صلاح الدين الأيوبي في الشعر العربي في فترة الحروب الصليبية"

١٨٦٦

عوني خليل محمود جابر

إشراف

الأستاذ الدكتور عبد الجليل عبد المهدي
في ١٩٩٠/٥/٢٢

١٠١٢
١٠١٢

(قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير
في الأدب العربي من كلية الدراسات العليا في الجامعة الأردنية)

١٩٩٠ - ١٩٩٠ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

”مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ فَمِنْهُمْ مَّنْ
قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا“

(الأحزاب: ١٦)

الاهــــــدا

- إلى روح المجاهد ، محرر بيت المقدس : صلاح الدين الأيوبي
- وإلى أرواح مجاهدي الأمة الاسلامية، وشهداء الانتفاضة في فلسطين
- إلى الذين رفعوا ويرفعون راية " لا اله إلا الله " خفاقة ليقى صوت الأذان
مسموعا .
- إلى والدي الحبيبين ، ثمره من ثمار غرسهما
- وإلى زوجتي العزيزة التي شاركتني عناء هذا البحث ، فجزاها الله خيرا ،
وأولادي رياحين حياتي
- وإلى اخوتي الأعززا

بسم الله الرحمن الرحيم . - أ -

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والمصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه أجمعين ، وبعد .

تعرضت الأمة الإسلامية في القرنين الخامس والسادس الهجريين لهجمة صليبيّة ، لمثلها كانت من أخطر المحن التي واجهتها هذه الأمة في صراعها مع أعدائها ، وقد هيّأ الله لها ، بعد طول معاناة ، القيادة الصالحة التي تصدّت للأعداء متثلة في أبطالها الثلاثة : عماد الدين زنكي ، وابنه نور الدين ، ثم صلاح الدين الأيوبي ، محور هذه الدراسة . هذا القائد الذي سعى جاهدا لتوحيد كلمة المسلمين وحقن دماءهم تحت رايته ، ثم تمكن بعد ذلك من استعادة الأراضي الإسلامية المقتضية من أيدي الغزاة الفرنج ، بعد أن خاض معهم عدّة معارك ، توجّها في النهاية بمعركة حطين سنة ٥٨٣ هـ ، التي استطاع فيها كسر شوكتهم واسترجاع بيت المقدس ، مسرى الرسول الكريم ، فأعاد الإسلام والمسلمين العزّة والكرامة .

وقد واكب أدب تلك الفترة ، شعرا ونثرا ، الحروب الدائرة بين المسلمين والغزاة ، فقد تصدّى الأدباء ، ولا سيّما الشعراء ، لمواجهة الأعداء ومقاومتهم بالكلمة الموحية المعجزة المؤثرة ، لكي يبعثوا في نفوس أبطال الأمة ، وفي نفوس المسلمين ، روح الجهاد ، ويستغيثوا بهم لمواجهة الغزاة .

وقدّر لصلاح الدين أن يكون بطلا من أبطال الأمة الإسلامية ، وبطلا مميّزا في فترة الصراع بين المسلمين والصليبيين ؛ لذا التقى حوله عدد من الشعراء غير قليل ، يتتبعون نفسي شعورهم خطاه ، ويرسمون شخصيته في جوانبها المختلفة ، فكانت المادة الشعرية غزيرة ، مما حفزني لدراسة هذا الشعر ، والتعرّف إلى شخصية البطل من خلاله ، ولا شك أن ثمة عوامل أخرى كانت وراء هذه الدراسة ؛ فالأوضاع القاسية التي مرّت بها أمتنا في ذلك الوقت تشبهه

إلى حد بعيد الأوضاع التي تمرّ بها في وقتنا الحاضر ، وكأن التاريخ يعيد نفسه ، ومن هنا يمكن الاستفادة من الماضي والاعتبار به ، ثم إن إعجابي بشخصية هذا البطل كان دافعا آخر ، وثمة دافع يكمن في أن كثيرا من الدراسات التي عنيت بشخصية صلاح الدين دراسات تاريخية ، عنيت برصد الحقائق وتفصيلها ، ولم تكن دراسة علمية موسعة مستقلة باظهار صورة صلاح الدين في الشعر العربي في فترة الحروب الصليبية ، مما دفعني في بداية الأمر إلى مزهد من البحث والتقيب في فهرس مكتبة الجامعة الأردنية حتى عثرت على عنوان كتاب في فهرس المكتبة المذكورة ، هو : " صلاح الدين بين شعراء عصره وكتابه " ، للدكتور أحمد أحمد بدوي ، فهرعت إلى مكان وجود الكتاب ، إلا أنني لم أعر عابه ، وبعد محاولات متكررة دامت مدة طويلة من البحث والاستقصاء عنه ، أعلمت أنه قد يكون مفقودا ، واتصلت بدار نشره في القاهرة ، وأعلمت أنه غير موجود ، إذ أنه قد تم طبعه سنة ١٩٦٠ ، وظلّ الأمل يراودني في العثور عليه ، فتوجهت إلى مكتبة أمّانة المصاصة باحثا عنه ، حتى عثرت عليه هناك ، وإذا به كتيب صغير حوى حديثا تاريخيا موجزا عن الأوضاع السياسية في عهد صلاح الدين ، بث من خلاله المؤلف بعض أعمال هذا البطل ، وحديثا موجزا آخر عن الثقافة في عصر صلاح الدين وحبّه للشعر ، وأثبتت فيه بعض الأشعار التي واكبت قدومه إلى مصر ، وبعض الأشعار التي قيلت في الوحدة ، وجهاده ضد الأعداء ، وبعض صفاته ، وضخامة جيشه ، ثم تحدّث في صفحات قليلة عن بعض الرسائل والكتب الفاضلية التي تحدّثت عن هدف صلاح الدين من الوحدة والجهاد ، وتحدّث المؤلف بعد عن وفاته .

وهذا تكون هذه الدراسة غير كاملة ، ولا تصوّر صلاح الدين من خلال المسألة الشعرية الخزيرة التي قيلت فيه ، تصويرا واضحا ، يضاف إلى ذلك أنها لم تكن دراسة عامة موثقة ، فلم يكن المؤلف يرد النصوص الشعرية أو النثرية إلى مصادرها غالبا ، وقد اعتمد مصادر قليلة لا تتعدّى خمسة عشر مدرا ، ويبدو أنه استقى معظم الأشعار التي تمثّل بها من كتاب الروضتين المعروف .

ومن الجدير بالذكر ، أنّ ثمة دراسات ومؤلفات أكاديمية وغير أكاديمية نهضت لدراسة أدب الحروب الصليبية شعرا ونثرا ، تعرضت من خلالها لبعض جوانب شخصية صلاح الدين ، لا سيما بطولته وجهاده . من هذه الدراسات : " الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام " للدكتور أحمد أحمد بدوي ، و " دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين " للدكتور محمد كامل حسين و " الأدب في عصر الأيوبي " للدكتور محمد زغول سلام و " أدب الدول المتتابعة عصر الزنكيين والأيوبيين والمماليك " للدكتور عمر موسى باشا و " شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام " للدكتور محمد الهرفي ، و " أدب الحروب الصليبية " للدكتور عبد اللطيف حمزة . ومن أحدث الدراسات الأدبية التي تناولت في جزء منها بطولة صلاح الدين وعسكريته ، دراسة بعنوان : " حطين بين أخبار مؤرخيها وشعر معاصريها " للدكتور محمود إبراهيم ، و " بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية " للدكتور عبد الجليل عبد الهادي ، و " بيت المقدس في شعر الحروب الصليبية " للدكتور عبد الجليل أيضا .

ومن الرسائل الجامعية التي عنيت بأدب الحروب الصليبية في تلك الفترة ، رسالة ماجستير بعنوان : " صورة الصليبيين في الأدب العربي " اعداد عبد القادر أبو شريفة ، و " القدسيات في شعر الحروب الصليبية " (رسالة ماجستير) اعداد ناجي عبد الجابر ، و " نور الدين زنكي في الأدب العربي في عصر الحروب الصليبية " (رسالة ماجستير) ، اعداد محمود السرطاوي ، و " الشعر الشامي في مواجهة الصليبيين (رسالة دكتوراة) ، اعداد محمود عبد الله ، وثمة رسائل حديثة في هذا المجال منها : " أصداء الحروب الصليبية في أدب القاضي الفاضل " (رسالة دكتوراة) اعداد حلمي إبراهيم عبد الفتاح ، ورسالة دكتوراة بعنوان : " اتجاهات الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري " اعداد شفيق الرقيب .

والحق أقول إنّ الفضل في فكرة بحثي هذا يعود لأستاذي الدكتور محمود إبراهيم إذ كان من خلال دراستنا لمساق " أدب مصر والشام " في قسم اللغة العربية ، يسلط لنا أضواء كاشفة على قضايا أدبية وفكرية قيّمة في فترة الحروب الصليبية بمصر والشام ، ليحفزنا

على البحث فيها ، من تلك القضايا " صورة صلاح الدين في الشعر الشامي " .

ولما عرضت القضية ، ففكرة بحثي هذا ، على أستاذي الدكتور عبد الجليل عبد المهدي ، حيث كانت هذه القضية من القضايا الهامة التي شغلتني ، وذلك لرغبة مني في البحث فيها ، نالت منه القبول والرضا ، وانتهينا إلى أن تكون الدراسة بعنوان " صلاح الدين الأيوبي في الشعر العربي في فترة الحروب الصليبية " .

بعد وفقد شرعت في جمع المادة الشعرية واستقصائها من مظاهرها المختلفة ، وطلعت أدرسها ، وأحللها ، ثم صنفتها لتتساق وترتيب فصول الدراسة وقد وجدت في ذلك مشقة بسبب غزارة المادة ، وتداخل الشواهد ، ولا بد هنا من الإشارة إلى أن هذه المادة الشعرية ليست كل ما قيل في صلاح الدين ، وإن قد فقد ، مما قيل فيه ، شيء كثير يدلنا على ذلك بعض الدواوين الشعرية التي ظهرت جمعا بجهود الباحثين في أدب تلك الفترة ، إضافة إلى ذلك فإن الإشارات العابرة في كتب التاريخ والتراجم والأدب لتدل دلالة واضحة على ما أسلفت ، وإن أن كثيرا من الأشعار التي فيها اختزلت ، ويلاحظ أن بعض هذه المصادر تشير إلى دواوين شعر لشعراء في عهد صلاح الدين قد تكون الآن مفقودة أو محفوظة في إحدى المكتبات في العالم تنتظر الكشف عنها .

ولا بد من القول : إن هذا البحث اقتصر على الشعراء والنثر ، وإن في المادة النثرية ما يشكل دراسة مستقلة يقوم بها أحد الباحثين مستقبلا ، ثم أن في غزارة المسألة الشعرية ما يكفي لإقامة هذه الدراسة كما سيتضح .

وحاولت في هذه الدراسة أن أتجاوز الحدود الإقليمية في ذكر الشعراء ، شعراء صلاح الدين ، فاعتبرت أن شاعر صلاح الدين من مدحه ، أو كتب له ، أو وصف معاركه ، أو أشاد بجهشه ، أو من له علاقة به من قريب أو بعيد ، ضمن الإطار الزمني للدراسة ، واستثنيت من الدراسة الشعراء الذين عاصروه ، ولكنهم لم يتصلوا به ولم يكن بينه وبينهم أدنى علاقة .

وتنبغي هنا الإشارة إلى أنني لم أترجم لبعض الشعراء الأعلام في هذه الدراسة كالعماد ، وأسامة ، والقاضي الفاضل ، وغيرهم ، أما غير هؤلاء من الشعراء فقد جاءت تراجمهم

- ه -

موزعة على الفصول الثلاثة الأولى ، ولم أُنهِت تراجم هؤلاء الشعراء في التمهيد ، وإنما
ترجمت فيه الشعراء الذين لا تتكرر أسماؤهم في الفصول اللاحقة ، على اعتبار أنني
لن أعود إليهم ثانية ، وكذلك فعلت في ترجمة الاعلام الآخرين من غير الشعراء .

وكنْتُ أُنْكِى على بعض الرسائل والكتب الفاضلة والعمادية ، حيثما تشد الحاجة
إليها ، كما كنت أُنْكِى على الأحداث والروايات التاريخية في المواضع التي تتطلب ذلك ،
إن أنها مادة سائدة المادة الأدبية ، فإن التاريخ الأدبي لا ينفصل عن التاريخ العام .

وقد بنيت هذه الدراسة على تمهيد وأربعة فصول وخاتمة ، خصص التمهيد للحديث
عن الحركة الشعرية في عهد صلاح الدين ، وأشرت إلى دور صلاح الدين في هذه الحركة .

وحوى الفصل الأول سيرة صلاح الدين مستقاة من الشعر في ضوء التاريخ ، فتحدثت
عن نسبه ، وثقافته ، ومراحل حياته حتى وفاته ، ثم تحدثت عن صفاته التي برزت بروزاً جليلاً
في الشعر .

وجعل الفصل الثاني الحديث عن صلاح الدين في الشعر العربي في فترة الحروب
الصليبية ، فتناول هذا الفصل صلاح الدين السياسي والإداري ، والساعي الموحدة الإسلامية
وتناول صورة صلاح الدين البطل المسامح : المجاهد والقائد العسكري الساعي لاسترداد
الأراضي المحتلة ، وفاتح بيت المقدس ، والمعتدي بالسلف الصالح .

وقد خصص الفصل الثالث للحديث عن صلاح الدين وشعره عصره ، وبدأته بالحديث
عن حب صلاح الدين للشعر ومجالسه الشعرية التي رتبت حسب التسلسل الزمني ، ثم
تلمّرت للحديث عن علاقته بالشعر .

ونظراً لكثرة الشعراء الذين كانت لهم علاقات بصلاح الدين ، فقد رأيت أنه من غير
السهل تصنيف هؤلاء الشعراء وفق إطار معين محدد ؛ وذلك لاختلاف أقاليمهم ، واختلاف
قوة العلاقة التي تربط كل واحد منهم بصلاح الدين ، وصعوبة تصنيفهم ضمن إطار زمني ،
إلا أنني ارتأيت أخيراً أن أجعلهم على قسمين : قسم نستطيع أن نطلق عليه : " الشعراء"
الاعلام في دولة صلاح الدين " ، وهؤلاء الشعراء ، وقد فصلت الحديث عن علاقتهم

بصلاح الدين ، ورايت في ترتيبهم قوة العلاقة التي تربطهم به ، والتواصل الزمني لا اتصال الشاعر به ما استطعت ، الى ذلك سبيلا ، وقسم آخر كانت تربطهم بصلاح الدين روابط شتى ، ككون الشاعر من إدارتي الدولة الصلاحية ، أو من يجرى عليه رواتب كسل شهر ، أو أعطيات قيمة ، أو كون الشاعر يرافق صلاح الدين ، أو يرسل إليه قصائده حيث هو يقيم ، أو ينفذ إليه ، أو كون الشاعر ممن تحدثت علاقته بالمدح فقط .

وثمة شعراء علماء كانت تربطهم بصلاح الدين محبة خالصة ، فطفقوا ينظمون شعرا في مدحه ، وشعراء لم يؤفقوا في علاقتهم به لأسباب سياسية أو اجتماعية .

واشتمل الفصل الرابع على الدراسة الفنية ، حيث حللت فيه أهم سمات الشعراء ، فتحدثت عن بناء القصيدة ، والمفظة والأسلوب ، والصورة الشعرية .

وبنتهي البحث بخاتمة ، أجملت فيها النتائج التي توصلت اليها .

ولا يفوتني أن أقدم بجزيل الشكر والامتنان إلى أستاذي الدكتور عبد الجليل عبد المهدي الذي رعى هذا البحث ، منذ أن كان فكرة ، إلى أن فدا في صورته النهائية مقدما نصائحه وتوجيهاته وملاحظاته القيمة ، مغيضا علي من مشاعره النبيلة السامية الشيء الكثير ، وما كان له كبير أثر في تخفيف وطأة البحث وسعانة الدراسة ، ولولاه لما رأى هذا البحث النور ، فجزاه الله كل خير .

كما أتوجه بالشكر الجزيل إلى كل من الأستاذ الدكتور محمود إبراهيم ، والأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة ، اللذين تفضلا ، ووافقا على قراءة هذا البحث ، وإبداء الآراء ، وتوجيه الملاحظات ، التي أفدت منها كثيرا ، وأشكر لهما أخيرا تفضلهما بالموافقة على مناقشة هذا البحث ، فجزاهما الله أحسن الجزاء .

وما توفيقي إلا بالله

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

التمهيد

" حركة الشعر في عهد صلاح الدين "

حركة الشعر في عهد صلاح الدين

شهد عهد صلاح الدين حركة فكرية وثقافية نشطة، على الرغم من الحروب المستمرة التي خاضتها الدولة ضد الصليبيين، فقد تنوعت العلوم، وبرز عظماء العلماء، ورحل كثير منهم إلى دولة صلاح الدين من شتى الأمصار، وظهر عدد كبير من المدارس والمساجد وور العلماء، وبرزت المجالس الأدبية والعلمية المختلفة .

ونشطت الحركة الشعرية نشاطاً ملحوظاً، فقد كثرت الشعر على السنة كثير من الشعراء في الأمصار جميعها، ونجد العمد الأصفهاني يترجم لعدد منهم في خريدته، ويثبت كثيراً من أشعارهم فيها .

وجرى الشعر على السنة العديد من أبناء الأسرة الأيوبية، منهم على سبيل المثال : تقي الدين عمر، وخرخشة، وعزالدين الملك المنصور، وأخيه السلطان صلاح الدين، وتاج الملوك بوري، وأخو السلطان، وغيرهم من أبناء هذه الأسرة . (١)

وشمة شعراء علماء، ظهرُوا في تلك الفترة، نذكر منهم : تاج الدين الكندي، والنحوي اللغوي، والقاري، الحافظ، والبياطي النحوي، وابن عساكر المؤرخ، والجليلاني . (٢)

وانتشرت المجالس الشعرية المغنمة بالمحاورات والمفاكهات، والموضوعات المختلفة، لا سيما في مصر والشام، فإذا ما نزل القاهرة شاعر شامي أو نزل دمشق شاعر مصري، التقى حوله الشعراء مستمعين إليه، محتفلين به، وربما أقام عندهم زمناً قبل الرجوع إلى بلد، وقد أشار ابن خلكان إلى بعض هذه المجالس في معرض حديثه عن

(١) أنظر خريدة القصر وجريدة العصر، بداية قسم شعراء الشام، الشعراء الأمراء من بني أيوب / ٨١، ١١٣، ١٣٥، والحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام / ٢٢-٣٠، مجلة آداب الرائد، العدد ٨ سنة ١٩٧٧، من ص ٤٦٢ - ص ٤٧٣، ومجلة المورد، مجلد (٥) العدد (٣) من ص ٣٥ - ص ٤٠، ومقدمة ديوان الملك الأمجد ص ٣ - ٢٦ .

(٢) أنظر مزيداً من التفصيل حول الشعراء العلماء : الشعر العراقي في القرون السادس الهجري / ٢٩ - ٨٢ .

ابن سناء المالك ، فقال :

" واتفق في عصره بمصر جماعة من الشعراء المجيدين ، وكان لهم مجالس يجري بينهم فيها مفاكهات ومجاورات يروق سماعها ، ودخل في ذلك الوقت إلى مصر شرف الدين ابن عنين ، فاحتفلوا به وعملوا له دعوات ، وكانوا يجتمعون على أرغد عيش ، وكانوا يقولون : " هذا شاعر الشام ، وجرت لهم محافل سطرت عنهم " . (١)

وكان للسلطان صلاح الدين مجالس شعرية خاصة ، يستمع فيها إلى الشعراء ، وينقد بعض أشعارهم ، وقد توافد الشعراء إلى مجالسه ، ينشدونه أشعارهم في المكان الذي يقيم فيه ، إن لمسوا في صلاح الدين حبه للشعر ، وتشجيعه للشعراء ، وإكرامه لهم ، ومن الشعراء من ضاقت بهم أسباب الوصول إليه ، فطفقوا يرسلون إليه قصائد هم .

* * *

سجل الشعراء في شعرهم أحداث العصر السياسية ، ويمكن أن نطلق على هذا النوع من الشعر " الشعر السياسي " الذي يصور العلاقة الخارجية والداخلية فيسي دولة صلاح الدين .

وعالج الشعراء في أشعارهم فنونا شعرية متعددة ، كانت بين التقليد والابتكار بالجديد ، إن أن هذا العصر تميز بأحداثه الكبرى التي مرت به ، والحياة الاجتماعية التي سادت فيه ، فتلونت هذه الفنون بلون العصر ، فكان الشعراء يصدرون في شعرهم عن بيئتهم ، وأهم هذه الفنون : المديح ، والرباع ، والفرز ، ووصف مظاهر الحياة العامة .

وتنوع المديح في هذا العصر ، فشاعت المدائح النبوية ، وتلونت بمدائح قائلها ، سواء أكانوا من أهل السنة أم من الشيعة ، أم من الصوفية (٢) ، وكان

(١) وفيات الأعيان : ٦٢/٦ ، وانظر مزيدا من الأمثلة حول هذه المجالس : خيربودة

القصر ، قسم شعراء العراق : ٤٣٥/٣ ، قسم شعراء الشام : ٣٦٢/٢ ، قسم

شعراء مصر : ١٠٣/١ ، وانظر مرآة الزمان : ج ٨ ق ١/٢٧٢ ، ٤١٢ .

(٢) عصر الدول والإمارات ، مصر والشام : ٣٥١ .

الباعث لهذا النوع من الشعر تلك الحملات الصليبية التي هاجمت بالسيف والكلعة الإسلام ، عقيدة وإنساناً وأرضاً ، فهبّ الشعراء ينافحون عن الدين ، وكانت شخصية الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، من الركائز الأساسية التي اعتمدوا عليها في استثارة المشاعر الإسلامية ، إذ دأبوا على الرزط بين المعارك النبوية والمعارك التي يخوضونها مع حملة الصليبيين ، وراحوا يصوّرون فرح النبي بالانتصارات التي يحرزها المسلمون ، ويقرنون المسجد الأقصى والأرض المباركة من حوله بالأماكن المقدسة في الديار الحجازية ، ومن الشعراء ————— بسط سيرة الرسول العطرة ، وجهاده في نشر رسالته ، حتى يكون لهم أسوة حسنة في تصديهم لحملة الصليب . ومن الشعراء الذين برزوا في هذا المجال الحسن بن أبي الحسن (ملك النخاعة) (١) .

ومدح الشعراء بطل الأمة آنذاك ، صلاح الدين ، كما مدحوا شتى طبقات المجتمع ، من ذلك مدح الأسرة الأيوبيّة ، كآباء صلاح الدين ، وإخوانه ، وغيرهم ، ومدح الرزراء ، والأمراء ، والكتاب ، والعلماء ، والأصدقاء ، ولا شك أن ثمة اختلافات فسي جزئيات القصيدة المدحية ، إذ أن صفات الوزير تختلف عن صفات العالم أو الصديق فمدح الشاغوري الملك الأمجد ، ومدح ابن عنين الملك العادل الأيوبي ، كما مدح ابن قلاقس (٢) العالم الفقيه الحافظ السلفي ، ومدح ابن سناء الملك القاضي الفاضل أستاذنا (٣) .

(١) هو أبو نزار ، الحسن بن أبي الحسن صافي بن عبد الله بن نزار أبي الحسن ، النحوي ، المعروف بملك النخاعة ، كان مولده في بغداد سنة ٤٨٩ هـ ، رحل إلى خراسان ، ثم إلى الشام ، وأستوطن دمشق ، كان فقيهاً نحويًا ، ذكر ابن خلكان أن له مصنفات كثيرة فيها ، توفي سنة ٥٦٨ هـ . في دمشق ، انظر تهذيب ابن عساكر : ١٦٩ / ٤ ، وفيات الأعيان : ٩٢ / ٢ ، ٩٣ ، وانظر قصيدة ميمية للشاعر المذكور في تهذيب ابن عساكر : ١٧٠ / ٤ ، وانظر مدح ابن الساعاتي الرسول صلى الله عليه وسلم ، في الديوان : ٤٨ / ١ ، ومدح فتیان الشاغوري له في ديوانه / ١١٠ .

(٢) هو : أبو الفتوح نصر الله بن عبد الله بن مخلوف بن علي بن عبد القوي ، ابن قلاقس الملقب بالأزهري الإسكندري ، كان شاعراً مجيداً ، وفاضلاً نبيلًا ، صاحب الحافظ السلفي ، وانتفع بصحبته ، كانت ولادته بشهر الاسكندرية سنة ٥٣٢ هـ ، ووفاته سنة ٥٦٧ هـ . انظر وفيات الأعيان : ٣٨٥ - ٣٨٩ ، البداية والنهاية : ١٢ / ٢٨٩ ، مقدمة ديوانه / ١٥ .

(٣) انظر ديوان فتیان الشاغوري / ٤٢٥ - ٤٣٠ ، وديوان ابن عنين / ٣ - ٨ ، وديوان ابن قلاقس / ٢٨٠ ، وديوان ابن سناء السلفي / ٦٠ .

ورثى الشعراء في شعرهم البطل نفسه ، كما ورثوا الأمراء والخلفاء ، والحكّام ،
والوزراء ، والعلماء ، والأقرباء ، ورثوا بعض الطيور والحيوانات المستأنسة (١) .

وظهرت في هذا العهد بعض المقطوعات والأبيات في رثاء المدن ، من ذلك
ما قاله عبد الله بن رواحة الحموي حين مرّ بمسقلان ، وقد تغيّرت أحوالها ؛ لأنها
وقعت في أيدي الأعداء ، فبكى ، وحزن على شهداء تلك الديار وأسرائيها :-

مَرَرْتُ بِمَسْقَلَانَ وَقَدْ رُمَتْهَا	يَدُ الْحَدَّاثَانِ بِالسَّهْمِ الْمُصْنَبِ
فَأَبْكَنِي عَلَى الْإِسْلَامِ رُبْنًا	خِلَافَ بُكَاءِ الْمُحِبِّ عَلَى الْحَبِيبِ
وَكَمْ فِي التُّرْبِ فِيهَا مِنْ شَهِيدٍ	وَكَمْ فِي الْأَسْرِ فِيهَا مِنْ غَرِيبٍ (٢)

* * *

وسار الفزل في ذلك العهد مسارا تقليديا في كثير من القصائد ، لا سيما
قصائد المدح ، فنجد الشعراء يتخذون الفزل تكأة لهم ليخلصوا منه إلى المدح ، وقد
أعرض الشعراء في ذلك عن ذكر الدمن والأطلال والرسوم الدارس في معظم الأحيان ،
وهذه الظاهرة ظاهرة طبيعية في هذا العصر ، إذ أن طبيعة الحياة فيه تختلف عن
الحياة في السابق ، وبيئة الشعراء المتطورة المتحضرة تختلف عن بيئة الشعراء التي
كانوا يعيشون فيها من قبل ، وكان هذا من مظاهر التجديد في القصيدة العربية (٣)

(١) انظر رثاء العمار لصديق له في الديوان / ٩٧ ، ورثاء ابن الساعاتي لصديقه

تاج الدين الكندي في الديوان : ٧٦ / ٢ ، وانظر رثاء أسامة بن منقذ
لابن له ، ورثائه لأهله في الديوان / ٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ورثاء فتية الشاغوري
للحافظ ابن عساكر في الديوان / ٦١٢ . وغير ذلك .

(٢) تاريخ اربيل : ٤١٣ / ١ . وانظر عن رثاء بعض الحيوانات على سبيل المثال
ديوان ابن عني : ١٤٠ .

(٣) انظر حول التجديد في مقدمة القصيدة العربية كتاب " مقدمة القصيدة العربية
في العصر العباسي الأول : د . حسين عطوان ص ١١ ، ص ١٢ ، ص ٢٦٥ ،
على سبيل المثال .

ومن أمثلة هذا الغزل التقليدي قول ابن سناء الملك في مطلع قصيدة له يمدح بها صلاح الدين الأيوبي ، لما شفي من مرض أصابه سنة ٥٨١ هـ :-

نَظَرَ الْحَبِيبُ إِلَيَّ مِنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ فَأَتَى الشَّعَاءُ لُذْنَفِيٍّ مَذْنَفِيٍّ (١)

وبحسن الشعراء في مثل هذه القصائد التخلص من الغزل بما يلائم حال الممدوح .

وقصر كثير من الشعراء جزءاً من شعرهم على الغزل الحسي ، فتغزلوا بحاسن المرأة ، سواء أكانت هذه المرأة عربية أم تركية أم فرنجية ، فوضوا قدها ، وعينها ، وشفتيها ، والعذار ، والشعر ، والخال ، والشعر ، وغير ذلك ، مما يتصل بجسد المرأة (٢) .

ونحا بعض الشعراء منحى من أضناهم العشق ، فصوروا أجسامهم نحيلة ضعيفة ، وحزنهم شديداً ، وعبراتهم تتحدر ، وأشواقهم تتأجج نحو الحبيب ، فيبدو شعرهم غافياً طاهراً ، ومن الجدير بالقول إنَّ هؤلاء الشعراء لم تكن لديهم قصص غرامية معروفة وواضحة ، ولم تكن تستقر في قلوبهم محبة بعينها ، يرددون اسمها في أشعارهم كما فعل الشعراء المذريون من قبل ، ولذا بدا حديثهم عن المحبوب حديثاً عاماً (٣) .

وشاع في هذا العصر الغزل بالمذكر ، ولكن هذا الغزل لم يكن واقعياً في كثير من الأحيان ، بل كان تقليدياً ، أي تقليداً للمحدثين السابقين ، وكان حقيقياً في أحايين أخـــــرى (٤) .

* * *

-
- (١) ديوان ابن سناء الملك / ٢٠٠ .
 (٢) انظر على سبيل المثال : ديوان ابن الساعاتي : ٦٦/٢ ، والخريدة ، شعراء الشام : ٤٢٠/١ ، وديوان ابن عنيـن / ٤٠ .
 (٣) انظر على سبيل المثال : ديوان أسامة / ٧٦ ، الخريدة ، بداية قسم شعراء الشام / ٩٦ ، ديوان الملك الأمجد / ١٥١ ، ١٥٢ ، وغيرهـــــــــــــــــا .
 (٤) انظر على سبيل المثال : ديوان ابن عنيـن / ١٠٩ ، ١١٢ ، ديوان عرقلة / ١٤ ، ديوان العماد / ١٦١ ، ١٦٢ ، وديوان ابن الدهان / ١٤٥ ، وديوان فتيــــــــــــــــان الشاغــــــــــــــــوري / ٥٨٧ ، وغيرهـــــــــــــــــا .

وصور الشعراء مظاهر الحياة الاجتماعية في عهد صلاح الدين ، كظروف المعيشة ، والعادات ، والأزياء ، ووسائل الترفيه والتسلية ، وحياة اللهو والمجون ، وحياسة الزهد والتصوف ، والعلاقات الاجتماعية غير السليمة ، كما هي الحال في شعير الهجاء ، والشكوى والنقد الاجتماعي ، والايجابية ، كما هي الحال في شعر الاخوانييات الذي يصور العلاقة القائمة بين الأصدقاء والإخوان .

يتضح من دراسة بعض الأشعار في هذا العهد أن الرعية في البلاد كانت تعاني من ظلم الحكام والأمراء ، وبالتالي فساد الأحوال ، فعندما تولى صلاح الدين حفظ أمن دمشق ، قبل ملكة مصر ، لاحق المفسدين فيها ، وأوقع بهم العقوبات .

ولما ملك صلاح الدين مصر والشام بعد وفاة نور الدين زنكي ، قام بالضرب على أيدي المفسدين ، وسعى إلى تثبيت الأمن والاستقرار في البلاد .

وصور الشعراء بعض المنشآت العمرانية الفخمة التي تدل على سعة العيش لدى بعض الأسر ، فهذا فتيان الشاغوري يصف ، على سبيل المثال ، بركة عمات الموفق ابن المطران ، صنعت أنابيبها ، التي يصب منها الماء على شكل سباع (١) .

ويبدو أن الناس عامة كانوا يعانون من قلة الأموال وشظف العيش ، على الرغم من الإصلاحات الاجتماعية الواسعة ، التي قام بها صلاح الدين ، ومن قبله نور الدين ، وقد أوضح بعض الشعراء ما هم فيه من بؤس وشقاء ، فقد رفع أبو العباس التتوزي (٢) ، وكان معلماً ، إلى القاضي تاج الدين الشهرزوري (٣) قصيدة ، شكاً فيها فاقته ، وتعبّر أسباب عيشه ، وخلق بيته ما يقسم أوده ، وأود عيالهم :-

-
- (١) انظر ديوان فتیان الشاغوري / ٥١٨ .
 (٢) هو أبو العباس أحمد بن عيسى التتوزي ، كان معاصراً للحمام الأصفهاني ، الخريدة ، قسم شعراء الشام : ٣٩٣ / ٢ .
 (٣) هو تاج الدين يحيى بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري المتوفى سنة ٥٦٦ هـ . انظر الخريدة ، قسم شعراء الشام : ٣٤٠ / ٢ .

- ٧ -

لَقَدْ أَصْبَحَ التَّعْلِيْقُ (١) عِنْدِي مُعَلَّقًا وَلَوْ وَجَدْتُ شَيْئًا سِوَاهُ لَمَا جَنَسْتُ وَأَضَحْتُ دُرُوسِي دَارِسَاتِ فَلَيْتَنِي فِرَانِي وَمَنْ طَافَ الْحَجِيجُ بَيْتِيهِ أَوْ مِنْ الْإِفْلَاسِ لَوْ كُنْتُ عَارِفًا	عَالِيهِ إِذَا أَرَى الْبَيْتَ هَرَعِي وَمَا عَسِبُ عَالِيهِ ، وَلَكِنْ سُورَةُ الْجُوعِ تَفَاسِبُ لَحِقْتُ بِهَا فَأَمُوتُ عِنْدِي مُحَبَّبُ وَمَا قَدْ حَوَتْ مِنْ خَيْرِ الْخَلْقِ يَتَرَبُّ بِحُلِيَّةِ كَسْبِ الْفُلَسِ كَيْفَ التَّسْبِيبِ (٢)
--	---

وكثيرا ما شكنا فتيان الشاغوري الفخر في أشعاره (٣) .

وسجل الشعراء بعض مظاهر الحياة الشعبية في البلاد ، فهذا الشاغوري ينقل
إلينا ما كان يتخلل حياة الناس من أنماط السلوك ، فقد تذر من عادة القيام عند
دخول الكبراء قائلاً :-

لَمْ أَحْظُ إِلَّا بِالْقِيَامِ لِمَنْ أَتَيْتُ يَا حَبِذَا فِعْلُ الْمَفَارَةِ الْأُولَى	فَلَقَدْ دَفَعْتُ إِلَى الْمُقِيمِ الْمُقِيمِ تَرَكُوا الْقِيَامَ لِصَادِرِي مَكُورِ (٤)
--	---

ويقف القاري للشعر في عهد صلاح الدين على كثير من المهن التي كان يتعاطاها
القوم ، وقد وصف الشعراء كثيرا من أرباب هذه المهن ، يقول العماد في سراج غلام :
نَدَيْتُ سَرَّاجًا إِذَا لَمْ يَكُنْ رُجُ لِلْعِشْقِ عِنْدِي حَسَنٌ ، رَاجَ هُوَ (٥)
ويقول ابن عنين في صبي بيطار بحمص :-

لِلْبَيْطَارِ بِحَمْصٍ مَا رَنَّا إِلَّا وَسَلَّتْ مُقَلَّتَاهُ مَخْذُ مَسَا (٦)

-
- | | |
|---|-----|
| (١) التعليق : ما يذكر في حاشية الكتاب من شرح وغير ذلك . | (١) |
| (٢) الخريدة ، قسم الشام : ٢ / ٣٩٤ . | (٢) |
| (٣) انظر ديوان فتیان ٥٧ / ، وانظر ص ١٧٣ ، ٤٤٨ ، ٥١٠ ، من الديوان نفسه . | (٣) |
| (٤) نفسه / ١٢٥ . | (٤) |
| (٥) ديوان العماد / ١٠٤ . | (٥) |
| (٦) ديوان ابن عنين / ١١٠ . | (٦) |

ويصور شعر الشعراء آنذاك كثيرا من وسائل التسلية ، فقد صور الشعراء رحلات التنزه التي كان يقوم بها عامة الناس ، فهم يخرجون إلى الطبيعة ، ويقضون فيها أوقاتهم ، فهذه بساتين دمشق تبدو في شعر العباد متنزها واسعا يضيء إليه الناس ، وكأنهم فتنوا بهما :-

وما جنة الخلد إلا دمشق وفي القلب شوقا إليها سمير
سأدبها الخضر فيتح الرحاب وسأسألها العذب صافي نعيم^(١)

وكان الناس ينتظرون بعض المواسم ، كموسم الشمس ، فعندما يكون وقته يهرعون لأكله ، خاصة في دمشق ، يقول نشو الدولة بن نفاة الدمشقي داعيا العباد إلى استغلال هذا الموسم :-

دعا الناس للذات مشعر جلق قد أسرعوا من كل غرب وشرق
فقم يا عماد الدين تحظ بأكلية ولا تشن عنه عزفة السمر تسبق
وقل حين بيد وأحمر اللون مشرقا أنا حسنه من أحمر اللون مشرق^(٢)

وقد رد عليه العباد بقصيدة طويلة تقع في ستة وعشرين بيتا خصصها لوصف مشمش دمشق ، وصور ترقب الناس إليه (٣) .

ووصف الشعراء بعض الألعاب التي كان يتلعب بها الكبراء وعامة الناس ، كرياضة الشطرنج التي كانت شائعة من بين الألعاب ، فقد تضمن الشعر إشارات لها ، ومن ذلك قول عرقلة الكلبي يصف مجلس لهو كان يلعب فيه الشطرنج والخرد ، وقد تناشرت في أنحاء أنواع الأزهنيير :-

-
- (١) ديوان العباد / ١٨٢ .
(٢) كتاب الروضتين : ٢ / ٢٠٩ ، ٢١٠ .
(٣) ديوان العباد / ٣١٦ .

ما اجتمع الشُّطْرُنُجُ فِي مَجْلِسٍ وَأَنْتَرُدُ إِلَّا بَرَدَ الْمَجْلِسِ
لَا سِوَاهَا إِنْ حَضَرَتْ "نُوجِسُ" وَالْبَاهُ وَالْمَنْشُورُ وَالنُّرْجِسُ (١)

وكان صلاح الدين عارفا بهذه اللعبة ، وكان يشتغل بها في أيام الفسز وغيرها
من الأيام .

وتمثل الألفاز نوعاً آخر من وسائل التسايم التي شغل بها الناس عامة ، وأهل
الأرب خاصة ، وقد كثر الشعر الذي يصور هذه الظاهرة ، وشملت هذه الألفاز كل ما
يقع في نطاق الحواس ، وتغتن الشعراء في عرضها لإظهار مقدرتهم ومراعتهم ، فقد
الغز العرقل في مروحة ، فقال :

وَمُحِبَّةٌ فِي الْقَيْظِ لَمْ تَخُلْ مِنْ يَدٍ فِي الْقَرِّ تَسْلُوهَا أَكْفُ الْحَبَائِبِ
إِذَا مَا الْهَوَى الْمَقْصُورُ هَيَّجَ عَاشِقًا أَتَتْ بِالْهَوَى الْمَمْدُودِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ (٢)

واتكأ ابن نفاة الدمشقي على آي الذكر الحكيم في نظم لغزني اسم يوسف
فقال :

يَا سَائِلِي مَا اسْمُ الَّذِي أَحْبَبْتُهُ إِنِّي بِسِرِّ هَوَاهُ غَيْرُ مُصَرِّحٍ
لَكِنْ إِذَا فُكِّرْتُ فِيهِ وَجَدْتُهُ مَعْكُوسَ سَابِغٍ لِقِظَةٍ فِي "سَبَّحِ" (٣)

* * *

وصور الشعر حياة اللهو والمجون في ذلك العهد ، وهي حياة فئة معينة من
فئات المجتمع ، فوصف بعض الشعراء مجالس اللهو والشراب ، وما كان يجري فيها من مجون
وخلاعة ، وهم في ذلك يصعدون عن ميل ذاتي ، ومن هؤلاء الشعراء عرقله الكلبلي ، الذي
يتضمن ديوانه غير قليل من هذا الشعر اللاهي العاجن ، فقد حفلت إحدى قصائده
بشاعر الانتشاء بالحياة العابثة اللاهية ، يقول :

(١) ديوان العرقل / ٥٥ . (٢) النثر الجديدة ، شعراء مصر ، ١/١٧٠

(٣) نفسه / ١٢ .

(٤) نوات الوفيات : ١٢/١

أَدْرِ يَا طَلْعَةَ الْبَسْدَرِ عَلَيْنَا أَنْجُمَ الْخَمَرِ
وَقَطِّعْ لَيْلَنَا بِالْكَأْ سَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ
عَلَى قَتَانَةِ الْعَيْنَيْنِ نِ وَالْخَدَّيْنِ وَالْفُجْرِ
مِنَ السُّمْرِ اللَّوَاتِي هُنَّ نَ أَمْثَالُ الْقَنَا السُّمْرِ
لَنَا مِنْ وَجْهِهَا قَمَرٌ وَمِنْ نَفْسَاتِهَا قُمْرِي
كَذَا فَلْيَشْرَبِ السَّهْبَا يَا ذَوِي السُّمْرِ (١)

ويستشف من ديوان فتیان الشاغوري أنه كان ذا نزعة للهو، إذ تمثل كثير من قصائده هذه النزعة، فقد تذر في إحدى قصائده من ملاحقة الدولة لمظاهر المجون، وصور غضب إلهيس من ذلك، يقول :

سَطَوَاتُ السُّلْطَانِ سَلَّتْ سَيُوفَا سَاطِطَاتُ فَاَسْخَطَتْ إِبْلِيسَا
سَلَبْتَنَا حَسَوَ السَّلَافَةِ سِرًّا فَسَرَى يَسْلُبُ النَّفْسُ النَّفْسَا (٢)

ودعا في إحدى قصائده إلى اللهو واحتساء الراح، فقال :

دَعَا دَاعِيَ الصَّبَاحِ إِلَى الصَّبَاحِ قَلْبُوا دَعْوَةَ الدَّيْلِ الصَّدُوحِ
فَبَادِرْ يَا نَدِيمِي شُرْبَ رَاحٍ كَعَيْنِ الدَّيْلِ وَالْمِسْكِ الذَّبِيحِ (٣)

ووصف في قصيدة أخرى مجالس اللهو، فقد صور مجلسا في حانة مزينة بالورد والرياحين، واستمتع فيها مع أصحابه بشرب الخمر على أصوات الغناء، وإيقاع الموسيقى، يقول :

وَهَيْفَاءَ أَمَا الْوَصْلُ فِيهَا فَجَنَّةٌ لَدَيْنَا ، وَأَمَا هَجْرُهَا فَسَمِيرٌ
تَدِيرُ عَلَيْنَا قَهْوَةً بِأَبْلَهِيَّةٍ لَهَا فِي عِظَامِ الشَّارِبِينَ مَسِيرٌ
هَمِّنْ يَدَيْنَا نَرْجِسُ مِنْفَسَجٍ وَنَارٌ وَنُورٌ فِي الزُّجَاجِ وَنُورٌ
وَشَابَ إِذَا غَنَى حَسَنًا قُلُوبَنَا مِنَ الْوَجْدِ مِنْ بَيْنِ الضُّلُوعِ تَطِيرُ (٤)

- (١) ديوان عرقلة / ٤٦ .
(٢) ديوان فتیان الشاغوري / ٢٣٩ .
(٣) نفسه / ٨٨ .
(٤) نفسه / ١٥٦ .

ووصف ابن الساعاتي ارتجالاً يوم لهو أمضاء وأصدقائه في الثَّيْرَب وقصد

فاجأهم المطر:

لله يوم الثَّيْرَبَيْنِ وَوَجْهَهُ طَلَقٌ ، وَثَفَرُ اللَّهْوِ ثَفَرٌ أَشْنَبُ
وَكَاثَنَا فَنَنْ الْأَرَاكَ مِنْبَسْرٌ وَهَزَارُهَا فَبُوقُ الْأَرَاكَ يَخْطُ سَبُ
وَالرَّعْدُ يَشْدُو وَالْحَيَا يَسْقِي وَغَضُنُ الْبَانِ يَرْقُصُ وَالْخَمَائِلُ تَشْتَرِبُ
وَكَاثَنَا السَّاقِي يَطُوفُ بِكَاسِهِ يَذُرُ الدَّجَى فِي الْكَفِّ مَتَهُ كَوَكْسَبُ
يَكْرِبُهَا نَقْعُ الْفَلِيلِ وَمُعْجِبُ نَقْعُ الْفَلِيلِ بِجَعْدَةٍ تَتَلَهَّبُ سَبُ
يَتَفَضَّلُهَا مَاءُ الْغَمَامِ وَيَا لَكِهِ عَجَبًا غَدَاةُ الدَّجَنِ (١) وَهُوَ لَهَا أَبُ
حَمْرَاءُ حَارَيْنَا الصُّرُوفُ بِحَمْرِهَا فَرَجَا جُهَا بِدَمِ الْهُمُومِ مُخَضَّبُ (٢)

أما حياة الزهد والتصوف، فقد كثر الشعر الذي يمثلها، وشارك في وصف هذه الحياة الزهاد وغير الزهاد من الشعراء، ويبدو أن العامة كانت تجد فيه زادا لها، وغذاء لمشاعرها وعواطفها، لا سيما في ظل أجواء الحرب التي تشير في النفوس انفعالات عميقة، وغيرها من المؤثرات التي تنبه الإنسان إلى قضية الموت والحياة.

وقد وجدت طائفة من الشعراء الزهاد الذين كانوا يعتبرون عن صدق عواطفهم، وكان كثير منهم من الوعاظ ولذا صاغوا بعض مواظهم أشعاراً ينشدونها على سامع الناس، منهم الواعظ الزاهد ابن المنجم المعري (٣)، الذي أخذ يُنقِر الناس من الافراق في طلب الدنيا، ويحثهم على الزهد فيها، كما يبدو في قوله :-

أَفَ لِلدُّنْيَا وَأَفَ كُلُّ مَنْ فِيهَا يُلَاقُ
مِثْلُ خِيَاطٍ حَرِيصٍ كُلَّمَا شَلَّ يَكُفُّ (٤)

(١) الدَّجَن : الرِّبَاس الغيم الأرض وأقطار السماء والمطر الكثير : (المحيط) (دجن) .

(٢) ديوان ابن الساعاتي : ١٦٨ / ٢ .

(٣) هو الشيخ عبد الرحمن الواعظ المعري ، الملقب شمس الدين ، ويعرف بابن المنجم ، توفي في دمشق سنة ٥٦٠ هـ . انظر الخريدة ، قسم شعراء الشام : ٩٢ / ٢ .

(٤) الخريدة : ٩٢ / ٢ ، وشل الثوب : خاطه خياطة خفيفة ، والكف : هي الخياطة الثانية بعد الشل ، انظر المحيط (كف) .

ومن الشعراء الزهاد الوعاظ في بيت المقدس أبو الحسن علي بن الأنجب (١)، وكان يدعو الناس إلى التمسك بكتاب الله وسنة رسوله، ويذكّرهم بيوم الحساب، فممن ذلك قوله :-

أَيَا نَفْسٍ بِالْمَأْثُورِ عَنْ خَيْرٍ مُرْسَلٍ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّائِمِينَ تَمَسْكِي
عَسَاكَ إِذَا بَالَفْتَ فِي نَشْرِ دِينِهِ بِمَا طَابَ مِنْ نَشْرِ لَهُ أَنْ تَمَسْكِي
وَخَافَنِي غَدًا يَوْمَ الْحِسَابِ جَهَنَّمَا إِذَا لَفَحَتْ نِيرَانُهَا أَنْ تَمَسْكِي (٢)

ولم يكن القول في الزهد مقصوراً على الذين اتخذوه مذهباً وسلوكاً، وإنما كان القول فيه نزعة عامة، وتبدو هذه النزعة واضحة في شعر العلماء الأتقياء، وممن هؤلاء القاضي حبيب الدين الشهرزوري (٣)، فهو في الأبيات الآتية يصدر عن حسن إيماني، وزهد في متاع الحياة، وهو يخاطب فيها من ينقاد للدنيا :-

أَيُّهَا الْمَفْرُورُ بِالدُّنْيَا تَيَقَّنْ بِالزَّوَالِ
وَتَأْهَبْ لِمَسِيرِ عَنْ ذُرَاهَا وَانْتِقَالَ
كَيْفَ تَنْتَرُّ مِنَ الْآلِ بِالْوَعْدِ الْمُعَالَ
وَالَّذِي تُثَبِّتُهُ الْآلِ مَالٌ تَنْحُوهُ اللَّيَالِي
إِنَّمَا حَظُّكَ إِنْ فَكَّرَ كَرَّتْ فِيهَا فِي الْمَالِ
مِثْلَ حَظِّ الْعَاشِقِ الْمَهْجُورِ مِنْ طَيْفِ الْخَيَالِ (٤)

وهذا شرف الدين بن أبي عمرو يتعظ بالموت؛ فترتد نفسه عن التعلق بالدنيا :-

- (١) هو الحافظ أبو الحسن علي بن الأنجب اللخمي المقدسي الأصل الاسكندراني المولد والدار، مالكي المذهب، توفي سنة ٦١١ هـ، وفيات الأعيان: ٢/٢٩٠.
- (٢) وفيات الأعيان: ٣/٢٩١.
- (٣) هو محيي الدين أبو حامد، محمد بن محمد بن عبد الله الشهرزوري المتوفى سنة ٥٧٢ هـ، بدمشق. انظر الخريدة، قسم شعراء الشام: ٢/٣٣٢.
- (٤) الخريدة، قسم شعراء الشام: ٢/٣٣٢.

أُؤْمِلُ أَنْ أَحْيَا وَفِي كُلِّ سَاعَةٍ
تُرَبِّي الْمَوْتَى تَهْزُ نَعُوشُهُنَا
وَهَلْ أَنَا إِلَّا مِثْلَهُمْ غَيْرَ أَنَّ لِي
بَقَايَا لَيَالٍ فِي الزَّمَانِ أَعِيشُهَا (١)

وثقة شعراء آخرون كان زهدهم تصويراً للحالات النفسية التي ألمت بهم،
منهم أسامة بن منقذ الذي يقول بعد أن اعتزل الناس :-

أَيُّهَا الْغَافِلُ كَمْ هَذَا الْهَجُوعُ أَغْلَنَ الدَّاعِي فَهَلْ أَنْتَ سَيِّئُ
أَنْتَ عَمَّا هُوَ أَتِ فَافْرِسْ وَكَأَنَّ قَدْ فُاجَأَ الْخَطْبُ الْفَظِيئُ (٢)

وانتشر شعر التصوف في عهد صلاح الدين نتيجة اهتمام صلاح الدين نفسه
بالتصوفة ، وقد غلب على هذا الشعر موضوعات الوجد والشوق إلى الذات الإلهية ،
وقد أكثر الشعراء في هذا الشعر من الاتكاء على الرمز الغزلي ، واستمداد تعابير
الشعراء الغزليين العذريين ، ومن الشعراء المتصوفة في ذلك العهد أبو الفتوح
عبد السلام يوسف بن مقلد الدمشقي (٣) . أنشد صلاح الدين قصيدة صور فيها ما
يعتري قلوب الصوفية من انغمالات ، ولخص مذهبه في التصوف ، وهو تصوف سني متعلق
بالذات الإلهية أيما تعلق ، فلا يستطيع عنها انفكاكا ولا منها خلاصا ، يقول :-

يَا مَالِكًا مُهْجَتِي يَا مُنْتَهَى أَمَلِي يَا حَاضِرًا شَاهِدًا فِي الْقَلْبِ وَالْفَكْرِ
خَلَقْتَنِي مِنْ تُرَابٍ أَنْتَ خَالِقُهُ حَتَّى إِذَا صُرْتُ تِمْنَالًا مِنَ الصُّورِ
أَجَزَيْتَ فِي قَالِبِي رُوحًا مِنْسُورَةً تَرْفِيهِ كَجَرِي الْمَاءِ فِي الشَّجَرِ
جَمَعْتَ بَيْنَ صَدَا رُوحٍ مِنْسُورَةٍ وَهَيْكَلٍ صُفَّتَهُ مِنْ مَعْدَنٍ كَسَدِرِ
إِنْ غَبَّتْ فَيْكُ فَيَا فَخْرِي وَيَا شَرْفِي وَإِنْ خَضَرْتُ فَيَا سَمْعِي وَيَا بَصْرِي

(١) الخريدة ، قسم شعراء الشام : ٣٥٧/٢ .

(٢) ديوان أسامة بن منقذ / ٣٢٦ .

(٣) هو : أبو الفتوح عبد السلام بن يوسف بن مقلد الدمشقي الزملكاني ، من أهل
دمشق ، تلقاه ببغداد ، ثم عاد إلى دمشق ، كان صديق العماد ، جالس للوعظ ،
وحضر عنده صلاح الدين وأحسن إليه . انظر الخريدة ، قسم شعراء العراق :

٣١٥/١/٢ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٦٦٨/٢ .

أَوْ اخْتَجَبَتْ نُسْرِي مِنْكَ فِي وَلَسِهِ وَإِنْ خَطَرْتُ فِقْلِي مِنْكَ فِي خَطَرِ
تَبَدُّ وَفَتَحُوا رُسُومِي ثُمَّ تَثَبَّتْهَا وَإِنْ تَغَيَّيْتُ عَنِّي عَشْتُ بِالْأَثَرِ (١)

وسرني التصوف الفلسفي المشهور زري ، فقد أقام تصوفه على أساس إشراقسي ،
ومؤدى هذه الفلسفة : أن الله جلّت قدرته هو نور الأنوار ، ومصدر جميع الكائنات ، فمن
نوره خرجت أنوار أخرى هي عماد العالم المادي والروحي (٢) ، وقد ألح الشهير زري
على هذه الفكرة في أشعاره ، وصوّرفنا بهذا النور فناً قطعه عن حوله ، حتى أنه
لم يشعر إلا بربه الذي أنعم عليه بالوصال ، يقول :-

أَقُولُ لِجَارَتِي وَالذَّمْعُ جَارِ وَلِي عَزَمُ الرَّحِيلِ عَنِ الدَّيَارِ
ذَرْنِي أَنْ أُسِيرَ وَلَا تَنُوحِي فَإِنَّ الشَّهْبَ أَشْرَفُهَا السَّوَارِ
وَإِنِّي فِي الظَّلَامِ رَأَيْتُ ضَوْءًا كَأَنَّ اللَّيْلَ زَيْتَنَ بِالنَّهَارِ
وَيَأْتِينِي مِنَ الصَّنَعَةِ بِسُرْقٍ يُدَكِّرُنِي بِهَا قُرْبُ الْمَسَارِ
إِذَا أَبْصَرْتُ ذَاكَ النُّورَ أَفْنَسِي فَمَا أَذْري يَمِينِي مِنْ يَسَارِي (٣)

والأبيات تشير إلى فكرة الفناء الصوفيّة (٤) .

ومن قصائده المشهورة تلك القصيدة الحائية التي يرسم فيها هواجس نفسه :
من حبّ إلهي ، وشوق للذات الإلهية ، معتمداً على الرمز الغزلي :-

يَا صَاحِبَ لَيْسَ عَلَى الْمُحِبِّ مَلَامَةٌ إِنْ لَاحَ فِي أَثَقِ الْوَصَالِ صَبَاحُ
لَا ذَنْبَ لِلْعَشَاقِ إِنْ ظَلَبَ الْهَوَى كِتْمَانَهُمْ فَنَمَا الْغَرَامُ وَبَاحُوا
سَعَوْا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا بَخِلُوا بِهَا لَمَّا دَرَوْا أَنَّ السَّمَاحَ رَبَّاحُ

- (١) الخريدة ، قسم شعراء العراق : ٣ / ١ / ٣١٥ ، كتاب الروضتين : ج ١ / ٢ / ٦٦٨ .
- (٢) انظر الفلسفة الصوفية في الاسلام . عبد القادر محمود / ٤٤٥ .
- (٣) عيون الأنبياء / ٦٤٥ .
- (٤) فحوى هذه الفكرة أن يتلاشى الصوفي عن وجوده ، ويشعر أنه حال فناء متحقق بالوحدة مع الحق . انظر الفلسفة الصوفية / ٣٥٤ .

وَدَعَاهُمْ دَاعِيَ الْحَقَائِقِ دَعْوَةً فَعَدُوا بِهَا مُسْتَأْنِسِينَ وَرَاحُوا
رَكِبُوا عَلَى سَنَنِ الْوَفَا فَعَدُّوهُمْ بَحْرًا وَشِدَّةً شَوْقِهِمْ مَلَّاحُ

ويستخدم السهروردي الرمز الخمري كما استخدم الرمز الغزلي للدلالة على المحبة الإلهية ، فيدعو النديم والخمرة ليبل ظمأه بعد الحرمان ، إنها خمرة الهيمية لا تصل إياها أقدام ولا أياد ، يقول :-

قُمْ يَا نَدِيمُ إِلَى الْمَدَامِ فَمَهَاتِهَا فِي كَأْسِهَا قَدْ دَارَتِ الْأَقْسَادُ
مِنْ كَرَمِ إِكْرَامِ يَدَيَّ دِيَانَتُهُ لَا خَمْرَةَ قَدْ دَاسَهَا الْفَلَّاحُ (١)

* * *

وانتقد الشعراء في شعرهم القنطرة والولادة والمحتسبين والبغاة ، فهذا حسان التدمري ينادي إلى السلطان صلاح الدين سنة ٥٧٢ هـ ، في حماة ، وينشد قصيدة يبين فيها تدمره من والي تدمر الذي أساء إليه ، كما يبدو في قوله :-

أَفْنِي عَذَابَكَ الْمَسْطُوطَ وَالشَّرْعُ حَاكِمٌ بِمُلْكِي أَقْصَى عَنْهُ بِالْذِّفَعِ وَالزَّجْرِ
وَيُطْلَبُ مِنِّي فَوْقَ مَا أُسْتَطِيعُ عَلَى فَاكَةِ بَيْنِ ضَيْقَةِ الْيَدِ وَالْمُسْنَرِ (٢)

ويتهكم عرقلة الكلبي بأحد المحتسبين بسبب سوء معاملته للناس فيقول :-

وَحِشْبَةٌ نَالَهَا شَرِيفٌ بَلَا طَرِيفٍ وَلَا تَلِيفٍ
مَا إِنْ تَأَمَّلْتَهُ عَمُّوسًا إِلَّا تَرَضُّتُ عَنْ مَزِيدٍ (٣)

ويتوجه ابن جبير إلى البغاة الظالمين بأن يقصروا عن بفهمهم ، يقول :-

أَيُّهَا الْمُسْتَطِيلُ بِالْبَغْيِ أَقْصِرْ رُبَّمَا طَاطَأَ الزَّمَانُ الرُّؤُوسَا (٤)

(١) وفيات الأعيان : ٦ / ٢٧١ ، ٢٧٢ ، وانظر الحركة الشعرية في زمن الأيوبيين في حلب / ١٤٦ ، ١٤٧ .

(٢) الخريدة ، قسم شعراء الشام : ٢ / ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

(٣) ديوان عرقلة / ٣٧ .

(٤) رحلة العبدري / ٧١ ، نفاح الطيب : ٢ / ٤٩٢ ، مجلة آداب الرافدين : عدد ٤٧٥ / ٧ ،

ولعل من أبرز الشعراء في النقد الاجتماعي في بلاد الشام ابن عنين، فقد انتهز فرصة شك المسلمين في يوم عيد الأضحى، فوجه هذا النقد اللاذع لابن أبي عمرو قاضي دمشق، وكان أعشى، ولأهل دمشق عامة، يقول :-

لا غَرُّوا أَنْ ضَاعَتِ الْأَعْيَادُ بَيْنَكُمْ رَفَقًا كَأَنِّي بِكُمْ قَدْ ضَاعَتِ الْجُمُوعُ
فَلْيَعْجَبِ النَّاسُ مِنْ قَوْمٍ يَقُولُ هُمْ رَأَى الضَّلَالَةَ أَعْمَى وَهُوَ مُتَّبِعُ
قَدْ كَذَّبُوا مَا رَأَوْهُ وَهُوَ مُتَّبِعٌ وَصَدَّقُوا مَا رَأَوْهُ وَهُوَ مُتَّبِعٌ (١)

ويتخذ النقد لدى الشعراء مظهر الشكوى من الناس بصورة عامة، فهذا الحافظ أبو محمد الدمشقي (٢) يصف أخلاق الناس بقوله :-

قَلَّ الْحَفَاطُ فَذُو الْعَاهَاتِ مُحْتَرَمٌ وَالشَّهْمُ ذُو الرَّأْيِ يُؤْذَى مَعَ سَلَامَتِهِ
كَالْقَوْسِ يُحْفَظُ عِنداً وَهُوَ ذُو عِوَجٍ وَيُنْبَذُ السَّهْمُ قِصْداً لَا اسْتِقَامَتِهِ (٣)
ويبدو أن الشاعر كان يصدر عن تجربة ذاتية ونزعة تشاؤمية حرت في نفسه .

وشكا ابن جبير الناس، إلا أنه كان يصدر في نقده لهم عن قناعة دينية، ويبين من خلال هذه الشكوى دعوة للإصلاح الاجتماعي، يقول :-

قَدْ أَحْدَثَ النَّاسُ أُمُوراً فَكَلَّا تَعْمَلُ بِهَا رَأْيِي أَسْرُوءَ نَاصِحُ
فَمَا جَمَاعُ الْخَيْرِ إِلَّا السُّذِّي كَانَ عَلَيْهِ الْمَلَفُ الصَّالِحُ (٤)

ويتوجه ابن جبير إلى نقد الفرق، كدعوة الفلاسفة، بدافع الفخيرة على الدين، فقد رأى فيها فساد الدين والدنيا :-

- (١) ديوان ابن عنين / ١٩٣ .
- (٢) هو الحافظ أبو محمد عبد الخالق بن أسد بن ثابت الدمشقي، مدرس بالصادرية، توفي سنة ٥٦٤ هـ، الخريدة، قسم شعراء الشام : ٢٨٢/١ .
- (٣) الخريدة، قسم شعراء الشام : ٢٨٢/١ .
- (٤) نفح الطيب : ٤٩٢/٢، مجلة آداب الرافدين : عدد ٤٧٤/٢، ٤٩٠ .

قَدْ ظَهَرَتْ فِي عَصْرِنَا فِرْقَانِ
ظُهُورُهَا شَوْءٌ عَلَى الْعَصْرِ (١)

وقال يهجو الفلاسفة :-

يَا وَحْشَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ فِرْقَانِ
شَاغَلَتْ أَنْفُسَهَا بِالسُّفْهِانِ
قَدْ نَبَذَتْ دِينَ الْهُدَى خَلْفَهَا
وَأَدْعَتْ الْحِكْمَةَ وَالْفَلْسَفَةَ (٢)

واتخذ النقد سمة الهجاء ، فكان الشعراء يذمون بعضهم بعضا ، كما كانوا يهجون الأفراد العاديين والكبار ، ومن أشهر الهجائيين من الشعراء آنذاك ابن بسن عنين الذي كان مولها بالهجاء وطلب أعراض الناس ، وله قصيدة طويلة ، فجا فيها خلقا كثيرا من رؤساء دمشق وأعيانها ، سماها مقراض الأعراض ، وقد طرده صلاح الدين من دمشق لخبث لسانه .

ومن هجاء الشعراء قول ابن قلاقس يهجو ابن النُّزَوي الشاعر :-

كُنْ آمِنًا فَالْدُّهُرُ قَدْ شَقَعَتْ
أَحْدَاثُهُ فَبِكَ مَدَى الدَّهْرِ
هَمَّاهُ أَنْ أَبْلُغَ بِالشَّعْرِ مَا
قَدْ بَلَغَتْ مِنْكَ يَدُ الشُّعْرِ (٣)

* * *

وكثر في هذا العهد شعر الاخوانيات ، الذي كان وسيلة من وسائل الاتصال بين الشعراء ، وذوهم ومعارفهم وأصدقائهم ، وقد نقلت هذه الأشعار الاخوانية بعضا من العلاقات الاجتماعية والروابط الأسرية ، فأظهرت الشوق والحنين للأقرباء ، والتهنئة بالشفاء من مرض ، والعتاب والشكوى من الفقر أحيانا وغير ذلك . وكان الشعراء يعبرون في هذه الاخوانيات عن صدق عواطفهم ومشاعرهم . واشتهر أسامة بن منقذ بهذا النوع

(١) نفح الطيب : ٢ / ٣٨٥ ، مجلة آداب الرافدين : ٧ / ٥٠٠ .

(٢) نفح الطيب : ٢ / ٣٨٥ ، مجلة آداب الرافدين : ٧ / ٥٠٨ .

(٣) ديوان ابن قلاقس / ٤٥٠ .

من الشعر ، ديوان ملي* منه ، فقد أرسل إلى ولده مرهف أبياتا ، بين فيها شوقه إليه ، وحزنه لابتعاد عنه ، ويهبط بين حاله وحال يعقوب لما فارق يوسف عليه السلام ، على سبيل التماسي ، والتجمل بالصبر ، ويشكو الأيام لما آل إليه حاله ، يقول :-

مُواصلتي كُتبي إليك تزيّد نيسي	إليك اشتياقاً ملّ عليك تأسفنا
ولي أسوة في الناس لو نفع الأسى	فمن قبلنا بعة وب فارق يوسفنا
ولكن نفسي قد تملكها الأسى	وقلبي إذا سكنته بالأسى هفنا
وما أحسب الأيام تقنع بالنسوى	ولا أن صرف الدهر بالفرقة اشتكى (١)

وبعث تورانشاه ، وهو باليمن ، إلى أخيه صلاح الدين ، وكان بمصر ، كتاباً ضمنه أبياتا شعرية منها :-

الشوق أولع بالقلوب وأوجع	فعلام أدفع منه ما لا يذفع
حملت من وجد الأعبة مغرداً	ما ليس تحياه الأعبة أجمع
فإلى صلاح الدين أشكو انيسي	من بعده مضمّن الجوانح موجه (٢)

قال العماد : " فسألني السلطان أن أكتب له في جوابها على رؤسها ووزنها ، فقلت :-

مولاي شمس الدولة الملك الذي	شمس السيادة من سناه قطلم
ما لي سواك من الحوادث ملجأ	ما لي سواك من النواكب مفر (٣)

وكثيراً ما كان صلاح الدين يسأل العماد أن يعمل له أبياتا يرسل بها إلى أخيه تورانشاه ، أو إلى أصدقائه بمصر .

-
- (١) ديوان أسامة / ١٧٤ ، ١٧٥ .
- (٢) سنا البرق : ١ / ١٠٧ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٦٧٠ ، مغز الكروب : ٢ / ٤٨ ، ٤٩ ، والأبيات من شعر ابن المنجم .
- (٣) ديوان العماد / ٢٩٠ ، سنا البرق : ١ / ١٠٧ ، كتاب الروضتين : ج ١ ، ق ٢ / ٦٧٠ ، ٦٧١ ، مغز الكروب : ٢ / ٤٩ .

ومن الشعراء الذين عُتُوا بالمراسلات الاخوانية الملك الأمجد ، فقد كسان
يرد على رسائل أستاذ أبي اليمن تاج الدين الكندي المقرئ النحوي بين الحرمين والآخرة
كتب تاج الدين من دمشق إليه مرة هذه الأبيات :-

لَا تَضْجِرْ نَكْمُ كُتُبِي وَإِنْ كَثُرَتْ فَإِنَّ شَوْقِي أَضْعَافُ الَّذِي فِيهَا
وَاللَّهِ لَوْ مَلَكَتْ كُتُبِي مَسَالِمَةً مِنَ اللَّيَالِي الَّتِي حَظِّي بِحَاكِمِهَا
لَمَا تَصَرَّمْ لِي مِنْ غَيْرِ دَارِكُمْ عَمَرُوا لَيْتَ الْآفِي نَوَاحِيهَا (١)

فأجابه الملك الأمجد :-

إِنَّا لَتَتَحَفَّنَا بِالْأَنْسِ كُتُبُكُمْ وَإِنْ بَعْدَتْ فَإِنَّ الشَّوْقَ يُدْنِيهَا
وَكَيْفَ نَضْجِرُ مِنْهَا وَهِيَ مُذْهِبَةٌ مِنْ وَحْشَةِ الْبَيْنِ لَوَاعِتِ نَعَانِيهَا
فَإِنْ وَصَفْتُمْ لَنَا فِيهَا اشْتِيَاقَكُمْ فَعِنْدَنَا مِنْكُمْ أَضْعَافُ مَا فِيهَا
سَلُّوا نَسِيمَ الْمَبَا يَهْدِي تَحِيَّتَنَا إِلَيْكُمْ فَمَوْ يَذْري كَيْفَ يَهْدِيهَا (٢)

وكتب العماد الأصمهاني إلى صديقه الشاعر علم الدين الشاتاني معاتباً لا نقطاعه
عن مجلسه :-

لَا أَوْحِشُ إِلَهُ مِنْكَ يَا عِلْمَ السَّيِّ بَيْنَ نَدْرِي الْكِرَامِ وَالْفُضُولِ
كُنْتُ أَخَا إِذَا جَفَا الزَّمَانُ وَفَسَى أَوْ قَطَعَ الْوَدُّ أَهْلَهُ وَصُولِ
فَمَا الَّذِي كَدَّرَ الْمَوَاءَ مِنْ أَلِ سَوْدٍ وَلَمْ يَزِدْ وَرْدَهُ الْفُلُوحِ
عَذِيبٌ بِمَا شَفَّتْ مِنْ مَعَاتِبِكِ أَمَا بِهَذَا الْهَجَرِ الْمُعِيشِ فَلَا (٣)

قال العماد فكتب إليّ مُعْتَبِراً :-

قُلْ لِبِعْمَادِ الدِّينِ الَّذِي رَقَمْتَ أَقْلَامُهُ فِي طُرُوسِهِ الْحُلُوحِ
تَزِيدُ أَبْصَارَنَا إِذَا نَشِيرَتْ نُوراً فَتَجَلُّو بِحُسْنِهَا الْمُقْسَلِ

(١) فوات الوفيات : ٢٢٧/١ ، أبو اليمن ، تاج الدين ، حياته وما تبقى من شعره / ٨٠ .

(٢) ديوان الملك الأمجد / ٤٠٦ .

(٣) ديوان العماد / ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، الخريدة ، قسم شعراء الشام : ٢ / ٣٧٩ ، ٣٨٠ .

مَنْ لِي بِخَيْلٍ تَدُومُ خُلَّتْهُ
وَلَا أَرَى فِي خِلَالِهِ خَلًّا
تَرَى مِثْلَهَا عَيْنِي كَيْ طَمَسَا
وَمَا أُرْوِي بِوَرْدِهَا الْفُلْسَا (١)

* * *

وما يسترعي انتباه القاري للشعر في ذلك العهد، أن عددا من الشعراء اهتموا
بغن الموشحات (٢)، وكان على رأسهم ابن سناء الملك الذي ألف كتابا في ألوان
الموشحات، دعا "دار الطراز" أتى منه بأثلة كثيرة من موشحات الأندلسيين، وقد
حاول ابن سناء الملك وضع "قواعد هذا الفن الشعري، وتبيان خصائصه، وطرق نظم
وأوزانه" (٣)، ووضع ابن سناء الملك في كتابه هذا موشحات من تأليفه، منها: الموشح
التام، والموشح الأقصر (٤)، ويذكر ابن سناء الملك أن الموشحات "يعمل فيها ما يعمل
من أنواع الشعر، من الغزل، والمديح، والرثاء، والهجاء، والمجون، والزهد" (٥).

ونظم عدد من الشعراء الدوبيات، منهم العباد الأصفهاني، فقد نظم مقطوعة
رباعية في رثاء صلاح الدين، فقبال :-

قَالَ الْمَلِكُ النَّاصِرُ: مَنْ كَلَفَنِي
فِي الْجُودِ بِفَيْرِ شَيْئِي نَسَا أَنْصَفَنِي
مَا يَدْرِي أَنَّ ذَلِكَ الْمَلِكُ فَنِي
لَمْ يَبْقَ مِنَ الْجُودِ إِلَّا كَنَفَنِي (٦)

ويذكر ابن خلكان أن للعباد الأصفهاني ديوانا صغيرا جميعه دوبيات (٧)
كما ذكر أنه رأى ديوانا في الدوبيات لفتيان الشاغوري في دمشق (٨)، وأثبت

-
- (١) الخريدة، قسم شعراء الشام، ٢٨٢/٢، ٢٨٣.
(٢) انظر الأدب في العصر الأيوبي / ٢٧٧، ٢٧٨، والحياة الأدبية في عصر الحروب
الصلبية بمصر والشام / ١١٤، ١١٥.
(٣) دار الطراز، مقدمة ابن سناء الملك / ٣٢، ٥٣، ومقدمة المحقق: ١٢، ١٥.
(٤) دار الطراز / ١١٩، ١٢٠.
(٥) نفسه / ٥١.
(٦) كتاب الروضتين: ٢/ ٢١٤، والرباعية غير موجودة في ديوان العباد، وانظر أيضا
رباعية أخرى في كتاب الروضتين، نظمها العباد يتشوق أوان المشمش: ٢/ ٢١١.
(٧) ونهايات الأعيان: ٥/ ١٥٠.
(٨) نفسه: ٤/ ٢٦.

منه قول فتيسان :-

وَالسَّحَرُ بِقُلَّتِكَ وَأَفِي وَأَفِي
وَالْعَاشِقُ فِي هَوَاكَ سَاهٍ سَاهٍ
يَرْجُو وَيَخَافُ فَهُوَ شَاكٍ شَاكٍ (١)

وللمعرفة دويت ، أثبت في ديوانه منه قوله :-

يَا بَدْرُ دَجْءٍ يَحْمِلُهُ غُصْنُ أَرَاكَ مَا أَعْجَبَ مَا يَحِلُّ بِي حِينَ أَرَاكَ
لَا تَقْتُلْ بِالصُّدُورِ صَبًّا يَهْـوَاكَ مَا لِلْأَعْرَابِ طَاقَةٌ بِالْأَتْسَارِ (٢)

ويلاحظ أن الدويتات قد استوعبت غير ما موضوع ، فلم تقتصر على موضوع واحد فمهما .

يتبين ما سبق أن الحركة الشعرية في عهد صلاح الدين كانت نشطة ، فقد ظهرت المجالس الشعرية ، وتنوعت موضوعات الشعر حتى غدت صدى لحياة الناس فشي شتى الميادين ، ومرتآ تعكس واقعهم الذي يعيشون .

وكان لصلاح الدين دور فعال في نماء الشعر ، لا سيما الشعر العربي ، فقد قرب الشعراء إليه وشجعهم ؛ فالتف حول عدد كبير منهم ، فأحبهم وأحبوه ، حتى أنهم ساهموا معه في إدارة شؤون دولته .

وهذا كله يعني أن الشعر العربي في تلك الفترة استمر في النمو والتقدم ، وأن جذوته لم تخفت أو تنطفئ ، كما يتصور بعض دارسي الأدب العربي في فترة الحروب الصليبية بشكل عام ، إن وصفوا هذه الفترة بالانحطاط والجمود ، والتأخر الفكري والأدبي ، وقد قامت دراسات أدبية شتى لتلك الفترة ، أكاديمية وغير أكاديمية ، تثبت عكس ما يذهب إليه هؤلاء .

* * *

(١) وفيات الأعيان : ٢٦/٤ .

(٢) ديوان عرقلة / ١٠٩ - ١١٢ .

الفصل الأول

" سيرة صلاح الدين الايوبي مستقاة من الشعر في ضوء التاريخ "

× حياته ونشأته .

× صفاته .

حیات و نشأت

ينتسب صلاح الدين يوسف بن أيوب بن " شاذي " (١) إلى الأكراد الروادقية ،

(١) اختلف المؤرخون في نسب صلاح الدين الأيوبي ، فعنهم من يردّه إلى بني أميّة ، فيقول : " يوسف بن أيوب بن " شاذي " بن مروان " ، ويزيد بعضهم " يعقوب " . انظر مرآة الزمان ، ق ١ ، ج ٨ / ٤٢٥ ، سير أعلام النبلاء : ٢١ / ٢٧٨ ، عبر الأذهبي : ٤ / ٢٧٠ ، طبقات الشافعية : ٧ / ٣٣٩ ، الدارس : ٢ / ١٧٨ ، شذرات الذهب : ٤ / ٢٩٨ ، ترويح القلوب : ٣٧ .

ومنهم من يذكر النسب السابق إلا أنه لا يرجّحه، وإنما يرجح أن يكون أصل صلاح الدين من الأكراد الروادية، يقول القريني في السلوك بعد أن رد أصله إلى عيلان بن مضر بن نزار بن عدنان: "...والحق أنه من الأكراد الروادية...". السلوك ق ١ ج ١/٤١، وانظر المواعظ والاعتبار: ٢/٢٢٣. وقال ابن تغري بردي: "...وقيل هو من الأكراد الروادية، وهو الأصح". النجوم الزاهرة: ٦/٣.

وذكر ابن واصل الاختلاف في نسب الأيوبيين، ثم قال: "وأُنكر جماعة من ملوك بني أيوب النسبة إلى الأكراد، وقال: "إنما نحن عرب، نزلنا عند الأكراد وتزوجنا منهم...". مفرج الكروب: ٣/١.

وسيرة على قول ابن واصل في نهاية الحديث عن نسب صلاح الدين .

ويذهب جمهور المؤرخين إلى الوقوف بنفسية عند جذم "شاذي" الكردي، انظر:
 الباهر/ ١١٩، الكامل: ٣٤١/١١، النوار السطانية/ ٦، الروضتين: ق ١ ج ١/ ٣٢٩،
 ٢٣٤، وفيات الأعيان: ١٣٩/٧، دول الاسلام: ٧٥/٢، عيون التواريخ: ٣٣٤/١٢،
 البداية والنهاية: ١٢/ ٢٩٠، أعلام النبلاء: ١٨٨/٢.

يقول ابن خلكان: "لقد تنهت نسبهم (يعني الأيوبيين)، فقام أجود أحسدا
ذكر بعد "شاذي" أبا آخر، حتى أتى وقت على كتب كثيرة بأوقاف وأملاك باسم
شريكه وأيوب، فقام أرفيها سوى شريكه بن "شاذي" وأيوب لا غير". وفيات الأعيان
١٤٠ / ٧

ويروى أبو شامة أن الذي رأى الانتساب إلى بني أمية هو أحد كبراء بني أيوب.
يقول أبو شامة في معرض الحديث عن وفاة نجم الدين أيوب والد صلاح الدين: "وابن

الذين كانوا يقيمون في بلدة دُورين (١)، وهم فخذ من الهدبارية، وهم أشرف الأكراد (٢).

== سيف الاسلام هو: أبو الفداء اسماعيل بن طننكين بن أيوب بن "شادي"، ابن أخي السلطان صلاح الدين، ملك اليمن بعد أبيه، وتعاظم إلى أن ولّى نفسه الخلافة، وأدعى أنه من بني أمية، وعزم على إعادة الخلافة من بني هاشم إلى بني أمية؛ وله في ذلك أشعار كثيرة، وتلقب بالامام الهادي بنور الله المعز لدين الله أمير المؤمنين، ومدحه كثير من الشعراء بذلك، وزيّنوا له فعلاه وما هو فيه، فمن شعره:

وأنّي أنا الهادي الخليفة والذي
ولا يد من بغداد أطوي ريوغها
وأُنصّب أعلامي على شرفاتها
وخطب لي فيها على كلّ منبر

أدوس رقاب الغناب بالضر والجُرد
وأُنشُرُها نُشُرُ السّماير المُنشُر
وأُجِبي بها ما كان أسسه جُدي
وأُظهر دين الله في الغور والنّجْد

الروستين: ج ١ / ٢٢٥ / ٥٣٥، مفرج الكروب: (١/٤)، البداية والنهاية: ٢١٢ / ٢٩١، السلوك: ج ٢ / ٤٢ / ١، وانظر كتاب سبط النجوم الموالي ٨ / ٤، وكتاب "اليوميون في اليمن".

والأرجح ما ذهب إليه الجمهور، ويردّ على قول ابن واصل بما رواه ابن خلكان عن شيخه ابن شداد، فقد ذكر أنه سمع شيخه يحكي عن السلطان صلاح الدين أنه عندما سمع النسب العربي أنكره، وقال: "إيها لهذا أصل أضلّ" وفيات الأعيان ٧ / ١٤١.

والنسبة إلى غير جدّه "شادي" نسبة طارئة، كانت بعد قيام دولة الأيوبيين. انظر صلاح الدين الأيوبي: عبد الله علوان / ١٧، صلاح الدين الأيوبي: قدرى قلنجي / ١٥٢، صلاح الدين الأيوبي الناصر لدين الله: أحمد الدومي / ٢٨، سياسبة صلاح الدين الأيوبي: دريد عبد القادر / ٦٤، تاريخ العصر الأيوبي: / ٨٣، دائرة المعارف الإسلامية: مجلد ٤ / ٢٢١، ومجلة لواء الإسلام: المجاد الحادي عشر، السنة الحادية عشرة، العدد الحادي عشر سنة ثمان وخمسين وتسعمائة.

(١) دُورين: بلدة في آخر حدود أذربيجان التي عاصمتها باكوا اليوم، الواقعة على ساحل بحر قزوين، من الجهة الشمالية لآران (إيران)، انظر معجم البلدان: ١ / ١٣٦، وانظر الأعلام التاريخي: ٢١٦ / ٢، والأطلس الأردني: ٢٧.

(٢) انظر الكامل: ١١ / ٣٤١، الباهر: ١١٩ / ١١٩، الروستين: ج ١ / ٢٢٩، وفيات الأعيان: ٧ / ١٣٩، البداية والنهاية: ٢ / ٢٧٩، المواعظ والاعتبار: ٢ / ٢٣٣، النجوم الزاهرة: ٦ / ٣، الدارس: ٧ / ٣٤٠، الأنس الجليل: ١ / ٣٩٤، شذرات الذهب: ٤ / ٢٨٩.

ويشير الشعراء إلى شرف هذا النسب وطيبه وعلوه ، فهذا ابن سناء الملك يخاطب صلاح الدين ، ويذكر أصله وأصل أخيه ، شريكه في النسب ، سيف الدين الملك المصادق ، يقول :-

- وَقَرَّتْ بِسَيْفِ الدِّينِ عَيْنُكَ إِنَّهُ حَسَامٌ بِهِ تُزْرِي الْحُسَامَ الْمُصَصَّمَا (١)
 شَيْبُهُكَ عَدْلًا أَوْ شَرِيكَكَ نَسَبَةً فِيهَا طَيْبٌ أَصْلٌ فِيكُمَا قَدْ تَقَسَّمَا (٢)
 ويصور ابن الدهان الموصلي (٣) عظم هذا النسب ، وطيب أصله قائلا :
 مِنْ دَوْحَةٍ شَانِيَّةٍ أُرْجَتْ لَهَا الذُّ نُنْيَا لَطِيبٌ شَدَى لَهَا مَتَضُّوعٌ (٤)
 ومنو " شاذي " عند فتيان الشاغوري (٥) أفضل قوم ، وهم ذوو مكانة رفيعة وعظيمة :-
 غَدَوْتُمْ بَنِي " شَاذِي " أَجَلَ مَعَاشِرٍ مَدَائِحُنَا فِيهِمْ زَالِيهِمْ وَسَائِرُ
 فَمَا أَنْفَكُ شَمْلَ الْمَجْدِ مُتَتَمِّمًا بِكُمْ فَمَوْطِنُكُمْ فِيهِ الذُّرَا وَالْكَوَاهِرُ (٦)

- (١) المصمم : السيف المصمام الصارم الذي لا ينثني . انظر لسان العرب (صمم) .
 (٢) ديوان ابن سناء الملك : ٢٧٣ / ٢ .
 (٣) ابن الدهان الموصلي ، أبو الفرج عبد الله بن أسعد بن علي بن عيسى ، المعروف بابن الدهان ، المتعوت بالمهذب ، ويعرف بالحمص ، فقيه شافعي ، غلب عليه الشعر ، من أهل الموصل ، ضاقت به الحال فقصده مصر ، ومدح ابن رزيق ، ثم اتصل بنور الدين ومن بعده بصلاح الدين ، تولى التدريس بمدينة حمص ، وأقام بها ، ولهذا ينسب إليها ، توفي سنة ٥٨١ هـ . انظر تهذيب ابن عساكر : ٢٩٥ / ٧ ، الخريدة ، شعراء الشام : ٢٧٩ / ٢ ، كتاب الروضتين : ج ١ ، ق ١ / ٣٢٠ ، المعجم : ٢٤٣ / ٤ .
 (٤) ديوان ابن الدهان : ٣١ / ٥ .
 (٥) هو : أبو محمد بن علي جمال الدين الأسدي النحوي ، وقد أضيف إلى الاسم لقب الشاغوري المعلم ، نسبة إلى حي الشاغور في دمشق ، ولد بعد سنة ثلاثين وخمسمائة في بانياس ، قضى حياته الأولى بدمشق معلما في الزيداني ، ثم صاحب حلة تدريس في جامع دمشق الكبير ، وكان مقرئا للنحو ، توفي سنة ٦١٠ هـ . انظر الخريدة ، شعراء الشام : ٢٤٧ / ١ ، معجم البلدان : ٣١٠ / ٣ ، وفيات الأعيان : ٢٤ / ٤ ، الشذرات : ٦٣ / ٥ ، معجم المؤلفين : ٥٤ / ٨ .
 (٦) ديوانه : ٣٢١ / ٥ .

وتجدر الإشارة إلى أن الشعراء الذين مدحوا صلاح الدين في نسبه وأصله ، وقفوا عند جده " شاذي " كما هو ظاهر فيما سبق من الأبيات ، مما يدل على أنه لم يعرف بهذا هذا الجد أب آخر .

ويظهر الشعراء شرف هذا النسب ، وعلوه ، وكرمه من خلال مدحهم لبني أيوب عامة ، فهم يحتلون المراتب العليا ، ولا يحتل هذه المراتب إلا من يتصف بصفات مميزة من مثل : القيادة والكرم ، والرصانة ، والفصاحة ، وسداد الرأي ، يقول العماد الأصفهاني :-

فَخَرُّا بَنِي أَيُّوبَ إِنْ مَحَلَّكُمْ ضَاقَتْ عَلَى كُلِّ الْمَلُوكِ فِصَاحُكُمْ
أَنْتُمْ مَلُوكُ زَمَانِنَا وَسِرَاتُكُمْ وَكِرَامُهُ وَعِظَامُهُ ، وَفِصَاحُكُمْ
عِظَامُوهُ ، كِبَرُوهُ ، فَضْلُوهُ وَرِزَانُهُ ، وَرِصَانُهُ ، وَصِبَاحُكُمْ
أَنْتُمْ رِجَالُ الدَّهْرِ بَلْ فِرْسَانُهُ وَلِذِي الْحُلُومِ الطَّائِشَاتِ رِجَاحُكُمْ (١)

وسنو أيوب يطاولون العالمين في الأصل والفرع ، بما لديهم من مجد ، سواء أكان هذا المجد موروثاً أم مكتسباً ، كما يقول ابن الساعاتي :-

أَنَا أَنْتُمْ لَنَا يَا بَنِي أَيُّوبَ رُكْنٌ نَوْمُهُ بِالطَّنْوَافِ
طَلَّمْتُ الْعَالَمِينَ أَصْلًا وَفَرْعًا بِقَدِيمٍ مِنْ مَجْدِكُمْ أَوْ مُضْطَافِ (٢)

والى جانب كل ما يمتاز به بنو أيوب من سمو في النسب ، وعلو في المجد ، فهم يجمعون مع هذا العار والشجاعة والمبر ، وصلة الرحم والكرم ، كما يقول القاضي الفاضل :-

قَالُوا : رَأَيْنَا الْأُسُودَ الصَّبْرَ عَادَتْهُمْ فَقُلْتُ : أَبْنَاءُ أَيُّوبَ وَلَا عَجَبُ
الْشَارِبُونَ كَوُوسَ الْمَوْتِ مُتْرَعَةً وَلِلْأَسْنَةِ فِي حَافَاتِهَا حَبِيبُ (٣)

(١) ديوان العماد / ١١٣ .

(٢) ديوان ابن الساعاتي : ١٨٦ / ٢ .

(٣) الحبيب : فقايع الماء ونفحاته التي تطفو ، ويقال حبيب الماء وحبابه ، لسان العرب

(حبيب) .

ويقول من القصيدة نفسها :-

القومُ همَ وأصلو الأرحامِ دهرهمُ
ومِنَ أمواليهمُ والمُعْتَفَى نَسَبُ (١)

* * *

ولم ينس الشعراء ذكر نجم الدين أيوب، أبي صلاح الدين، فهو يتمتع بصفات جائلة،

فهو سيد الرأي، مدبر، ماضي المعزم، يقول العماد الأصفهاني :-

مُوفِّقُ الرَّأْيِ ماضِي المَعَزْمِ مُرْتَفِعُ
على الأعاجِمِ مَجْدًا والأعاريِبِ (٢)

ويقول محمد بن هبة الله بن مكي (٣) في مدح صلاح الدين :-

ابن الأجلِّ السَّيِّدِ الكَبِيرِ
أيوبَ نَجْمِ الدِّينِ ذِي التَّدْبِيرِ (٤)

وثمة شعر كثير في ذكر نجم الدين أيوب، والاشادة بصفاته التي بلا شك كانت ذات

أثر كبير في تكوين شخصية ابنه صلاح الدين (٥).

* * *

أما فيما يتعلق بألقابه، فقد اشتهر بأكثر من لقب منها: "صلاح الدين"، و"بيدو

أن هذا اللقب كان ملازماً له منذ ولادته. وقد اشتهر بلقب آخر يكاد يوازي اللقب الأول في

الشهرة، وهو: "الملك الناصر"، وقد تردّد هذا اللقب كثيراً في الشعر، فمن ذلك على

سبيل المثال قول أسامة بن منقبط :-

(١) ديوان القاضي الفاضل : ١٦٢/١.

(٢) انظر: ديوان العماد / ٨٣، الروضتين: ج ١، ق ٢٦٩/٢، معجم الأدباء: ١٣/١٩.

(٣) هو: محمد بن هبة الله بن مكي، تاج الدين الحموي، كان فقيهاً، نحويّاً متكلماً، أشعري

المقيدة، إماماً من أئمة المسلمين، وإليه يرجع أهل الديار المصرية في فتاويهم، واه نظم

كثير، منه أرجوزة سماها: حقائق الفصول وجواهر الأصول، صنفها السلطان صلاح الدين

كان مدرسا بالمدرسة الصلاحية، وخطيباً بالقاهرة، وكان كثير الاشتغال بالعلم، واهم

التحصيل له. انظر: طبقات الشافعية: ٢٣/٧.

(٤) طبقات الشافعية: ٢٣/٧.

(٥) انظر النكت المصرية: ٢٦، ٢٦١، ديوان العماد / ٨٣، الروضتين: ج ١، ق ٢٦٠-٥٤٢.

مخرج الكروب: ١/٢٣١-٢٣٢، خطط المقرئ: ٤٦٩/١.

دِيَارُ الْهَوَى حَيًّا مَعَالِيكَ الْقَطْرُ
وَجَارُكَ جُودُ النَّاصِرِ الْفَدَقِ الْهَمْرُ
بِهِ رَجَعْتُ فِي عُتُقَانِ شَبَابِهِنَا
وَنُضْرَتِهَا مِنْ بَعْدِ مَا هَرِمْتُ مِصْرُ (١)

والحديث عن اقبه هذا مرتبط بالحديث عن مصر ، وهو في الوقت نفسه يلقى لنا الضوء على جانب مهم من حياة صلاح الدين ، إذ أنّ العاضد ، آخر خافاء الغاظميين في مصر ، قد استوزره بعد وفاة عمه أسد الدين شيركوه ، وخاع عليه خالعة الوزارة ، ولقبه بالملك الناصر ، وكان ذلك سنة أربع وستين وخمسة (٢) ، وبعد ذلك طفق الشعراء يردّدون هذا اللقب في أشعارهم مهنتين ، وما دحين ، واستمرّ هذا اللقب ملازماً له حتى وفاته (٣) .

وثمة ألقاب أخرى لصلاح الدين وردت في الشعر منها : صلاح الدين والدنيا ، يوسف الحسن والاحسان ، مولى الورى ، صلاح دين الله (٤) .

أما كنيته فهي " أبو المظفر " ، وقد وردت عند معظم الشعراء الذين مدحوه ، وفي أغلب المصادر التاريخية التي كتبت عنه ، يقول العماد الاصفهاني :-
مَا أَسْعَدَ الْإِسْلَامَ وَهُوَ مُظَفَّرٌ وَأَبُو الْمُظَفَّرِ يُوسُفُ سُلْطَانُهُ (٥)

* * *

- (١) الروضتين : ج ١ ق ٤٤٨ / ٢ ، البيتان غير موجودين في ديوان أسامة . وانظر ديوان العماد / ١٩٧ .
- (٢) انظر الكامل : ٣٤٣ / ١١ ، الروضتين : ج ١ ق ٤٠٧ / ٢ ، مغزج الكروب : ١ / ١٦٩ ، طبقات الشافعية : ٣٤١ / ٧ ، الكواكب الدريسة / ١٧٩ .
- (٣) انظر قصيدة العماد في رثاء صلاح الدين الأيوبي في الديوان / ٨٧ . وحول هذا اللقب انظر : بدائع الزهور : ج ١ ق ٢٤٩ / ١ ، ٢٥٠ .
- (٤) انظر ديوان عرقلة الكاكي / ٨٣ ، ديوان العماد / ٣٧٨ ، الخريدة ، شعراء مصر : ٢ / ١٢٢ ، الروضتين ج ١ ق ٦٣١ / ٢ ، مغزج الكروب : ٢ / ٢٢٣ ، ٢٢٨ .
- (٥) ديوان العماد / ٤٣٦ ، الروضتين : ج ١ ق ٦٥٣ / ٢ .

اتَّفَقَ أرباب التواريخ على أنَّ صلاح الدين مولده في تَكْرِيت سنة اثنتين وثلاثين
وخمسائة للهجرة ، حيث كان نجم الدين والده دُرْدَارَهَا (١) وكان صاحب عقل مدبِّر ،
وزَّاعٍ حسن ، وحسن سيرة . وزادت بعض المصادر أنَّ ولادة صلاح الدين كانت في الليلة
التي غادر والده قلعتهَا (٢) .

أما ثقافة صلاح الدين فقد تعددت روافدها ، ولا شك أنه قد استقى أول رافد منها
في المرحلة الأولى من نشأته ، حين كان يتربَّى في حجر والده ، وحين كان في ظل دولته
نور الدين زنكي ، حيث تفاعل الحياة الثقافية والفكرية والسياسية ، فقد كان نور الدين مهتماً
اهتماماً بالعلم بنشر العلوم المختلفة في دولته ، فاستقطب العلماء والأدباء من المشرق
والمغرب ، وتصدَّعهم بالرعاية والتشجيع ، كما بنى لهم دور العلم المختلفة ، فلا غرو إن نهَّل
منها صلاح الدين ما يحتاج إليه من العلوم ، ولا غرو إن تأثر بالحياة تلك آنذاك . ولكن
المصادر لم تذكر لنا عن ثقافة صلاح الدين شيئاً في تلك الفترة .

ونشطت الحركة الثقافية والفكرية في عصر صلاح الدين نشاطاً كبيراً ، على الرغم من الصراع
المستمر التي خاضته الدولة مع الصليبيين ، حتى كان هذا العصر كما وصفه الدكتور محمد زغللول
سلام ، . . . عصر أحياء للفكر والثقافة الإسلامية العربية ، كما كان عصر أحياء سياسي * (٣) .
وقد شكَّل هذا النشاط رافداً زاهياً من روافد ثقافة صلاح الدين ، بيد أننا على ذلك المجالس
الأدبية والثقافية التي كانت تعقد بحضرتِهِ .

(١) دُرْدَار: يضم الدال المهملة وسكون الزاي وفتح الدال المهملة ويمد الألف راء ، وهو
لفظ عجمي ، معناه حافظ القلعة ، وهو الوالي ، ودُرْدَار بالعجمي القلعة ، ودار الحافظ ،
وفيات الأعيان : ١٤٢/٧ ، وفي المعجم الذهبي دُرْدَار بكسر الدال في أول الكلمة : ط ١٦
وتَكْرِيت بلدة مشهورة شمالي بغداد وسامراء بقيت على اسمها إلى يومنا هذا ، رحلة
ابن جبَّار : ٢٠٨ ، مرصد الاطلاع : ٢٦٨/١ ، والأطلس التاريخي ص ٢٢١ .

(٢) انظر الحديث عن ولاية نجم الدين تكريت ، وسبب خروجه منها : الكامل : ١١١/١٢٩٣
٩٥ ، الباهر : ١١٩ ، النوادر السلطانية : ٦ ، مرآة الزمان : ٨/٤٢٥ ، الروضتين : ج ١ ق ٢ /
٣٢٩ ، مفتي الكروب : ٢/٤٢٣ ، المعبر : ٤/٢٧٠ ، عيون التواريخ : ١٢/٣٣٤ ، الأنس
الجليل : ٣٩٤/١ .

(٣) الأدب في العصر الأيوبي / ٧٥ ، وانظر مجلة آداب الرافدين ، العدد الثامن / ٤٤٥ ، ٤٧٣ .

وتنوعت العلوم في ظل هذه الحركة ما بين علوم دينية : من حديث ، وتفسير ، وفقه ، وقراءات ، وعلوم لغوية : من نحو ، ولغة ، وبلاغة ، وعروض ، ونقد ، وعلوم أدبية : من شعر ونشر ، وعلوم عقلية : من هندسة وطب ، وحساب ، وكيمياء ، وفلك ، وغيرها من العلوم ، فوكان من الطبيعي ، والحالة هذه ، أن ينبع عدد من العلماء .

ففي مجال العلوم الدينية نبغت جمهرة من الفقهاء منها : الشَّهْرُزُورِيُّ (١) ، وابسن أبي عمرو (٢) ، والهِكَّارِيُّ (٣) ، وابن الزَّكِّي (٤) ، والشَّهْرُزُورِيُّ (٥) .

(١) هو : أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشَّهْرُزُورِيُّ ، الملقب كمال الدين الموصلي ، فقيه شافعي ، وزير لنور الدين ، ولما تولى صلاح الدين أقره على ما كان عليه ، كان أديبا شاعرا ، عظيم الرئاسة ، خبيراً بدهير الملك . وكانت ولادته سنة اثنين وتسعين وأربعمائة ، ووفاته سنة اثنين وسبعين وخمسمائة . انظر مرآة الزمان : ج ٨ ، ق ١ / ٣٤٠ - ٣٤٢ ، الروضتين : ج ١ ، ق ١ / ٦٧١ ، وفيات الأعيان : ٤ / ٢٤١ ، طبقات الشافعية : ٦ / ١١٢ - ١٢١ ، البداية والنهاية : ١٢ / ٣١٧ ، الشذرات : ٤ / ٢٤٣ ، الحياة العقلية : ١٥٩ .

(٢) هو : أبو سعد عبد الله بن أبي السري ، محمد بن هبة الله بن مظهر بن علي بن أبي عمرو ، الملقب شرف الدين ، من أعيان الفقهاء في عصره ، بنى له نور الدين المدارس في حلب ، وحماة ، وحمص ، ومعلبك ، تولى القضاء بدمشق سنة سبعين وخمسمائة ، عسي في آخر أيامه . كانت ولادته بالموصل سنة ٤٩٢ هـ ، وتوفي بدمشق سنة ٥٨٥ هـ . انظر : الخريدة ، قسم الشام : ٢ / ٣٥١ - ٣٥٤ ، سنا البرق الشامي : ١ / ١١٢ ، وفيات الأعيان : ٣ / ٥٣ ، المعبر : ٤ / ٢٥٦ ، طبقات الشافعية : ٧ / ١٣٢ - ١٣٧ ، النجوم الزاهرة : ٦ / ١٠٩ ، الشذرات : ٤ / ٢٨٣ .

(٣) هو : الفقيه أبو محمد ، ضياء الدين ، عيسى بن محمد بن عيسى الهكَّاري ، قدم مع أسد الدين شيركوه إلى مصر ، ومقي بها حتى تولى صلاح الدين الوزارة الفاطمية ، فوقف إلى جانبه ودافع عنه ، ثم أصبح أميراً في دولته ، وكان صلاح الدين يستشير في كثير من أموره ، توفي الهكَّاري سنة (٥٨٥) هـ بعد حياة حافلة بالجهاد والعلم . انظر : الروضتين : ج ١ ، ق ١ / ٤٠٧ ، وفيات الأعيان : ٣ / ٤٩٧ - ٤٩٨ ، البداية والنهاية : ١٢ / ٣٥٦ ، النجوم الزاهرة : ٦ / ١١٠ .

(٤) ابن الزكي هو : أبو المعالي ، محمد بن علي بن يحيى بن علي بن عبد العزيز ، القرشي الدمشقي ، فقيه شافعي ، وكان ذا معرفة في الأدب ، وهو صاحب الخطبة الأولى ببيت المقدس ، وله نظم مليح ، تولى الحكم والقضاء في حلب حين ملكها صلاح الدين ، ثم تولى القضاء في دمشق سنة (٥٨٧) هـ . وكانت وفاته سنة (٥٩٨) هـ . انظر الروضتين : ٢ / ٤٦ ، ٤٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، وذيال الروضتين : ٣١ ، وفيات الأعيان : ٤ / ٢٢٩ - ٢٣٧ ، البداية والنهاية : ١٣ / ٣٦ .

(٥) الشَّهْرُزُورِيُّ : هو أبو الفتوح يحيى بن حيدر بن أسيرك ، الملقب بشهاب الدين ، اشتهر بالعلوم الحكمية ، وكان جامعاً للفنون الفلسفية ، بارعاً في الأصول الفقهية ، يعترف بالكيمياء . قال ابن خلكان : " . . . من الناس من ينسب إلى الزندقة والإلحاد ، ومنهم من يمتدح فيه الملاح ، وأنه من أهل الكرامات ، ويقولون : ظهر لهم بعد قتله ما يشهد له بذلك ، وأكثر الناس على أنه كان ملحداً ، لا يعتقد شيئاً " . أمر صلاح الدين بقتله ،

ونبع في علوم الحديث والقراءات والتفسير : السَّلفي (١) ، وابن عساكر (٢) وغيرهما ، وفي علوم اللغة والنحو : ابن بَرِّي (٣) ، والبَلَّاطي (٤) ، وتاج الدين الكِنْدِي (٥) .

== وكان ذلك سنة (٥٨٢) هـ ، انظر وفيات الأعيان : ٢٦٨/٦ ، الوافي بالوفيات : ٣١٨/٢ ، البداية والنهاية : ٦/١٣ .

(١) هو : أبو طاهر ، الحافظ أحمد بن محمد بن أحمد السَّلفي الأصفهاني ، الملقب صدر الدين ، أحد الحفاظ الكثيرين ، دخل الاسكندرية سنة (٥١١) هـ ، وقصده الناس من الأماكن البعيدة ، وسموا عليه ، ولم يكن في آخر عمره في عصره مثله ، كانت ولايته سنة (٤٧٢) هـ ، بأصبهان ، ووفاته سنة (٥٧٦) هـ ، بشهر الاسكندرية . انظر : الروضتين : ١٦/٢ ، وفيات الأعيان : ١٠٥-١٠٧/١ ، المعبر : ٢٢٧-٢٢٨/٤ ، طبقات الشافعية : ٤٤-٣٢/٦ ، البداية والنهاية : ٣٢٨-٣٢٩/١٢ ، الشذرات : ٢٥٥/٤ .

(٢) هو : أبو القاسم ، علي بن الحسين بن هبة الله بن الحسين المعروف بابن عساكر الدمشقي ، الملقب ثقة الدين ، كان محدث الشام في عصره ، ومن أعيان الفقهاء الشافعية ، وأكابر حفاظ الحديث ، غلب عليه ، فاشتهر به حتى أنه جمع منه ما لم يتفق لغيره ، وهو صاحب التاريخ الكبير المعروف بـ (تاريخ دمشق) ، كان يقول الشعر ، وتوفي سنة (٥٧١) هـ ، انظر معجم الأدباء : ٧٣-٧٧/١٣ ، مرآة الزمان : ج ٨ ، في ٣٣٦/١ ، الروضتين : ج ١ ، ٦٦٧/٢ ، وفيات الأعيان : ٣٠٩-٣١١/٣ ، طبقات الشافعية : ٢١٥-٢٢٣/٧ ، البداية والنهاية : ١٢٨-١٣٢/١٢ ، الدارس : ١٠٠-١٠١/١ ، الشذرات : ٢٣٩/٤ ، الحياة الحقلية : ١٢٨-١٣٢/١٢ .

(٣) هو : أبو محمد عبد الله بن أبي الوحش بَرِّي ، الإمام المشهور في علم النحو ، واللغة ، والأدب ، والدراسة ، كان علامة عصره ، وحافظ وقته ، ونادرة دهره . كانت ولايته بمصر سنة (٤٩٦) هـ ، وتوفي بها سنة (٥٨٢) هـ . انظر : معجم الأدباء : ٥٦/١٢ ، وفيات الأعيان : ١٠٨/٣ ، طبقات الشافعية : ١٢١/٧ ، إنباء الرواة : ١١٠/٢ ، الشذرات : ٢٧٣/٤ .

(٤) هو : أبو الفتح عثمان بن منصور بن محمد البَلَّاطي النحوي ، دخل مصر على عهد صلاح الدين ، فرتب له جانباً من جامع مصرية بقرى به النحو والقرآن حتى مات ، كان عالماً ، إماماً ، نحويًا ، أخبارياً ، مؤرخاً ، شاعراً ، عروضياً ، قالما سئل عن شيء من العلوم الأدبية إلا أحسن القيام به . انظر : معجم الأدباء : ١٤١-١٦٨/١٢ ، إنباء الرواة : ٣٤٤/٢ ، بنية الوعاسة : ١٣٥/٢ .

(٥) هو : تاج الدين أبو اليمين ، زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن سعيد الكِنْدِي ، ولد ببغداد ونشأ بدمشق ، كان نحويًا ، لغويًا ، أدبياً ، وكان أوحد عصره بذنون الأدب ، وكان مقرئاً ، حافظاً للقرآن ، محدثاً . انتهت إليه القراءات ، والروايات ، وعلم النحو واللغات . توفي سنة (٦١٣) هـ . انظر : معجم الأدباء : ١٧١/١١ - ١٧٥ ، ذيل الروضتين : ٩٥-٩٨ ، وفيات الأعيان : ٣٢٩/٢ - ٣٤٢ ، مفرج الكرب : ١٢٦/٢ ، إنباء الرواة : ١٠/٢ ، بنية الوعاسة : ٥٧٠/١ ، وانظر : أبو اليمين تاج الدين : حياته وماتت من شعره .

ولم تقتصر عناية علماء العربية على فرع واحد من فروعها ، بل تناولت الفروع الأخرى من أدب ، وعرويض ، وبلاغة ونقد ، كما يتبين من كتابات القاضي الفاضل ، والعماد الأصفهاني وأسامة ابن منقذ .

ونبع في الطب ابن المطران (١) ، وابن الحاجب (٢) ، وغيرهما ، كما نبغ كثير من العلماء في الحساب والكيمياء والفلك والتاريخ

* * *

وقد ساعد على انحاء الحركة الثقافية والفكرية عوامل متعددة منها : أن صلاح الدين كان محباً للعلم والعلماء ، مكرماً لهم ، مفدقاً عليهم ، وقد أسند إليهم المناصب الرفيعة في دولته ، واتخذ منهم وزراء ، ومستشارين ، وقضاة من أمثال القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني ، يقول ابن شداد في صلاح الدين : " وكان يكرم من يرد عليه من المشايخ ، وأرباب العالم ، والفضل ، وذوي الأقدار ، وكان يوصينا بأن لا نفعل عن يجتاز بالخيم من المشايخ المعروفين حتى نحضرهم عنده ، وينالهم من احسانه " (٣) .

سمع العلماء ، والأدباء ، والفقهاء باكرام وتشجيع صلاح الدين لمن يفد عليه ، فيقصده من المشرق والمغرب ، حتى صارت مصر والشام موئلاً لهم . ومن هؤلاء العلماء عيسى

(١) هو : موفق الدين أسعد بن الياس بن جريس المطران ، كان أمير أهل زمانه في صناعة الطب وعملها ، نشأ بدمشق ، وقرأ النحو واللغة والأدب على الشيخ الكندي المذكور سابقاً . انظر مرة الزمان : ج١ / ٤١٢ ، الروضتين : ١٩٥ / ٢ ، عيون الأنباء : ٦٥١ / النجوم الزاهرة : ١١٣ / ٦ .

(٢) هو : أحمد بن الحاجب ، ولد بدمشق ، ونشأ بها ، كان طبيباً مشهوراً فاضلاً في صناعة الطب ، جاء إلى مصر ، وخدم السلطان صلاح الدين ، فظل في خدمته حتى مات السلطان ، فعاد إلى حماة طبيباً للملك المنصور بن تقي الدين ، فمات بها بعد السلطان بعامين . انظر عيون الأنباء : ٦٥٩ - ٦٦٠ ، الحياة العقلية : ٣١٩ .

(٣) النوادر السلطانية : ٣١ / ٠

الهَرَوِي (١)، وعبد اللطيف البغدادي (٢)، والعماد الأصفهاني، وغيرهم، فبنى صلاح الدين لهم المراكز العلمية والثقافية، وآواهم، وحرص كل الحرص على توفير سبل الراحة إليهم، يقول ابن جبير: "ومن مناقب هذا البلد ومناخه العائدة في الحقيقة إلى سلطانه، المدارس، والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبّد، يزدون من الأقطار النائية، فيأتون كل واحد منهم مسكناً يأوي إليه، ومدرّساً يعلمه الفن الذي يريد، وإجراء يقوم به في جميع أحواله" (٣). ويقول: "... واتّسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطائرين حتى أمر بتعيين حمامات يستحمّون فيها متى احتاجوا إلى ذلك، ونصب لهم مارستاناً لعلاج من مرض منهم، ووكل بهم أطباء يتفقّدون أحوالهم، وتحت أيديهم خدام يأمرؤنهم في النظر في مصالحهم التي يشيرون بها من علاج وغذاء" (٤).

ولا شك أن المدارس التي أشير إليها قد انتشرت في أنحاء مصر والشام، فكان أشهرها موجودا في القاهرة والاسكندرية، وقوص، وفي دمشق، وحلب ثم في بيت المقدس (٥).

فلا غرو إذن أن تتنوّع ثقافة صلاح الدين وتتعمّد روافدها في هذا الجو الثقافي والفكري المزدهر الذي واكب النشاط السياسي. يقول ابن شدّاد: "... كان حافظاً لأنساب

(١) هو: الحسن علي بن أبي بكر بن علي الهَرَوِيّ، ولد بالموصل، وطاف البلاد، وأكثر من الزيارات، وتقدّم عند الملك الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب، وأقام عنده، وبنى له مدرسة بظاهر حلب، له مصنفات منها: "كتاب الإشارات في معرفة الزيارات"، توفي سنة ٦١١ هـ، انظر وفيات الأعيان: ٣/٣٤٦ - ٣٤٧.

(٢) هو: عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي البغدادي، من فلاسفة الإسلام، وأحد العلماء الكثيرين من التصنيف في الحكمة، وعلم النفس، والتاريخ، والطب. كانت وفاته سنة (٦٢٦ هـ). انظر: الإفادة والاعتبار في مواقع متفرقة. انظر مثلاً: ص ١٥٢، عيون الأنباء/ ٦٨٥، إنباء الرواة: ٢/١٩٣ - ١٩٦، بهية الوعاة: ٢/١٠٦، ١٠٧.

(٣) الشذرات: ٥/١٣٢.

(٤) رحلة ابن جبير: ١٥.

(٥) انظر تفصيل ذلك في الفصل الثاني من هذه الدراسة.

الحرب ووقائعهم ، عارفاً بسيرهم وأحوالهم ، حافظاً لأنساب خيالهم ، عالماً بعجائب الدينها ونوادرها (١) .

إنّ نشاط الحركة الفكرية والثقافية مظاهر ، ومن أبرز تلك المظاهر المجالس العلمية والأدبية والثقافية (٢) التي كانت تعقد ، وكان صلاح الدين يعقد كثيراً منها ، وكان يشارك فيها مشاركة فعالة ، فكان لها الأثر الأكبر في تكوين ثقافته ، وخير دليل على ذلك ما قاله الينغداد في نفسه مصوراً بعض مجالس الساطان العلمية في القدس الشريف : " وأول ليل حضرته وجدت مجلساً حفلاً بأهل العلم ، يتذاكرون في أصناف العلوم ، وهو يحسن الاستماع والمشاركة ، ويأخذ في كيفية بناء الأسوار ، وحفر الخنادق ، ويتفقه في ذلك ، ويأتي بكل معنى بديع " (٣) .

وصور لنا العماد الأصفهاني بعض هذه المجالس التي كان يحضرها الساطان صلاح الدين ، ولا سيما في بيت المقدس بعد تحريره ، إذ توافد إليه العلماء والأدباء والفقههاء من كل صوب ، ليتذاكروا ، ويتناظروا ، ويحدثوا يقول :-

" وتذاكر العلماء ، وتناظر الفقهاء ، وتحدث الرواة ، وروى المحدثون ، وأخصص المفسرون ، وفسر المخلصون ، وانتدى الفضلاء ، وانتدب الخطباء ، وكثر المترشحون للخطابة ، المتوشحون بالاصابة ، المبرفون بالفصاحة ، الموصفون بالحصافة ، فما منهم إلا من خطب حسب الرتبة ، ورتب الخطبة ، وأنشأ معنى شائعا ، ووشى لفظاً رائعا (٤) " .

ويضاف إلى هذا جلوسه للمعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام ، يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء (٥) .

- (١) النوادر السلطانية / ٣٤ .
- (٢) انظر حول هذه المجالس : الفتح القسي في الفتح القدسي / ٦٥٦ ، مرآة الزمان ج ٨ ق ١ / ٢٤٦ ، الروضتين : ٢ / ٦٥ ، وجهاً ق ١ / ٦٦٨ ، ٦٧٨ ، ٦٨٥ . النجوم الزاهرة : ٦ / ٨ - ٩ .
- (٣) الإفاداة والاعتبار : ١٥١ ، عيون الأنباء / ٦٨٨ ، سير اعلام النبلاء : ٢١ / ٢٨٢ ، طبقات الشافعية : ٣٤٨ / ٧ ، المدارس : ٢ / ١٨٠ .
- (٤) الفتح : ١ / ١٣٨ .
- (٥) انظر النوادر السلطانية / ١٣ ، مرآة الزمان : ج ٨ ق ١ / ٤٢٧ ، الروضتين : ٢ / ٢١٩ ، النجوم الزاهرة : ٦ / ١٠٩ ، اعلام النبلاء : ٢ / ١٦٤ .

لقد اصطبغت ثقافة صلاح الدين بالصيغة الدينية ، كما اصطبغت بها الحركة الثقافية في عصره ؛ فقد اهتم صلاح الدين اهتماما بالغاً بالعلوم الدينية ، وإن جمع له الشيخ الإمام قطب الدين النيسابوري (١) عقيدة تحوي ما يحتاج إليه من أمور دينية ، وكان أشد حرصه عليها يعلماها صفار أولاده (٢) .

ومن مظاهر اهتمامه بتلك العلوم ، تفرسه بالتحفة ؛ فقد ذهب ببعض المصادر إلى أنه كان فقيها (٣) شافعي المذهب (٤) ، ينظر الفقهاء والقضاة (٥) . ومن الأمثلة على اهتمام صلاح الدين بالأمور الفقهية أنه كتب من دمشق إلى القاضي الفاضل ، وهو بمصر ، كتابا ، فيه فصول من جماعتها حديث الشيخ شرف الدين بن أبي عمرو ، يقول فيه : "إن قضاة الأعشى جائز" ، والفقهاء يقولون غير جائز ، فطلب السلطان في الكتاب من القاضي الفاضل أن يجتمع بالشيخ أبي طاهر بن عوف (٦) ، ويسأله عما ورد من الأحاديث في قضاة الأعشى ، هل هو جائز أم لا ؟ (٧)

- (١) هو : أبو المعالي سعد بن محمد بن طاهر النيسابوري الطريثي ، الفقيه الشافعي ، الملقب قطب الدين . ولد سنة خمس وخمسمائة ، قديم بغداد من نيسابور ووعظ بها ، ثم انتقل إلى دمشق ، ثم خرج إلى حلب فدرس بها أيام نور الدين وأسد الدين شيركوه ، ثم مضى إلى همدان ، ورجع إلى دمشق مرة أخرى ، وتوفي بها سنة ثمان وسبعين وخمسمائة . انظر : وفيات الأعيان : ١٩٦/٥ ، المعبر : ٢٣٥/٤ ، طبقات الشافعية : ٢٩٧/٧ - ٢٩٨ ، النجوم الزاهرة : ٩/٦ ، الشذرات : ٢٦٣/٤ .
- (٢) النوادر السلطانية : ٧/٧ ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٤٢٧/١ ، الروضتين : ٢١٩/٢ ، وفيقات الأعيان : ١٩٦/٥ ، طبقات الشافعية : ٣٤٠/٧ ، البداية والنهاية : ٦/١٣ ، الساوك : ج ١ ق ٤٢/١ ، ٤٣ ، النجوم الزاهرة : ٩/٦ ، المدارس : ١٨٣/٢ .
- (٣) طبقات الشافعية : ٣٤٠/٧ .
- (٤) الفتح : ١٣٨ ، كتاب الروضتين : ٦/١ .
- (٥) انظر : الفتح : ٦٥٦ ، كتاب الروضتين : ٢١٧/٢ ، النوادر السلطانية : ٧ ، البداية والنهاية : ٦/١٣ .
- (٦) هو : أبو طاهر اسماعيل بن مكّي بن عوف الزهري الاسكندراني ، المالكي ، صدر الإسلام ، سمع منه أبناء صلاح الدين : العزيز ، والأفضل ، والظاهر ، وكان صلاح الدين يستفتيه في بعض أموره ، سئل عن رأيه في الشعر فقال : "إن تكلمت بحسن فهو لك ، وإن تكلمت بهش فهو عليك" . كانت وفاته سنة ٥٨٠ هـ ، انظر وفيات الأعيان : ٢٩٨/١ ، ٥٤/٣ ، ١٩٦/٢ ، طبقات الشافعية : ٤٢/٦ ، المدارس : ١٨٠/٩١ ، ٣٨٧/٣ ، ٤٣٢/١ ، ١٧٩/٢ ، الشذرات : ٢٦٨/٤ .
- (٧) وفيات الأعيان : ٥٤/٣ .

وكان السلطان صلاح الدين يحب سماع القرآن الكريم ، كما " كان يستخير إمامه ، ويشترط أن يكون عالماً بعلوم القرآن ، متقناً لحفظه " (١) ، وكان إذا قرئ عليه خشع قلبه ، ودسمت عينه (٢) ، وكان مواظباً على تلاوته (٣) ، وقيل إنه كان يحفظه (٤) .

واعتنى صلاح الدين بالحديث النبوي الشريف أيما اعتناء ، فقد كان يواظب على سماعه (٥) ، بل يوتر سماعه بالأسانيف (٦) ، وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماعه اجلالا له (٧) .

سمع السلطان الحديث النبوي من شيخ الحديث في عصره ؛ فقد سمع عن الشيخ أبي طاهر السلفي بالاسكندرية ، وتردد إليه (٨) وسمع عن أبي الطاهر بن عوف ، فقد ذكر أبو شامة أن صلاح الدين توجه إلى الاسكندرية سنة سبع وسبعين ، وقال - أي السلطان - " نفتنم حياة الشيخ أبي طاهر بن عوف " ، فحضر عنده ، وسمع عليه موطأ مالك ، هو وأولاده (٩) . وقد كتب القاضي الفاضل رسالة إلى السلطان يهنئه بهذا السماع يقول فيها :-

" أدام الله دولة المولى الملك الناصر صلاح الدين ، سلطان الاسلام والمسلمين ، محيي دولة أمير المؤمنين ، وأسعده برحلته للمعلم ، وأثابه عايبها ، وأوصل ذخائر الخير إليه ، وأوصله اليها

- (١) النوادر السلطانية / ٩ ، البداية والنهاية : ٦ / ١٣ ، وانظر النجوم الزاهرة : ٩ / ٦ .
- (٢) النوادر السلطانية / ٩ .
- (٣) النوادر السلطانية / ١٣ ، السد ارس : ٢ / ١٨٣ .
- (٤) كتاب الروضتين : ٢ / ٦٤ ، طبقات الشافعية : ٧ / ٣٤٠ .
- (٥) مغز الكروب : ٢ / ١٠١ ، البداية والنهاية : ١٢ / ٣٢٩ ، الدارس : ٢ / ١٨٣ ، حسين المحاضرة : ٢ / ٣١ .
- (٦) الفتح / ٦٥٦ ، مرآة الزمان : ج ٨ ، ق ١ / ٤٢٦ ، كتاب الروضتين : ٢ / ٢١٧ ، سير أعلام النبلاء : ٢١ / ٢٨٧ .
- (٧) النوادر السلطانية / ٩ .
- (٨) انظر النوادر السلطانية / ٩ ، مرآة الزمان : ج ١ ، ق ١ / ٤٢٧ ، الروضتين : ج ١ ، ق ١ / ٦٨٩ ، مغز الكروب : ٢ / ١١٢ ، سير أعلام النبلاء : ٢١ / ٢٧٩ ، الدارس : ٢ / ١٢٩ ، أعلام النبلاء : ٢ / ١٩٣ .
- (٩) مرآة الزمان : ج ٨ ، ق ١ / ٣٦٦ ، الروضتين : ٢ / ٢٤ ، مغز الكروب : ٢ / ١١٢ ، البداية والنهاية : ١٢ / ٣٩٢ ، الشذرات : ٤ / ٢٦٨ .

- ٣٦ -

ولله في الله رحاته ، وفي سبيل الله يومه ، وما منهما إلا أفر محجل ، والحمد لله الذي جعله ذا يومين : يوم يسذك دم المحابر تحت قلعه ، ويوم يسذك دم الكاثر تحت علمه ؛ ففي الأولى يطلب حديث المصطفى - صلى الله عليه وسلم - فيجعل أثره عينا لا تستر ، وفي الثاني يحفل لنصرة شريعة هداه على الضلال ، فيجعل عينه أثرا لا يظهر ، وقد استغرق الناس هم العلماء في رحلتهم لنقل الحديث وسماعه

هذا وصاحب الرحلة قد نصب نفسه للمعلم ، وشغل به ذهنه ، ووقف عايه فكره ، فلا يتجانب عنان همته الكبائر ، فما القول في ملك خواطره كأبوابه مطروقة ، وأمور خاق المسنة ، كأمر دينه به معذوقة (١) ، إن هاجر إلى بقية الخير في أضيق أوقاته ، وترك المعلم أشد ضروراته ، وذهب له أياما مع أنه في الفزاة يحاسب لها نفسه على لحظاته وساعاته (٢)

هذه الرسالة شاهد صدق على اهتمام صلاح الدين بالحديث ، كما هي شاهد صدق على حبه للمعلم ، وطلب الرحلة من أجله ، على الرغم من عظم المسؤولية الملقاة على كاهله ، مسؤولية الجهاد التي شغلت وقته كله ، إن كان يدرك ، كما هو واضح في الرسالة ، أن الصراع مع الصليبيين لا بد أن يكون في إطارين : إطار ديني حضاري ، وإطار سياسي عسكري ، ولكي يراجه الصليبيين كان عليه أن يعمل في هذين الإطارين ، فكان في الوقت نفسه عالما تقيًا مثقًا ، وقائدا عسكريا مجاهدا .

وسمع من الشيخ البندهي السمعودي (٣) بالقاهرة ، قال أبو شامة : " وقد عسى لسماع الأحاديث النبوية بقراءة الإمام تاج الدين البندهي السمعودي ميقانا ، وجمع به من عذق فلانا بكذا باختصاره به ، انظر : المحيط (المندق) .

- (١) الروضتين : ٢٤/٢ - ٢٥ .
- (٢) هو : أبو عبد الله ، محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن مسعود بن أحمد بن الحسين بن محمد السمعودي ، الملقب تاج الدين ، فقيه شافعي ، كان أدبيا فاضلا ، اعتنى بالمقامات العربية فشرحها . كان يُعلم الملك الأفضل أبا الحسن علي ابن السلطان صلاح الدين . كاتبت ولادته سنة ٥٢٢ هـ ، ووفاته سنة ٥٨٤ هـ . دفن بسفح جبل قاسيون . انظر : وفيات الأعيان : ٤ / ٣٩٠ ، المعبر : ٤ / ٢٥٣ ، الوافي بالوفيات : ٣ / ٢٣٣ ، الشذرات : ٤ / ٢٨٠ .

أهل العلم والعلماء عنده أشقاتا (١) ، وسمع من عبد الله بن بكير ،
النحوي المشهور (٢) .

إضافة إلى سماعه الحديث كان يحبّ قراءته بنفسه ، يقول ابن شداد : " وكان - رحمه
الله تعالى - يحب أن يقرأ الحديث بنفسه ، وكان يستحضرني في خلوته ، ويحضر شيئاً من
كتب الحديث ، ويقرأها هو ، فإذا مرّ بحديث فيه عبرة رقّ قلبه ، ودمعت عينه " (٣) .

والإ جانب اهتمام صلاح الدين بالعالم الدينية اهتم بالأدب والأدباء ، مما كان
له الأثر في سعة ثقافته ، فقد عمل على تشجيع الأدباء وكرامهم ، وخصّ الشعراء منهم بأعطيات
عظيمة ، وكان يعقد لهم المجالس الخاصة ، ويشارك فيها بما لديه من معرفة في الشعر ، ناقداً
أحياناً ، ويردّد بعض أشعار القدماء أحياناً أخرى ، وإن تروى بعض المصادر أنّه كان يحفظ
" الحماسة " (٤) ، يقول المقرئ : " إنّه كان " يستحسن الشعر الجيد ، ويردّده في
مجالسه " (٥) .

ويبيّن العماد الأصفهاني سعة معرفة صلاح الدين بالأدب عامة والشعر خاصة حين
يقول : " فإليك الناصر وإن كان لا يقول الشعر ، ولكنه ناقد خبير ، وناقد بصير ، يعجبه
المعنى العمري ، والمألف السهل الأدبي ، وهو يحفظ من محاسن العرب وغزائهن الأدب ،
وأعاجيب السير ، وأساليب العبر ، وقصائد القدماء ، وشوارد الحكماء ، ما يستشهد فيه الكل
حادث وحديث بما هو لا ثقل ، ولا يجري في مجلسه ومأنسه إلا ما هو من الحكم والكلام الغائب
الرائق ، يحب الشعر الجيد ، ويحبّه بشعار جوده " (٦) .

(١) كتاب الروضتين : ٢ / ٢١١ .

(٢) طبقات الشافعية : ٧ / ٣٤٠ ، السلوك : ج ١ ق ١١٣ .

(٣) النوادر السلطانية / ١٠ ، كتاب الروضتين : ٢ / ٢١٩ .

(٤) كتاب الروضتين : ٢ / ١٨ ، طبقات الشافعية : ٧ / ٣٤٠ ، البداية والنهاية : ٦ / ١٣ ، الدارس

٢ / ١٨٣ ، حسن المحاضرة : ٢ / ٢٩ .

(٥) وفيات الأعيان : ٧ / ٢٠٧ ، السلوك : ج ١ ق ١١٣ .

(٦) الخريدة : بداية قسم شعراء الشام / ٧٨ .

وقول العماد هذا شاهد على سعة ثقافة صلاح الدين ، كما هو شاهد على سعة معرفته الأدبية ، ويمكن القول إن هذه المعرفة كانت مستقاة في معظمها من المجالس التي كانت تعقد بحضرته ، والتي أشير إليها من قبل .

وما من شك أن صلاح الدين أفاد من علماء عصره في اللغة والنحو الذين كان لهم دور في إثراء الحركة الفكرية والثقافية ، أمثال ابن بري ، وتاج الدين الكندي ، والباطني ، وفي الطب أمثال ابن المطران الذي خدم السلطان ، وهو صاحب " العقالة الناصرية في حفظ الأمور الصحية " التي جمعها باسم صلاح الدين (١) ، وابن الحاجب الطبيب المشهور الذي بقي في خدمته حتى ————— (٢) .

إضافة إلى هذا كله ، فقد كان صلاح الدين عارفا بكثير من أحكام الفروسية ، ومن ذلك : معرفته بفنون القتال ، والصيد ، ولعب الكرة ، وقد كان حاذقا بلعبها (٣) ، عارفا بآدابها (٤) ، وقد لعب بها مع الملك العادل نور الدين ، ذكر أبو شامة أبياتا كتبها العماد الأصفهاني إلى صلاح الدين سنة ثلاث وستين وخمسائة ، وقد عثر فرسه في الميدان وهو يلعب بالكرة مع نور الدين منها : -

لا تُنْكِرَنَّ لِسَابِحٍ عَثَرَتْ بِسَيْبِهِ قَدَمٌ وَقَدْ حَمَلَ الْخُضْمَ الزَّائِرُ
أَلْفَى عَلَى السَّلْطَانِ طَرْفُكَ (٥) طَرْفُهُ فَهَوَى هُنَالِكَ لِلسَّلَامِ مَبَارَا

ومنها : -

- (١) عيون الأنباء / ٦٥٨ .
- (٢) نفسه / ٦٦٠ .
- (٣) لعبة الكرة من ألعاب الفروسية ، وهي لعبة تمارس على ظهور الخيل ، وتسمى الجوكان (البولوني وقتنا الحاضر) ، من أدواتها الجوكان نفسه أو الصولجان ، وهو المحجسن الذي تضرب به الكرة ، وهو عصا مد هونة برأسها خشبة معقوفة . انظر لسان العرب مادة (حجن) ، صبح الأعشى : ٤ / ٤٣٠ ، صلاح الدين الأيوبي : ج ١ / ١١٨ .
- Dozy, Supp. Dict. & Tomet, p. 854.*
- (٤) سنا البرق : ٢٣ / ١ ، الروضتين : ج ١ / ٢٨٢ ، البداية والنهاية : ٢٥٠ / ١٢ .
- (٥) الطَّوْف ، بالكسر ، من الخيل : الكريم العتيق ، أو الفرس الكريم الأطراف ، يعني الأسياف والأمهات : لسان العرب مادة (طـوـف) .

وَأَقِيلَ جَوَادِكَ عَثْرَةً نَدَرْتُ لَكَ
وَأَسْلَمَ لِنُورِ الدِّينِ سُلْطَانِ النُّوْرِ
رَأَى الْجَوَادُ لَكُنْ يُعِيلُ الْعَاثِرَا
فِي الْحَادِثَاتِ مُعَاوِدًا وَكُوْزَا (١)

واهتم صلاح الدين بالرياضة الصيد، إلى جانب اهتمامه بالكرة، فكان يمارسها في
الأوقات التي يرجع فيها من الجهاد، ففي سنة ٥٧١ هـ طالب الفرنج منه الهدنة، فواظب على
الصيد، فقال العماد :-

سِوَاكَ لِسَنَمِ الْعُلَا لَنْ يَرِيْشَكَ
مِنْ النَّاسِ بِالْبَرْ صِدَّتْ الْكِبْرَامُ
فَنَسَأَلُ رَبَّ الْعُلَا أَنْ تَعِيْشَكَ
وَيَا بَأْسَ فِي الْبَرْ صِدَّتْ الْوُحُوشُ
فَهَدَّ مَتَّ الْمَشْرُكِينَ الْعُرُوشُ (٢)

ولم يكن هدف صلاح الدين من اهتمامه بالفروسية مجرد التساية، بل إنه كان يدرب
الخيال والجند على تحمل المشاق، ويمرنهم على إصابة الأهداف، فتعلق بها أيما تعلق،
ولا سيما أنه كان يعلم تمام العلم مدى تشجيع الاسلام الرياضة التي من شأنها أن تبني
أجساما قوية، وأخلاقا حميدة مما، تجني الأمة ثمارها في جهادها ضد الأعداء. فما كان
صلاح الدين يقوم بعمل إلا فيه فائدة تعود على المسلمين، وكان الدافع لهذا العمل دافعا
عقديا محضا؛ هو إرضاء رب العالمين.

وكان صلاح الدين عارفا بأهمية الشطرنج، وقد كان يشغل بها - كما يشير العماد -
في أيام الفزو والجهاد وغيرها من الأيام (٣)، وكان الشطرنج في مجلسه تذكرا لأموال الحرب

-
- (١) الديوان / ١٥٨، الروضتين : ج ١ ق ٢٥٨ / ٣٧٨، أعلام النبلاء : ٢ / ٥٠٠ .
(٢) الديوان / ٢٤٢٠، الروضتين : ج ١ ق ٦٤٣ / ٦٤٣، فوج الكروب : ٢ / ٣٦، انظر
الحديث عن إقامة السلطان صلاح الدين بقية عام ثمانية وثمانين وخمسة في اقتناص
الصيد، وحضور دار العدل في : الروضتين : ٢ / ٧٣، البداية والنهاية : ١٢ / ٣٦١ .
(٣) انظر الخريدة، شعراء مصر : ١ / ١٠٦، شعراء الشام : ١ / ٥١٥، الروضتين :
ج ١ ق ٦٩٤ / ٦٩٤، معجم الأدباء : ٥ / ٢٠٣ .

ووضع الخطط ، كما أنه تذكرة لأُمور الكرم ، يقول ابن مَتَّاسِي (١) :-

يَا صَلاَحَ الدِّينِ يَا مَلِكَنَا	قَدْ بَرَأَهُ الْإِلَهُ لِلْأُمَمِ
أَضَحَّتِ الْكُفَّارُ فِيَّ نَقَمِ	وَعَدَا الْإِسْلَامُ فِيَّ نِعَمِ
إِنْ بِكَ الشَّيْطَرُنَجُ مَشْفَلَةٌ	لِعَلِّي الْقَدَرُ وَالْهَيْمِ
فَهِيَ فِي نَادِيكَ تَذْكِرَةٌ	لَأُمُورِ الْحَرْبِ وَالْكَرَمِ
فَأَكْمَ ضَاعَتْ عِدَّتُهَا	بِأَعْطَاءِ الْجَمِّ لَا الْقَلْبِ (٢)

يستخلص ما تقدم أن السلطان صلاح الدين كان ذا ثقافة واسعة حقاً ، استقى معظمها من الحياة الثقافية والفكرية المزدهرة التي عاشها ، حين التف حوله عدد من العلماء والأدباء ، فتفاعل معها أيما تفاعل .

* * *

لم تزودنا المصادر عن نشأة صلاح الدين سوى إشارات قليلة ، فقد ذكر أن والده صلاح الدين غادر قلعة تكريت في الليلة التي ولد فيها صلاح الدين ، فنزل والده نجم الدين وأخوه أسد الدين عند عماد الدين زنكي صاحب الموصل ، فأحسن زنكي إليهما ، وأقطعهمما إقطاعاً حسناً ، ولما تيسر لزنكي أخذ بعليك سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ، جعل نجم الدين

(١) هو: القاضي الأسعد أبو المكارم أسعد بن الخطير أبي سعيد مهذب بن مينا بن زكريا ابن أبي قدامة بن أبي قايح مَتَّاسِي المصري الكاتب الشاعر ، كان أبوه نصرانياً ، ناظراً على ديوان الجيش ، أسام في ابتداء الحكم المملوكي ، وأما مات خافه ابنه الأسعد عن الديوان نفسه ، واستمر في ذلك أيام السلطان صلاح الدين ، وولي نظر الدواوين أيضاً ، واختص بالقاضي الفاضل ، وحظي عنده ، وكان يسميه بليل المجاس ؛ لما يرى من حسن خطابه ، وساءت أحواله بعد موت السلطان ، فنزل حلب ، وتوفي بها سنة ست وستمائة وله مصنفات عديدة منها : " حجة الحق على الخاق " في التحذير من سوء عاقبة الظلم ، كان السلطان صلاح الدين يكثر فيه النظر ، قال الفاضل : " إنه من أهم ما طالعه المملوك " . نظم ابن مَتَّاسِي سيرة صلاح الدين ، وكتاب كفاية ودمية . انظر : الخريدة ، شعراء مصر ، ١/ ١٠١ ، وقسم شعراء الشام : ١/ ١١٣ ، وفيات الأعيان : ١/ ٢١٠ ، خطط المقرئزي : ٢/ ١٦٠ ، حسن المحاضرة : ١/ ٢٧٠ .

(٢) الخريدة شعراء مصر : ١/ ١٠٦ ، البروضتين : ج ١ ق ٢٦٤/٢ .

- (٤) -

والها فيها (١) فنقل نجم الدين ابنه صلاح الدين إليها ، فأقام في خدمة والده يترقب
في حجره ويرتفع شدي محاسن أخلاقه (٢) .

وبعد وفاة عماد الدين زنكي ، فارق صلاح الدين والده سنة ست وأربعين وخمسة ،
وصار إلى خدمة عمه أسد الدين بحلب ، فقدمه بين يدي نور الدين ، وقبله ، وأقطعته
إقطاعاً حسناً (٣) . وبعد أن أخذ نور الدين دمشق سنة تسع وأربعين وخمسة (٤) لزم
صلاح مع والده خدمته .

تأثر صلاح الدين في شبابه في تلك الفترة بشخصية نور الدين آيما تأثر ، فقد كانت
" مخايل السعادة عليه لائحة ، والنجابة تقدمه من حالة إلى حالة " (٥) ، " فقربه نور الدين ،
وعول عليه ، وخصه " (٦) ، وكان صلاح الدين أحد خواصه ، وأخلص ذوي استخلاصه ... ،
وقد اقتدى به في جميع ما اتصف به من التقى والعفة والنزاهة وآداب الملك وأحكام السلطنة ،
فتلقن منه مبادئ الخيرات ثم جاوز بها في أيامه الغيايات " (٧) . وكان لا يذارقه فسي
سفر ولا حضـر (٨) .

-
- (١) انظر الحديث عن علاقة نجم الدين وأخيه أسد الدين بعماد الدين زنكي ، وسبب
إكرامه لهما ، وتولية الأول قلعة بعلبك في : الباهر : ١١٩/ ، الكامل : ٣٤١/١١ ،
الروشتين : ٨٦/١ و ٢١٨/٢ ، وفيات الأعيان : ١٤٣/٧ ، مغز الكروب : ٨/١ ،
الكواكب الدرية : ١١٠/ ، النجوم الزاهرة : ٦-٣/٦ ، أعلام النبلاء : ١١٠/٢ .
 - (٢) النوادر السلطانية / ٦ .
 - (٣) الروشتين : ج ١ ق ١٠ / ٢١٠ ، وانظر صلاح الدين : ج ١ / ١١٨ .
 - (٤) الكامل : ١٩٧/١١ ، الروشتين : ج ١ ق ١ / ٢٣٥ .
 - (٥) وفيات الأعيان : ١٤٥/٧ .
 - (٦) النوادر السلطانية / ٦ .
 - (٧) سنا البرق الشامي : ١٦/١ .
 - (٨) الروشتين : ج ١ ق ١ / ٢٥٢ ، وانظر صلاح الدين : ج ١ / ١١٨ .

ويقول ابن خلكان : " ومنه تعلم صلاح الدين طرائق الخير ، وفعل المعروف ، والاجتهاد في أمور الجهاد حتى تجهز المسير مع عمه شيركوه إلى الديار المصرية " (١) .

* * *

ويغرض نور الدين إلى صلاح الدين شحنة (٢) دمشق ، فيظهر صلاح الدين السياسة ، ويهذب الأمور ، يقول عرقلة الكلبي (٣) :-

رَوَيْدُكُمْ يَا لُصُوصَ الشَّامِ	فَاتِي لَكُمْ نَاصِحٌ فِي مَقَالِي
وَلِيَاكُمْ مِنْ سَمِيٍّ النَّبِيِّ	يَا يَوْسُفَ رَبَّ الْحِجَا وَالْجَمَالِ
فَإِنَّكَ مَقْطُوعُ أَيْدِي النَّسَاءِ	وَهَذَا مَقْطُوعُ أَيْدِي الرَّجَالِ (٤)

ويقول من قصيدة أخرى :-

لُصُوصَ الشَّامِ ، تَوَبُّوا مِنْ ذُنُوبِ	تَكُونُهَا الْعُقُوبَةُ وَالْمَقْذَانُ
لَئِنْ كَانَ الْفَسَادُ لَكُمْ مَلَاخِئاً	فَمَوْلَى الصَّلَاحِ لَكُمْ فَسَادُ (٥)

تشير الأبيات السابقة إلى أن صلاح الدين منذ وقت مبكر كان يتمتع بصفات تؤهله لأن يكون قائدا مظلوما ، وسياسيا محنكا ، حيث العقل المدبر ، والمقدرة على معالجة

- (١) وفيات الأعيان : ١٤٥/٧ ، أعلام النبلاء : ١٩٠/٢ .
- (٢) الشحنة : أطلقت على صاحب الشرطة من شمن : انظر : رحلة ابن جبر : ٢٧١/٢ ، و : Dozy, Diez, S. 733. أو من فيهم الكفاية لخبطة البلد من أوياء السلطان ، ويقال أيضا الشحنة . انظر : لسان العرب (شمن) .
- (٣) هو : حسان بن نعيم أبو الندى الكلابي ، المعروف بعرقلة الدمشقي ، كان شاعرا مطبوعا ، أعور العين ، حلو المناداة ، لطيف النادرة ، معاشرا للأمراء ، اختص بصلاح الدين ، فأغدق عليه من أعطياته لما ملك مصر ، وله فيه شعر كثير ، كانت وفاته سنة سبع وستين وخمسائة فجأة . انظر : الخريدة : شعراء الشام : ١/١٧٨ ، مرآة الزمان : ج ٨ : ١/٢٨٦ الشذرات : ٢٢٠/٤ ، الأعلام : ٢٢٥/٤ .
- (٤) ديوان العرقلة : ٨٧/١ ، الروضتين : ج ١ : ٢٥١/١ ، البداية والنهاية : ٢٥٠/١٢ مع اختلاف في الشطر الثاني من البيت الثاني " رب الحجا والكمال " ، الكواكب الدريسة : ١٤٧/١ .
- (٥) ديوان العرقلة : ٣٥/١ ، الروضتين : ج ١ : ٢٥١/١ .

الأمر بحزم ، وعدل ، ويحذر الشاعر لصوص الشام ، ويدعوهم إلى التوبة
من ذنوبهم .

ويستنجد شاور (١) بنور الدين أثر منافسة ضرغام (٢) له على وزارة مصر أيام المعاضد
فيتقدم نور الدين إلى أسد الدين شيركوه بالخروج إلى مصر ، فيتأهب أسد الدين ، ويصحب
معه ابن أخيه صلاح الدين * ويجعله مقدم عسكره ، وصاحب رأيه ، فكان لا يفصل أسرا ، ولا يقتر
حالا إلا بمشورته ورأيه ، إما لاح له منه من آثار الاقبال والسعادة والفكرة الصحيحة ، واقتران
النصر بحركاته وسكناته * (٣) . وكان ذلك سنة تسع وخمسين وخمسائة . فكانت الحماصة
الأولى إلى مصر (٤) .

ومما لا شك فيه أن صلاح الدين قد أظهر من المقدرة ما لفت أنظار الناس إليه ،
ومما جعلهم يؤمنون فيه خيرا ، ويرون له مستقبلا ، فقد عانى مع عمه حصار بلبيس (٥) ،

(١) هو : أبو شجاع شاور بن مجير بن نزار السعدي ، ولي الوزارة المعاضد صاحب مصر سنة
ثمان وخمسين وخمسائة ، وأقب بأمير الجيوش ، استنجد بالملك العادل نور الدين بسبب
نزاع بينه وبين ضرغام في العام المذكور ، فأكرمه نور الدين وأنجده ، قتل على يد عز الدين
جركيك وصلاح الدين بأمر من المعاضد ، وكان ذلك سنة أربع وستين وخمسائة . انظر :
التكت المصرية / ٧٨ ، ١٥٠ ، وفي صفحات أخرى متفرقة ، النوادر السلطانية / ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٩ ،
الكامل : ٢٩٩ / ١١ ، ٣٤٠ ، الروضتين : ج ١ ، ٣٣١ / ٢ ، وفيات الأعيان : ٤٣٩ / ٢ - ٤٤٨ ،
البداية والنهاية : ٢٧٨ / ١٢ .

(٢) هو : أبو الأشبال الملك المنصور ضرغام بن عامر بن سوار الأحمسي المنذري ، ولي الوزارة
للمعاضد ، وكان في نزاع مع شاور عابله ، قتل سنة تسع وخمسين وخمسائة هجرية ، انظر :
التكت المصرية / ٧٤ - ٢٧٨ ، وفيات الأعيان : ٤٤٠ / ٢ ، ٤٤٢ .

(٣) النوادر السلطانية / ٣٦ ، الروضتين : ج ١ ، ٣٣٧ / ٢ .
(٤) انظر : الكامل : ٢٩٩ / ١١ ، الباهر : ١٢٠ ، ١٢١ ، مغز الكروب : ١ / ١٣٩ ، الكواكيب
الدرية / ١٦٤ .

(٥) انظر الحديث عن غدر شاور بأسد الدين وابن أخيه ، ورجوعه عما اتفق عليه مع نور الدين ،
وهو أخذ ثلاث فذل البلاد ، واستنجاهه بالفرنج الذين قاموا بمعاصرة أسد الدين وصلاح
الدين في بلبيس - في التكت المصرية / ٧٨ ، سنا البرق : ١ / ١٩ ، الكامل : ٢٩٩ / ١١ -
٣٠١ ، الروضتين : ج ١ ، ٣٣٥ ، ٤٢٠ ، مغز الكروب : ١ / ١٣٨ - ١٤٠ .
بلبيس : بكسر الباءين وسكون اللام ، والعامية تقول بلبيس : مدينة قريبة من فسطاط مصر
الواقع جنوب القاهرة على طريق الشام : انظر معجم البلدان : ١ / ٤٧٩ ، وفي معجم ما
استعجم بلبيس بفتح الباءين : ١ / ٢٧٢ ، والأطلس التاريخي / ٣٠٣ .

وتخطف من معه رسدا وضعه الفرنج في الطريق أثناء العودة إلى
الشام (١) .

ومنذ ذلك الحين جرى بملكه مصر الفال ، وأخذ الشعراء يتطلعون إليه ، ويرون
فيه همة عالية لضم مصر إلى الشام في عهد نور الدين ؛ لتكون جبهة اسلامية موحدة قسادة
على مواجهة الصليبيين ، فهذا العرقلة نفسه يضرع إلى الله مناديا إياه أن يملك صلاح الدين
مصر كما ملكها من قبله النبي يوسف عليه السلام ، وذلك سنة اثنتين وستين وخمسة ، عندما
تجهز للمسير إليها ثانية ، يقول :-

أقولُ والأثرُكُ قد أزعجتُ مصرًا إلى حرب الأعرابِ
ربُّ كما ملكتهما يوسف الصديق من أولاد يعقوب
يملكها في عصرنا يوسف الصديق من أولاد أيوب
من لم يزل ضراب هام العبدى حقا ، وضراب العراقيب (٢)

ووصل العماد الأصفهانى في تلك السنة إلى دمشق ، وكان صلاح الدين قد توجه
مع عمه للديار المصرية حينئذ ، فمدح العماد نجم الدين أيوب والده ، وهو مقيم بدمشق ،
بقصيدة ، ذكر فيها صلاح الدين وعمه وما تفرس فيهما من ملك مصر الذي تم بعد سنتين :-

غدا يشبان في الكمار نار وغى بأفحها يصبح الشبان كالشيب
بملك مصر ونصر المؤمنين غدا تحظن النفوس بتأنيب وتطبيب
ويستقر بمصر يوسف ، وسير تقر بعد التأنيب عين يعقوب
ويأتقي يوسف فيها بأخوتيه والله يجمعهم من غير تشريب (٣)

- (١) . انظر الكامل : ٣٠١ / ١١ ، الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٤٢٣ ، مفرج الكروب : ١٤١ / ١ .
(٢) . ديوان العرقلة / ١٣ .
(٣) . ديوان العماد / ٨٣ ، سنا البرق : ٩ / ١ ، ما عدا البيت الذي أولاه " بملك مصر . . . " ،
الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٣٦٩ . وتشريب : إشارة إلى قواء تعالي : " قال لا تشريب
عليكم . . . يوسف : آية (٩٢) . والتشريب : اللوم والتأنيب والتعير بالنسب
والتذكير به : لسان العرب (شرب) .

وكان شاور - أما باغفه مجي - أسد الدين وابن أخيه - قد راسل الفرنج يستغيث بهم ، ويستصرخهم ، فاستجابوا له ، ولكن أسد الدين والصلاح استطاعا التغلب عليهم ، على الرغم من - قلة عدد المساكر معهما - ، وفي وقعة تعرف بالبابيين (١) ، وقد أظهر صلاح الدين البراعة في القتال ؛ إذ كان يقود قلب الجيش ، وصمد - حين ضرب الفرنج وشاور بمن معه على الاسكندرية المحصار وصلاح الدين بها - صمود الأبطال حتى تم القبول إلى الشام (٢) .

ويستجل العمام الأصهباني هذه الأحداث في قصيدة (٣) مادحاً صلاح الدين - بعد رجوعه إلى دمشق ، يقول :-

مِنْ دَمِ الْفَادِرِينَ غَسَّادَتْ بِالْأُمْسِ صَعِيدُ الصَّعِيدِ وَهُوَ غَدِيرٌ
وَالْكَلْبُ مَتَا تَطَاوَلَتْ فِيهِمْ
لَا ذُ بِالثَّيْلِ شَاوَرٌ مِثْلَ فِرْعَوِ
شَارَكَ الْمَشْرِكِينَ بَغْيًا ، وَقَدْ مَأْ
نَ ، فَنَذَلَ اللَّاجِي وَعَزَّ الْعُبُورُ
شَارَكْتُهَا قُرَيْظَةً وَالنَّصِيرُ

ويقول مخاطباً صلاح الدين :-

وَحَمَيْتَ الْإِسْكَندَرِيَّةَ عَنْهُمْ
حَاصِرُهَا وَمَا الَّذِي بَانَ مِنْ
كَحْصَارِ الْأَحْزَابِ طَيْبَةً قَدْ مَأْ
فَاشْكُرُ اللَّهَ حِينَ أَوْلَاكَ نَصْرًا
وَرَحَى حَرْبِهِمْ عَلَيْهِمْ يَكْدُورُ
ذَبَّكَ عَنْهَا وَحَفِظَهَا مَحْصُورُ
وَنَبِيَّ الْهُدَى بِهَا مَنْصُورُ
فَهُوَ نِعْمَ الْوَلِيُّ وَنِعْمَ النَّصِيرُ

وتجدر الإشارة إلى أن العمام ربط بين حصار الاسكندرية وحصار المدينة زمن الرسول - صلى الله عليه وسلم - المعروف بـفزة الخندق ، وإن أن هذا الربط كان نتيجة

- (١) انظر النوادر السلطانية / ٣٧ .
(٢) انظر الحديث عن تفصيلات هذه الحملة في النوادر السلطانية / ٣٧ ، سنا البرق : ١ / ٢٠ ، الكامل : ١١ / ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، الباهر / ١٣٢ ، ١٣٣ ، الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٣٦٤ - ٣٦٦ ، مغز الكروب : ١ / ٤٨ - ١٥٢ ، البداية والنهاية : ١٢ / ٢٣١ ، ٢٧٢ ، السلوك : ج ١ ق ١ / ٢٣ ، الكواكب الدرية / ٦٩ - ١٧٢ .
(٣) القصيدة المشار إليها هي أول قصيدة يمدح بها العمام صلاح الدين ، انظر سنا البرق الشامي : ١ / ٢١ ، والديوان / ١٧٧ .

تشابه المواقف؛ فالفرنجة اتفقوا مع شاور على حصار الاسكندرية كما اتفق الأحزاب فيما بينهم على حصار المدينة، ثم إن أهل الاسكندرية صدقوا القتال مع صلاح الدين وصبروا على الشدائد من : جوع ، ضعف ، وغير ذلك كما صبر أصحاب الرسول عليه السلام ، وفي النهاية من الله على أهلها بالنصر كما من على أهل المدينة من قبل . ورجع الفرنج يجرّون أذيال الخيبة بعد أن سمعوا بقدوم أسد الدين انجدة صلاح الدين .

وبهنيء العماد في القصيدة صلاح الدين بالعودة من مصر ، يقول :-

عَادَ مِنْ مِصْرَ يَوْسُفَ وَإِلَى يَعْقُوبَ بِالتَّهْنِئَاتِ جَاءَ الْبَشِيرُ
فَلَا يَوْبَ مِنْ إِيَابِ صَلاَحِ الدِّينِ يَوْمَ بِهِ تُؤَفِّسُ التَّكْسِيرُ

ويزداد أمل العماد في أن يعود صلاح الدين إلى مصر ، ويسترد حقوق الخلافة العباسية السنية ، يقول :-

وَلَكُمْ عَوْدَةٌ إِلَى مِصْرَ بِالنَّصْرِ عَلَى ذِكْرِهِمَا تَمُرُّ الْعَصُورُ
فَاسْتَرِدُّوا حَقَّ الْإِمَامَةِ مِمَّنْ خَانَ فِيهَا فَإِنَّهُ مُسْتَمِيرٌ (١)

ولما كره صلاح الدين السير مع عمه في الحملة الثالثة (٢) إلى مصر سنة أربع وستين وخمسائة ، أنشأ عرقة الكلبى قصيدة مدحه بها ، وحثه على العودة إلى مصر وملكها ، يقول :-

وَهَلْ أَخْشَى مِنَ الْأَنْوَابِ خَيْلاً
إِذَا مَا يَوْسُفَ بِالْمَالِ جَاءَ
فَتَى لِلدِّينِ لَمْ يَنْسَحْ صَلاَحاً
وَالْأَعْدَاءُ أَمْ يَنْسَحُ فَسَكَا

(١) الديوان / ١٧٧ - ١٨٤ ، الخريدة : بداية قسم شعراء الشام / ٣٧ - ٣٩ ، الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٣٧٢ .

(٢) كان سبب هذه الحملة دخول الفرنج إلى الديار المصرية ، ثم تلا ذلك استنجااد العاضد بنور الدين في السنة المذكورة ، انظر سنا البرق : ٣٩ / ١ ، الذكت المصرية / ٨٠ ، النوانر السلطانية / ٣٨ ، الكامل : ٣٣٥ / ١١ ، الباهر / ١٣٢ ، ١٣٨ ، الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٣٩٠ ، ٣٩١ ، مغز الكروب : ١ / ١٥٥ ، المختصر في أخبار البشر : ج ٢ / ٦٤ ، الكواكب الدرية / ١٧٥ .

لَنْ أَعْطَاهُ نُورَ الدِّينِ حَضَنًا
إِلَى كَمْ ذَا التَّوَانِي فِي دِمَشْقٍ
عُرُوسٌ بَعْلَاهَا أَسَدٌ هَضُ (١) لُورٍ
أَلَا يَا مَعَشَرَ الْأَجْنَادِ سَيِّئُورُوا
فَإِنَّ اللَّهَ يُعْطِيهِ الْبِرْلَانًا
وَقَدْ جَاءَتْكُمْ مِصْرَتُهُمْ سَادَى
يَحْيِدُ الْمُعْتَدِينَ وَلَنْ يُضَادَا
وَرَاءَ لَوَائِهِ تَلَقَّوْا رَشَادَا (٢)

ولما سار صلاح الدين مع عمه إلى مصر في العام المذكور آنفاً عبر عرقة الكلب على
داره، فوجدها مغلقة، فقام :-

عَبَرْتُ عَلَى دَارِ الصَّلَاحِ وَقَدْ خَلَّتْ
فِي اللَّهِ لَوْلَا سُرْعَةُ مِثْلٍ عَزِيمَةٍ
مِنَ الْقَمَرِ الْوَسَّاحِ وَالْمَنْهَلِ الْعَذْبِ
لَفَرَّقَهَا طَرْفِي وَأَحْرَقَهَا قَلْبِي (٣)

وبصّر الشعراء قضا صلاح الدين على شاور في مصر، وما أصاب الفرنج من خيبة
عظيمة، وردة خزي، عندما أخفقوا في الاستيلاء على مصر، فهذا على سبيل المثال أسامة
ابن منقذ يخاطب صلاح الدين قائلاً :-

أَقَمْتُ عَمُودَ الدِّينِ حِينَ أَمَّاكُهُ
وَجَاهَدْتُ حِزْبَ الْكُفَّارِ حَتَّى رَدَدْتَهُمْ
لِطَاغِي الْفَرَنْجِ الْفُتَمِ (٤) طَاغِي بَنِي سَعْدِ (٥)
خَزَايَا، عَلَيْهِمْ خِيْبَةُ الذُّلِّ وَالسُّرْدِ (٦)

* * *

-
- (١) في الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٣٩٤ : هـ ز -
(٢) الديوان / ٣٠-٣٢، الخريدة قسم الشام : ١ / ١٩٩، الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٣٩٤ .
(٣) الديوان / ١٤، الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٣٩٥ .
(٤) الفتحة بالضم : العجمة، والأفتم من لا يذبح شيئاً، والجمع غتم انظر المحيط (الفتح) .
(٥) طاغي بني سعد : شاور، انظر ترجمته فيما سبق .
(٦) البيتان غير موجودين في ديوان الشاعر، وهما موجودان في كتاب الروضتين :
ج ١ ق ٢ / ٣٩٥ .

وهنا الشعراء صلاح الدين عندما ولي الوزارة المعاضد بعد وفاة عمه أسد الدين (١)
فيقول عمارة (٢) من قصيدة :-

لَكَ الْحَسْبُ الْبَاقِي عَلَى عَقَبِ الدَّهْرِ بِلِ الشَّرَفِ الرَّاقِي إِلَى قِمَّةِ النَّسْرِ
كَذَا فَلْيَكُنْ سَعْيُ الْمُلُوكِ إِذَا سَعَيْتَ بِهَا إِلَهُمُ الْعَالِيَا إِلَى شَرْفِ الذَّرَكْرِ
نَهَضْتُمْ بِأَعْيَاءِ الْوِزَارَةِ نَهَضْتُمْ أَقْلَمْتُمْ بِهَا الْأَقْدَامَ مِنْ زَلَّةِ الْعَشْرِ (٣)

ويقول العماد الأصفهاني مهنتا ومشيرا إلى قتل صلاح الدين شاور ، وقد شبهه
بقتل داود جالسوت :-

هَنِيئًا لِمَصْرٍ حَوَزُ يَوْسُفَ مَلِكِهِمَا بِأَمْرِ بْنِ الرَّحْمَنِ قَدْ كَانَ مَوْقُوتًا
وَمَا كَانَ فِيهَا قَتْلُ يَوْسُفَ شَاوِرًا يَمَاطِلُ إِلَّا قَتْلُ دَاوُدَ جَالُوتًا (٤)

(١) انظر الحديث عن وزارة صلاح الدين واقامته الخطبة المخلّفة العباسية وإزالة دولة
الفاطميين ، وأثر ذلك في الشعر - في الفصل الثاني من هذه الدراسة .
(٢) عمارة اليمني هو : أبو محمد عمارة بن أبي الحسن علي بن زيدان بن أحمد الحكمسي
اليمني ، الملقب نجم الدين ، ولد بمدينة مرطان قرابة سنة خمس عشرة وخمسائة هـ . سافر
إلى الديار المصرية ، فدخلها سنة خمس مائة وخمسائة هـ . وصاحبها يومئذ الفائز بن
الظافر والوزير الصالح بن رزيق ، ثم رجع إلى مكة ، ثم إلى زبيد ، وعاد إلى مصر سنة
أخرى ولم يغارقها ، مدح السلطان صلاح الدين لما ملك مصر ثم أنه شرع مع جماعته
من الفاطميين بإعادة دوائهم ، ونسب إليهم مكاتبة الفرنج فأحسن بهم السلطان وشنقهم
سنة تسع وستين وخمسائة هجرية .

كان عمارة فقيها ، أدبيا ، شاعرا مجيدا ، ومحدثا مستعاضا له تصانيف منها : أخبار
اليمن ، النكت المصرية في أخبار وزراء الدولة المصرية ، وفيه قصائد من شعره ومقاطيع
من نثره ، وله كتاب مختصر الغيد من أخبار زبيد ، وديوان شعر . انظر النكت المصرية
٧ / - ٦٠ ، خريدة القصر : قسم شعراء الشام : ٣ / ١٠١ ، الروضتين : ج ١ / ٢٠ / ٥١٠ -
٥٧٧ ، وفيات الأعيان : ٣ / ٤٣١ ، البداية والنهاية : ١٢ / ٢٩٤ ، بدائع الزهور :
ج ١ / ٢٤٠ .

(٣) النكت المصرية / ٢٧٠ ، الروضتين : ج ١ / ٢ / ٤١٢ .

(٤) الديوان / ٨٦ ، الروضتين : ج ١ / ٢ / ٤٥٥ ، مخرج الكروب : ١ / ١٧٨ .

و إنَّ انشأة صلاح الدين في بعلبك ثم في دمشق ، وتنقله بين الشام ومصر حيث قسمة الصراع السياسي والعسكري أثرا في تكوين شخصيته ، إذ أصبح سياسيا بارعا ، واداريا ناجحا ، وعسكريا محنكا . ويلاحظ الدارس للشعر الذي قيل فيه صلاح شخصيته منذ أن تولّى شِحنكّة دمشق .

* * *

كان صلاح الدين ياتزم أوامر نور الدين (١) أبان أحياته ، فقد كان هدف نور الدين توحيد البلاد ، والجهاد ضد الأعداء ، تحرير المقدسات ، وبعد وفاة نور الدين اتبّع صلاح الدين سياسته ، فقد سعى لتوحيد مصر والشام ، وجاهد الأعداء حتى استطاع تخليص بيت المقدس من أيدي الصليبيين .

وكان آخر وجوده في مصر في مطاع سنة ثمان وسبعين وخمسة ، وحين خروجه منها متوجّها إلى الشام ، خرج الناس أوداعه ، ومن عجب ما ذكر في الاتفاق أنّ السلطان بينما هو في سرادقه ، والعلماء والأفضلاء عنده ، وكلّ منهم ينشد بيتا أو بيتين في الوداع ، إذ أخرج أحد مؤدّبي أولاده رأسه وأنشده :-

تَمَتَّعَ مِنْ شَمِيمِ عِرَارٍ نَجَسِدٍ فَمَا بَعْدَ الْعَشِيَّةِ مِنْ عِرَارٍ (٢)

ولم يعد صلاح الدين بعد ذلك إلى الديار المصرية ، فكان كما قيل
* الفيل موكل بالمنطق * .

* * *

- (١) انظر الحديث عن علاقة صلاح الدين بنور الدين في الفصل الثاني من هذه الدراسة .
- (٢) هذا البيت موجود في ديوان الحماسة لأبي تمام ، شرح المرزوقي ، تحت رقم ٤٦٦ ، ص ١٢٤٠ ، والبيت موجود أيضا في معظم كتب التاريخ التي تحدثت عن صلاح الدين . انظر مرآة الزمان : ج ٨ ، ق ٣٦٩ / ١ ، الروضتين : ٢ / ٢٧ ، وفيات الأعيان : ٢٠٤ / ٧ ، فرج الكروب : ١١٣ / ٢ ، الهداية والنهاية : ٣٣١ / ١٢ ، السلوك : ج ١ ، ق ٧٧ / ١ ، النجوم الزاهرة : ١٢ / ٦ .

أشار بعض الشعراء إلى علاقة صلاح الدين بأبيه واخوته ، فقد كانت علاقته بههم علاقة محبة واحترام وتقدير ، ومن هذا : أن صلاح الدين أرسل في طلب والده من نور الدين حين ولي الوزارة ، ليكمل له السرور ، فوصل نجم الدين إليه بماقي أولاده وأهله من دمشق وكان ذلك سنة خمس وستين وخمسة ، وتجرى الأحداث مشاكلة لما جرى للنبي يوسف عليه السلام في قصته مع أبيه واخوته ، وما قيل في هذا الشبه أبيات لعمارة ، يقول فيها :-

صَحَّتْ بِهِ مَضَرٌ وَكَانَتْ قَبْلَهُ	تَشْكُو سَقَامًا أَمْ يُعْمَنُ بِطَبِيبٍ
عَجَبًا لِمُعْجِزَةٍ أَتَتْ فِي عَصْرِهِ	وَالدَّهْرُ لَا رُدَّ لِكُلِّ عَجِيبٍ
رَدُّ إِلَيْهِ بِهِ قَضِيَّةُ يَوْسُفَ	نَسَقًا عَلَى ضَرْبٍ مِنَ التَّقْرِيبِ
جَاءَتْهُ اخْوَتُهُ وَوَالِدُهُ إِلَى	مَصْرٍ عَلَى التَّدْرِيسِ وَالتَّرْتِيبِ (١)

وإذا كان عمارة قد جعل القصة تعود على ضرب من التقريب ، فإن الجلياني (٢) قد أوضح الفرق بين القصتين ؛ إذ أقبل اخوة صلاح الدين إليه ولم يكن بينهم وبين أخيههم غلٌّ من قبل ولا حقد ، على النقيض من اخوة يوسف النبي عليه السلام ، يقول :-

فِي مَشْرِقِ الْمَجْدِ نَجْمُ الدِّينِ مَطْلَعُهُ	وَكُلُّ أَبْنَائِهِ شُهَبٌ فَلَا أَفْئُوسُوا
جَاءُوا كَيْمَقُوبَ وَالْأَسْبَاطُ إِذْ وَرَدُوا	عَلَى الْعَزِيزِ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ وَاشْتَمَلُوا
لَكِنْ يَوْسُفَ هَذَا جَاءَ اخْوَتُهُ	وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ نَزْعٌ وَلَا زَأْلٌ (٣)

(١) الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٤٦٣ .

(٢) هو : حكيم الزمان أبو الفضل عبد النعم بن عمر بن عبد الله بن حسان الغساني الأندلسي الجلياني ، واد سنة إحدى وثلاثين وخمسة ، رجل من الأندلس ودخل الشام ، أقام بدمشق إلى حين وفاته سنة اثنتين وستة ، كان أدبيا فاضلا ، وطيبيا حاذقا ، كان السلطان صلاح الدين يرى له ويحترمه ، والجلياني فيه مدائح كثيرة ، وصنف له كتب منها : " منادح الممدوح وروضة المآثر والمفاخر في خصائص الملك الناصر " ، انظر : عيون الأنباء / ٦٣٠ ، فوات الوفيات : ٤٠٨ / ٢ .

(٣) الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٤٦٢ .

وسالك صلاح الدين مع أبيه عند وصواه من الأدب ما كان عادته ، فعرض عليه منصبه ، فأبى نجم الدين وقال : " يا ولدي ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت كفو له ، ولا ينبغي أن يغير موقع السمادة " (١) فحكمه في الخزائن بأسرها ، وهذا من جميل الاحسان بالوالدين .

وكان صلاح الدين غاية في الأدب مع اخوته ، فقد كان حسن العشرة ، لطيف الحديث معهم ، محباً لهم ، كتب العماد الأصفهاني على لسان السلطان إلى أخيه توران شاه (٢) ، وهو عائد من اليمن إلى دمشق سنة إحدى وسبعين وخمسمائة ، قصيدة ، منها قوله :-

مولاي شمس الدولة المالك الذي شمع السيادة قر من سناه تطأع
ما لي سواك من الحوادث ملجأ ما لي سواك من النواكب فؤزع (٣)

وللسلطان صلاح الدين أولاد كثيرون ، ذكر العماد الأصفهاني في كتابه السبرق الشامي منهم خمسة عشر ولداً (٤) ، وذكر أبو شامة أن له سبعة عشر ولداً ذكرًا وبنتاً واحدة اسمها مؤمنة خاتون (٥) ، وقد توفي له في حياته ولد بالغ يسمى اسماعيل (٦) ، وولد

(١) النوادر السلطانية / ٤٤ ، الروضتين : ج ١ ق ٢٦٥ / ٢ ، وفيات الأعيان : ١٥٣ / ٧ ، الكواكب الدريسة / ١٨٧ .

(٢) توران شاه ومعناه باللغة الأعجمية مالك الشرق ، وهو شمس الدولة المالك المعظم ابن أبي أيوب بن " شاذي " الملقب فخر الدين ، وهو أخو السلطان صلاح الدين ، وكان أسكن منه ، كان صلاح الدين يحترمه ويتأدب معه ، بعثه إلى اليمن سنة تسع وستين وخمسمائة ، ولما عاد منها إلى دمشق سنة إحدى وسبعين وخمسمائة استخلفه صلاح الدين بها مدة ، وانتقل توران شاه إلى مصر ، وتوفي بالاسكندرية سنة ست وسبعين وخمسمائة ، ونقاه أخته ست الشام إلى دمشق ، ودفنته بالمدرسة الشامية : انظر وفيات الأعيان : ٣٠٦ / ١ ، شذرات الذهب : ٢٥٦ / ٤ .

(٣) الديوان / ٢٩٠ ، سنا السبرق : ١٠٧ / ١ ، الروضتين : ج ١ ق ٦٢٠ / ٢ ، مغن - الكروب : ٤٩ / ٢ .

(٤) السبرق الشامي : ٧٦ / ٣ .

(٥) الروضتين : ج ١ ق ٧٠٩ / ٢ ، وذكر المرتضى الزبيدي في كتابه ترويح القلوب أن له تسعة عشر ولداً ذكرًا ، وقد وهم في ذكر بوري منهم أن أنه أخو صلاح الدين وابن ابنه / ٨٩ ، وذكر ابن أصل أن له سبعة عشر ولداً ذكرًا وبنتاً واحدة : ٤٢٣ / ٢ ، وذكر في مرآة الزمان أنهم كانوا ستة عشر ولداً ذكرًا وابنة واحدة : ٤٣٤ / ١ ، وانظر عن أولاده في معجم الانساب والأسرات الحاكمة في التاريخ / ١٥٦ .

(٦) النوادر السلطانية / ٢٦ .

آخر اسمه أحمد ، وهو الذي رثاه العرقاة بأبيات مواسيا أباه ، وداعيا إياه إلى الصبر ،
يقول :-

أَيُّ هَلَالٍ كُفِّسَ	وَأَيُّ غُصْنٍ قُصِفَ
كَانَ سِرَاجًا قَدْ طَفَأَ	عَلَى الْوَرَى ، ثُمَّ انْطَفَأَ
لَمْ يَرْكَبِ الْخَيْلَ وَلَسَمَ	يُقَالِدُوهُ مَرْهَفًا
صِرَاحَ الدِّينِ يَمَا	رَبَّ السَّمَاكِحِ وَالْوَفَا (١)

أما علاقته معهم ، فقد كان " شديد الشغف والشفقة بأولاده الصغار ، وهو صابر على
مفارقتهم ، راض ببعدهم عنه (٢) ، ويبيّن ذلك القاضي الفاضل في كتاب بعثه إليه من
مصر ، وصلاح الدين بالاشام ، يقول فيه :-

" وهم بحمد الله بهجة الحياة وزينتها ، وريحانة القلوب والأرواح وزهرتها ، وإن فؤادا
وسع فراقهم لواسع ، وإن قلبا قنع بأخبارهم لقانع ، وإن طرفا نام عن البعد عنهم لها جسع ،
وإن ملكا ملك صبره عنهم لحازم ، وإن نعمة الله بهم لنعمة بها العيش ناعم " (٣) .

* * *

تعرّض صلاح الدين في حياته لأحداث خطيرة كادت تؤدي بحياته منها : تعرّضه
للاغتيال مرتين على يد الاسماعيلية ، كانت المرة الأولى سنة سبعين وخمسة عندما توجه
لحصار حلب ، وكانت المرة الثانية سنة احدى وسبعين وخمسة ، حين تصدّى له واحد من
الحشيشية ، فخذل شهاب المدينة خذله ، وقد عصه الله في المرتين (٤) .

(١) الديوان / ٦٥ ، الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٧١١ .

(٢) النوادر السلطانية / ٢٧ .

(٣) البداية والنهاية : ٣١٩ / ١٢ .

(٤) انظر سنا البرق : ١٠٠ / ١ ، الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٦١٤ ، ٦٥٨ ، فوج الكروب : ٢٤ / ٢ ،

البداية والنهاية : ٣١٣ / ١٢ ، النجوم الزاهرة : ٧٦ / ٦ ، وانظر عن علاقة صلاح الدين

بالاسماعيلية ، كتاب : سياسة صلاح الدين / ٣٦٣ - ٣٨٨ .

ويبين القاضي الفاضل نجات صلاح الدين في المرة الثانية في كتاب ، يقول :-
 " السلامة شامة ، والراحة بحمد الله للجسم الشريف الناصري حاصلة ، ولم ينله من الحشيشي
 الملعون إلا خدش قطرت منه قطرات دم خفيفة ، انقطعت لوقتها ، واندماحت اساعتها ،
 وليس في الأمر بحمد الله ما يضيق صدرا ، ولا ما يشغل ســــرا " (١) .

ومن تلك الأحداث تعرضه للمرض أكثر من مرة ، ففي سنة ثمانين وخمسائة مرض السلطان
 أيما ثم شفاء الله (٢) ، وفي سنة احدى وثمانين مرض مرضا شديدا حتى باغ إلى غاية الضعف
 وأيس منه ، ورجف بموته ، بهد أن الله من عايه بالشفاء ، ففرح المسلمون فرحا عظيما ، واستبشروا
 خيرا . وهذا ابن سناء المالك يشير إلى مرضه هذا وشفائه منه ، وما تتبع هذا الشفاء من
 استقرار البسيطة ، مشبها صلاح الدين بالطور الثابت الذي لم ينسف ، يقول من قصيدة :

بَشِّرْ بِمَحْتَمَلِ الْبَسِيطَةِ ثُمَّ قُلْ قَرِّيْ فُطُورَكَ ثَابِتٌ لَمْ يَنْسُفْ

وينبه الشاعر إلى قضية قيمة تتبع شفاء صلاح الدين ؛ قضية مواصلة الجهاد الذي
 سيفضي بالنهاية إلى سقوط الصليب ، ورفع راية القرآن ، يقول :-

وَأَشِعْ بِشَائِرِ بَرِّئِهِ ثُمَّ انْظُرُوا كَمَدَ الصَّالِبِ بِهِ وَشَرَى الْمُصْحَفِ

وشفاء صلاح الدين تأمن الأمة الضياع ، كما أمنت بعداه من قبل بعد ما عانت من
 الذعر والفاق فترة غير قصيرة من الزمن ، يقول ابن سناء من القصيدة نفسها :-
 وَاللَّهِ أَكْرَمُ أَنْ يُضَيِّعَ أُمَّةً أَمِنَتْ بَعْدَ إِكْ بَعْدَ طُولِ تَخَوُّفٍ (٣)

إن الخوف واليأس اللذين أصابا الأمة بمرض صلاح الدين دام يكونا فقط بسبب حرصها
 على حاكم يسوسها تتمثل فيه صفات القيادة والسيادة ، وإنما يرجع سبب ذلك إلى أن صلاح
 الدين يمثل في نظر الأمة المجاهد الذي سخر نفسه لتحرير المقدسات الإسلامية وتخليصها

(١) الروضتين : ج ١ ق ٢٥٩ / ٦٥٩ .

(٢) انظر النوادر السلطانية / ٦٦ ، الروضتين : ٥٥ / ٢ .

(٣) ديوان ابن سناء / ٢٠٢ .

من أيدي الصليبيين ، لا سيما أن الأمة قد عقدت عليه الآمال في التحرير بعد وفاة الملك
العادل نور الدين ، ولذلك نرى ابتهاج السامعين بشفائه عظيمًا .

أما مرض وفاته فقد تحدّث عنه ابن شدّاد في سيرته حديثًا مفصّلًا دقيقًا ، فقد كان
أول مرضه ليلة السبت السادس عشر من صفر سنة تسع وثمانين وخمسائة ، ولما كانت ليلة
الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسائة ، وهي الليلة الثانية عشرة من
مرضه ، اشتدّ مرضه وخارت قواه ، فبقي على هذه الحال حتى توفي بعد صلاة الصبح (١) .
كانت وفاة صلاح الدين كارثة عظيمة على الأمة الإسلامية ، بحيث ترك وفاته فراغًا يضرع
ملوء ، فنهب الشعراء يرونه معبرين عما أصابهم والأمة من جزن عظيم ، ومن هؤلاء
الشعراء العنبر الأصفهاني ، فقد رثاه بقصيدة طويلة عسود أبياتها مائتان
واثنان وثلاثون بيتًا ، عبر في مطلعها عما أصاب الملك من تشتت وضياح ، وعن تغير الدهر ،
كما سجّل ما كانت تبذله الرعية له من طاعة لطاعته ربه ، يقول :-

شَمَلُ الْهُدَى وَالْمَلِكُ عَمَّ شَتَاتُـهُ وَالْأَفْرَسَاءُ وَأَقْلَعَتْ حَسَنَاتُـهُ
أَيْنَ الَّذِي مَنْ لَمْ يَزَلْ مَخْشِيَةً مَرْجُوَّةُ رُهْبَانِهِ وَهَبَاتُـهُ ؟
أَيْنَ الَّذِي كَانَتْ لَهُ طَاعَتُنَا مَبْدُوءَةُ أَرْبِهِ طَاعَاتُـهُ ؟

ثم أضاف العنبر بالدور الجهادي الخالد الذي قام به صلاح الدين ذاكرًا صفاء
نيتته في الجهاد ، وبعض أعماله ضد الصليبيين ، واستمراره في جهادهم والانتصار عليهم ،
ويشير العنبر إلى أن لذة صلاح الدين تكمن في هذا الجهاد ، فلم يكن همه تحقيق اللذة
لنفسه قط ، كما أنه قام بنصرة الاسلام والدفاع عنه ، يقول :-

بِاللَّهِ أَيْنَ النَّاصِرُ الْمَلِكُ الَّذِي لِلَّهِ خَالِصَةٌ صَفَتْ نِيَاتُـهُ ؟
أَيْنَ الَّذِي عَنَتِ الْفَرَنْجُ لِبَاسِـهِ ذَلًّا ، وَمِنْهَا أَدْرَكَتْ فَارَاتُـهُ ؟

(١) انظر الحديث عن مرضه وفاته في النوار السلطانية / ٢٤٢ - ٢٤٧ ، الفتح / ٦٢٧ ،
الباهر / ١٨٨ ، مرآة الزمان : ج ٨ ، ق ١ / ٤٣٠ ، الروضتين : ٢ / ٢١٢ ، وفيات الأعيان :
٢٠١ / ٢٠٣ ، البداية والنهاية : ٤ / ١٣ ، السلوك : ج ٢ ، ق ١ / ١٢١ .

- ٥٥ -

مَنْ فِي الْجِهَادِ صَفَاحُهُ مَا أُغْمِدَتْ
لَذَّ الْمُتَاعِبِ فِي الْجِهَادِ وَلَمْ يَكُنْ
فِي نُصْرَةِ الْإِسْلَامِ يَسْتَهْزِءُ إِثْمًا
بِالنَّصْرِ حَتَّى أَغْمِدَتْ صَفَاحَتَهُ ؟
مُذْ عَاشَ قَطُّ لِدَايَتِهِ لِدَايَتَهُ ؟
إِطْوَلَ فِي رَوْضِ الْجَنَانِ سَنَانُهُ

وبيّن العماد، مبالغا، أن موت صلاح الدين لا يعني موت شخص واحد، بل يعني مسوت الأمة، يقول :-

لَا تَحْسَبُوهُ مَاتَ شَخْصٌ وَاحِدٌ فَمَاتَ كُلُّ الْعَالَمِينَ مَمَاتُهُ

وسجل العماد في قصيدته هذه بعض سماته كالكرم والرحمة والعدل، والشجاعة، ويلاحظ من خلال دراسة الأبيات المتبقية من القصيدة (١) حسن سيرته، وصدق جهاده، مما دفعه إلى أن يقرنه بصحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقد قام الصحابة رضوان الله عليهم بأعمال مجيدة، وضرّبوا أحسن الأمثلة في جهادهم مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - وفي حسن سيرتهم، فاستحقوا أن تنزل فيهم الآيات، وقدّموا بعد وفاته أعمالا لا تقل أهمية عن أعمالهم في حياته، وقد استمروا على جهادهم في سبيل الله لحماية الدين ونشره، وحماية الأمة الإسلامية، وتوفير أسباب تماسكها وقوتها، كما بذلوا كل ما في وسعهم لنشر العدل والأمن والاستقرار، وكذلك فعل صلاح الدين، فلا غرابة أن يمجّد العماد أعماله، بل لا غرابة أن رأها جديرة بأن ينزل فيها القرآن لو تلت في عصر نزوله، يقول :-

لَوْ كَانَ فِي عَصْرِ النَّبِيِّ لَا تُزَايَسَتْ فِي ذِكْرِهِ مِنْ ذِكْرِهِ آيَاتُهُ (٢)

ومن الشعراء الذين رشوا صلاح الدين جعفر بن شمس الخلافة (٣)، يقول -

(١) لم يبق لنا من القصيدة إلا سبعة وستون بيتا . انظر الديوان / ٩٢ .

(٢) الديوان / ٨٦ ، البروضتين : ٢ / ٢١٥ ، بعض الأبيات مكرّر في مرآة الزمان : ج ٨ ق ١ / ٤٣١ ، والنجوم الزاهرة : ٦ / ٦١ ، والألنح الجليل : ١ / ٣٩٥ .

(٣) ابن شمس الخلافة هو : أبو الفضل جعفر بن شمس الخلافة أبي عبد الله محمد بن شمس الخلافة مختار الأفضلي ، نسبة إلى الأفضل أمير الجيوش بمصر ، الملقب بمجد الملك الشاعر المشهور . كان فاضلا ، حسن الخط ، وله توالييف كثيرة منها كتاب " الآداب " طبع في القاهرة سنة ١٩٣٠ م ، كانت ولا دته سنة ثلاث وأربعين وخمسة ، وتوفي سنة اثنتين وعشرين وستة . انظر : وفيات الأعيان : ١ / ٣٦٢ ، حسن المحاضرة : ١ / ٢٢١ .

قصيدة معبرة عن حزنه العميق ، مثبتا ما قام به صلاح الدين من الدفاع عن الاسلام وانقاذ البيت المقدس ، وما حل بالأعداء نتيجة طاعة صلاح الدين الله :-

وَأَوَّاهُ أَنْ يَنْكَسِرَ عَلَى قَدَرِ حَقِّهِ	أَسْأَلُ دُمُوعَ الْعِزِّ مِنْ أَعْيُنِ الشَّهْبِ
جَزَاءَهُ عَنِ الْإِسْلَامِ خَيْرًا إِلَهِي	فَمَا مَلَأَ عَنْهُ مِنْ دِفَاعٍ وَمِنْ دَبَرٍ
تَدَارَكَهُ بَعْدَ ابْتِذَالٍ فَقَدْ غَدَا	- وَكَانَ شَدِيدَ الْخَوْفِ - فِي أَمْنِ الْحُجْبِ
وَأَصْبَحَ الْبَيْتُ الْمُقَدَّسُ مُنْقَبِذًا	بِأُصَابِ عِزِّهِ مِنْ مُقَارَنَةِ الصَّالِبِ
أَذَلَّ لَهُ إِلَهُ الْعِدَا مُذْ أَطَاعَهُ	وَسَهَّلَ مِنْهُمْ كُلَّ مُشْتَعٍ صَعُوبِ (١)

ومما يلاحظ من خلال أبيات العماد وأبيات جعفر بن شمس الخلافة أن رثاء صلاح الدين لم يكن رثاء تقليديا يمكن أن يعمم في أي مناسبة وفاة ، ولكنه كان رثاء موضوعيا ، واقعيا ، إذ يبرز الاهتمام بالعضوم الحقيقي لحياة صلاح الدين ، الذي قضى حياته مدافعا عن الاسلام ، مجاهدا مخلصا في سبيل الله حتى استطاع تحرير المقدسات .

ذكر ابن شداد في سيرته أن صلاح الدين " مَلِكٌ مَا مَأْكٌ " ، ومات وام يخلف نفسه خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهما ناصريا وجريا (٢) واحدا ذهبا سوريا (٣) ، وام يخلف ملكا ولا دارا ولا عقارا ولا بستانا ولا قرية ولا مزرعة ولا شيئا من أنواع الأملاك رحمة الله عليه " (٤) .

* * *

(١) الروضتين : ٢٢٤/٢ .

(٢) كلمة جرم كانت تعني الدينار . انظر : النوادر السلطانية / ٨ ، حاشية (٥) .

(٣) . والدينار السوري يعني الذي ضرب في مدينة صور أيام الدولة الفاطمية ، انظر المصدر نفسه / ١٧ ، حاشية (٢) .

(٤) نفسه / ٨ .

رسم لنا الشعراء صورة أخلاقية ومثالية صادقة وواضحة المعالم لشخصية صلاح الدين في جوانبها المختلفة من خلال ذكرهم لصفاته وشمائله الإسلامية السامية .

ورث صلاح الدين بعض صفاته عن أقربائه ، يقول الشاعر هبة الله بن وزير مصر المصري (١) :-

غداً وارثاً من شيركوه عزائماً له فتكت بالشرك منها حشودها (٢)

ولا شك أنه تأثر في بعض صفاته بالملك العادل نور الدين (٣) ، وثمة صفات أخرى اكتسبها من بيئته وثقافته ، ومناقب صلاح الدين كثيرة عظيمة ، وفي هذا يقول العماد :-

ماذا يحد المدح منه فإنسأ مناقبه جلّت عن الحدّ والأحصر (٤)

وصفاته عند فتیان الشاغوري تعيي وتعجز البايغ ، والمسهب فيها والمقصر سيان ، يقول :-
أعيت وأعجزت البايغ صفاته فالسهب المنطبق مثل المقصر (٥)

ومن خلال البارزة التي خاضها الشعراء على صلاح الدين في شعرهم الشجاعسة ، فقد أعجبوا بها أيما إعجاب ، فما تكاد تخلو قصائد مدحهم من الإشارة بهذه الصلابة ، حتى انهم رسموا ضرباً من الصور الشعرية الصادقة لها ، فقد شبهوا صلاح الدين بالأسد ، يقول فخر الكتاب الجويني (٦) مادحاً :-

(١) هو أبو المكارم هبة الله بن وزير بن مقلد المصري ، قال العماد في الخريدة : " ذكر لي

بمصر أنه من أهل الاجادة " . الخريدة : شعراء مصر : ١٤٣ / ٢ .

(٢) الخريدة : شعراء مصر : ١٤٥ / ٢ .

(٣) انظر الحديث عن صفات نور الدين في الأدب : " نور الدين في الأدب العربي " / ٣٢ .

(٤) ديوان العماد / ٢٠٧ ، الخريدة : شعراء مصر : ٩ / ١ .

(٥) ديوان الشاغوري / ١٤١ .

(٦) هو : أبو علي بن إبراهيم الملقب فخر الكتاب الجويني الأصل ، البغدادي الكاتب المشهور ،

المعروف بأبن التميمية ، والجويني نسبة إلى جوين ، وهي ناحية كبيرة من نواحي نيسابور ،

كان من بغداد ، أتاك زكي بالشام ، أقام بعده عند والده نور الدين محمود ، ثم مافر إلى

مصر في أيام ابن رزيق ، وتوطن بها ، توفي سنة ست وثمانين وخمسمائة بالقاهرة . انظر

الخريدة : القسم العراقي : ٥٨ / ٣ ، معجم الأدباء : ٤٣ / ٩ ، وفيات الأعيان : ١٣١ / ٢ ،

الوافي بالوفيات : ١٢٧ / ١٢ ، ١٢٨ .

الهُمَامُ الْغَضَنَفَرُ الْمَالِكُ النَّصَا صِرْ مَوَالِي الْوَرَى صَلَاحُ الدِّينِ

ويقول :-

لَكَ قَائِبٌ عِنْدَ الْقَاءِ مَكِينٌ وَأَهُ مِنْ تَقَاهُ أَلْفُ كَبِيرِينَ
يَا مَايَكَا يَا قَى الْحُرُوبِ بِحَوْلِ (١) اللَّهُ مُسْتَعِصِمًا وَصِدْقُ الْيَقِينِ (٢)

فصلاح الدين يلقى العدو في الحرب بقلب ثابت ، معتمدا على الله ، صادق اليقين بنصره ، وهذا ما يتصف به البطل المسلم .

وهو ذا العماد يصوره أسدا يملأ البلاد مهابة ، يقول :-

مَلَأَتْ مَهَابَتُهُ الْبِلَادَ ، فَإِنَّهُ أَسَدٌ ، وَإِنْ بِلَادُهُ غَابَتْ عَنْهُ (٣)

وهو في صدر العدو مهيب مرهوب الجانب ، حتى صار اسمه يبعث الرعب في نفوس

الأعداء ، يقول أبو الفضل الجاياني :-

وَأَنَا اسْمُ صَلَاحِ الدِّينِ يَذْكُرُ فَمَسِي جَيْشِ الْعَدُوِّ فَيَسْبِيهِمْ تَخْيُّلُهُ (٤)

بلغ صلاح الدين من شجاعته قدرا مثل ما بلغ من جودة في القدرة على تغيير الأشياء ،

فإذا ما حلّ ريعا مجديا قاحلا فإتته يقدو من كرمه وعطائه أخضر ، وإذا ما سلّ سيفه فمسي

الحرب عاد من دماء الأعداء وقد تغير لونه ، يقول ابن الدهان الموصلاني :-

مَا حَلَّ رَيْحَ الْمَحِلِّ أَغْبَرُ قَاتِمًا رَا لَا وَأَصْبَحَ مِنْ نِدَاءِ أَخْضَرَا
أَوْ سَلَّ يَوْمَ السَّرُوعِ أَبْيَضَ صَارِمًا رَا لَا وَعَادَ مِنَ الْأَعَادِي أَحْمَرَا (٥)

(١) في البرق " بعمون " : ١٧٣/٣ .

(٢) البرق الشامي : ١٧٢/٣ ، الروضتين : ٩/٢ .

(٣) الديوان / ٩٠ ، الروضتين : ٢١٦/٢ .

(٤) الروضتين : ١٥١/٢ .

(٥) ديوان ابن الدهان / ٥١ .

وصلاح الدين أشد الناس بأساً وأكرمهم رجالاً ، يقول عرقلة الكاظمي مخاطباً رايّاه :-

وإنك من أشدّ الناس بأساً بلا شك وأكرمهم رجلاً (١)

وفي هذا المعنى يقول سعادة بن عبد الله الأعشى (٢) :-

وصلت لدى سلم وصلت لدى وغنى ففقت جميع الناس بالأس والندى (٣)

وأس صلاح الدين تخضع له الملوك والناس ، يقول فتيان الشاغسوري :-

أسير بعزمي لا بجسمي فها أنسا العقيم بأرض الشام والعزم راحل
إلى ملك تهنو الملوكة لبأسه أخي عزفة ذات لديها القبائل (٤)

ويقول ابن شداد في سيرته عن شجاعته وقوّه بأسه : " لقد كان - رحمه الله تعالى - من عظماء الشجعان ، قوي النفس ، شديد البأس ، عظيم الثبات لا يهوله أمر " (٥) .

* * *

وقد نجد الشعراء فيه صفة الكرم ، وأكثروا الحديث عنها ، لأن كرمه كان في السذوق ، فما كان يبخل على شاعر ، ولا كان يردّ سائلاً ، أو يخيب آملاً ، وكان من كرم شيمه " إذا عرف في خزانته موجوداً فإنه لا يستطيع تلك الاملة حتى يفرقه جوداً " (٦) فـ لا غرابة إن اجتمعت الوفود ببابه تطلب رده في زمن ليس فيه كريم سواء ، فقد قلّ المنعمون

(١) ديوان العرقلة / ٨٤ .

(٢) سعادة الأعشى : هو سعيد بن عبد الله الحمصي الضير ، المعروف بسعادة ، كان مملوكاً لبعض الدمشقيين ، سافر إلى مصر في أول ملكة السلطان صلاح الدين ، وكان يكتب على قصائده سعيد بن عبد الله . انظر : الخريدة : شعراء الشام : ٤٠٦ / ١ ، نكت الهميان / ٥٨ ، الوافي بالوفيات : ٢٣٢ / ١٥ .

(٣) الروضتين : ١٢ / ٢ .

(٤) ديوان الشاغسوري / ٣١٢ .

(٥) النوادر السلطانية / ١٩ .

(٦) الروضتين : ٢٣ / ٢ .

وكثير البؤساء، فما يسأل غيره، يقول سبط بن التعاويذي (١) :-

فلا يُضَجِرَنَّكَ أَزْدِ حَامُ الْوُفُودِ عَلَيْكَ ، وكثرة ما تَبَسَّدُ
فإنَّكَ فَيَ زَمَنٍ لَيْسَ فِيهِ جِوَانُ سِوَاكَ ، ولا مُغْضِلُ (٢)
وما فيه غَيْرُكَ مِنْ يُسْتَمَاحُ ، وما فيه الْآكُ مَنْ يُسْأَلُ (٣)

وكان سبب استياء السلطان آن اثني عشر رجلا في مصر أعلنوا إعادة الدولة الفاطمية الزاهقة، وكانوا عقدوا على الوفاء، فأنحلوا، ولما علم السلطان بهذا الأمر اعتراه الهم، وتضجر بمن على بابه، ولكن القاضي الفاضل هوّن الأمر عليه، فغفروا له، وأقسم أنه ما عاش لا يرد قاصدا ولا يصدّ وافدا، وتقدّم في الحال بقضاء حقوق الوافدين، وانجاح آمال القاصدين، فكتب ابن التعاويذي في هذا المعنى الأبيات الساغة الذكر إلى السلطان من بغداد (٤).

ويقول ابن العديم: " . . . وكانت الخوفا في كلّ عام تزدهم ببابه من الشعراء والقراء والفقراء وغيرهم، وكان يوسعهم فضلا وانعاما، ويوليهم مبرة وكراما " (٥)، ويقول: " ولم

(١) هو: أبو الفتح محمد بن عبيد الله الكاتب المعروف بابن التعاويذي الشاعر المشهور، نسب الشاعر إلى جدّه لأنّه كواه صغيرا، ونشأ في حجره، كان كاتباً بديوان المقاطعات ببغداد، صاحب العماد الكاتب لما كان بالعراق، فلما انتقل العماد إلى الشام، واتصل بخدمة السلطان صلاح الدين، أخذ ابن التعاويذي بمراسلاته، وميّدح السلطان صلاح الدين بقصائد جيا، أنفذها إليه من بغداد، صنّف كتابا سمّاه " الحجة والحجاب " وله ديوان شعر مطبوع، كانت ولادة ابن التعاويذي سنة تسع عشرة وخمسمائة، عمي في أواخر أيامه سنة تسع وسبعين وخمسمائة، توفي سنة ثلث وأربع وثمانين وخمسمائة ببغداد. انظر: الخريدة: شعراء العراق: ٢/٣، الروضتين: ١٢٣/٢، وفيات الأعيان: ٤٦٦/٤، نكت الهميسان: ٢٥٩.

(٢) الرمل: المحتاج المسكين. انظر قاموس المحيط. (الرمل).

(٣) الديوان: ٢٣٣/٢، الروضتين: ١٢٨/٢.

(٤) انظر الروضتين: ١٢٨/٢.

(٥) زبدة الحليب: ١٢٥/٣.

يجتمع بيباب أحد من الملوك بعد سيف الدولة بن حمدان ما اجتمع بيبابه - رحمه الله -
وزاد على سيف الدولة في الحياء والفضل والعطاء * (١).

وفي عطاء صلاح الدين الوفود النازلين بيبابه ، يقول ابن التعاويذي :-

يَا مَنْ إِذَا نَزَلَ الْوُفُودُ بِبَابِهِ نَزَّاحُوا بِجَمٍّ مِنْ نَدَاءٍ مُعِينٍ (٢)

ويشبهه عرقاة الكلبى المال بالما يسيل متدفقا من كف صلاح الدين حينما يطالبه
السائل ، يقول :-

كَأَنَّ أَمَالَ فِي كَفِّهِ مَاءٌ إِذَا مَا السَّائِلُ اسْتَسْقَاهُ سَكَّالًا (٣)

وشبهه الشعراء عطاءه بالبحر ، فهذا العماد يصرى أناماه أبجسرا
من العطاء ، يقول :-

رَأَيْتُ صَاحَ الدِّينِ أَفْضَلَ مَنْ غَدَا
وَأَشْرَفَ مَنْ أَضْحَى وَأَكْرَمَ مَنْ أَمْسَى
وَقِيلَ لَنَا فِي الْأَرْضِ سَبْعَةُ أَبْحُسِرَ
وَلَسْنَا نَرَى إِلَّا أَنَامَاهُ الْخَمْسَا (٤)

ويقول سعادة الأعمسى :-

سَجَّ يَرْوُحُ إِلَى النَّدَى بِرَاحَةٍ
وَفَتْحَى ، إِذَا زَحَرَتْ بَحَارُ نَوَالِيهِ
قَدْ أَغْشَبَ الْمَرْوُفُ بَيْنَ بَنَانِيهَا
فَرَقَتْ بِحَارُ الْأَرْضِ فِي خُلْجَانِيهَا (٥)

ويشبهه الشاغوري بنانه بالأنهر عند العطاء ، يقول من قصيدة :-

تَنْهَلُ يَمْنَاهُ بِجَدِّ وَاهٍ فُخْمُسُ بَنَانِيهِ الْخَافِقِ خَمْسَةً أَنْهُسِرَ (٦)

(١) زبدة الحاسب : ١٢٥/٣ .

(٢) ديوان ابن التعاويذي / ٤٢٢ .

(٣) ديوان العرقلة / ٨٤ .

(٤) ديوان العماد / ٢٣١ ، معجم الأدباء : ٢٤/١٩ .

(٥) الخريدة : شعراء الشام : ٤٠٨/١ ، الروضتين : ج ١ ق ٢/٦٤٦ .

(٦) ديوان الشاغوري / ١٤٢ .

ويستأهل الشاغوري : بأى شيء سيشبه العفة صلاح الدين لكرمه وأسسه ؟

يقول :-

فَبِمِ الْعُفَّةِ يُشَبَّهُونَكَ فِي النَّدَى وَالْبَأْسِ حَارَتْ فِكْرَةُ الْمُتَفَكِّرِ (١)

ولم يكن صلاح الدين يخش على المال من الانتهاء، الكثرة البذل ؛ ولذلك ما كان يخرجه ، أو يمنعه عن القاصدين ، يقول ابن الساعاتي :-

مَنْ إِذَا أَوْجَسَ خَوْفًا مَالُهُ مِنْ نَدَاهُ لَمْ يُعَوِّذْهُ بِخُزْنِ (٢)

ويتمجّب ابن الساعاتي من صلاح الدين الذي أصبح مثلاً في الكرم ، يكمي عن غيره من الأمثال ، ويرى أن كرمه يفوق كرم حاتم ، يقول :-

مَنْ حَاتِمٌ عِنْدَ مَا كُذِّكَ وَاهِبٌ حَتَّى غَدَا مَثَلًا نَاهِيكَ مِنْ مَثَلِ (٣)

وبعلل أبو الحسن علي بن محمد السخاوي (٤) تفوق صلاح الدين بالكرم بأن صلاح الدين يهب الحصون ، وهذا يومي ، إلى نظام الاقطاع الذي كان يطبقه صلاح الدين في إدارة شؤونه دولته :-

مَا يَوْسُفُ مِمَّنْ يُقَامُ بِحَاتِمِمْ أَنَّى وَقَدْ وَهَبَ الْحُصُونُ وَأَصْفَدَا (٥)

(١) ديوان الشاغوري / ١٤٦ .

(٢) ديوان ابن الساعاتي : ٢٣٤ / ٢ .

(٣) الديلماني : ٣٨٢ / ٢ .

(٤) السخاوي هو : أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الصمد بن عبد الأحد بن عبد الغالب الهمداني المصري السخاوي المقرئ النحوي ، الملقب بـ علم الدين ، ولد بمدينة سخا ، وهي بلدة بالقرية من أعمال مصر سنة ثمان وخمسين وخمسة مائة ؛ ولذلك نسب اليه شرح المفصل للزمخشري ، انتقل إلى دمشق ، وكانت وفاته بها سنة ثلاث وأربعين وستمائة . انظر ذيل الروضتين / ١٢٧ ، وفيات الأعيان : ٣ / ٣٤٠ .

(٥) الروضتين : ١٠٧ / ٢ .

ام يقتصر كرم صلاح الدين على المال ، بل تمدّاه إلى وهب الأقاليم والبلدان عنده أخذها أو فتحها ، فعلى سبيل المثال عندما أخذ آبد (١) سنة تسع وسبعين وخمسمائة وهبها لنور الدين بن قرا أرسلان (٢) بما فيها من الذخائر التي كانت تربي قيمتها على ألف ألف دينار (٣) ، وكان السلطان قد وعده بها من قبل دون الذخائر فقبل له : " رأتك وعدته بآبد وما وعدته بما فيها " ، فقال : " ما يليق بما سنّته مكرمتنا من الشرع أن نهيب له الأصل مع الضئيلة بالفـسـرع " (٤) .

يقول سعيد الحايبي (٥) مخاطباً صلاح الدين ومشيراً إلى منحه ابن قرا أرسلان آبد ، وكان أبوه عاناها مدة وتمناها فما قدر عليها (٦) :
 سَمَحَتْ بِهَا جُوداً لِمَنْ ظَلَّ بَرَهَةً يُفَاوِرُهَا طَوَّراً وَطَوَّراً يُفِيرُهَا (٧)

وقد علّق المستشرق (جب) على كرم صلاح الدين لنور الدين الأرتقي ، فـقـال :
 " لتثبت مرة وإلى الأبد بطلان جميع التهم التي ألصقها به أعداؤه عن الأطماع والأناحية " (٨)

(١) آبد : افظة رومية ، وهي أعظم مدن ديار بكر ، وهو بلد قديم حصين ، على نهر دجلة ، وهي في الأراضي التركية اليوم ، القريبة من الحدود العراقية . انظر معجم البلدان ، ٥٦/١ ، وانظر لسان العرب (آمد) ، والأطلس الأردني ، المركز الجغرافي الماكسي الأردني / ٣١ .

(٢) نور الدين محمد بن فخر الدين قرا أرسلان بن داود بن سايمان بن أرتق ، صاحب حصن كيفا وديار بكر ، وقد حكم بين سنتي اثنتين وستين وخمسمائة وأحدى وثمانين وخمسمائة ، تسام آمد من صلاح الدين في السنة المذكورة في المتن ، انظر البرق : ٧٨/٥ ، الروضتين : ج١ ق ٤٧٦/٢ ، نفسه : ٦٠/٢ .

(٣) في الروضتين ثلاثة آلاف ألف دينار : ٣٩/٢ .

(٤) انظر البرق : ٩٥/٥ ، الروضتين : ٣٩/٢ ، مغز الكسروب : ١٣٦/٢ .

(٥) سعيد الحايبي : قال العماد الأصفهاني : " شاب من جملة المهاجرين إلى مصر في الدولة الناصرية الملاحية ، وفيه أدب وصلاحية " . الخريدة : شعراء الشام : ١٥١/٢ .

(٦) انظر البرق : ٧٨/٥ ، الروضتين : ٤٠/٢ .

(٧) الروضتين : ٣٩/٢ .

(٨) صلاح الدين : جب / ١٣٧ .

وفي منح صلاح الدين الممالك وارجاعها إلى أصحابها يقول ابن سناء المالك :-
 وَقَدْ حَوَاهَا وَأَعْطَى بَعْضَهَا هَيْبَةً فَهُوَ الَّذِي يَهْبُ الدُّنْيَا وَأَمْ يَهْبِ
 يُعْطِي الَّذِي أَخْذَتْ مِنْهُ سَالِكُوهُ وَقَدْ يَمُنُّ عَلَى الْمَسْلُوبِ بِالسَّكْبِ (١)

وكان صلاح الدين يعطي فوق ما يوئمل الطالب ، وكان مع ذلك يبسطاه وجهه (٢)
 مع عدم النخبة ، يقول ابن سناء ، بعد أن قدم بمقدمة غزلية ، من قصيدة :-

سَأَلْتُ - وَقَدْ بَانُوا وَبَانَ تَجَلُّدِي - مَحَلًّا فَمَا أَحْلَى وَمَغْنًى فَمَا أَغْنَى
 وَلَكِنْ سَأَلْتُ النَّاصِرَ الْمَلِكَ النَّسَبِي فَأَغْنَى وَأَقْنَى ثُمَّ مَنْ وَمَا مَنَّا (٣)

وكان صلاح الدين " يعطي وقت الضيق ، كما يعطي في حالة السعة " (٤) ، يشير
 ابن الدهان الموصل إلى ذلك ، فيقول :-

وَلَوْلَا جُودُكَ كَلَّ وَقَسَتْ يُرَوِّي غُلَّتِي وَجَوَى الْتِيَا حَسِي
 غَبَرَتْ قَدَى الزَّمَانِ حَالِيفٌ فَقَرَّ خَسِيمًا عَارِيَا ظَمآنٌ ضَا حَسِي (٥)

وبالغ الشاغوري في وصف جود صلاح الدين ، حين يجعله يعتم العالم ،
 إذ يقول :-

فَجُودُكَ عَمَّ الْعَالَمِينَ وَخَصَّهُمْ وَلَمْ نَرُجُودًا قَبْلَهُ مَلَأَ الدَّهْرَ (٦)

ولم يكن صلاح الدين مبذرا في بذل الأموال ، ولكنه كان حكيما مدبرا ، فلم ينس
 أن ثمة تجهيزات القتال ، ومصروفات للمجاهدين تحتاج الأموال الطائلة الانفاق عليها ، فلم
 ييخل ، ولم يقصر تجاهها ، فقد كانت الأموال المتراكمة قباه محفوظة في الخزائن ، لا يسم
 لها بالخروج ، والآن تبذل في جمع المجاهدين المجالدين ، يقول أسامة بن منقذ :-

- (١) الديوان / ٣ ، مخرج الكروب : ٨٣ / ٢ .
- (٢) انظر النوادر السلطانية / ١٨ .
- (٣) الديوان / ٣٢٢ .
- (٤) النوادر السلطانية / ١٢ .
- (٥) الديوان / ٦٨ .
- (٦) ديوان الشاغوري / ١٥١ .

- ٦٥ -

هَرَمْتُ وَرَاءَ خَوَاتِمِ الْخُسْرَانِ هَذَلْتُ أَمْوَالَ الْخَزَائِنِ بَعْدَ مَا
وَبُسَارِزٍ وَمُنَازِلِ الْأَقْصَانِ (١) فِي جَمْعِ كُلِّ مُجَاهِدٍ وَمُجَالِدٍ

وما تجدر الإشارة إليه أن الشعراء ربطوا بين شجاعة صلاح الدين وكرمه ربطاً جليلاً ؛ ما يدل على فهمهم العميق لشخصية هذا البطل المسلم الذي توفرت فيه صفات القيادة والسيادة ، فقد بلغ صلاح الدين الذروة في الشجاعة كما بلغ الذروة في الكرم ، وهما صفتان متوازيتان متلازمتان لا انفصام بينهما ولا انفصال ، يقول ابن الدهان :-

كريمٌ على العافين كالغيثِ مُسْبِلاً شديدٌ على العادين كالليثِ مُشْبِلاً
وسئل إذا ما المالُ أقنَى فأجسلاً وسئل إذا ما سُلَّ أُنْسَى وَقُتِلَ
فَمَا سُلَّ إِلَّا أَهْلُكَ الشَّرِكُ خَسِدُهُ وَلَا سُلَّ إِلَّا إِحْسَانُ الْإِثْمِ لَا (٢)

وفي البيت الأخير إشارة إلى أن صلاح الدين كان يبسط وجهه عند العطاء ، ويقول ابن سناء المالك :-

تَرَى كُلَّ مَنْ يُعْطِي الْمُتَمِنُ غَضَاتَهُ فِدَى مَا يَكُ يُعْطِي الْأَقَالِمُ وَالْدُنَا
وَلَمْ يَكُوهُ أَنْ أَخْجَلَ الْبَيْضَ بِالْأَمَا إِلَى أَنْ أَرَانَا جَوْدَهُ أَخْجَلَ الْعُزْنَ
فَسَائِلُهُ أَتْنَى وَقَاصِدُهُ اهْتَسَدَى وَنَائِلُهُ أَحْيَا وَصَارْمُهُ أَقْنَسَى (٣)

ولا شك أن ثمة علاقة بين الشجاعة والكرم عرفت منذ القدم ، هذه العلاقة مبنية على أسس عدة منها ما اتخذ سمة الاستقراء المنطقي الذي أثبت أن الذي يسخو بنفسه لا يسلد أنه يسخو بماله ، ومنها ما اتخذ سمة دينية قوامها : أن من يؤمن بالله إيماناً قوياً ثابتاً

-
- (١) الخريدة : شعراء الشام : ٥٣٢/١ ، البيتان غير موجودين في ديوان أسامة .
(٢) ديوان ابن الدهان / ٣٩٠ .
(٣) ديوان ابن سناء المالك / ٣٢٢ .

لا بدّ أن يؤمن بأن الأعمار بيد الله وحده ، وأن الرزق موكل إليه ، يرزق من يشاء ؛ ولذلك لا يخشى الموت ولا بهابه ، كما لا يخشى الفقر أو يعافيه ، ولا يخشى نقصا في الأموال (١).

وصلاح الدين من آمن بربه إيمانا عميقا ثابتا كما يمكن أن يستخلص من سيرته ، فهو جندى من جنود الاسلام ، ما هاب الموت قط . واذلك اتخذت شجاعته سمة اسلامية ، فـإذا ما دعي للمعارك نهض إليها دونما تردد ، وهو لا يدري أيعود أم أنه سيموت في قتالها ، ولا حسب المفقّر حسابا ، بل بذل كلّ ما لديه من الأموال عطاءً وأعدادا ، فلم تبق الأموال ، ولم لا توزّع على مستحقّيها ؟

* * *

ومن سمات صلاح الدين التي دارت على ألسنة الشعراء سمة العدل ، فقد عسّرف صلاح الدين بعدله ومقدرته على معالجة الأمور منذ أن تولّى شِخْنِيكِيّة دمشق ، كما ذكرنا سابقا ، حيث قام بالضرب على أيدي اللصوص المتمردين هناك ، واصلاح ما فسد ليسود الأمن والعدل والاستقرار . ولما كان صلاح الدين وزير مصر بعد عمه أسد الدين ، سبّاس الناس فيها بالعدل ، وأصلح ما فسد ، فأمنت الرعيّة واستقرّت أمورهم بعدما عانوا من الذعر والغدر في عهد وزيرها شاور (٢) ، يقول العماد مخاطبا صلاح الدين :-

وَأَمَّنْتُمْ فِيهَا الرِّعَايَا بَعْدَ لَكُمْ
وَأَطَقْتُمْ مِنْ شَرِّ شَاوِرِهَا الْجُمُورَا (٣)

ويقول من قصيدة :-

مَصْرَ بِيُوسُفِهَا أَضْحَتْ مُشْرِقُفَةً
وَكُلُّ أَمْرِ لَهَا بِالْعَدْلِ مُنْضَبِطٌ
وَحِينَ وَافَى صِلَاحُ الدِّينِ أَضْلَحَهَا
فَالْمَصَالِحُ مِنْ أَيْمَانِهِ نَكْطُ (٤)

(١) انظر: حطين بين أخبار مؤرخيها ، وشعر معاصريها / ٤٦ ، ٤٧ .

(٢) هو شاور السعدي ، وقد سبق ترحمته .

(٣) ديوان العماد / ١٦١ ، الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٤٥٤ .

(٤) ديوان العماد / ٢٧٥ ، الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٤٦١ .

ويقول أيضا :-

يا صلاح الدين الذي أصلح الفاسد بالعدل من خطوب الزمان (١)

وعانت الشام بعد موت نور الدين المالك العادل ما عانت مصر ، وفي عهد العاضد ووزرائه ، من جور وخوف وعدم استقرار ، هذا إلى جانب الفساد الناتج عن تنازع الأمراء على البلاد ، وقد أحس الشعراء أنه بعدل صلاح الدين ستنقذ البلاد ، فهذا أسامة بسن منقذ يحث صلاح الدين على السير إلى الشام ، ويأمل أن يصلح ما فسد هناك بالعدل ، فالبلاد فقيرة إليه ، يقول :-

فسير إلى الشام فاللافككة الأبرار تلقاك جمعهم ممددا
فهو فقير إليك يأمل أن تصلح بالعدل منه ما فسدا

ويرى أسامة أن صفة العدل في صلاح الدين الهام من الله ، يقول :-
فما حبك السورى وألهمك العدل م وأعطاك ما ملكت سدى (٢)

ويقول العماد في انقاذ البلاد بعدل الله :-

نجوا البلاد من البلاء بعدلكم فالظلم باد في الجميع صراحه (٣)

وقد اقتدى صلاح الدين في عدله بنور الدين (٤) ، فكان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة ، ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد : من كبير وصغير ، وعجوز هرة وشيخ كبير ، وكان يفعل ذلك سفرا وحضرا (٥) .

(١) ديوان العماد / ٤٠٩ ، الروضتين : ج ١ ق ٤٤٦ / ٢ .

(٢) الروضتين : ج ١ ق ٦٠٥ ، الأبيات الثلاثة المذكورة غير موجودة في ديوانه .

(٣) ديوان العماد / ١١٢ ، مغز الكسروب : ٤١ / ٢ .

(٤) كان نور الدين قد بنى دارا للعدل في بلاده لفصل الخصومات ، وكان يجلس فيها الأسبوع يومين أو أكثر . انظر : الكامل : ٤٠٤ / ١١ ، الروضتين : ج ١ ق ١٧ / ١ ، مغز

الكسروب : ٢٦٨ / ١ .

(٥) النوادر السلطانية / ١٣ ، النجوم الزاهرة : ١٠٠٩ / ٦ .

فإنراه ، بعد أن ملك دمشق ، يجلس به دار العدل ، يرفع المظالم ، ويعيد الحقوق للناس أصحابها ، فينتشر الأمن في ربوعها ، ويعيش الناس في طمأنينة وسلام ، يقول سعد الله الأعمش :-

في دار عدلٍ مُدْ طَلَعَتْ بِأُفْقِهَا بَدْرًا جَاوَتْ الظُّلُمَ عَنْ سُكَّانِهَا
فَبَقِيَتْ مَعْتَصِمًا بِتَاجِ بَهَائِهَا فِي دَسْتِ مَجَاسِهَا وَفِي رِيَوانِهَا
مَا أَصْبَحَتْ أَيْدِي الرُّعْيَةِ تَجْتَنِي عَفْوَ شَارِ الْأَمْنِ مِنْ بُسْتَانِهَا (١)

وسار صلاح الدين في الناس سيرة عادلة مستقاة من الشريعة الإسلامية ، يقول أسامة :-

وَسَرَتْ سِيرَةُ عَدْلٍ فِي الْأَنْامِ كَمَا قَضَى بِهِ الصَّادِقَانِ : الشَّرْعُ وَالسُّورُ (٢)

ويبين العماد في منشور بعثه إلى أحد محتسبي حلب مدى تطهيق الشرع المطهر في عهد صلاح الدين ، يقول : " . . . فإننا لما يفترض من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإجراء أمور الرعية على وفق أحكام الشرع المطهر ، وأخذهم في معاشهم ومعاملاتهم ما يحظر عليهم ملابسة الخطر ، وقيم الوزن بالقسط للبدو والحضر ، حتى تدوم المعاهد بالعادل أهلة والمحافل بالفضل حافلة ، والرعية في ملابس الرعاية رافقة . . . نرى أن نؤي الاحتساب من يكرم محتده ويسمو بسوء دمه " (٣) .

ويقول ابن النحاس المصري (٤)

- (١) الخريدة ، شعراء الشام : ٤١١/١ .
- (٢) الخريدة ، شعراء الشام : ٥٤٥/١ ، البيت المذكور غير موجود في الديوان .
- (٣) البرق الشامسي : ١٣٦/٥ .
- (٤) هو : يحيى بن علم الطوك المعروف بابن النحاس المصري ، من ولد تميم بن المعز الصنهاجي ، صاحب المهدية ، كان من أمراء الدولة المصرية في دولة ابن رزيق ووالده ، ثم دولة شاور ، ثم خدم السلطان صلاح الدين ، توفي سنة تسع وثمانين وخمسمائة . الخريدة ، شعراء مصر : ١٢٢/٢ .

يا مالِكِ الحَصْرِ وَالشَّامِينَ وَالْيَمَسِينَ
وَنَاجِرِ الْحَقِّ إِذْ عَزَزْتَ خَوَانِلُسَهُ
وَيَا مُعِيدَ حَيَاةِ الْفَرَسِ وَالسَّنَنِ
وَمُنْقِذِ الدِّينِ وَالْدُّنْيَا مِنَ الْفِتَنِ (١)

وصلاح الدين ينتصر لأهل الحق على الباطل ، يقول العماد :-

مَنْ كَانَ أَهْلُ الْحَقِّ فِي أَيَّامِهِ
صِمْرُهُ يُزِدُّونَ أَهْلَ الْبَاطِلِ (٢)

وصلاح الدين جعل المسامعين يأمنون بالإسلام ، فقد أوسعهم بالعدل ، وبدل سخطهم
رضى ، وبدلهم من بعد خوفهم أمنا ، يقول ابن سناء الملك :-

أَنَا مَبْنِي الْإِسْلَامَ فِي كَهْفِ أَمْنِيهِ
وَعَوْضَهُمْ مِنْ بَعْدِ سُخْطِهِمْ رِضًى
وَأَوْسَعَهُمْ عَدْلًا وَأَسْكَنَهُمْ عُدْنَنَا
وَبَدَّلَهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنَنَا (٣)

كما أن صلاح الدين قدّم للمسامعين المعروف ، وقام بحمايتهم والمحافظة على أعراضهم ،
ورّد المصائب عنهم ، وأمر بالمعروف فيهم ، ونهى عن المنكر ، وهذا ما أشار إليه العماد في
المنثور السابق ، يقول فتیان الشاغوري :-

لَا يَمُودُ مَنَّا الْمُسَامِعُونَ فَكَمْ يَمُودُ
أَمْنَتَ سِرِّيهِمْ وَصَنَّتْ حَرِيصُهُمْ
أَوْ لَيْتَهُمْ مَعْرُوفُهُمَا أَلَمْ يَنْكُرْ
وَدَرَأَتْ عَنْهُمْ قَاصِمَاتِ الْأَظْهَرِ
لِلْمُسْلِمِينَ وَمِنْ سَمَاعِ بَهْمِشِيرِ
فِيهِمْ بِمَعْرُوفٍ وَمُنْكَرٍ مُنْكَسِرِ
وَبِكَ اضْمَحَلَّتْ سَطْوَةُ الْمُتَكَبِّرِ (٤)

وصلاح الدين العادل ، يُزَالُ الهمّ عن المكروب ، يقول ابن التعاويذي :-
الْمَلِكُ الْعَادِلُ الَّذِي كَشَفَ اللَّهُ بِهِ هَمَّ كُلِّ مَكْسُورٍ (٥) .

(١) الخريدة ، شعراء مصر : ١٢٢/٢ .

(٢) الديوان / ٣٤٠ ، الروضتين : ٢١٧/٢ .

(٣) ديوان ابن سناء الملك / ٣٢٢ .

(٤) ديوان الشاغوري / ١٤٧ ، الروضتين : ٨٤/٢ .

(٥) ديوان ابن التعاويذي / ١٩ .

وهو عادل في حكمه ، فلا يخشى جور الأيام في عصره ، لأن الجور قد فُقد ،
يقول ابن التعاويذي أيها :-

الملكُ العادلُ في حُكْمِهِ فَهُوَ مِنَ الْأَفْلاكِ مَعْدُودُ
وكيفَ نخشى جورَ أيامِنَا في عصرِهِ والجورُ مَذْقُودُ (١)

وعدل صلاح الدين شمل الناس كافة ، وانتشر في البلاد شرقا وغربا ، يقول
حسن التدمري (٢) :-

أَسَاطَانُ أَرْضِ اللَّهِ ذَا الطُّولِ وَالْقَهَرِ حَالِفُ الْمَعَالِي وَالْمَنَاقِبِ وَالْخُسْرِ
وَمِنْ عَمَّ شَرْقُ الْأَرْضِ وَالْغَرْبِ عَدْلُهُ كَمَا عَمَّاهُ نَيْتُ السَّحَابِ مِنَ الْقَطْرِ (٣)
ويقول ابن سناء الملك :-

أرى كلَّ شيءٍ في البسيطةِ قد نَمَا بَعْدَ لِكَ حَتَّى قَدْ نَمَتْ أَنْجُمُ السَّمَاءِ
فَسِيرَتُهُ أَمْ تَبْقَى فِي الْأَرْضِ ظَالِمًا وَنَائِلُهُ أَمْ يُبْقَى فِي الْخَلْقِ مُعْدِمًا (٤)

* * *

ويتحدث الشعراء عن تقوى صلاح الدين وإيمانه ، وما ترتب على ذلك من سلامة
إسلامي قويم جعله حقا قدوة للمسلمين ، فهو يخشى الله ، ويرى النصر في تقواه ، يقول
العماد :-

رَأَى النَّصْرَ فِي تَقْوَى الْإِلَهِ ، وَكُلُّ مَنْ تَقْوَى بِتَقْوَى اللَّهِ لَا يَعْدِمُ النَّصْرُ (٥)

-
- (١) ديوان ابن التعاويذي / ١٠٩ .
(٢) هو : أبو حسان نعمة بن حسان بن نعمة بن حسان التدمري ، من أهل تدمر ، من بني
جرير من عامر ، قاري ، مهير من أهل النحو والأدب ، قدم متظلمًا من والي تدمر سنة
اثنين وسبعين وخمسائة إلى المخيم الملكي الناصري بحماة . انظر الخريدة ،
شعراء الشام : ٢ / ٢٣٢ .
(٣) الخريدة : شعراء الشام : ٢ / ٢٣٢ .
(٤) ديوان ابن سناء الملك / ٢٧١ .
(٥) ديوان العماد / ١٦٠ ، الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٤٥٤ .

وهو يستعين بربه ويعتمد عليه ويحسن الظن به ، يقول ابن الجوار (١) :-

الجِدُّ في هذا الزَّمانِ مُبَيَّنٌ والهَزَلُ فيه مَعَ الغَوَايَةِ مُخْتَصِفٌ
بِالنَّاصِرِ المَهْدِيِّ ، والهادِي إلى سُبُلِ الجِهَادِ أَبِي المَظفَرِ يوسُفِ
المستعين بربه والواثق المَنصُورِ ، والمُستَظهِرِ البَرِّ الوَفِيِّ (٢)

وصلاح الدين يطيع ربه ، يقول ابن الساعاتي :-

شهابٌ هُدَى في ظِلْمَةِ الشَّكِّ ثاقِبٌ وسَيْفٌ هُدَى في طَاعَةِ اللهِ مُرْهَفٌ (٣)

ولطاعته ربه أطاعه الناس ، يقول العماد من قصيدة في رثائه :-

أَيُّنَ الَّذِي كَانَتْ لَهُ طَاعَاتُنَا مَبْدُوءَةً وَلِرَبِّهِ طَاعَاتُكُمْ (٤)

ويقول تقي الدين عمر بن شاهنشاه (٥) :-

أَصْلَاحُ دِينِ اللهِ أَمْرٌ طَاعَتُهُ فَكُرَ الزَّمانُ بِمَا تَشَاءُ أَيُّعْمَلُ (٦)

- (١) هو: نجم الدين يوسف بن الحسين بن الجوار ، وابن الجوار نسبة إلى جدّه الذي رفض الإقامة بدمشق ، ولزم المجاورة بمكة فعرّف بالمجاور ، تعلّم القرآن وعلمه ، واتخذ مكتباً يعلم فيه الصبيان على باب جامع دمشق ، احتاجه صلاح الدين ليعلم ابنه العزيز ، توفي سنة إحدى وستمئة ، انظر: الروضتين : ١٠٣ / ٢ ، الفصول الجامعة : ٢٥٠-١٩٠ .
- (٢) الروضتين : ١٠٣ / ٢ .
- (٣) ديوان ابن الساعاتي : ٤٠٩ / ٢ ، مفرج الكروب : ٨٤ / ٢ .
- (٤) ديوان العماد : ٨٢ / ٢ ، الروضتين : ٢١٥ / ٢ ، النجوم الزاهرة : ٦١ / ٦ .
- (٥) هو: الملك الأجل المظفر بن شاهنشاه بن أيوب بن " شاذي " صاحب حماة ، وهو ابن أخي الملك الناصر صلاح الدين يوسف ، ناب عن عمّه في مصر ، أقطعته عمّه أقطاعات عدّة ، وشارك تقي الدين عمّه في مواقع كثيرة ، كان كريماً ، بنى طائفة من المدارس منها : الشافعية والمالكية في مصر ، والتقوية في دمشق ، وكان عنده فضل وأدب ، وله شعر حسن ، أورد له العماد جزءاً منه في الخريدة ، كانت ولايته سنة أربع وثلاثين وخمسائة ، وتوفي سنة ثمان وسبعين وخمسائة . انظر: الخريدة : بداية قسم شعراء الشام : ٨١ / ١ ، البرق الشامي : ١٤٥ / ٥ ، الروضتين : ٨٥ / ١ ، السداس : ٢١٦ / ١ .
- (٦) الخريدة بداية شعراء الشام : ١٠٥ / ١ ، مفرج الكروب : ٢٣٨ / ٢ .

ومن مظاهر تقوى صلاح الدين أنه " كان شديد المواظبة على الصلاة بالجماعة ، وحتى أنه ذكر يوماً أن له سنين ما صلى إلا جماعة ، وكان إذا مرض يستدعي الإمام وحده ، ويكلف نفسه القيام ، ويصلي جماعة ، وكان يواظب على السنن والرواتب ، وما ترك الصلاة إلا في الأيام الثلاثة التي تغيب فيها ذهنه " (١) ، أي قبيل موته ، وكانت مواظبته عليها سراً وحضراً ، فعلى سبيل المثال عندما فتح نابلس - وكان ذلك يوم الجمعة - أخذ يكبر الله ، ثم صلى بها جماعة ، يقول ابن سناء الماسك :-

تَكَبَّرَ فِيهَا اللَّهُ فِي الْجَامِعِ الْمَذْيِ جَمَعَتْ بِهِ بَيْنَ الْفَرِيضَةِ وَالْفَتْلِ
وَصَلَّاهُ فِيهَا جُمُعَةً بِجَمَاعَةٍ تَنَادَىكَ الْإِسْلَامُ يَا جَامِعَ الشُّنُفِ (٢)

* * *

أما زهده فكان زهد المؤمن الذي لا يرغب في الدنيا ، ولا يدخر عنها إلا ما يعمل به للجهاد ، وما يقيم به أوده ، على الرغم من سعة ملكه وعظمة سلطانه ، فقد ترك زينتهما المنظوية على الملذات والشهوات ، وسار لحرب الأعداء حباً في الجهاد ، يخوض قتالاً في المعارك حيث الهول والخطر ، يقول أبو الفضل الجاياني :-

زَهَدَتْ فِيهَا سَبَى الْأَمْلاكِ مَنْكَدَرًا عَلِمًا بِمُلْكٍ نَعِمَ مَا بِهِ كَسَدَرُ
وَطَبَتْ نَفْسًا عَنِ الدُّنْيَا وَزُخْرُفِهَا وَجِئْتَ تَقْدِمُ حَيْثُ الْهَوْلُ وَالْخَطَرُ (٣)

ويقول العماد في ترك صلاح الدين لهو الدنيا وتمسكه بإعزاز دين الله :-

لَا مِنْ عَنِ الْإِلَهِ بِدُنْيَاهُ وَعَسَى أَنْ يَعِزَّازَ دِينَ اللَّهِ يَوْمًا مَا لَهَا (٤)

- (١) النوادر السلطانية / ٧ ، وانظر الفتح / ٦٦٠ ، السلوك : ج ١ ق ٤٢ / ١ ، النجوم : ٩ / ٦ ، وحسن المحاضرة : ٣٠ / ٢ .
(٢) ديوان ابن سناء الماسك / ٢٢٥ ، مفتح الكسروب : ١٦٣ / ٢ .
(٣) منادج المسادح : الورقة التاسعة ، الروضتين : ١١٦ / ٢ .
(٤) ديوان العماد / ٤٥١ ، البرق الشامي : ٦٣ / ٥ ، الخريدة ، بداية قسم شعراء الشام / ١٢٣ .

ويقول وحيد الأسدي (١) :-

يَسْتَكْثِرُ الْمَدْحَ يُتْلَى فِي مَكَارِمِهِ زُهْدًا وَيَسْتَصْفِرُ الدُّنْيَا إِذَا وَهَبَهَا (٢)

ومن المواقف التي تدل على زهده في الدنيا أنه لما رجع من حصار كوكب (٣) سنة أربع وثمانين وخمسائة إلى دمشق ، وجد أحد أتباعه (٤) قد بنى له داراً عظيمة ، وبالبح في تحسينها وتحبيرها ، فغضب صلاح الدين عليه ، وقال له : " إنا لم نخلق للمقام بدمشق ولا لغيرها من البلاد ، وإنما لعبادة الله عز وجل والجهاد في سبيله " (٥) .

وكان صلاح الدين زاهداً في مأكله ومشربه وملبسه ، وكان لا يلبس إلا ما يحل الشرع لبسه ، كالكتان والقطن والصوف (٦) .

وفي زهد صلاح الدين يقول القاضي الفاضل في إحدى رسائله إلى الخليفة بيفداد : " سبيل الخادم أن يبني ولا يهدم ، ويوفر جانبه ولا يثلم ، وأن يرق بينه وبين من يسكنون أعنة الجهاد المسوكة ولا يطلقونها ، ويكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها ، فقد علم أن الخادم بيوت أمواله في بيوت رجاله ، وأن مواطن نزوله في مواقف نزاله ، ومضارب خيامه أكنة ظلاله ، وأنه لا يدخر من الدنيا إلا شئته ، ولا ينال من العيش إلا مسكتسه " (٧) .

(١) هو : الأديب أبو الوحش سبع بن خلف بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن زيد بن زياد ابن المرار بن سعيد الأسدي النعماني ، ومولده سنة أربع وخمسمائة ، ألقبه العماد في دمشق ، أثبت له العماد في الخريدة مقطعات من شعره كان قد أنشده إياها . انظر الخريدة ، شعراء الشام : ٢٤٢/١ .

(٢) الخريدة ، شعراء الشام : ٢٤٣/١ ، الروضتين : ج ١ ق ٦٠٦/٢ .

(٣) كوكب : قلعة على الجبل المطل على مدينة طبرية ، تشرف على الأردن ، معجم البلدان : ٤٩٤/٤ .

(٤) هو صفى بن القاضى ، وكيل الخزانة ، وكان عمله المذكور في المتن من جملة الأسباب التي دفعت صلاح الدين إلى عزله . انظر الروضتين : ٢/١٢٥ ، البداية والنهاية : ١٢/٣٥١ .

(٥) الروضتين : ٢/١٢٥ ، البداية والنهاية : ١٢/٣٥١ .

(٦) انظر الفتح : ٦٥٦ ، مرآة الزمان : ج ٨ ق ٤٢٦/١ .

(٧) الروضتين : ٢/٤٨ - ٤٩ .

* * *

ومن شمالك صلاح الدين التواضع ، فقد كان متواضعا مع الله عز وجل ومع الناس ، فكان " من جالسه لا يعلم أنه جالس السلطان ، بل يعتقد أنه جالس أخ من الإخوان " (١) . ويصف ابن التعاويذي تواضعه مع الرعية بأنه تواضع لا يخذل العزة ، كما أنه يصف له بالمتواضع الذي لا يمس الهيبة ، يقول : -

لَكَ عِزَّةٌ فِي قُدْرَةٍ ، وَتَوَاضُعٌ فِي عِزَّةٍ ، وَشَرِاسَةٌ فِي إِسْنٍ (٢)

* * *

ويتمتع صلاح الدين بالصبر عند الشدائد ، فكان - رحمه الله - صابرا في حومسة الوغى ، ثابت القلب لا يخشى الموت ، وقد ذكر ذلك عند الحديث عن شجاعته سابقا ، كما كان يصبر على المرض الذي يمتريه ، وكان لا يضطرب عند ما يسمع خبرا محزنا ، بل يصبر نفسه على الأمر ، فقد روي أنه لما جاءه خبر وفاة ابنه الصالح اسماعيل (٣) لم يعرف أحدا ، ولم يظهر عليه شيء سوى أنه لما قرأ الكتاب دمعت عينه (٤) ، " . . . وكان صابرا على ممر العيش وخشونته مع القدرة التامة على غير ذلك احتسابا لله تعالى " (٥) .

يقول ابن الدهان في جميل صبره ، واحتماله المصاعب مخاطبها :-

لَا زَالَ عَزُّكَ مَاضِيًا مَا يَنْتَسِي سِي
وَجَمِيلُ صَبْرِكَ فِي الرِّزَايَا يَغْتَلِي
وَشَدِيدُ بَأْسِكَ مَاضِيًا مَا يَذْهَبُ
وَكَرِيمُ عَوْدِكَ فِي الْحَوَارِثِ يَضُكُّ (٦)

ويقول :-

كَمْ قَدْ دَجَا خُطْبٌ وَجَأُ شُكِّ ثَابِتٍ
وَتَقَلَّبَتْ حَالٌ وَقَلْبُكَ قُلُوبُ (٧)

- (١) الفتوح / ٦٥٧ ، النجوم الزاهرة : ٩ / ٦ .
- (٢) ديوان ابن التعاويذي / ٤٢٢ ، الأروستين : ١٠ / ٢ .
- (٣) ذكره المرتضى الزبيدي في كتابه ترويح القلوب ص ٩٦ .
- (٤) انظر النوادر السلطانية / ٢٦ .
- (٥) المصدر نفسه / ٢٧ .
- (٦) ديوان ابن الدهان / ٢٠٧ .
- (٧) نفسه / ٢٠٨ .

ويقول سعادة الأعي في مقابلة صلاح الدين الشدائد بصدر رحب :-

أَغْرُ يَعْتَذِرُ صَابُ (١) الْحَارِثَاتِ لَهُ فَصَابُهَا عِنْدَهُ أَحْلَى مِنَ الْعُسَلِ (٢)

* * *

وكان صلاح الدين يتمسك بالأخلاق الكريمة ، فقد كان طاهر المجلس ، لا يذكر أحد بين يديه إلا بالخير ، طاهر اللسان ، لا يشتم أحدا ، ولا يكتب لإيذاء مسلم ، حسن العشرة ، منزها عن الهزل والهـزـز (٣) .

وما أجمل قول ابن التعاويذي في أخلاقه الكريمة :-

قَدْ هَدَّ بَتْنِي أَيْدِي الْخُطُوبِ عَلَيَّ شِمَاسُ (٤) عِطَافِي أَيْ تَهْدِيئِي
فَلَيْتَهَا هَدَّ بَتْنُ خَلَاةٍ هَسَا وَأَخَذَتْ نَفْسَهَا بِتَأْذِينِي
أَوْ لَقَنْتُ مُسْتَفِيدَةً كَرَمَ الْأَخْطَلِ مِنْ يُوسُفَ ابْنِ أَيْبُوبِ (٥)

ويقول في ثبات أخلاقه ونقاها :-

لَوْ أَنَّ لَيْتَ الْهَزْزِ سَطَاهُ لَمْ يَلْجَأْ إِلَى غَابِلِهِ وَرَيْسِنِ
وَالْبَحْرِ لَوْ مُزِجَتْ بِهِ أَخْلَاقُهُ لَفَدَّتْ مِيَاهُ الْبَحْرِ غَيْرَ أَجُونِ (٦)

* * *

-
- (١) الصَّابُ : عصارة شجر مسر . انظر لسان العرب (صوب) .
 - (٢) الخريدة ، شعراء الشام : ٤٢١ / ١ .
 - (٣) انظر النوادر السلطانية / ٣٤ ، الفتوح القسسي / ٦٥٦ .
 - (٤) الشِّمَاسُ : الثفور والمعاداة . انظر لسان العرب (شمس) .
 - (٥) ديوان ابن التعاويذي / ١٩ ، وردت كلمة ابن هكدا في الديوان والصحيح (بن) .
 - (٦) نفسه / ٤٢٢ ، أجون : الماء الآجن المتغير اللون والطعم . انظر : لسان العرب (أجسن) .

وثمة صفات جمة تجمعت في شخصية صلاح الدين إلى جانب صفاته المذكورة ، سجلها الشعراء في شعرهم ، نذكر منها صفة الحلم ، يقول ابن الدهان الموصلي :-

تَجَمَّعَ فِيهِ الْبَأْسُ وَالْحِلْمُ وَالنَّدَى وَضَمَّ إِلَى الْفَضْلِ الْغَزِيرُ الْتَفَضُّلا (١)

وحلم صلاح الدين ونداه يضرب المثل ، يقول أبو الفضل الجلياني :-

أَبُو الْمُظْفَرِ مَا وَى كُلَّ مُظْطَهَرٍ بِحِلْمِهِ وَنَدَاهُ يُضْرِبُ الْمَثَلُ (٢)

ويقول سعادة الأعمسى :-

كَرِيمٌ إِذَا مَا جَاءَهُ مُعْدِمٌ حَبِيبًا حَلِيمٌ إِذَا مَا جَاءَهُ مُجَرِّمٌ عَفِيبًا (٣)

ويقول العماد في غوه عن الجاني :-

وَعَفْوُكَ وَرَدُّ الْجُنَاةِ جُنَاتُهُ وَيُضْكُ شَوْكَهُ فِي الْعِدَاةِ لَهَا خُرْطُ (٤)

ويتصف صلاح الدين بحسن الرأي وسداده ، يقول سعادة الأعمسى :-

صَعِبُ الْعَرِيكَرِ ، سَهْلُ الرَّاحَتَيْنِ لَهُ رَأْيٌ حَصِينٌ قَوِيمٌ فَيْرُ ذِي مَيْسَلٍ رَأْيٌ شَدِيدُ الْقَوَى مَا فِيهِ مِنْ خَسَورٍ لَا بَلْ سَدِيدُ النَّهْسِ مَا فِيهِ مِنْ خَلْسٍ (٥)

وسداد رأيه هذا يزيل الشك ، ويطمئن النفوس إذا ما حلَّ خطب من الخطوب ، فتبدو الأمور واضحة لا حيرة فيها ولا لبس ولا اختلاط ، كضوء الشمس الذي يبدد الظلمة ، فيملا المكان نورا وضيا ، يقول ابن الدهان :-

(١) ديوان ابن الدهان / ٤٠ .

(٢) الرضتين : ج ١ ، ق ٤١٥ / ٢ .

(٣) الخريدة ، شعراء الشام : ٤٢٩ / ١ .

(٤) ديوان العماد / ٢٨١ ، الخريدة ، شعراء مصر : ٢٩ / ١ .

(٥) الخريدة ، شعراء الشام : ٤٢١ / ١ .

وَرَأَيْ كَمْوَهُ الشَّمْسِ نُورًا إِذَا انْجَبَى
لِخُطْبٍ جَلًّا لَيْلًا مِنْ الشَّكِّ أَلَيْلًا (١)

وكما اقترنت شجاعة صلاح الدين بكرمه ، اقترنت آراؤه الصائبة بالحزم والعزم ، فهـو
يحب رأيه بهما ، وهذا ما يحث عليه الدين الحنيف ، ان مقت القرآن الكريم القول دون العمل ،
ولذا أمل الشعراء أن يظفر صلاح الدين بما لم يظفر به ملك قبله ، يقول أبو الفضل الجلياني :

لَتُظْفَرَنَّ بِمَا لَمْ يَحْوَهِ مَالِكٌ أَبَا الْمُظْفَرِ ، حَظًّا خَطْبُهُ الْأَزَلُ
دَلِيلُ ذَلِكَ آرَاءُكَ لَكَ أَقْتَرُ نَسْتُ بِالْحَزْمِ وَالْعَزْمِ ، لَمْ يُخْصَصْ بِهَذَا الْأَوَّلُ (٢)

وهو سيد الحزم في المواقف جميعا ، يقول ابن الساعاتي :-

مَا زِلْتُ رَبَّ الْحَزْمِ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ وَمَا حَفِظْتُ الْأَمْوَالَ مِنْ ضَمِيعِ الْحَزْمِ (٣)

ومجد الشعراء في صلاح الدين صفة الفضب لله عز وجل ، وهذه صفة الصفة من
الرجال المسلمين ، يقول أسامة بن منقذ :-

وَعُذِبْتُ لِلَّهِ الَّذِي أَعْطَاكَ فَصْلَ الْحُكْمِ غَضِبَةً ثَائِرَ حَسْرَانٍ (٤)

ويقول ابن التعاويذي :-

وَعُذِبْتُ لِلدِّينِ الْحَنِيفِ وَلَمْ تَزَلْ فِي اللَّهِ تَرْضَى مِنْذُ كُنْتُ وَتَغْضَبُ (٥)

* * *

(١) ديوان ابن الدهسان / ٤١ .

(٢) الروضتين : ١١٥ / ٢ .

(٣) ديوان ابن الساعاتي : ٣٨٨ / ٢ .

(٤) الخريدة ، شعراء الشام : ١ / ٥٣٠ ، لم يذكر البيتان في ديوان الشاعر .

(٥) ديوان ابن التعاويذي / ٢٥ .

بهذه الصفات يكون الشعراء قد أظهروا صفات مثلى للحاكم والبطل المسلم الذي آمن بالإسلام ديناً، والقرآن دستوراً، وسعى لتوحيد البلاد وجهاد الأعداء، وتحرير المقدسات فكان حرياً بحب الناس له، بل إن هذا الحب اتخذ سمة الغرض على كل مسلم، يقول ابن سناء الملك مخاطباً صلاح الدين :-

فَقَدْ شُفِلَ الْأُمْلَاكُ عَنْ شُكْرِ رَبِّهِمْ سِوَى أَنْتَ بِالرَّيْحَانِ وَالرَّاحِ وَالنَّقْلِ
يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ أَمَا اسْتَحْسَبُوا مِنَ الْمَلِكِ الْمُغْنِي عَنِ الْقَوْلِ بِالْفِعْلِ
لَكَ الْحُكْمُ فِي الدُّنْيَا وَمَا هُوَ بِالْهَوَى مَعَ الْجُودِ بِالدُّنْيَا وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ
فَحُبُّكَ مَفْرُوضٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَيُعْلَمُ هَذَا فِيكَ بِالْعَقْلِ وَالنَّقْلِ (١)

وصلاح الدين حرياً بالملك وأحق به من غيره، يقول أبو الفضل الجلياني :-
وَمَنْ أَحَقُّ بِمُلْكِ الْأَرْضِ مِنْ مَالِكٍ كَأَنَّهُ مُلْكٌ فِي الْخَلْقِ حَنَّانٍ (٢)

* * *

يستنتج مما سبق أن الصفات التي سجلها الشعراء لصلاح الدين تتطابق إلى حد بعيد مع ما أثبتته المؤرخون في كتب تواريخهم، فقد وصفه المؤرخون بالأخلاق الكريمة، والحلم، والبأس، وسداد الرأي، والعدل، والشجاعة والكرم، والزهد، والتواضع، والصبر، والحزم، والعزم وكذلك أبرز لنا الشعراء هذه الصفات الجليلة والخصال الحميدة كما تقسمهم، إلا أن الشعراء امتاز بطبيعته بتقديم هذه السجاياء بصورة غنية شتى، وحرارة مستمدة من أنفاس الشعراء وعواطفهم .

(١) ديوان ابن سناء الملك / ٢٢٦ .
(٢) الروضتين : ١١٦/٢ ، ديوان المبشرات والقدسيات / ١٣٤ .

ويعد ، فإن الذي يمكن أن يستخلص من سيرة صلاح الدين أنه أحيا سيرة الخلفاء الراشدين . يقول أسامة بن منقذ في كتابه الاعتبار : " الملك الناصر صلاح الدين والدين ، سلطان الاسلام والمسلمين ، جامع كلمة الإيمان ، قانع عبدة الصلبان ، رافع عام العدل والاحسان . . . ، والسلطان الذي أحيا سنة الخلفاء الراشدين . . . " (١)

ويقول أبو شامة في شيرتَي نور الدين وصلاح الدين : " وجدتُهما في المتأخرين ، كالعمرين - رضي الله عنهما - في المتقدمين ، فإن كل ثان من الفريقين هذا حذو من تقدمه في العدل والجهاد ، واجتهد في إعزاز دين الله أي اجتهد " (٢) ، ويقول فسي موضع آخر : " فله درهم من ملكين تعاقبا على حسن السيرة ، وجميل السيرة ، وهما حنفي وشافعي ، شفى الله بهما كل غي ، وظهرت بهما من خالقهما العناية ، فتقاربا حتى في العمر ومدة الولاية " (٣) .

* * *

-
- (١) الاعتبار / ١٨٤ .
 - (٢) الروضتين : ٥ / ١ .
 - (٣) المصدر نفسه : ٦ / ١ .

الفصل الثاني

• صلاح الدين الأيوبي في الشعر العربي في فترة الحروب الصليبية

× السياسي والإداري •

× الساعي للوحدة الإسلامية •

× البطل المجاهد :

– القائد العسكري ، الساعي لاسترداد البلاد •

– فاتح بيت المقدس •

× المقتدي بالسلف الصالح •

" السياسي والاداري "

لقد أمل الشعراء في شعراءهم أن يملك صلاح الدين " مصر " بعد زحابه إليها مع عمه أسد الدين شيركوه ، وقد تحقق أملهم في ذلك إثر وفاة عمه سنة ٥٦٤ هـ ، الذي لم يحدث في وزارته لمصر سوى شهرين وخمسة أيام (١) ، فنصب العاضد بعد وفاته صلاح الدين ، ولقبه بالناصر ، كما تقدّم .

ونذكر ابن شداد أنه لما ملك صلاح الدين مصر قال : " لما يتر الله لي الديار المصرية علمت أنه أراد فتح الساحل ؛ لأنه أوقع ذلك في نفسي (٢) .

وكانت " مصر " قبل صلاح الدين تعاني القلق والاضطراب ، كما تقدّم . جرّاء أطماع الوزراء ، والحروب الدائرة على أرضها نتيجة لهذه الأطماع ، فلم يكن ثمة استقرار أو اطمئنان ، ومنذ أن استقرت قدم صلاح الدين فيها كان عليه أن يعمل على نشـ الأمن والاستقرار في البلاد ، وقد استطاع بفضل سياسته الحكيمة أن يحقق ذلك ، فقام ساس الناس سياسة حسنة ، إن أقام العدل ، وشرع ببذل الأموال ، فأحبّوه ومالوا إليه كما قام بمقاومة الفرنج (٣) ، وكان لذلك كله صدى في الشعر ، يقول عبد المنعم الجلياني :-

أَحْيَا بِمِ اللَّهِ " مِصْرًا " فَهِيَ نَاشِزَةٌ	وَأَفْتَكَهَا مِنْ عَدُوِّ مَابِعِ قَبِيلٍ
كَمْ لِلْفَرَنْجِ بِهَا وِرْدٌ وَمُنْتَجَعٌ	وَنَارُهُمْ حَوْلَهَا تَذْكُورٌ وَتَشْتَمِلُ
فَأُطْفِئَ النَّاصِرُ الْمُنْصُورُ جَذْوَتَهُمْ	وَأَذْبَرُوا بِقُلُوبِ شَهْمِهَا وَجَمِلُ

-
- (١) النوادر السلطانية / ٤٠ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٤٠٥ ، مفرج الكروب : ١ / ١٦٨ .
 (٢) النوادر السلطانية / ٤١ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٤٠٦ ، وفيات الأعيان : ١٥١ / ٧ ، مفرج الكروب : ١ / ١٦٨ ، النجوم الزاهرة : ١٤ / ٦ .
 (٣) انظر النوادر السلطانية / ٤١ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٤٠٦ ، مفرج الكروب : ١٧٤ / ١ ، الحركة الصليبية : ٢ / ٧٠٧ .

مَلِكٌ تَقَلَّدَ سُلْكَ الْمُلْكِ مُنْتَظِمًا وَقَالَ لِلْمَالِ هَذَا مِنْكَ لِي بِمَدَلٍ
فَفَرَّقَ الْمَالَ جَمْعًا لِلْقُلُوبِ بِرِيٍّ وَحَسْبُهُ فِيهِمْ إِذَا رَأَى مَا سَأَلُوا
إِنَّ الْمُلُوكَ الَّذِينَ أَمَّتْ أَمْرُهُمْ لَمْ يَخْزَنُوا الْمَالَ بَلْ مَهْمَا حَوَّاءُ بَذَلُوا
كَذَا السِّيَاسَةُ فَلَا أَجْنَاحَ لَوْ عَلِمُوا يُخْلِ الْمَلِكُ وَجَاءَتْ شِدَّةٌ خَذَلُوا (١)

وصور عمارة اليميني في قصيدة القلق والاضطراب بالغمّة تزيّن على القلوب، وتجعل الاقليم المصري مضطربا، وكيف أن صلاح الدين استطاع بسياسته الحكيمة أن يزيل تلك الغمّة، واستطاع أن يقضي على الفقر بالبذل والعطاء، وصور الخوف الذي ملأ على الخليفة قلبه، حتى جاء صلاح الدين فهدّل الخوف أمنا، وأشار إلى النزاع والتسابق على أخذ مصر وامتلاكها بين نور الدين محمود والفرنج، وفوز صلاح الدين في النهاية وهو القائد المخلص لنور الدين، ويذهب عمارة إلى أن أمن مصر يعني أمن المدينة ومكة، وهذا أمر طبيعي، إذ إن استيلاء الفرنج على مصر يسهل الطريق إليهما، ويهدّد أمنهما، يقول: -

كَشَفْتُمْ بِنُورِ الْفَنَى ظُلْمَةَ الْفَقْرِ كَشَفْتُمْ عَنِ الْاِقْلِيمِ غَمَّتَهُ كَمَسَا
جَرَيْتُمْ لَهَا سَجْوَى الْأَمَانِ مِنَ الدُّغْرِ حَمَيْتُمْ مِنَ الْإِفْرَنْجِ سَرْبَ خِلَافَةِ
فَقَزْتُمْ بِهَا، وَالصَّخْرُ يُقَرَّعُ بِالصَّخْرِ طَرِيقُ تَفَارُعَتُمْ عَلَيْهَا مَعَ الْعِدَى
لَكُمُ آلَ أَيُّوبَ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ يَدٌ لَا يَقُومُ الْمُسْلِمُونَ بِشُكْرِهَا
وَأَمَّنَ أَرْكَانَ الشَّيْءِ وَالْحَجْمِ بِكُمُ أَمَّنَ الرَّحْمَنُ أَعْظَمَ نَهْشِ رَبِّ

واتّبع صلاح الدين بعد أن تولى وزارته سياسة حكيمة في تعامله مع من حولهم من الجهات السياسية، وقد كشف لنا الشعر عن المعالم الكبرى لهذه السياسة.

(١) ديوان البشرا والقدسيات/ ١٢٥، كتاب الروضتين: ج١ ق ٢/ ٤١٥.

(٢) الذّكّة العصريّة/ ٢٧٠، كتاب الروضتين: ج١ ق ٢/ ٤١٢.

كان على صلاح الدين أن يواجه المؤامرات التي قامت ضده في مصر للاطاحه بوزارته وحكمه فيها بعد ، وقد استطاع صلاح الدين أن يقضي على مقدم السودان ، موثمن الخلافة (١) ، الذي قام بالاتفاق مع الفرنج على ضرب صلاح الدين واقتسام البلاد ، وقد ثار بقتله السودان ، عبيد القصر ، فقامت الحرب بين الطرفين ، وانتشرت بانتصار صلاح الدين وهزيمة السودان ، الذين أحرق حيتهم ، وأقترت منهم المنازل ، وأصبح أمرهم كأن لم يكن من قبل (٢) ، وفي ذلك يقول العماد من قصيدة ، كان قد سيرها لصلاح الدين من الشام :-

بِالْمَلِكِ النَّاصِرِ اسْتَسَارَتْ	فِي عَصْرِنَا أَوْجُهُ الْفُضَاءِ لَـ
وَمَا نَفَيْتِ السُّودَانَ حَكَمَتِي	حُشِنَتِ الْبَيْضُ فِي الْمَقَاتِرِ لَـ (٣)
صَبَرْتُ رَحْبَ الْفُضَاءِ ضَيْقًا	عَلَيْهِمْ كَفَقَةِ لِحَابِي لَـ
وَقَدْ خَلَّتْ مِنْهُمْ الْمَفَانِي	وَأَقْفَرَتْ مِنْهُمْ الْمَنَازِلُ لَـ
وَمَا أَصْبَحُوا إِلَّا بِطُكُلٍ	فَكَيْفَ لَوْ أُمْطِرُوا بِوَابِي لَـ

ويشير العماد إلى خيانة موثمن الخلافة حين اتصل بالفرنج ، يقول :-

مَوْثِمُنُ الْقَوْمِ خَانَ حَكَمَتِي غَالَتُهُ مِنْ شَرِّهِ غَوَائِي لَـ

ويوجه العماد نظر صلاح الدين إلى القدس ، مستغلا هذه الفرصة قائلا :-

فَقَدْ سِ الْقُدْسُ مِنْ خَبِيَاثَاتِ أَرْجَاسٍ كَفَرٍ غُـ لَـ (٤)

- (١) هو خصي ، اسمه جوهر ، أستاذ الدار عند الفاطميين ، وكان متحكما بالقصر الفاطمي ، أنهض إليه صلاح الدين من أخذ رأسه وهو يقصره سنة ٥٦٤ هـ ، انظر : سنا البرق : ٤٣/١ ، الكامل : ٣٤٥/١١ ، الروضتين : ج ١ ق ٢/٤٥٠ ، مفرج الكروب : ١/١٧٤ .
- (٢) انظر : سنا البرق : ٤٤/١ ، الكامل : ٣٤٥/١١ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢/٤٥٠ ، مفرج الكروب : ١/١٧٤ ، المختصر في أخبار البشر : ج ٥ مجلد ٢/٦٦ ، الخطط : ١٩/٢ ، الكواكب الدررية : ١٨٤ .
- (٣) كان عدد السودان بمصر كثيرا ، وكانوا كما يقول أبو شامة : " إذا قاموا على وزير قتلوه ، واجتاحوه ، وأذلّوه ، واستباحوه " ، وقد قطع صلاح الدين بهذه الوقعة المسماة " وقعة السودان " دابر شرهم ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢/٤٥١ .
- (٤) ديوان العماد : ٣٢٤ ، الروضتين : ج ١ ق ٢/٤٥٢ ، مفرج الكروب : ١/١٧٧ ، الخطط : ١٩/٢ .

وما إن أخذ صلاح الدين ثورة السودان بمصر حتى جاءه أمر نور الدين باسقاط الخلافة الفاطمية الشيعية هناك ، وكان نور الدين سنيا يتبع الخلافة العباسية فسي بغداد ، وكذلك كان صلاح الدين ، وبعد تردد أعلن صلاح الدين انتهاء الخلافة الفاطمية وإقامة الخطبة للخليفة العباسي ، وكان ذلك سنة ٦٢٧ هـ (١) ، وهي السنة التي توفي فيها المعاضد ، وكان صلاح الدين قد مهد لذلك من قبل ، فبنى مدارس للشافعية وأخرى للمالكية ، وعزل قضاة مصر الشيعة ، وعين مكانهم قضاة شافعية (٢) .

وقد كان لسقوط الخلافة الفاطمية في مصر على يد صلاح الدين صدى في الشعر؛ فهذا العماد ينظم قصيدة مشتملة على الخطبة بمصر ، منها قوله — :

تَذْ خَطْبُنَا لِلْمُشْتَضِي بِمِصْرٍ	نَائِبِ الْمُصْطَفَى إِمَامِ الْعَصْرِ
وَأَشْعُنَا بِهَا شِعَارَ بَنِي الْعَبَّاسِ	بِمَاسٍ فَاسْتَبَشَرَتْ وَجْهَهُ النَّصْرُ
وَتَرَكْنَا الدَّعْيَ يَدْعُو ثَمُوراً	وَهُوَ بِالذَّلِّ تَحْتَ حَجَرٍ وَحَصْرٍ
وَتَبَاهَتْ مَنَابِرُ الدِّينِ بِالْخُطْبِ	بَعْدَ لِلْهَاشِمِيِّ فِي أَرْضِ مِصْرٍ
فَاغْتَدَى الدِّينُ ثَابِتَ الرُّكْنِ فِي مِصْرٍ	رَمَحَ مَحْوَطَ الْحِمَى مَضُونِ الشَّفْرِ
عَرَفَ الْحَقُّ أَهْلَ مِصْرٍ، وَكَانُوا	قَبْلَهُ بَيْنَ مَنَكِبٍ وَمِصْرٍ
وَالَّذِي يَدْعِي الْإِمَامَةَ بِالْقَنَا	هَرَّةً انْحَطَّ فِي حَضْبِ الْقَهْرِ
خَلْفَاءُ الْهُدَى سُرَاةُ بَنِي الْعَبَّاسِ	بِمَاسٍ وَالطَّيِّبُونَ أَهْلُ الظُّهْرِ
بِهِمُ الدِّينُ ظَافِرٌ مُسْتَقَرٌّ	ظَاهِرٌ قُوَّةُ قُوَى الظُّهْرِ (٣)

ولما وصلت البشارة بإقامة الخطبة العباسية إلى بغداد ، ضربت البشائر بها عدة أيام ، وزينت بغداد ، وظهرت الفرج والجدل ما لا حد له (٤) .

- (١) الباهر: ١٥٦ ، النوادر السلطانية / ٤٥ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٤٩٢ ، مفرج الكروب : ٢٠٠ / ١ ، السلوك : ج ١ ق ١ / ٤٤ ، الكواكب الدرية / ١٩٦ .
- (٢) كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٤٨٦ ، مفرج الكروب : ١٩٨ / ١ ، البداية والنهاية : ١٢٢ ، الكواكب الدرية / ١٩٤ ، صلاح الدين - ليونز ، وجاكسون / ٦١ .
- (٣) ديوان العماد / ١٩٨ - ٢٠١ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٥٠٣ - ٥٠٤ ، مفرج الكروب : ٢١٦ / ١ ، الضجور الزاهرة : ٦٣ / ٦ ، الشذرات : ٢٥١ / ٢ .
- (٤) الكامل : ٣٧١ / ١١ ، الأنس الجليل : ٣١٥ / ١ .

أَصْحَاحُ الْمَلِكُ بَعْدَ آلِ عَلِيٍّ
وَعَدَا الشَّرْقُ يَحْسُدُ الْغَرْبَ لِلْقَوَا
مَا حَوَاهَا إِلَّا بِحَزْمٍ وَعَـزْزٍ
مُشْرِقًا بِالْمُلُوكِ مِنْ آلِ شَانِي
مِمْصَرٍّ تَزْهُو عَلَى بَقَا
مِنْ صُلَيْلِ الْغُولَانِ فِي الْغُولَانِ (١)

تَوْفِي الْعَاثِدِ الدَّعِيَّ، فَمَا
وَعَصْرُ فِرْعَوْنِهَا انْقَضَى وَعَقْدَا
وَانْطَفَأَتْ جَمْرَةُ الْقُوَاةِ وَقَدْ
وَصَارَ شَمْلُ الصَّلَاحِ مُلْتَمِعًا
لَمَّا غَدَا مُغْلَبًا شِعَارُ بَنِي الْـ

يَفْتَحُ ذُو بِدْعَةٍ بِحِصْرٍ فَعَسَا
يُوسُفُهَا فِي الْأُمُورِ مُحْتَكِمًا
بِأَخٍ مِنَ الشَّرِكِ كُلِّ مَا اضْطَرَّ سَا
بِهَا وَعَقْدُ السَّدَارِ مُنْتَظَمًا
مَبَاسٍ حَقًّا، وَالْبَاطِلُ انْتَعَمًا (٢)

ومن الجدير بالذكر أن سقوط هذه الدولة ، وربط مصر بالخلافة العباسية ، لم يكن حدثا عاديا ، وإنما كان حدثا له أهمية كبرى في تاريخ العالم الاسلامي ؛ فقد أصبحت البلاد تدين بالمذهب السنّي ، وهذا ايزان بتوحيد البلاد تحت ظل دول واحدة

(٢) كتاب الروضتين: ج ١ ق ٢/٥٠٦، اتعاظ الحنفية: ٢/٢٢٠.

نور الدين ، كما هو ايدان بفتح صفحة جديدة في سجل الصراع الإسلامي الصليبي ،
ينبئ ، بادالة دولة الفرنج في البلاد .

ولم يكن القضاء على ثورة السودان ، ثم سقوط الخلافة الفاطمية ، ووفاة المعاضد ،
ليدل على أن علاقة صلاح الدين بالفاطميّين قد انتهت ، أو يدل على أن صلاح الدين
قد استقر بمصر استقراراً نهائياً ، إذ أن عمارة البني ، الذي مرّ ذكره ، كان من المقربين
للفاطميّين في مصر ، وتدل بعض أشعاره على أنه قد نال ، وهو في ظل دولتهم ، الجاه
والغنى ، فأخلص لهم أيما إخلاص ، يقول في إحدى قصائده ، وكان قد توجه إليهم من
اليمن إلى مصر — :

فَهَيَّئْتُ مِصْرًا أُطْلُبُ الْجَاهَ وَالْفَرْنَى فَلْتَهْمَا فِي ظِلِّ عَيْشٍ مُمْتَدِّعِ
وَزُرْتُ مَلُوكَ النَّيْلِ إِنْ زَاكَ نَهْلُهُمْ فَأَحْمَدُ مَرْتَابِي وَأَخْصَبُ مَرْتَعِي (١)

ولما كان من المقربين إلى الفاطميّين كبر عليه إدالة دولتهم ، فبدأ مع جماعته
من الذين يؤيدون الحكم الفاطمي المنهار ، الاتصال بالصليبيّين والاسماعيلية بالشام (٢)
للقضاء على صلاح الدين ، وارجاع الخلافة الفاطمية ، ولكن مؤامرة عمارة هذه وشيعته
سرعان ما انكشفت لصلاح الدين ، فقبض على المتآمرين ، وصلب زعماءهم ، منهم عمارة هذا ،
فهجاه تاج الدين الكندي ، ورأى أنه بعيد — بما فعل — عن الاسلام ؛ فوصفه بصفات
تنافي أصوله ؛ فلقى ما يستحقه من عقاب ، وهو الصلب ، وتوقع أن يكون عذابه يسوسوم
القيامة شديداً ، كما يبدو في قوله — :

عَمَارَةٌ فِي الْإِسْلَامِ أَهْدَى خِيَانَةً وَبَايَعَ فِيهَا بَيْعَةً وَصَلِيْبَةً
وَأُنْسَى شَرِيكَ الشَّرِكِ فِي بُغْضِ أَحْمَدٍ فَأَصْبَحَ فِي حُبِّ الصَّلِيْبِ صَلِيْبَةً
وَكَانَ خَبِيْثَ الْمُتَقَى إِنْ عَجِبْتَ تَجِدَ مِنْهُ عَوْدًا فِي النَّفَاقِ صَلِيْبَةً

(١) النكت المصرية / ٢٨٢ ، الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٥٦٨ .
(٢) انظر كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٥٦٥ ، مفرج الكروب : ١ / ٩٩ ، الحركة الصليبية :
٢ / ٧٠٥ .

سَيَلْقَى غَدًا مَا كَانَ يَسْتَعْنِ لِأَجْلِهِمْ . وَيُسْقَى صَدِيدًا فِي لَظَى وَصْلِيَّـا (١)

ولمّا أمر صلاح الدين بصلبه مروّاه إلى دار القاضي الفاضل ، وطلب الدخول إليه ، فلم يؤذنه له ، فقتل .

عَبْدُ الرَّحِيمِ قَدْ اخْتَجَبَ . إِنَّ الْخَلَاصَ هُوَ الْعَجَبُ (٢)

وكان ذلك سنة تسع وستين وخمسة هجرية .

ولم يلبث صلاح الدين أن وجه جهوده بسرعة لاختار ثورة أخرى قامت فـسـيـا أسوان على حدود النوبة ، أشعلها أحد القادة الفاطميين ، واسمه كز الدولة (٣) الذي التقى حوله جمع من السودان والمصريين الناقمين على سياسة صلاح الدين ، وأوهمهم أنه يملك البلاد ، ويمعيد الدولة الفاطمية ، وكان ذلك سنة ٥٧٠ هـ (٤) .

ولمّا توفّي نور الدين زنكي أدرك صلاح الدين أن مسؤوليته توحيد البـسـسـلـاـر قد أُلقيت على كاهله ، فتقدّم إلى الشام لتوحيد وضعه إلى مصر ، وقد تعرّض مرتين للاغتيال على يد الاسماعيليين في الشام ، كانت الأولى سنة ٥٧٠ هـ ، والثانية سنة ٥٧١ هـ ، كما تقدّم . ولقد وجد هؤلاء الاسماعيليون في صلاح الدين عدواً كبيراً لهم ، فقد قضى على دولتهم الفاطمية في مصر ، وتقدّم إلى الشام لتوحيده ، وإلى جانب ذلك ، فإنّ صلاح الدين كان من القادة السنيين ، وفي هذا ما يهدد الكيان الاسماعيلي في منطقة الشام تهديداً خطيراً .

- (١) الروضتين : ج١ ق ٢ / ٥٦٦ ، أبو اليمن تاج الدين : حياته وما تبقى من شعره / ٤٧ ، والصليب الأول : النصاري ، والثاني : بمعنى المصلوب ، والثالث : من الصلابة ، والرابع : ودك المظالم ، وقيل هو الصديد ، أي يسقى ما يسيل من أهل النار : الروضتين : ج١ ق ٢ / ٥٦٦ .
- (٢) النكت العصرية / ١٨٣ ، آية الزمان : ج١ ق ١ / ٣٠٤ ، الروضتين : ج١ ق ٢ / ٥٦٩ ، مغرر الكروب : ١ / ٢٤٦ ، البداية والنهاية : ١٢ / ٢٩٥ ، الكواكب الدرية / ٢٢٥ .
- (٣) هو أحد مقدمي الدولة الفاطمية ، ذهب إلى منطقة أسوان بعد سقوط الدولة الفاطمية ، وجمع حوله عدداً من الناس ، فوجه إليه صلاح الدين أخاه الملك المنصور المنار ، فقتله سنة ٥٧٠ هـ . انظر النوادر السلطانية / ٤٧ ، الروضتين : ج١ ق ٢ / ٦٠٠ .
- (٤) سنا البرق : ١ / ٧٧ ، النوادر السلطانية / ٤٧ ، كتاب الروضتين : ج١ ق ٢ / ٦٠٠ ، مغرر الكروب : ٢ / ١٧٢ ، البداية والنهاية : ١٢ / ٣٠٨ ، السلوك : ج١ ق ١ / ٥٧ - ٥٨ .

لقد أدرك صلاح الدين خطر هؤلاء الاسماعيليين على وحدة البلاد ، كما أنه وضح له أنهم باتوا يهدّدون حياته وحياته أمراءه ، فما أن عقد الصلح مع أهل " حلب " حتى اتجه إلى بلادهم ، وحاصروهم في أهم قلاعهم ، وهي قلعة " مضيايف " (١) ، ونصب عليهم المجانيق وأوسمهم قتلا وأسرا ، وتم بعد ذلك انسحابه عنها (٢) ، ومصالحة سنان (٣) مقدّم الاسماعيلية بسبب خوفه من هجوم صليبي (٤) .

يقول صاحب الشذرات إنّ سنانا هذا : " جرت له مع السلطان وقائع وقصص ، ولم يعط طاعة قط ، وعزم السلطان على قصده بعد صلح الفرنج ، وكان السلطان قد أرسل إليه تخويفاً وتهديدا فلم يجبه ، بل كتب على طرّة كتاب السلطان :

يا ذا الذي يقراع السيف هددني لا قام مصرع جنبي حين تصرعته
قام الحمام على البازي يهدّده وكشّرت لأسود القاب أضبعته
إنّا منحناك عمرا كي تعيش بينهم فإن رضيت وإلا سوف ننزع عنه
أضحى يسدّ قم الأفق بأضبعه يكفيه ما ذا تلاقي منه أضبعه (٥)

" فلما يئس صلاح الدين منه جنح إلى صلحه فمالحه " (٦) .

-
- (١) مضيايف: بلدة تقع على ساحل الشام قرب مدينة طرابلس. وهي اليوم في الأراضي السورية ، في الجنوب الغربي من مدينة حماة . معجم البلدان : ٥ / ١٤٤ ، السلوك : ج١ ق ١ / ٦٢ ، أطلس العالم ، محمد سيد وآخرون ، لبنان - بيروت ، دون تاريخ .
- (٢) سنا البسرق : ١ / ١٠٥ - ١٠٦ ، كتاب الروضتين : ج١ ق ٢ / ٦٦٩ ، مغرر الكروب : ٢ / ٤٧ .
- (٣) سنان : هو راشد الدين أبو الحسن سنان بن سليمان ، كان يلقب بشيخ الجبل ، تزعم قيادة الاسماعيلية سنة ٥٥٧ هـ ، جرت له مع نورالدين وقعات عدّة ، توفي سنة ٥٨٩ هـ . انظر مرآة الزمان : ج٨ ق ١ / ٤١٩ ، الشذرات : ٤ / ٢٩٤ - ٢٩٥ ، معجم الأنساب / ١٦١ ، دائرة المعارف الاسلامية : ٩ / ٤٦٩ .
- (٤) انظر زبدة الحلب : ٣ / ٧٧٦ ، كتاب الروضتين : ج١ ق ٢ / ٦٦٩ - ٦٧٠ .
- (٥) شذرات الذهب : ج٤ / ٢٩٤ - ٢٩٥ .
- (٦) نفسه : ٤ / ٢٩٥ .

ومهما يكن من أمر فإن صلاح الدين كان يبذل أقصى جهده مستخدماً ما شئت من الوسائل من أجل تحقيق الوحدة الإسلامية ، استعداداً للجهاد الأعداء الصليبيين واسترداد المقدسات ، فلا ضير أن سعى إلى مصلحة الاسماعيلية لتحقيق أهدافه .

* * *

أمّا علاقته بالخلافة العباسية ، فقد كانت علاقة حسنة قائمة على التواصل والمودة ، منذ أن كان صلاح الدين وزيراً في مصر حتى وفاته سنة ٥٨٩ هـ ، فلم تنقطع الاتصالات بين الطرفين ، لا سيما أن صلاح الدين قد أصبح ، بعد وفاة نور الدين ، سلطان البلاد الشامية والمصرية ، والمجاهد الذي عقد عليه الخليفة العباسي الأمل في تحرير البلاد والمقدسات .

كان صلاح الدين حريصاً على كسب رضى الخلافة العباسية ، لكونه مسلماً يعتقد بوجوب الولاء والطاعة لها ، خاصة أنه كان يفقه أمور الشرع ، وكان يتبع المذهب الشافعي السني ، هذا إضافة إلى ما للخلافة من سلطة روحية ومعنوية في نفوس المسلمين ، وبالتالي يستطيع صلاح الدين كسب أكبر قوة بشرية ومادية لمواجهة الأعداء ، فسعى لكسب تأييد الخليفة العباسي .

أشار الشعراء بالعلاقة القائمة بين صلاح الدين والخلافة العباسية ، ففي سنة ٦٧٥ هـ قطعت الخطبة للخلافة الفاطمية في مصر ، وأقيمت للخليفة العباسي كما تقدم ، فبعث الخليفة المستضيء بالله إلى نور الدين وصلاح الدين الخلع والتشريفات ، ومعها الأعلام والرايات السود شعار بني العباس (١) ، وقد ذكرت بعض الأشعار التي قيلت في سقوط الخلافة الفاطمية ، وكيف أن شعار بني العباس قد أشيع بمصر .

(١) سنا البرق : ٦١/١ ، الباهر / ١٥٧ ، الكامل : ٢٧١/١١ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، مفرج الكروب : ١١٩/١ .

وقام صلاح الدين في سنة ٥٦٩ هـ بفتح اليمن ، وإقامة الخطبة بها للخليفة العباسي أيضا (١) ، وكان لهذا صدى في الشعر ، فهذا ابن التعاويذي يمدح الخليفة المستضيء ، ويشير إلى فتح الديار المصرية وبلاد اليمن ، كما يشير إلى ما أرسله صلاح الدين من الذخائر والأسلاب إلى الخليفة المذكور ، يقول من قصيدة :-

وَأَنْتَ لِهَيْبَتِكَ الْمَمَلَا	لِكَ وَالْمَعَاوِلُ وَالْمَمَدُنْ
بِالشَّرَفِ وَالصَّوَابِ الصَّوَا	رِ وَالْمُثَقَّةِ اللَّسَانِ
وَأَتَتْكَ أَسْلَابُ الْمُطَمِّنَا	كَ مِنْ الصَّعِيدِ إِلَى عَدَنَ
سُلْبِ الدَّعْيِ بِأَرْضِ مِصْرَ	رٍ وَالْمُضِلِّ (٢) فِي الْيَمَنِ (٣)

وأُنعِمَ الخليفة على السلطان صلاح الدين بالسلطة على مصر والشام ، وكسبَ أن ذلك سنة ٥٧٠ هـ ، فأرسلت إليه رسل دار الخلافة ، وكان قد نزل على حماة ، بالتشريفات السنية ، والتقليد والتمايك ، والتحكيم والتفويض ، فأفاضوا على السلطان وأقاربوه الخ (٤) .

وقد صور ابن الدهان الموالي العلاقة الحسنة التي كانت قائمة بين الطرفين في تلك الفترة ، فأشار إلى منشور الخلافة ، والخلع التي أرسلت إلى صلاح الدين ، ورأى أن صلاح الدين قد أعاد الحق للعباسيين ، وبين مدى تأييد الخلافة له ، وصوّر تلك الخلافة بالثقل ، وأن صلاح الدين أصبح سوادها ومحجرها ، كما يبدو في قوله :-

-
- (١) انظر حول فتح اليمن من قبل صلاح الدين : النوادر السلطانية / ٤٦ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٥٥١ ، ٦١٦ ، وفيات الأعيان : ١٥٩ / ٢ ، مفرج الكروب : ٢٣٢ / ١ .
- (٢) المقصود هو : عبد النبي بن مهدي الذي خرج باليمن واستولى عليها ، وقطع الخطبة العباسية ، وخطب لنفسه ، فأرسل إليه صلاح الدين أخاه تورانشاه ، فقص عليه وجعل الخطبة للعباسيين ، انظر النوادر السلطانية / ٢٦ ، الكامل : ٢٣٨ / ١ - ٣٩٨ ، مفرج الكروب : ٢٣٢ / ١ ، ٢٣٨ .
- (٣) الأبيات المذكورة غير موجودة في ديوان الشاعر ، وذكرها ابن خلكان في وفيات الأعيان : ١٥٩ / ٢ ، الكامل : ٤٢٢ / ١١ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٦٢٩ ، البداية والنهاية : ٣١١ / ٢ ، السلوك : ج ١ ق ٢ / ٦٠ .
- (٤)

وَأَنَا كَمُنْشُورِ الْخِلَافَةِ شَاكِرًا
لَمَّا أَعَدَّتْ الْحَقَّ فِي أَرْزَابِهِمْ
بَعَثَ الْإِمَامُ لَكَ الشَّعَارَ مَصُورًا
وَأَرَاهُمْ أَنَّ الْخِلَافَةَ مَقْلَعَةٌ
فَاغْتَرَبَا فَعَمَلَ الْإِمَامُ عَلَى السُّورَى
خَلَعَ أَتْنَكَ وَلِلْعَلَى فِي طَيْبِهِمَا
لَكَ أَنْ أَعَدَّتْ الْحَقَّ حَيًّا مُنْشَرًا
وَرَدَّتْ لِلْمُسْتَوْجِبِ الْمُنْبَرَا
لِلنَّاسِ أَنْتَ فِي الضَّمِيرِ مَصُورًا
أَصْبَحْتَ أَنْتَ سَوَادَهَا وَالْمَحْجَرَا
وَكُنَى بِهَا فَعَمَلَ الْخَلِيفَةُ مَفْخَرَا
نَشْرُوكِي عِدَاكَ فِي أَنْ تُشْشَرَا (١)

وهذا ابن التعاويذي يمدح صلاح الدين ، وبين مكانته عند الخليفة العباسي الذي ملكه الملك ، وأعطاه مقاليد الحكم ، فهو نائبه في البلاد ، كما يبدو في قول الشاعر :-

سَيْفُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ السُّورَى
مَلِكُهُ الدُّنْيَا فِي كَفَرِهِمْ
نِيَابَةٌ فِي رَأْسِهِمْ بِهَا
لِسَوَاهِهِ بِالنَّصْرِ مَعَهُ
نِيَابَةٌ عَنْهُ - الْقَائِلُ
عَهْدُكَ مِنَ اللَّيْلِ وَتَقْلِيدُكَ (٢)

ولمّا كان هدف صلاح الدين محاربة الصليبيين ، واهتم بإعادة الوحدة بين مصر والشام بعد موت نور الدين ، فقد عاداه الأمراء الزنكيون ، وكثيرا ما تعاونوا مع الصليبيين والاسماعيلية ضده (٢) ، ولذا كان صلاح الدين يطلع الخلافة العباسية على تحركاته كلّها ، ليكسب تأييدها ضد أعدائه . ففي سنة ٥٧١ هـ ، اتفق الموصلية والحلبيون على محاربة صلاح الدين ، بعد أن نقض الحلبيون العهد معه ، وطلب صلاح الدين من الخليفة العباسي السستضي بالله في كتاب فاضلي : " خروج الأمر

- (١) ديوان ابن الدّهـان / ٥٣ - ٥٤ .
(٢) ديوان ابن التعاويذي / ١٠٩ - ١١٠ .
(٣) انظر كتاب الروضتين : ج ١ / ٢٣ / ٦١٠ ، الحياة السياسية / ٢٥٦ -

بخطاب جميع ملوك الأطراف أن يكونوا للملوك على المشركين أعوانا ، وأن يمثل أمــــر نبينا ، صلى الله عليه وسلم ، في أن يكونوا بنيانا ، فيعضدوه إذا سعى ، ويلبّوه إذا دعا ولا يقعدوا عن المعاضدة في فتح بيت المقدس (١) . وبقيت علاقة صلاح الدين بالمستضي حسنة حتى توفي المستضي سنة ٥٧٥ هـ .

ولم تكن علاقة صلاح الدين بالناصر بن المستضي أقل شأنا من علاقته بأبيه ، فقد استمرت علاقته بالناصر حسنة ، فعندما تولى الناصر الخلافة سنة ٥٧٥ هـ ، قام صلاح الدين بواجب البيعة له ، فأرسل إليه رسولا يهزيه بوفاة والده ويهينه بتوليته الخلافة ، وخطب له في البلاد (٢) ، ثم أرسل إليه سنة ٥٧٦ هـ يسأله أن يفوض له الأمور كما فوض له من قبل أبوه المستضي ، فأرسل إليه الخليفة " بالتفويض والتقليد والتشريف الجديد (٣) ، وأرسل إليه خلعة كانت أول خلعة تصل إليه منه (٤) .

وكان صلاح الدين على اتصال دائم بالناصر يخبره بتحركاته جميعها ، وهذا ما يؤكد حسن العلاقة بين الطرفين ، بل نرى أن صلاح الدين غالبا ما يصف نفسه ، في كتبه المرسلة إلى الناصر ، بالخادم للخلافة ، ومثال ذلك الكتاب الذي أرسله سنة ٥٧٨ هـ ، عند عبوره الفرات ، بمثال الغاضلي ، يقول فيه : " خدام الخادم متواليه إلى الأبواب الشريفة ، خلّد الله سلطانها ، شارحا لأحواله ، ومعتدا بها من صالح أعماله ، ومتوقفا من الأجوبة عنها ما يهتبي " له من أمره رشدا (٥) .

وكانت الساجد الواقعة تحت سلطان صلاح الدين تلجج بالدعاء للخليفة العباسي على المنابر ، وكان خطباءها يلهمون شارات الدولة العباسية (٦) ، وعلى الرغم من أن الخليفة الناصر لم يمنح صلاح الدين حق التصرف في ولاية الموصل سنة

- (١) كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢/٦٤٩ .
- (٢) سنا البرق : ١٧٣/١ - ١٧٤ ، كتاب الروضتين : ١٥/٢ ، مغز الكروب : ٩٢/٢ .
- (٣) سنا البرق : ١٨٠/١ ، كتاب الروضتين : ١٧/٢ .
- (٤) كتاب الروضتين : ١٧/٢ .
- (٥) كتاب الروضتين : ٣١/٢ ، وانظر كتابا أخرى في البرق الشامي : ٤٢/٥ ، الروضتين : ٤٨/٢ .
- (٦) انظر رحلة ابن جبير : ٢٤ / ٢٥٠ .

٥٧٨ هـ، وأنشأ بعث إليه رسولا يصلح ما بينه وبين الموصل (١)، إلا أن صلاح الدين لم يخرج عن طاعة الخليفة، واستمر بمكاتبته على كل ما يقوم به، ففي سنة ٥٧٨ هـ، استأذن صلاح الدين الخليفة بفتح "آمد" فآذن له (٢)، وبعد حصار الكرك سنة ٥٨٠ هـ، أرسل الخليفة الناصر الخلع للسلطان فلبسها، فقال ابن التعاويذي قصيدة يمدح بها صلاح الدين، ويهنئه بالخلع تلك، يقول :-

وَاخْلَعْ قُلُوبَ النَّاكِثِينَ بُلْبُسَهَا	خَلَعًا إِلَى شَرْفِ الْخِلَافَةِ تُسَبِّبُ
فَأَفِضْ مَلَابِسَهَا عَلَيْكَ عَطِيَّةً	لَا تُسْتَرَدُّ وَنِعْمَةً لَا تُسَلَّبُ
وَالْبِرِّ شِعَارًا مَا تَجَلَّلَ مِثْلَهُ	لِسُورِ الْأَيْمَةِ مِنْ قَرِيبٍ مُنْكَرِبُ
مَا تَخِيرُهُ الْخِلِيفَةُ مِنْهَا	لَكَ فَاصْطَفَاهُ كَفَاءً مَا تَسْتَوْجِبُ

ويرى ابن التعاويذي أن صلاح الدين ما هو إلا نائب الخليفة في ملكه، ويعمل من أجل كسب مودته، وأن الخليفة قد رأى فيه القائد المتميز الذي يستطيع أن يواجه الأعداء من غير تهيب، يقول :-

أَلَاكَ خَيْرٌ مِنْ ارْتِضَاءِ لُكْبِسِهِ
يَقْظَانُ تَسَهَّرَ فِي رِضَاهُ وَتَسَدَّ أَبُ
وَرَأَى أَسْرَعَهُمْ إِلَى الْأَعْدَاءِ إِقْدَامًا
وَعِزُّكَ مُجْهِمٌ مُهَيَّبُ

ويقول من القصيدة نفسها :-

وَتَسَلَّ مَا خَوَّلَتْهَا مِنْ دَوْلَةٍ
غَرَاءَ طَالِعِ سَعْدِهَا لَا يَقْرُبُ
فِي نِعْمَةٍ أَيَّامُهَا لَا تَنْقُصُ
وَسَعَادَةِ سُلْطَانِهَا لَا يُقْلَبُ (٣)

وهذا العماد، كاتب صلاح الدين المكلف نشر أنبائه وفتوحاته وانتصاراته، ومن خلال النشر والشعر، ينفذ إلى الخليفة الناصر قصيدة يبشره فيها بفتح بيت المقدس

-
- (١) انظر البرق الشامي : ٤٧/٥٥، النوادر السلطانية/ ٥٧، كتاب الروضتين : ٣٣/٢، صلاح الدين والصليبيون / ٧٧.
- (٢) البرق الشامي : ٨٤/٥٥، كتاب الروضتين : ٣٨/٢، وانظر كتاب القاضي الفاضل إلى الخليفة يصف التقليد الأمامي بولاية آمد، في البرق الشامي : ١٠٠/٥، كتاب الروضتين : ٤٠/٢.
- (٣) ديوان ابن التعاويذي / ٢٥، ٢٦، ٢٧، وانظر حول علاقة صلاح الدين بالخليفة : الشعر العربي في العراق / ١٤٢، الشعر العراقي / ٩٣.

سنة ٥٨٣ هـ ، الذي انتشر خبره في أرجاء الأرض ، ويذكر أنه ما تسنى لأحد أن يتصور عظمته ، ويشير إلى عجز الملوك السابقين عنه ، وقد مرت على الناس إثناء الاحتفال الصليبي سنوات عجاف ذاقوا خلالها البلاء والشدة ، يقول :-

أَبَشَرَ بِفَتْحِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَتَى	وَصِيَّتُهُ فِي جَمِيعِ الْأَرْضِ جَمَّ سَوَابُ
مَا كَانَ يَخْطُرُ فِي بَالٍ تَصَوُّرُهُ	وَاسْتَصْعَبَ الْفَتْحُ لَمَّا أَغْلَقَ الْبَابُ
وَخَامُ (١) عَنْهُ الْمُلُوكُ الْأَقْدَمُونَ وَقَدْ	مَضَتْ عَلَى النَّاسِ مِنْ بِلَوَاءِ أَحْقَابُ
وَجَاءَ عَصْرُكَ وَالْأَيَّامُ مُقْبِلَةٌ	فَكَانَ فِيهِ لَغِيَرُ الْكُفْرِ انْضَابُ
نَصْرًا أَعَانَ صِلَاحُ الدِّينِ رُوْنَقُهُ	إِبْجَازُهُ بِبَلِيغِ الْقَوْلِ إِسْنَابُ
أَحْيَا الْهُدَى وَأَمَاتَ الشَّرْكَ صَارِمُهُ	لَقَدْ تَجَلَّى الْهُدَى وَالشَّرْكَ مُنْجَابُ

ويعتبر العباد أن خدمة الخليفة الناصر نصر ، وأن طاعته تكسب مودة الأيَّام ، وهذا ما يظهر مدى ولاء الناس والحكام ، لا سيما صلاح الدين ، للخليفة العباسي ، يقول :-

الدَّهْرُ يُنْصِرُنِي مَا دَامَ يُنْصِبُنِي	لِخِدْمَةِ النَّاصِرِ الْغُصُورِ نَسَابُ
بِطَاعَةِ النَّاصِرِ الْمُسْتَضَى أَبِي الْـ	عَبَّاسِ أَحْمَدَ لِلْأَيَّامِ أَصْحَابُ (٢)

وعلى الرغم من رضي الخليفة الناصر عن السلطان صلاح الدين ، وطاعة صلاح الدين للخليفة إلا أن علاقته به قد ضعفت بعد سنة ٥٨٥ هـ . (٣) .

* * *

- (١) خام : جَبْنٌ ونكس . انظر قاموس المحيط - ط (خامسة) .
 (٢) ديوان العباد الأصفهاني / ٧٥ ، كتاب الروضتين : ١٥ / ٢ ، ١٠٢ .
 (٣) انظر النواذر السلطانية / ١١٨ ، ١١٩ ، كتاب الروضتين : ١٩٣ / ٢ ، سياسة صلاح الدين / ٤٠٣ - ٤٠٦ .

شرف الدين بن أبي عمرو ، وهو بحلب ، ليوليه قضاء مصر ، وقد قال فيه : " وقد كتبتُ هذا بخطي حتى لا يبقى عليّ حجة ، تصل أنت وولدك عندي حتى أسيركم إلى مصر والسلام ، بموافقة صاحبي واتفاق مني ، صلاح الدين ، وفقه الله ، فأنا أشكره كثيرا كثيرا كثيرا ، جزاء الله خيرا ، وأبقاه ، ففي بقاء الصالحين والأخيار صلاح عظيم ، ومنفعة لأهل الاسلام " (١) .

ووصف كثير من المؤرخين العلاقة بين نور الدين وصلاح الدين بالوحشية والنفرة بعد تولي الثاني الوزارة ، وقد اعتمدوا في ذلك على رواية ابن أبي طي السابقة الذكر ، ورواية ابن الأثير التي اتضح أن فيها كثيرا من المبالغة والتوهيل والسفالة (٢) .

* * *

ولم تكن سياسة صلاح الدين وعلاقته بأمرأ الشام بعد موت نور الدين أقسى شأنا من سياسته مع الغاطميين ، أو الخلافة العباسية ، فقد اختلف الأمر بعد نور الدين ، وتنافسوا فيما بينهم لاختلاف آرائهم ، مما أفسح المجال للتدخل الخارجي من كل جانب (٣) ، واختلفوا على تربية الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين ، والوصاية

- (١) انظر نص الكتاب في كتاب الروضتين : ج١ ق ٢/٤٤٢ - ٤٤٣ .
 (٢) انظر أسباب الوحشة مفصلة في الكامل : ٢٧١/١١ - ٢٧٢ ، ٢٧٢ - ٢٩٢ ، ٢٩٢ ،
 والباهر / ١٥٨ ، ١٥٩ ، كتاب الروضتين : ج١ ق ٢/٥١٨ - ٥٢٠ ، ٥٢٠ ، مفسر
 الكروب : ٢٢١/١ - ٢٢٣ ، وانظر عن علاقة صلاح الدين بنور الدين : سنن
 البرق : ٦٠/١ ، الباهر / ١٥٦ ، الكامل : ٢٦٨/١١ - ٢٦٩ ، ٢٦٩ ، زبدة
 الحلب : ٢٢٢/٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ ، كتاب الروضتين : ج١ ق ٢/٤٩٢ ، ٤٩٣ ،
 مفرج الكروب : ٢٠٠/١ - ٢٢٣ ، طبقات الشافعية : ٣٥٧/٧ ، السلوك :
 ج١ ق ١/٤٨ ، ٤٩ . وانظر من المراجع الحديث صلاح الدين / جب : ١٢١ ، الشرق
 الأدنى / ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٤ ، أدب الحروب الصليبية / ٤٩ ، موسوعة التاريخ الاسلامي /
 ١٢٧ ، ١٢٨ ، خطط الشام : ٤١/٢ ، ٤٢ ، الحركة الصليبية : ٧٠٠ - ٧٠٢ ،
 سياسة صلاح الدين / ١٠٤ ، ١١٥ ، نور الدين سيرة مجاهد صادق / ٢٢٩ ، ٢٤١ .
 (٣) مفسر الكروب : ٢٨/٢ .

عليه ، وإن كان صبياً لم يبلغ الحلم (١) . وكان موقف صلاح الدين منه موقفاً سليماً ، وإن اعتبر نفسه أحق من غيره بتربيته .

كتب القاضي ابن الفرائش (٢) قصيدة مدح بها صلاح الدين ، وبين أن جهاد
أمره الشام أهم من جهاد الصليبيين ، وأن الفساد قد دب فيهم ، وليس لهم شاف إلا
سيف صلاح الدين ، ثم ذكره بأن نور الدين كان قد أواخر صلاح الدين ليدفع به
نائبه الخطوب ، فدعاه إلى تخليص ابنه من أولئك الأمراء الذين حبسوه ، وأشار إلى أن الملك
الصالح بن نور الدين متشوق للقاء صلاح الدين ، يقول :-

جِهَادُكَ إِن طَلَبْتَ الْغَزْوُ فِيهِمْ	أَحْمُ إِلَيْكَ مِنْ غَزْوِ الصَّلْبِ
أَنَا دَبَّتِ الْأَعْلَالُ فِيهِمْ	وَلَيْسَ لَهُمْ كَسِيْفُكَ مِنْ طَبْ
وَلَمْ يَذْخُرْكَ نُوْرُ الدِّيْنِ إِلَّا	لِيَدْفَعْ عَنْهُ نَائِبَةَ الْخُطُوبِ
فَخَلَّصَ ابْنَهُ بِالسَّيْفِ فِيهِمْ	فَقَدْ حَبَسُوهُ فِي بَلَدٍ جَدِيْدٍ
يَبِيْتُ وَقَلْبُهُ الْمَحْزُونُ أَشْهَى	إِلَى لِقَاكَ مِنْ ضَمِّ الْحَبِيْدِ
صَغِيْرٌ بَيْنَهُمْ ، لَا يَلُ أَمِيْرٌ	غَضِيْضُ الظَّرْفِ مَخْشُوْسُ النَّصِيْبِ
تَذْكُرُ عَهْدَهُ وَاحْتُسِنَ عَلَيْهِ	وَنَغِيْسُ عَنْهُ تَضْيِيقُ الْكُتُوْبِ (٣)

والأبيات في مضمونها تدل على حسن العلاقة التي كانت قائمة بين نور الدين
وصلاح الدين من جهة ، وبين صلاح الدين والملك الصالح من جهة أخرى .

(١) سنا البرق : ٧٣/١ ، كتاب البروضتين : ج ١ ق ٢ / ٥٨٥ ، ٥٩٠ ، وانظر سياسية
صلاح الدين / ١٥٥ ، الشرق الأدنى / ٤٢ .

(٢) هو القاضي شمس الدين أبو عبد الله ، من دمشق ، كان قاضي العسكر أيام
نور الدين بالشام ، وبعد وفاة نور الدين سنة ٥٦٩ هـ ، ولأه صلاح الدين الاشراف
على خزانة دولته ، وأمره على قضاء عسكره وخاصته ، وكان صديقاً حميماً لعماد الدين
الأصفهاني الذي مدحه بقوله : " هو أصدق من خطب إلي صدائقة ، وجعل
صدائقة صدقه " . الخريدة ، شعراء الشام : ٢٨١ / ١ - ٢٩٠ ، البرق الشاسي :

٣ / ٢٢٠

(٣) الخريدة ، شعراء الشام : ٣٠٢ / ١ - ٣٠٣ .

لم يكن هدف صلاح الدين من قتال هؤلاء الأمراء سوى تحقيق وحدة تشمل بلاد الجزيرة والشام ومصر، من النيل إلى الفرات، فكان عليه أولاً تعبئة الطاقات العسكرية والاقتصادية كي تتاح له الفرصة لتحقيق هدفه السامي، وهو تحرير بيت المقدس وطوسرد الصليبيين من باقي الديار الإسلامية، فهو السلطان الورع التقى الذي يخاف الله، فليس من اليسير عليه أن يرفع السلاح في وجه من يدينون بالاسلام، إلا إذا كان مكرها على ذلك.

وما يدل على سمو هدف صلاح الدين أنه كان يترك المدينة التي يفتتحها لأهلها مع كل أموالها ومتاعها، ولا يعتمد على أمرائها، بل يحسن إليهم بالعفو، أو بالتمويض، أو بالهبة، ومن أمثلة ذلك مدينة "آمد" التي أخذها سنة ٥٢٩ هـ، ووهبها بما فيها لنور الدين بن قرا أرسلان (١).

وهذا ابن سناء الملك يشير إلى منح صلاح الدين المدن والأقاليم للأمراء بقوله:-

فَدَى لَاهِنَ أَيُّوبَ الْمَلُوكَ لِأَنَّهُمْ إِذَا بَخُلُوا أُعْطِيَ، وَإِنْ أَفْقَرُوا أَغْنَى
تَرَى كُلَّ مَنْ يُعْطِي الْمُتَيْنِ عُفَاتَهُ فَدَى لَكَ يَعْطِي الْأَقَالِيمَ وَالْمُدُنَ (٢)

وكتب القاضي الفاضل عن السلطان كتاباً أرسله إلى بغداد، بين فيه هدف صلاح الدين من افتتاح البلاد، يقول فيه: "... الخادم ينهي أن الذي يفتتحه من البلاد ويتسلمه... إنما يعمده طريقاً إلى الاستغفار إلى بلاد الكفار... ولا نختار إلا أن تغدو جيوش المسلمين متحاشدة على عدوها، لا متحاشدة بعتوها... وإنما أمور الحرب لا تحتل في التدبير إلا الوحدة، فإذا صح التدبير لم يحتل في اللقاء إلا الوحدة... وهذه المقاصد الثلاثة: الجهاد في سبيل الله، والكف عن مظالم عباد الله، والطاعة لخليفة الله هي مراد الخادم من البلاد إذا فتحها...". (٣)

- (١) انظر مزيداً من الأمثلة في كتاب الروضتين: ٢/ ٤٨٠، والبرق الشامي: ٥/ ١٢٩.
- (٢) النور السلطانية/ ٥٢، والشرق الأدنى/ ١٦٦، ١٦٧.
- (٣) ديوان ابن سناء الملك/ ٣٢٢.
- (٤) كتاب الروضتين: ٢/ ٤٨، صلاح الدين - جب - / ١٩٣.

اتبع صلاح الدين في البلاد التي يفتحها السياسة نفسها التي قام بتنفيذها في " مصر " بعد توليه الوزارة ، اذ قام بنشر العدل والاستقرار ، وأنفق الأموال و أزال المنكرات والقبايح والضرائب (١) ، مما كان له الأثر في تأييد الشعب له .

وهذا ابن التعاويذي يرى آثار هذه السياسة في دمشق ، فقد أصبحت ، بدخول صلاح الدين إليها ، مأوى المطرودين ، وموئلا للمساكين ، كما أصبحت آمنة مستقرة ، يقول :-

أَضْحَتْ بِمَشْقٍ وَقَدْ حَلَّتْ بِرَبْعِهَا
مَأْوَى الطَّرِيدِ وَمَوْئِلَ الْمُسْكِينِ
وَعَدَّتْ بَعْدَ لِكَ وَهِيَ أَكْرَمُ مَنْزِلِ
تَلَقَّى الرَّحَالُ بِهِ وَخَيْرُ قَطْرِسِينِ (٢)

ويقول وحيث الأسدي :-

رَأَيْتُ جَلْقًا شَفْرًا لَا نَظِيرَ لَسْهُ
فَجِئْتُهَا عَامِرًا بِنُهَا الَّذِي خَرِبَهَا
نَادَتْكَ بِالذَّلِّ لَمَّا قَلَّ نَاصِرُهَا
وَأَزْمَعَ الْخَلْقُ مِنْ أَوْطَانِهَا حَرِبَهَا
أَحْيَيْتَهَا مِثْلًا أَحْيَيْتَ مِصْرَ، فَقَدْ
أَعَدَّتْ مِنْ عَدْلِهَا مَا كَانَ قَدْ نَهَبَهَا (٣)

ومن الجدير بالذكر أن القضية التي كانت تشغل فكر صلاح الدين لم تكن في تلك الفترة سياسية وعسكرية فحسب ، بل كانت أخلاقية من جانب ، واجتماعية واقتصادية من جانب آخر ؛ فقد سعى للعناية بالجانب الأخلاقي عن طريق العلماء (فقهائـه المـدارس) ، كما حارب الاستبداد والفساد ، وأزال المكوس للعناية بالجانب الاجتماعي والاقتصادي (٤) ، وهذه السياسة هي التي جعلت من صلاح الدين سياسيا محنكا ، وحاكما صالحا مؤهلا لاسترداد البلاد .

* * *

- (١) انظر النوار السُلْطَانِيَّة / ٥٠ ، كتاب الروضتين : ج١ ق٢ / ٦٠٥ ، السلوك : ج١ ق١ / ٥٨ ، الحركة الصليبية : ٢ / ٧١٦ .
- (٢) ديوان ابن التعاويذي / ٤٢٢ ، كتاب الروضتين : ٢ / ١٠ ، والبيت الثاني غير موجود في كتاب الروضتين .
- (٣) الخريدة - قسم شعراء الشام : ١ / ٢٤٢ ، كتاب الروضتين : ج١ ق٢ / ٦٠٦ .
- (٤) انظر : صلاح الدين - ج١ / ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، وانظر : بيت المقدس - في أدب الحروب الصليبية : ٥٢ / ٥٣٠ .

وأما علاقة صلاح الدين بالصلبيين فقد كانت علاقة صراع ، على الرغم من تدخل تلك العلاقة بعض المفاوضات والمصالحات المؤقتة ، فقد أراد صلاح الدين جعل كلمة لا اله الا الله هي العليا ، فبدأ مسيرة الجهاد لتحرير بيت المقدس ، وتطلع إلى تحرير باقي البلاد الاسلامية من أيدي الصليبيين ، يقول لقاضي عسكره ابن شداد بعد فتح القدس ، وهو على ساحل البحر متوجّها إلى عكا : " أما أحكي لك شيئاً ؟ قلت : بلى ، قال في نفسي أنه متى يسّر الله تعالى فتح بقية الساحل ، قسّمت البلاد ، وأوصيت ، وركبت هذا البحر إلى جزائرهم ، أتتبعهم فيها حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أمـــــوت " (١) .

كانت سياسة صلاح الدين تجاه الصليبيين ، وهو في وزارته ، مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بعلاقة نور الدين بهم ، فكان على صلاح الدين في تلك الفترة أن يرد هجمات الصليبيين المتكررة على " مصر " ففي سنة ٦٥٠ هـ ، نزل الصليبيون على " دياط " بأعداد كبيرة ، يريدون أن يملكوها ليكون لهم موطئ قدم يأوون إليه ، فقد خافوا من الوحدة التي تمت على يد نور الدين وقائده صلاح الدين بين مصر والشام ، إذ أن مثل تلك الوحدة خلقت عند الصليبيين جوّاً من القلق والرعب في نفوسهم ، فقد أحسّوا أنهم وقعوا بين شقي الرحى ، فوجد صلاح الدين نفسه في موقف صعب ، لا سيما أنه ما زال يخشى خطر ثورة داخلية عقب قضائه على جند السودان ، كما تقدم ، وعلى الرغم من ذلك فقد استدعاه صعد الصليبيين عن " دياط " ، وفك الحصار عنها ، وفي ذلك يقول فتیان الشاغوري مصوراً الجمع الذي حشدته الفرنج ، فجعله كالبحر الزاخر ، وصور الجند المدافعين عن " دياط " بالأسد في شجاعته ، وصور حصار دياط ، وما كان من هزيمة الصليبيين ، وعودتهم أدلاء مهزومين ، يقول :-

وَلَمَّا أَتَوْا دِيَاطَ كَالْبَحْرِ طَاهِيَا
يَزِيدُ عَنِ الْإِحْصَاءِ وَالْعَدِّ جَمْعُهُمْ
رَأَوْا دُونَهَا أَسْدًا بِأَيْدِيهِمُ وَالْقَسَا
وَلَيْسَ لَهُ مِنْ كَثَرَةِ الْقَوْمِ سَاحِجِلٌ
أَلَوْفُ أَلَوْفٍ خَيْلُهُمُ وَالرَّوَاهِرِلُ
وَبَيْضاً رِقَاقاً أَحْكَمْتُهَا الصِّيَاقِلُ

وَدَارُوا بِهَا فِي الْبَحْرِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَمِنْ دُونِهَا سَدُّ مِنَ الْمَوْتِ حَافِلٌ
فَعَادُوا عَلَى الْأَعْقَابِ فِيهَا هَزِيمَةً كَانَتْهُمْ دُلَالَةً نَمَامٌ جَوَافِسِلٌ (١)

ولم يكتف صلاح الدين بصد هجمات الصليبيين ، بل قام بالهجوم على بعض المدن والقلاع التي كانت بأيديهم ، "كالرملة" و "عسقلان" و "الكرك" ، فيما بعد ، وقد كان هدف صلاح الدين من ذلك تطهير المنطقة الواقعة بين مصر والشام من التجمعات الصليبية التي كانت تنتهز الفرص لتوقع بالغوافل السارة من مصر إلى الشام أو بالعكس (٢) ، ففي سنة ١٦٦ هـ غزا صلاح الدين "غزة" و "عسقلان" ، وفي ذلك يلول عمارة اليمني ، مصورا تلك الغزوة ، من قصيدة :

لَحَلَّ بَنِي أَيُّوبَ إِنْ عَلِمُوا بِمَسَا تَخَلَّصْتُ مِنْهُ أَنْ يَرْقُوا وَيَشْفُقُوا
غَزَا عَقْرَدَارَ الْمُشْرِكِينَ "بِفَزَّةٍ" جَهَاراً وَطَرَفُ الشَّرْكِ خَزْيَانُ مُطْرِقُ
وَزَارُوا مُصَلَّى "عَسْقَلَانَ" بِأَرْعَسِنَ يَفِيضُ إِنَاءُ الْبَرِّ مِنْهُ وَيُفْهِمُ (٣)

وتميّزت سياسة صلاح الدين في الفترة الواقعة ما بين سنة ١٦٩ هـ وسنة ١٨٢ هـ ، وهي الفترة التي تمت فيها الوحدة بين مصر والشام وبلاد الجزيرة ، بالوفاقية على الهدنة أحيانا (٣) ، والهجوم على القلاع والحصون الصليبية ، وتحرير بعضهما من أيديهم أحيانا أخرى ؛ ففي تلك الفترة ردّ صلاح الدين الصليبيين عن الاسكندرية ، وانهزم في معركة "الرملة" ، وانتصر في وقائع كثيرة ، منها : وقعة "مرج عيون" ، وحاصر "الكرك" مرات متكررة ، وقام بتخريب "نابلس" وغيرها من المدن . . . الخ .

- (١) ديوان فتيان الشاغوري / ٣١٩ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٤٦١ .
- (٢) انظر النوادر السلطانية / ٤٥ ، مغر الكسروب : ١٩٨ / ١ .
- (٣) الأبيات غير موجودة في النكت ، وهي في كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٤٦١ ، وانظر قول سعادة الأعشى في مدح صلاح الدين في تلك الغزوة في الخريدة ، قسم شعراء الشام ؛ ١٩٩ / ١ ، وكتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٦٤٦ .
- (٤) انظر سجي رسول الفرنج إلى صلاح الدين طالبا الهدنة سنة ٥٧١ هـ فـ مـ مغر الكسروب : ٣٥ / ٢ .

نخلص إلى القول إن صلاح الدين بذل جهوداً عظيمة لضم أمراء الشام إليهم ، ومقاومة الباطنية والصليبيين في هذه الفترة دون تنزق البلاد ، وهذا الأمر تطلب منه وقتاً طويلاً ، فكان من الطبيعي أن يقبل الصلح والمفاوضات مع أي من هذه القوى السياسية الثلاث التي تحالفت ضده في كثير من الأحيان . وهذه سياسة حكيمة اتبناها صلاح الدين تجاههم ، لا سيما تجاه الصليبيين ، ومثال ذلك أنه في سنة ٥٧٦ هـ اضطر الصليبيون أن يعقدوا صلحاً مع صلاح الدين ، فقبل منهم هذا الصلح (١) ، ويذكر ابن الدهان الوصلي هذا الصلح ، ويشير إلى هوان الصليبيين ، وما لحقهم حتى طلبوا الصلح ، يقول مخاطباً صلاح الدين : -

وَمَا خَضَعَ الْفَرَنْجُ لَدَيْكَ حَقَّتِي رَأَوْا مَا لَا يُطَاقُ مِنَ الْكَفَرِ
وَمَا سَأَلُوكَ عَقْدَ الصَّلَاحِ وَدَا وَلَكِنْ خُوفٌ مَعْلَمٌ رَدَا
مَلَأَتْ بِلَادَهُمْ سَهْلًا وَحَزْنًا أَسْوَدًا تَحْتَ غَابَاتِ الرَّمْلِ (٢)

فلم يبق صلاح الدين حتى سنة ٥٨٢ هـ بحرب حاسمة ضد الصليبيين ، بل أنه اكتفى بتوجيه ضربات متقطعة لهم كلما سنحت له فرصة (٣) .

وبعد سنة ٥٨٢ هـ وجه صلاح الدين طاقاته لحرب الصليبيين ، وبالفعل استطاع أن يهزمهم في معركة حطين سنة ٥٨٣ هـ ، وتلاها تحرير بيت المقدس وغيرها من البلاد ، ولم يتوقف صلاح الدين عن جهادهم ومحاربتهم لاسترداد ما تبقى من البلاد .

ولم تقتصر المفاوضات والمعاهدات السنية والعلاقات الدبلوماسية مع الصليبيين على الفترة الأولى التي ذكرت ، ولكن امتدت إلى الفترة التالية بعد معركة

(١) انظر الكامل : ٤٦٤/١١ ، كتاب الروضتين : ١٦/٢ ، مفرج الكروب : ٩٧/٢ ، وانظر

صلحاً آخر مع "البرنس" "أرناط" في الكامل : ٥٢٨/١١ .

(٢) ديوان ابن الدهان : ٦٦/١ ، كتاب الروضتين : ١٦/٢ .

(٣) انظر الحركة الصليبية : ٧٢٣/٢ ، الشرق الأدنى : ٧٢/٢ ، صلاح الدين والصليبيون

١٥٢/ - ١٧٨ ، الدبلوماسية الإسلامية / ١٩ ، سياسة صلاح الدين / ٢٦٠ .

حطين وفتح بيت المقدس ، وهنا تظهر حنكة صلاح الدين ومقدرته السياسية والعسكرية ، إذ أن الحرب المستمرة تتطلب نفقات باهظة ، كما أن مثل هذه الحرب الطويلة تضخف من هم الجند ، وتضخف من قوتهم ، وهذا إضافة إلى أن الجند تشتاق إلى بلادهم وأهلها ، فما كان من صلاح الدين إلا أن يقبل المهادنة عندما يطلبها منه الصليبيون ، كما حدث سنة ٥٨٤ هـ (١) ، وسنة ٥٨٨ هـ (٢) .

وقد سجل الشعراء فترات السلم هذه كما سجلوا فترات الحرب ، فهذا ابن المجاور يشير إلى الصلح الذي تم سنة ٥٨٨ هـ ، وهو صلح " الرملة " ، فيقول :-

قَدْ قُلْتُ لِمَا قِيلَ صَلِّحْ قَدْ جَسَرِي هَذَا حَدِيثٌ مُخَرَّفٌ وَمُحَسَّرٌ
ظَنُّوهُ سِلْمًا وَهُمْ فِي أَرْوَاحِهِمْ سِلْمٌ إِلَى أَجَلٍ لَهُمْ مُتَخَلِّصٌ (٣)

ولا شك أن هذا الصلح كان لصالح المسلمين ، إذ بعد فشل الحملة الصليبية الثالثة ، فقد عجزت عن تحقيق هدفها باسترجاع بيت المقدس ، ويرجع ذلك إلى صلاح الدين الذي أنقذه وحافظ عليه ، فلولا لرزح ثانية تحت نير الاحتلال الصليبي ، يقول ابن الساعاتي :-

لَوْلَاكَ أُمَّ الْبَيْتِ غَيْرُ مَدِافِعٍ وَأَسْأَلَ سَبِيلَ نَدَاهُ فِي بَطْحَائِهِمْ
وَبَكَتْ جُفُونُ الْقُدْسِ ثَانِيَةً دَمِيمًا لَبَرْتُمُ النَّاقُوسَ فِي أَفْنَائِهِمْ (٤)

* * *

-
- (١) انظر الفتح / ٢٦٠ ، الكامل : ١٢ / ١٩ ، النوادر السلطانية / ٩٤ ، كتاب الروضتين : ٢ / ١٣٣ ، البداية والنهاية : ١٢ / ٣٥٢ ، الدبلوماسية الإسلامية / ٧٠ .
- (٢) انظر الفتح / ٦٠٣ ، الكامل : ١٢ / ٨٥ ، النوادر السلطانية / ١٨٢ ، ٢٣٢ - ٢٣٥ ، كتاب الروضتين : ٢ / ٩٩ - ٢٠٠ ، مغز الكروب : ٢ / ٤٠٢ - ٤٠٤ ، النجوم الزاهرة : ٦ / ٤٨ ، حطين مسيرة التحرير / ١٨٤ .
- (٣) كتاب الروضتين : ٢ / ٢٠٤ .
- (٤) ديوان ابن الساعاتي : ٢ / ٤١١ ، كتاب الروضتين : ٢ / ٢٠٢ ، مغز الكروب : ٢ / ٤٠٤ .

عنى صلاح الدين بإدارة شؤونه دولته، وقد جعل الشريعة الإسلامية نهجاً له
في ذلك، وهذا عبارة اليميني يشير إلى تطبيق صلاح الدين لشرع الله في الأرض، يقول :
سَمْتُ بِصَلاحِ الدِّينِ مِلَّةَ أَحْمَدٍ وَطائِرُها فَوْقَ السَّماكِ مُحَلِّقٌ (١)

ولتطبيق هذه الشريعة، لا بد من وجود فضائل معينة محددة في الحاكم، ومن
تلك الفضائل : القوة، والعدل، والاحسان، وهذه صفات تجمعت في شخصية صلاح الدين،
وقد تقدّم الحديث عنها، ولا يمكن بغيرها أن تبنى الدول بناءً سليماً قوياً، يقول فتيان
الشافوري :

تُبْنَى الْمَمْلَكَةُ بِالْوَشِيحِ الْأَشْمَرِ وَالْبَيْضِ تَلْمَعُ فِي الْعَجَاجِ الْأَكْذَرِ
وَالْعَدْلُ وَالْإِحْسَانُ وَالْمَعْرُوفُ تَلْمَعُ الْحِيَاظُ لِلْمُسِيرِ وَلِلْمُسِيرِ
وَالْحِلْمُ وَالْعَفْوُ لِلَّذِينَ شَذَّاهُمَا مُتَضَوِّعٌ كَأَرْحِ سَيْكِ الْأَنْفَرِ
كَفِعَالِ مَوْلَانَا صَلاحِ الدِّينِ ذِي الْمَجْدِ الْقُدَامِيسِ وَالْعِطَاءِ الْكَوْثَرِ

ويشير الشافوري إلى أن صلاح الدين قدّم للإسلام ما لا يمكن أن ينكسر
أو يجمد، يقول :

أَهْدَى صَلاحُ الدِّينِ لِلإِسْلامِ إِذْ أَرَادَ قَبِيلَ الْكُفْرِ، مَا لَمْ يُكْفَرْ (٢)

لم يكن صلاح الدين يحكم بهواه، وإنما كان يعتبر نفسه خادماً للشريعة الإسلامية،
مطبقاً لأحكامها، ولذا لم يكن لصديق أو قريب منزلة عنده في حدود الله. (٣) ومن
مظاهر حكمة بهذه الشريعة أنه كان يسقط ضريبة المكس عن البلاد التي يضمها إليه
حتى أن ذلك أصبح عادة عنده، كما يبدو في قول العماد الاصفهاني :

فَكَيْفَ مَكَسَتْ الْمُشْرِكِينَ رُؤُوسَهُمْ وَدَأَبُكَ فِي الْإِحْسَانِ أَنْ تُطْلِقَ الْمَكْسَ (٤)

(١) النكت المصرية / ٣٠٠ .

(٢) ديوان فتیان الشافوري / ١٤٠ ، كتاب الروضتين : ١١٩ / ٢ .

ونظر الشيء راحته ، المحيط (زفر) . والكثرة : الكثير ، المحيط (كثر) .

(٣) انظر رحلة ابن جبير / ٢٧١ .

(٤) ديوان العماد / ٢٣٤ ، كتاب الروضتين : ٨٣ / ٢ ، ومعنى مكس : شاكس ، وأخذ
بالناصية . انظر لسان العرب (مكس) .

فمنذ أن أصبح صلاح الدين وزير "مصر" أبطل المكوس والضرائب عن أهلها (١)، وكذلك فعل حين نزل "دمشق" سنة ٥٢٠هـ، وكان هذا أول عمل يقوم به هناك؛ وذلك اتباعاً للشرع المطهر، ويظهر ذلك جلياً واضحاً في كتاب فاضلي يقول فيه: "فشرعنا في امتثال أوامر الشرع برفعها (يعني المكوس) وإعفاء الأئمة منها بوضعها" (٢).

وكان الحجاج المغاربة يعانون من ثقل الضرائب المفروضة عليها مدة دولسة الفاطميين (٣)، وقد أدى ذلك إلى الامتناع عن الذهاب إلى الحج عبر الأراضي الفاطمية.

ووصف ابن جبير ما كان يعانيه الحجاج من العنف والذل بسبب تلك المكوس، التي كانت مفروضة على بلاد الحجاز، وأشار إلى الفائتها على يدي صلاح الدين، وتسهيل السبيل للحجاج الذين يرفعون أيديهم داعين له في حجهم كل عام في تلك الديار المقدسة، يقول:

رَفَعْتَ مَنَارَ مَكْنَسِ الْعِجْصَا	زِيَارَتِكَ الشَّامِلِ الْفَامِرِ
وَأَمْتًا أَكْثَفَ تِلْكَ الْبِلَادِ	فَهَانَ السَّبِيلُ عَلَى الْعَابِرِ
فَكَمْ لَكَ بِالْشَّرْقِ مِنْ حَامِدٍ	وَكَمْ لَكَ فِي الْغَرْبِ مِنْ شَاكِرِ
وَكَمْ بِالِدُّعَاءِ لَكُمْ كُلِّ عَامٍ	بَعْدَ مَنْ مَقْلَسِ جَاهِلِ
يَعْتَفُ حُجَّاجُ بَيْتِ الْإِلَهِ	وَيَسْطُو بِهِمْ سَطْوَةُ الْجَاهِلِ
وَيُكْشَفُ عَنَّا بِأَيْدِيهِمْ	وَنَاهِيكَ مِنْ مَوْقِفِ صَافِرِ
وَقَدْ وَقَعُوا بَعْدَ مَا كُشِفُوا	لَأَنَّهُمْ فِي يَدِ الْآسِرِ (٤)

-
- (١) كتاب الروضتين: ج ١ ق ٢/٤٤٣، ٥٢٢هـ، وانظر البداية والنهاية: ٢٨٨/١٢.
- (٢) الكواكب الدرية: ٢١٥.
- (٣) كتاب الروضتين: ج ١ ق ٢/٦٠٤.
- (٤) انظر رحلة ابن جبير: ٣٠.
- (٥) كتاب الروضتين: ٤/٢، مجلة آداب الرافدين المجلد ٩/ ٥٠٤.

وأسقط صلاح الدين أيضا المكوس التي كانت تؤخذ من حجاج اليمن (١)، وأسقط المكوس عن أهل حلب بعد فتحها سنة ٥٧٩ هـ، يقول العباد في نص كتاب من انشائه :
 " وخصصنا عامة الرعية بالرعاية ، وأزحنا عنهم غيابة الخواصة ، وزالت المكوس ، وطابت النفوس " . (٢)

كانت سياسة صلاح الدين في إلغاء المكوس سياسة عامة ، اتخذها في كل المناطق التي أصبحت تابعة لحكمه ، وقد اعتبر صلاح الدين هذه المكوس نوعا من الظلم للرعية ، وأخذ الأموال بطريقة غير شرعية ، ولذلك سعى جادا إلى إلغاؤها ، وكان يوصي ولائيه بالابتعاد عن أخذها (٣) ، واكتفى بما أحله الشرع فأنشأ ديوان الزكاة . (٤)

حقا لقد أمنت البلاد بصلاح الدين ، وعاد الاسلام عزيز الجانب بعد أن كان سهلا ، وهذا ما أكده أبو المرهف النعمري (٥) بقوله لمالك صلاح الدين الشام :

وَلَمَّا مَلَكَتْ الشَّامُ مَزَّتْ رُبُوعُهُ	وَنَالَ النُّنَى سَكَّانُهُ وَالنُّوْمُلَا
أَزَلَّتْ بِهِ التَّكْدِيرُ مِنْ كُلِّ مَكُورٍ	وَأَخْصَتْ مِنْهُ كُلَّ مَا كَانَ أَمَحَلَا
وَأَضْحَى بِكَ الْإِسْلَامُ عِزَّةً جَانِبٍ	كَانَ لَهُ فَوْقَ الْمَجْرَةِ مُعْتَلَى
شَدَّ ذَتَ عَرَاهُ بَعْدَ طَوْلِ انْغِصَابِهَا	وَحَصَّنَتْ مِنْهُ كُلَّ مَا كَانَ مُهْمَلَا

ويقول :

أَعَدَّتْ ، صَلاَحَ الدِّينِ ، لِلْأَعْيُنِ الْكَرَى
 وَأَمَنْتَ مَا رَاعَ الْقُلُوبَ وَأَوْجَسَلَا (٦)

(١) السلوك ج ١ ق ٢ / ٧٤٠

(٢) البرق الشامي : ١٢٥ / ٥

(٣) كتاب الروضتين : ٤٧ / ٢

(٤) قوانين الدواوين : ٣٠٨ - ٣١٦

(٥) هو : نصر بن منصور بن الحسن بن جوشن بن منصور بن حميد النعمري ، كانت ولادته

بالرقعة سنة ٥٠٠ هـ . نشأ بالشام ، ثم سكن بغداد إلى حين وفاته سنة ٥٨٨ هـ .

اشتغل بحفظ القرآن فحفظه ، وكان لفويا ، محدثا ، متفقا بفقهاء الإمام أحمد بن

حنبل ، وهو شاعر الوزير العالم عون الدين بن هبيرة ، كان أبو المرهف زاهدا ،

ورعا ، طاهر اللسان عفيفا . انظر الخريدة ، قسم شعراء الشام : ٤٥٥ / ٣ ، امرأة

الزمان : ج ٨ ق ١ / ٤٢١ ، كتاب الروضتين : ٢ / ٢١١ ، وفيات الاعيان : ٣٨٣ / ٥ ،

البداية والنهاية : ١٢ / ٣٧٥ ، النجوم الزاهرة : ٦ / ١١٨ ، شذرات الذهب : ٤ / ٢٩٥ ،

(٦) ٢٩٦ خريدة القصر ، القسم العراقي : ٣ / ٤٦٧ ، ٤٧٠ .

وقد اهتم صلاح الدين بالمنشآت العمرانية : العلمية والاجتماعية والصحية ، منذ أن كان وزيراً لمصر ، فقد اهتم ببناء المدارس والمحارس (١) ، فانتشرت في أرجاء مصر والشام وبيت المقدس فيما بعد ، مما يدل على اهتمام صلاح الدين بالعلم والعلماء ، ومن تلك المدارس : المدرسة الناصرية ، التي بناها بجوار جامع عمرو بن العاص سنة ٥٦٦ هـ ، وهي أول مدرسة أنشئت بمصر للسنيين ، وقد أنشأها للفقهاء الشافعية (٢) ، والمدرسة الصلاحية بجوار قبة الامام الشافعي (٣) ، ومدرسة للمالكية في السنة المذكورة ، والمعروفة بالمدرسة القمحية (٤) ، وبنى بدمشق مدرسة للمالكية (٥) ، ولما فتح القدس بنفسه به مدرسة للشافعية التي عرفت بالصلاحية (٦) .

وقام صلاح الدين باعمار الحمامات بالقرب من المدارس ، لتأمين حاجات العلماء والطلبة الوافدين إلى البلاد (٧) . وفي إحدى هذه الحمامات يقول عرقلة الكلبي :

يا دَاخِلَ الحَمَّامِ هِنَقْشَهَا	دَائِرَةُ كَالْغَلَكِ الدَّائِرِ
تَأْمَلُ الْجَنَّةَ قَدْ زُخِرَ فَسَتْ	وَعُتِرَتْ لِلْمَلِكِ النَّاصِرِ
كَأَنَّا فَيْضُ أَنْبِيَاءٍ	نَدَاةُ لِلْوَارِدِ الصَّادِرِ (٨)

- (١) انظر رحلة ابن جبير / ١٥ ، والمحارس : الواحد محرس ، وهو مأوى مخصص للدارسين والزهاد والمساقرين والفقراء . انظر رحلة ابن جبير / ١٥ حاشية (٢) .
- (٢) كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٤٨٦ ، مفرج الكروب : ١ / ١٩٧ ، طبقات الشافعية : ٣٥٦ / ٧ ، النجوم الزاهرة : ٥ / ٣٨٥ ، الكواكب الدرية : ١٩٤ / ١٩٤ ، الحياة العقلية : ٤٢ / ٤٢ .
- (٣) رحلة ابن جبير / ٢٢ ، البداية والنهاية : ١٢ / ٣١٦ ، الحياة العقلية : ٤٣ / ٤٣ .
- (٤) كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٤٨٦ ، مفرج الكروب : ١ / ١٩٨ ، طبقات الشافعية : ٣٥٦ / ٧ ، النجوم الزاهرة : ٥ / ٣٨٥ ، الكواكب الدرية : ١٩٤ / ١٩٤ ، حسن المحاضرة : ١٥٦ / ٢ ، بدائع الزهور : ج ١ ق ١ / ٢٤٣ ، الحياة العقلية : ٤٤ / ٤٤ .
- (٥) وفيات الاعيان : ٢٠٧ / ٧ .
- (٦) الدارس : ١ / ٣٣٢ ، الانس الجليل : ٢ / ٢٩٣ ، خطط الشام : ٦ / ١٢٢ ، المدارس في بيت المقدس : ١ / ١٨١ .
- (٧) رحلة ابن جبير : ٢٢ / ٢٢ .
- (٨) ديوان العرقلة / ٥٢ ، ٥٣ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٤٥٠ .

وعني صلاح الدين ببناء البيمارستانات (١) ، والمساجد ، وأصلح القديم منها .
يذكر ابن إياس أنه كان بدمشق خان يسمى خان " ابن الزنجاري " ، كان مثارا للشبهات ،
فلما بلغ صلاح الدين أخباره أمر بهدمه ، فهدم ، وبني مكانه جامعاً أسماه " جامع التوبة " ،
وولّى خطابته لخطيب اتضح أنه كان فاسقا فيما بعد ، فلما علم صلاح الدين بذلك أمر
بعزله وتولية شخص من أهل التقوى والصلاح ، وفي ذلك يقول القائل ، ولم يذكر اسمه
ابن إياس :

يَا مَلِيكًا أَوْضَحَ الْحَقَّ لَدَيْنَا وَأَبَانَ —
جَامِعَ التَّوْبَةِ قَدْ قُلَّدَنِي مِنْهُ أَمَانَةً
قَالَ: قُلْ الْمَلِكُ النَّاسِ صِرَافِي اللَّهُ شَانَهُ
يَا صَلَاحَ الدِّينِ يَا مَنْ حَمَدَ النَّاسُ زَمَانَهُ
لِي خَطِيبٍ وَاسِطِي يَغْشَقُ الشُّكْرُ دِيَانَهُ
فَأَنَا فِي كُلِّ حَالٍ لَمْ أَزَلْ بِالْفَسْقِ حَانَهُ
فَاسْتَمِعْ قِصَّةَ حَالٍ زَادَكَ اللَّهُ صِيَانَهُ (٢)

وبنى صلاح الدين الخوانق (٣) ، منها الخانقة الناصرية بدمشق (٤) ، والخانقة
الصلاحية ببیت المقدس بعد فتحه (٥) .

-
- (١) رحلة ابن جبیر / ٢٦٠ / ١٥ ، البداية والنهاية : ١٢ / ٣١٦ ، النجوم الزاهرة :
٧٩ / ٦ ، الكواكب الدرية / ١٩٤ ، بدائع الزهور : ج ١ ق ١ / ٢٤٣ ، والبيمارستان :
المشفى ، انظر المعجم الذهبي / ١٣٠ .
(٢) بدائع الزهور : ج ١ ق ١ / ٢٤٦ ، ٢٤٧ .
(٣) الخوانق : مفردا خانقة ، وهي مكان عبادة للصوفية يتولاها شيخ من مشايخهم .
انظر رحلة ابن جبیر / ٢١٨ ، صبح الاعشى : ١٢ / ١٠٣ ، خطط المقرئ : ٢ / ٤٤ ،
٢٦ ، خطط الشام : ٦ / ١٢٣ ، سياسة صلاح الدين / ٤٣٧ ، حاشية (١) .
(٤) الدارس : ٢ / ١٢٨ .
(٥) صبح الاعشى : ١٢ / ١٠٤ ، الانس الجليل : ٢ / ٤٧ ، المدارس في بیت
المقدس : ١ / ٤٠٢ .

وعني صلاح الدين بالشؤون الإدارية للقلاع والمدن التابعة له ، فكان لا يفوض إلا من يثق به من الولاة لإدارتها ، وقد أشار صلاح الدين إلى الصفات التي يجب أن تتوفر في الوالي للولاية من خلال الوصية التي كتبها إلى ابنه الملك الظاهر بدمشق سنة ٥٨٨ هـ ، من هذه الصفات : تقوى الله التي هي رأس كل خير ، وعدم استخدام القوة وسفك الدم ، وحفظ الرعية والنظر في أحوالهم . . . (١)

وتظهر سياسة صلاح الدين العامة في أمر الولاية من خلال موقفه من أخيه الملك العادل في سنة ٥٧٩ هـ ، عندما طلب الملك العادل من صلاح الدين أن يكتب له كتاباً " بحلب " ككتاب البيع والشراء ، غير أن صلاح الدين رفض طلبه ، وقال له : " أَظَنَنْتَ أن البلاد تباع ، أو ما علمت أن البلاد لأهلها المرابطين بها ، ونحن خزنة للمسلمين ، ورعاة للدين ، وجراس لأموالهم ؟ " . (٢)

نخلص إلى القول إن صلاح الدين كان يحرص المسلمين رعاية حق ، كما كان يحافظ على الدين وأموال الأمة من الضياع ، فلم يكن يسمح لأحد من ذوي القربى أو غيرهم أخذ حقوق الآخرين ، أو الإفلات من دائرة الشريعة الإسلامية ، وهذا مثال الراعي المسلم الذي جعل كتاب الله وسنة رسوله نبراسه في قوله وعمله .

أدرك صلاح الدين أنه لا بد من تنظيم شؤون البلاد في مختلف الميادين ، وتهيئة الأمة واعدادها إعداداً سليماً قبل مواجهة الأعداء مواجهة مصيرية .

واستطاع صلاح الدين بعد أن أصلح البلاد أن ينتصر على الصليبيين في أقوى معركة بينه وبينهم ، وهي معركة حطين الخالدة ، ثم أن يحرر بيت المقدس وغيره من بلاد الساحل .

يقول الدكتور محمود إبراهيم عن شخصية صلاح الدين : " ففي شخص هذا الرجل اجتمعت القيادة السياسية بكل ما يرتبط بها من تنظيم لشؤون البلاد في مختلف

(١) انظر نص الوصية في كتاب زبدة الحلب : ١٢٢/٣ .

(٢) كتاب الروضتين : ٥٢/٢ .

المهادين : من ادارية ومالية وتعليمية وعمرانية، والقيادة العسكرية التي تخطط
لما يسمى بزمنا هذا الاستراتيجية الخاصة بالحرب* . (١)

x x x

(١) حطين بين أخبار مؤرخيها ٠٠٠ / ٠٤١

سجل الشعراء خطى صلاح الدين بعد توليه الوزارة ، فجاء شعرهم مصوراً جهوده من أجل الوحدة ، وبعض معالم سياسته وإدارته للبلاد ، وقدّم صورة واضحة المعالم للبطل المسلم الذي قضى حياته مجاهداً حتى تسنى له تحرير المقدسات وباقي البلاد من أيدي الصليبيين .

وقد أدرك صلاح الدين ، كما أدرك من قبله نور الدين ، أنه لا يمكنه القيام بتطهير الأرض من أيدي الصليبيين إلا إذا حقق وحدة كاملة بين صفوف المسلمين في ظل دولة إسلامية ، وبالفعل استطاع أن يكون جبهة إسلامية قوية البنیان ، تمتد من برقة غرباً إلى الفرات شرقاً ، ومن الموصل وحلب شمالاً إلى النوبة واليمن جنوباً ، وكانت الخطوة المنطقية بعد ذلك القيام بهجوم على الصليبيين ، وتغليب بيت المقدس من أيديهم ، فكانت معركة حطين التي تلاها تحرير القدس .

لقد سعى نور الدين إلى وحدة البلاد ، فبدأ العمل بتوحيد بلاد الشام ، وضم مصر إليها عن طريق قائده أسد الدين وابن أخيه صلاح الدين ، وقطع الخطبة للخلافة الفاطمية ، وأقامها للخليفة العباسي في بغداد عن طريق نائبه صلاح الدين ، وبذا تكون هذه الخطبة إيذاناً حقيقياً بوحدة البلاد .

× × ×

كان صلاح الدين في الفترة ما بين توليه الوزارة في مصر وموت نور الدين يتبع أوامر نور الدين ، وبعد وفاة نور الدين قام صلاح الدين باتمام ما سعى إليه سيده ، لا سيما أن البلاد بعد نور الدين قد أصابها الاضطراب والصراع على الملك بين الأمراء وقد قام صلاح الدين بفضل سياسته الحكيمة بإخماد الاضطرابات ، وتذليل الصعاب وإصلاح ما أفسده الأمراء هناك من أجل الوصول إلى الهدف المنشود الذي تمنّاه من قبل نور الدين ، وهو تحرير البلاد من أيدي الصليبيين .

لقد قام صلاح الدين بضم مدن الشام والجزيرة مدينة مدينة ، وحصن حصناً إلى حصن الحظيرة الإسلامية ، وقد أسهم الشعراء بنشاط وافر في الدعوة إلى الوحدة والحث

عليها ، والتهنئة بها ، فهذا أمارة بن منقذ يحدث صلاح الدين على المسير إلى الشام
لاصلاح الفساد فيها ، وإقامة العدل هناك ، وذلك بعد أن نزل " عسقلان " وكسان
صلاح الدين مقيما بمصر آنذاك ، فقال :

فَسِرَّ إِلَى الشَّامِ ، فَالْمَلَأْتُكَ الْأَهْلَ — رَأَى تَلْقَاكَ جَمْعُهُمْ مَسْدَرًا
فَهُوَ فَقِيرٌ إِلَيْكَ يَا مَسْلُوسٌ أَنْ — تُصْلِحَ بِالْعَدْلِ مِنْهُ مَا فَسَدَا (١)

ولما نزل صلاح الدين الشام ، وأخذ " دمشق " سنة ٥٧٠ هـ ، استبشر الناس
بقدومه ، فاجتمعوا إليه وفرحوا به " (٢) ، وتهافت الشعراء على تهنئته بتلك الخطوة
الصائبة التي انقذت الشام من انحراف أمراء نورالدين عن الجادة التي اختطها لهم .

ويصور نشو الدولة أبو الفضل (٢) قدوم صلاح الدين إلى " دمشق " بعد أن
جأرت له بالشكوى لما أصابها من ضر من جرأ سياسة حكامها المنحرفين ، وأوضح بأن
الله قد هبأ لها بعد يأس صلاح الدين ؛ لينقذها ما هي فيه ، يقول :

أَتَى بَعْدَ مَا نَادَتْ " دِمَشْقُ " لِبُعْدِهِ — إِلَى رَبِّهَا تَاللَّهِ سَسْنِي الضَّرُّ
شَكَتْ بَعْدَهُ لَمَّا تَوَطَّنَ غَيْرَهَا — وَقَالَتْ ، وَكَمْ أَمثالها ، كَيْتَنِي حِصْرُ
إِذَا اسْوَدَّ خَطْبُ دُونِهِ الْمَوْتُ أَحْمَرُ — أَتَتْ بِالْأَيَّادِي الْبَيْضِ أَعْلَانُ الصَّفَرِ
فَلِلَّهِ حَمْدٌ لَا يَزَالُ مُجَسِّدًا — عَلَى مَا حَبَا مِنْ فَضْلِهِ وَلَهُ الشُّكْرُ
أَنَّا لَنَا مِنْ بَعْدِ يَأْسٍ مِسْرَحٌ — مَلِكًا غَدًا مِنْ بَعْضِ خُدَامِهِ الدَّهْرُ (٤)

- (١) كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٦٠٥ ، والهيتمان غير موجودين في ديوان الشاعر .
- (٢) النوادر السلطانية / ٥٥٠ .
- (٣) هو : أبو الفضل أحمد بن عبد الرحمن بن علي بن المبارك السلي الدمشقي ،
من بني نقادة ، ولد بدمشق سنة ٥٤١ هـ ، كان عند صلاح الدين في عسقلان
روما ، الأجناد ، أو الأمراء ، كان أديبا شاعرا ، توفي سنة ٦٠١ هـ ، انظر
الخريدة ، قسم شعراء الشام : ٢٢٩ / ١ ، الفصوص الياضعة / ٢٦ - ٢٨ .
- (٤) الخريدة ، قسم شعراء الشام : ٢٣٠ / ١ ، وانظر أقوال الشعراء : ابن التعاويذي
ووحيش الأسدي ، وأبي المرحف النيميري فيما سبق عند الحديث عن سياسة
صلاح الدين .

وما إن انتهى صلاح الدين من أمر " دمشق " حتى نزل مدينة " حمص " ، فقصده
المهذب بن أسعد الموصللي المعروف بابن الدهان ، فمدحه بقصيدة قارن فيها بين
حال الشام قبل دخول صلاح الدين إليها وحالها بعد دخوله ، وقد أضحى الشام
محميًا بصلاح الدين ، وكان من قبل قد أشفى على الهلاك ، وفي وقت كان الأعداء يترصدون
به الدوائر ، ويشير الشاعر إلى أن الشام كان مظلماً بعد موت نور الدين ، وقد أصبح نيراً
الآن بوجود صلاح الدين ، وشبه الشام بداع يطلب النصر ، فأجيب دعاؤه ، يقول :

وَالشَّامُ قَدْ أَضْحَى حِمًى بِكَ بَعْدَ مَا أَشْفَى وَأَمَلْتُ الْعِدَى أَنْ تَظْفَرَا
أَنْسَى لِنُورِ الدِّينِ لَيْلًا مَظْلَمًا حَتَّى أَتَيْتُ فَكَانَ صُبْحًا نَيَّسَرَا
فَكَانَهُ دَاعٍ أَجِيبَ دُعَاؤُهُ أَوْ كَانَ خَيْرَ فِي الْوَرَى فَتَخَيَّرَا (١) .

ودلف إليه العماد الأصهباني عند تسلمه قلعة " حمص " ، فهنأه بقصيدة يسرى
فيها أن به اطمئنان النفوس والقلوب ولذلك هو كفه للبلاد التي يحل بها ، وليس لها
نصير سواه ، وأن الله مؤيد له في كل ما يبتغيه من حق :

إِيَابُ ابْنِ أَيُّوبَ نَحْوَ الشَّامِ عَلَى كُلِّ مَا يُرْتَجَى ظَهَرُورُ
بَيُوسُفُ مِصرَ وَأَيَّامُ تَغَرُّ الْعُيُونُ وَتَشْفَى الصُّدُورُ
رَأَتْ مِنْكَ " حِمصَ " لَهَا كَافِيَا فَوَاتَاكَ مِنْهَا الْقَوِيُّ الْعَسِيرُ
مَلَكْتَ نَاسِجٍ ، فَمَا لِلْبِلَادِ سِرَاكُ مُجِيرٌ وَمَوْلَى نَصِيرُ
لَكَ اللَّهُ ، فِي كُلِّ مَا تَبْتَغِيهِ بِحَقِّ ظَهِيرٍ وَنَعْمَ الظَّهِيرُ (٢)

وبعد أن تمكن صلاح الدين من " حمص " ، نزل " بعليك " في رمضان في السنة
نفسها ، أي في سنة ٥٢٠ هـ ، فمدحه العماد بقصيدة رأى فيها أن فتوح صلاح الدين
فخر للإسلام ، وأن بلاد الشام قد استقر أمرها ، واستقامت ممالكها ، يقول :

بِفَتْوحِ عَصْرِكَ يَفْخَرُ الْإِسْلَامُ وَنُورُ نَصْرِكَ تَشْرِقُ الْإِسْلَامُ

(١) ديوان ابن الدهان / ٥٣ .

(٢) ديوان العماد / ١٩١ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٦١٢ ، البيتان الأخيران غير
موجودين في الروضتين . والأسجاح : حسن العنق ، انظر : لسان العرب (سجع) .

هَـذِي الْمَالِكُ وَاسْتَقَامَ الشَّامُ شَكَرًا لِمَا مَنَحَ إِلَهُ صِيَامُ خَلَّتْ لَنَا ، وَالْفَطْرُ فِيهِ حَسْرَامُ بِحُصُولِهِ لِفَتْوحِكَ الْإِسْلَامُ (١)	وَفَتَحَ قَلْعَةَ بَغْلَبَك * تَهْدَبَتْ فَتَحَّ تَسْنَى فِي الصَّيَامِ كَأَنَّهَا مَنْ ذَا رَأَى فِي الصَّوْمِ عِيدَ سَعَادَةٍ فَتَمَلَّ فَتَحَكَ ، وَاقْصِدِ الْفَتْحَ الَّذِي
---	---

وقد رأى العمام أنه من حسن الحظ أن يأتي هذا الفتح في هذا الشهر المبارك ،
وأن المسلمين قد غمرتهم السعادة به ، كما تفرحهم السعادة بعيد الفطر .

وسا تجد الإشارة إليه أن الشعراء رأوا في هذه الفتح وتوحيد كلمة المسلمين تصهيدا
للفتح الكبير فتح القدس ، ونصرا لكلمة الاسلام ، وهذا واضح في البيت الأخير من أبيات
العمام السابقة .

وجمع المواصلة والحلبيون عساكرهم لمحاربة صلاح الدين سنة ٥٧٠هـ ، فكسروهم
صلاح الدين بوقعة تعرف " بقرون حمة " (٢) ، فأنشأ العمام قصيدة أشار فيها
إلى أنه قد حوى الشام ، ونصر الاسلام ، ووطد أركانه وزعزع الكفر ، وصوّر تشتيت صلاح الدين
لجموعه هو " لا " وتحطيم قوتهم ، وبسخر منهم لأنهم ما اتعظوا " بحمص " وبغلبك " ، فقد كانت
بمشاية الإنذار لهم ، يقول :

فِي " مَصْر " تَغْبِطُ عَصْرَهُ الْأَعْصَارُ أَيَّامِهِ ، وَتَضْفَضُ الْكُفَّارُ صَيَّرَتْ ذَاكَ النَّظْمَ وَهُوَ نَشَارُ بَلْ كَلَّتِ الْأَنْيَابُ وَالْأَطْفَارُ فِي " بَغْلَبَك " بِمِثْلِهَا الْإِنْذَارُ ؟ (٣)	قَدْ حَارَ مَلِكُ الشَّامِ يُوسُفُ الَّذِي نَصَرَ الْهُدَى فَتَوَطَّنَ الْإِسْلَامُ فِي لَمَّا لَقِيتَ جَمُوعَهُمْ مَنْظُومَةً وَتَحَطَّمَتْ عِنْدَ الْقُرُونِ قُرُونُهُمْ أَوْ مَا كَانَتْ يَوْمَ " حِمص " وَكَتَبَهُمْ
---	--

- (١) ديوان العمام / ٣٧٩ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٦٣١ ، مفرج الكروب : ٢ / ٢٩ ، ٣٠ .
(٢) منطقة جبلية تشرف على مدينة حماة ، وهي مكونة من قلعتين متقابلتين (١) . أنظر :
معجم البلدان : ٣ / ٣٠٠ ، ٣١٠ .
(٣) ديوان العمام / ١٦٤ ، ١٦٥ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٦٣٥ ، ٦٣٦ .

وتمكن صلاح الدين من هزيمة المواسلة والحلبيين في وقعة أخرى سنة ٥٧١هـ،
تصرف بوقعة * تل السلطان * (١)، فأنشده ابن سعدان الحلبي (٢) قصيدة، منها
قوله :

وَمَا شَكَ قَوْمٌ حِينَ قُتِّ عَلَيْهِمْ
غَدَاةَ التَّقَى الْجَمْعَانِ أَنْكَ غَالِبٌ
وَلَوْ لَمْ تَقْدُ تِلْكَ الْمُقَانِبَ لَا غَتَدَى
لِنَفْسِكَ فِي نَفْسِ الْعَدُوِّ مَقَانِبٌ (٣)

وقال العماد قصيدة حمد فيها الله تعالى على ما أفاء على السلطان من نصر،
وصور ظلم المواسلة والحلبيين، الذي هوى بهم في ظلمات الشقاء والويل، وجهلهم
الذي أوقعهم في قبضة صلاح الدين، ووصف حكام "حلب" و"الموصل" بأنهم عصاة قد أنسدوا
الدين بعدم وفائهم بالعهد، وفي حين أن صلاح الدين هو المصلح لما أنسد هو لا
من أمور الدين، يقول :

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي إِفْضَالُهُ
حُلُو الْجَنَّا عَالِي السَّأَاءِ وَضَاحُهُ
عَادَ الْعَدُوَّ بِظُلْمَةٍ مِنْ ظُلْمِهِمْ
فِي لَيْلٍ وَبَلَّ قَدْ خَبَا مِصْبَاحُهُ
وَجَنَى عَلَيْهِ جَهْلُهُ بِوُقُوعِهِ
فِي قَهْضَةِ الْبَازِي فَهَيْضَ جَنَاحُهُ
إِنْ أَتَسَدَّ الدِّينَ الْعَصَاةُ بَحْنُثِهِمْ
فَالنَّاصِرُ الْمَلِكُ الصَّلَاحُ صَلَاحُهُ

ويستغل العماد هذا النصر، فيحث صلاح الدين على أخذ الفرات، وتحرير
"الرها"، و"حران" (٤)، ويحثه لضم البلاد الأخرى إلى رقعة الدولة تحت رايته
لما بها من ظلم، والله الذي يمينه على ذلك :

(١) "تل السلطان" : تقع جنوبي حلب، في الطريق الخارج إلى دمشق، فيه خان
ومنزل للقوافل، وهو المعروف بالفتيدق. انظر معجم البلدان : ٤٢/٢، زبدة الحلب :
٣٦٩/٢، ٢٧٨/١ .

(٢) لم أجد له ترجمة فيما توفّر لدي من مصادر لهذه الدراسة .

(٣) كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢/٦٥٤، والمقانب من الخيل : ما بين الثلاثين إلى الأربعين
أوزها، الثلثائة .

(٤) "الرها" : مدينة بالجزيرة، بين الموصل والشام، وهي في الأراضي التركية اليوم، وتسمى
أورفة، وهي في الجنوب من ديار بكر، انظر معجم البلدان : ١٠٦/٣، السروض
المعطار/ ٢٧٣، اطلس العالم/ ٦٨ . و"حران" : بلدة تقع في الجنوب من الرها
على طريق الموصل والشام. انظر معجم البلدان : ٢٣٥/٢ .

فَاغْبِثُوا إِلَى الْقَوْمِ الْفَرَاتِ لِيُشْرَبُوا الْـ
 لَيْتَكَ مِنْ أَيْدِيهِمْ رَهْنٌ * الرَّهْأُ *
 وَابْغُوا * لِحَرَّانَ * الْخُلَاصَ فُكْمَ بِهَا
 نَجُّوا الْبِلَادَ مِنْ الْبَلَاءِ بِغَدْلِكُمْ
 وَاسْتَفْتَحُوا مَا كَانَ مِنْ مُسْتَفْلَقٍ
 مَوْتَ الْأَجَاجِ فَقَدْ ظَمَأَ طَفَاحُـهُ
 عَجَلًا وَيَدْرِكُ لَيْلَهَا إِضْبَاحُـهُ
 حَزَانُ قَلْبٍ نَحْوَكُمْ مَا تَحَاحُـهُ
 فَالْظُّلُمُ بَادٍ فِي الْجَمِيعِ صُرَاحُـهُ
 فِيهَا فَرَّيْكُمْ لَكُمْ فَنَّا حُـهُ

وهذه الوحدة يرى العماد بلاد الساحل تفتح ، وبماء الفرنج قد ملأت ساحاته ،
 يقول :

وَكَاَنَّنِي بِالسَّاحِلِ الْأَقْصَى وَقَدْ سَاحَتْ بِبَحْرِ دَمِ الْفَرَنْجَةِ سَاحُـهُ (١)

بينما كان صلاح الدين في دار العدل * بدمشق * في السنة المذكورة سابقا ،
 جاءه سعادة الاعين ، فقام وأنشده قصيدة ، صور فيها حكام الشام المتخاذلين بالذئاب ،
 وأنهم ما استطاعوا النهوض بما نهض به صلاح الدين الأسد ، ثم يحذره من أن يففل
 عنهم مثل ما هم غفلوا وناموا عن تحقيق النصر ضد الاعداء ، ورفع راية الاسلام ، يقول :
 لَا يُقْعِدُكَ مَا حَلُّوا وَمَا عَقَدُوا • هُمُ الذَّئَابُ وَأَنْتَ الضَّيْفُ الْأَسَدُ
 وَالْقَوْمُ قَدْ قَعَدُوا عَمَّا نَهَضَتْ بِهِ • مِنَ السَّدَادِ فَلَا قَامُوا وَلَا قَعَدُوا
 إِيَّاكَ تَفْعَلُ عَنْهُمْ مِثْلَ مَا غَفَلُوا • إِيَّاكَ تَرَقُدُ عَنْهُمْ مِثْلَ مَا رَقَسَدُوا (٢)

ثم ضمَّ صلاح الدين إلى الحظيرة الاسلامية جملة من البلاد منها ، * منبج * (٣)
 فقال العماد :

نَزُولُكَ فِي * مَنبِجَ * عَلَى الظَّفَرِ الْعَبْهِجِ
 وَنَجْعُكَ فِي الْمَرْجَسِ وَفَتْحُكَ لِلْمَرْتَجِسِ

- (١) ديوان العماد / ١١١ ، ١١٢ ، الخريدة - قسم شعراء مصر : ١ / ١٨ ، ٢٠ ، ٢١ ، كتاب
 الروضتين : ج ١ ق ٦٥٣ / ٢ ، مخج الكسروب : ٤١ / ٢ .
 (٢) الخريدة - قسم شعراء الشام : ٤١٢ / ١ .
 (٣) * منبج * : مدينة كبيرة بناحية قنسرين ، وهي تقع في شمال سوريا اليوم ، القرية من
 الحدود التركية ، وفي الشمال الشرقي لمدينة حلب ، وكان بها قلعة حصينة ، انظر
 معجم البلدان : ٢٠٦ / ٥ ، الروض المعطار / ٤٧ ، ٥ ، أطلس العالم / ٣٦ .

تُحَاوِلُ أَوْ تَرْتَجِي	دَلِيلٌ عَلَى كُلِّ مَا
مُ وَاضِحَةُ الْمَنْهَجِ	أُمُورَكَ نَيْمًا تَكْرُو
تَجُومُ مِنَ الْأَبْسُوجِ	فَرَأَيْكَ يَسْتَنْزِلُ الْـ

وواضح من هذه الأبيات نجاح صلاح الدين بضم البلاد ، لأن هدفه الذي وضعه نصب عينيه هدف واضح ، ومنهجه منهج سليم ، مبني على تحقيق الوحدة وطرد الأعداء .

ويحث العماد صلاح الدين على فتح " حرّان " والبلاد القريبة من الفرات مرة أخرى ، ويرى أن في وحدة البلاد جلاء لظلمة طال ليلها على الاسلام ، كما يبدو في قول نفسه :

تِ وَأَسِرْ وَسِرْ وَأَدْلِسْ	فَكَجَلْ عُبُورَ الْفُسْرَا
بِ وَعَنْ غَيْرِهَا عَسْرَجْ	وَعُجْ نَحْوُ تِلْكَ الْبِلَا
نِ تَالَيْتَا " مَنْبِجْ "	" فَحَرَّانُ " وَ " الرُّقْتَا
نَ لَيْلَهُمُ الْمُدَّجِي (١)	وَجَلَّ عَنْ الْمُسْلِمِيْـ

وضمّ صلاح الدين مدينة " عزاز " (٢) فهنأه العماد أيضا بذلك ، ورأى أن الله قد منحه دولة نصرتها من نصرة الدين ، كما رأى أنه لم يصل إلى ما وصل إليه من الرفعة والمكانة العالية إلا ببقوته وكرمه ، وهو جدير بهذه المرتبة العليا ، ويقارن بينه وبين الملوك الآخرين ، فيقول إن صلاح الدين سعى جاداً لبذل الأموال على مستحقيها في حين أن هؤلاء الملوك أفنوا أنفسهم جداً وكثراً من أجل اكتناز هذه الأموال ، يقول :

عِزَّةُ أَهْلِ الدِّينِ فِي إِعْزَازِهَا	أَعْدَاءُ رَبِّ الْعَالَمِينَ دَوْلَةُ
وَهُوَ أَحَقُّ الْخَلْقِ بِاجْتِيَازِهَا	حَازَ الْعُلَا بِبِأْسِهِ وَجُودِهِ

(١) ديوان العماد / ١٠٤١٠٣ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٦٥٦ ، مفرج الكروب : ٤٣ / ٢ . و " الرُّقْتَانُ " : هما الرقة ، وهي تقع في الشمال الشرقي لسوريا ، والرائقة : وهي بلد متصل الهنا بالركة . انظر معجم البلدان : ١٥ / ٣ ، ٥٧ ، الروض المعطار / ٢٢٠ .

(٢) " عزاز " : ويقال لها أعزاز ، بليدة فيها قلعة شمالي حلب ، انظر معجم البلدان : ١١٨ / ٤ .

بِحِجْدِهِ أَفْنَى كُنُوزاً فَنِيَّ الـ
مُلُوكُ فِي الْجِدْرِ عَلَى اكْتِنَازِهَا
تَهْنُ مِنْ فَتْحِ "عَزَازٍ" نَصْرَةً
أَوْقَعَتِ الْعِدَاةُ فِي اعْتِزَازِهَا (١)

* * *

وكان صلاح الدين في تلك الفترة يكيل الضربات للصليبيين تارة ، ويعقد الصلح معهم تارة أخرى ، ليتسنى له تحقيق الوحدة بين البلاد ، فسارت عمليات توحيد البلاد جنباً إلى جنب مع محاولات تطهير البلاد من المحتلين ، وهذا يدل على قدرة سياسية وعسكرية عالية ، وقد بقي صلاح الدين مدة طويلة تقرب من اثني عشر عاماً يعمل من أجل الوحدة حتى تسنى له مواجهة الصليبيين وتحرير بيت المقدس .

واستطاع صلاح الدين اخضاع آمِد سنة ٥٢٩ هـ ، ومنحها انورالدين بن قسرا ارسلان ، وفي ذلك يقول الشاعر سعيد الحلبي :

رَمَى آمِدُ بِالصَّافِنَاتِ فَأَذْغَنَتْ
لَهُ طَاعَةُ أَكَاْمِهَا وَوَعُورُهَا
فَمَا عَزَّ نَادِيهَا وَلَا اعْتَصَمَ شَفَرُهَا
وَلَا جَاشَ طَائِفُهَا وَلَا رَدَّ سَوْرُهَا
نَهَضَتْ لَهَا حَتَّى إِذَا انْقَادَ صَفِيهَا
تَقَضَّى عَلَى طُولِ الشَّمْسِ شُغُورُهَا
سَمَحَتْ بِهَا جُوداً لِمَنْ ظَلَّ بَرْهَةً
يُفَاوِزُهَا طَوْرًا وَطَوْرًا يَفِيرُهَا (٢)

وهنا ، بذلك ابن سعدان الحلبي ، وتصور أن الموت قد أتى أهل آمِد ، وقال إن وجود ابن أيوب ما هو إلا نتيجة غضب البلدة على أصحابها ، فهم لا يصلحون لحكمها ، ولا لرعايتها حق الرعاية :

فَمَا سَاكِنِي الرَّعْنَاءِ مِنْ سَفْحِ آمِدٍ
أَرَى عَارِضًا يَنْهَلُ بِالْمَوْتِهَا ظِلُّهُ
لَكِنَّ غَضَبَتْ يَوْمًا عَلَيْكُمْ عُرُوشُهَا
فَهَذَا ابْنُ أَيُوبٍ وَهَذَا مَعَاظِلُهُ (٣)

- (١) ديوان الحماد / ٢٢٥ ، كتاب الروضتين ج ١ ق ٢ / ٦٥٢ .
(٢) كتاب الروضتين : ٣٩ / ٢ ، والشافنات : الخيول القائمة ، انظر لسان العرب : (صَفَنَ) .
(٣) كتاب الروضتين : ٣٩ / ٢ .

وتمكن صلاح الدين من فتح " حلب " في السنة المذكورة سابقا ، وكان قد نازلها مرات عدة ، ولكنه لم يتمكن من أخذها إلا في تلك السنة ، وكان الشعراء قد حرّضوه على أخذها منذ أن فتح " دمشق " سنة ٥٧٠ هـ ، من ذلك قول سعادة الأعي في حثه على ضم " حلب " ، ويهون عليه أخذها ، في قصيدة هنأ بها بفتح " دمشق " ، يقول :

واخطبَ بِحَدِّ الْعَوَاضِي كُلِّ شَامِخَةٍ فِي أَنْفِهَا شَمٌّ ، فِي جِهْدِهَا غَيْدُ
هَلْ يَغْدُ " جِلَقٌ " إِلَّا أَنْ تَرَى " حَلْبًا " وَقَدْ تَحَلَّلَ مِنْهَا مُشْكِلٌ عَفْدُ
وَقَدْ أَتَتْكَ كَمَا تَخْتَارُ طَائِعَةً وَقَدْ عَنَّا لَكَ مِنْهَا الْحِصْنُ وَالْبَلَدُ (١) .

ودعاه إلى فتحها ابن سعدان الحلبي ، مشيدا بمنعتها وشموخها وقوتها ، وطلب منه أن يقتحم كل صعب ، وبذلك كل عقبة من شأنها الوقوف أمام فتحها ، وطلب منه أن يشد أزرها ، فقد حان الوقت لذلك كله ، يقول :

وَدَوْلِكَ وَالْحَسَنَاءُ أَمْ الْقُورَى وَنَارُهَا الشَّهْبَاءُ وَالطُّورُ الْأَشْمُ
وَارْكَبْ إِلَى الْعَلْيَاءِ كُلَّ صَغْبَةٍ أَهَيْتَ لَعْنًا ، وَخَلَكَ كِلْ ذِم
رَايَ صَلاَحِ الدِّينِ شَدَّ أَزْرَهَا وَاعَزَمَ عَلَيْهَا فَالزَّمَانُ قَدْ عَزَمَ
وَدَوْلِكَ الْمُنْعَةَ مِنْ قَبَائِهَا صَابِهَا الْمُفْلِقُ فِي وَجْهِ الْأَكْمَمِ (٢)

وهذا ابن الفراء يحرض صلاح الدين على أخذ " حلب " بعد دخوله " دمشق " سنة ٥٧٠ هـ ، وكان صلاح الدين حينئذ " بحمص " ، بقصيدة سيأتي ذكر بعض أبياتها يوضح فيها أن جهاد صلاح الدين لحكام " حلب " أهم من جهاد الصليبيين . (٣)

وفي أبيات أخرى من القصيدة يصف أحوال الحلبيين ، فيرى أنهم وقعوا بظلام الكفر ، وأن الفساد قد دب فيهم ، وليس لهم علاج إلا سيف أبي المظفر ، كما يبد وفي قوله :

وَقَدْ نَادَى مَوَدَّنُهُمْ ، فَنَسَاوَى لِيُوثِقَ الْغَابَ ، حَيَّ عَلَى الْخُسْرَوَى

(١) الخريدة - قسم شعراء الشام : ١/ ٥٥ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢/ ٦٤٦ .

(٢) كتاب الروضتين : ٢/ ٤٤ .

(٣) انظر هذه الأبيات في المنحاحات السابقة عند الحديث عن سياسة صلاح الدين .

أَنَا مَنْ دَبَّتِ الْأَعْلَالُ فِيهِمْ
وَلَيْعِنَ لَهُمْ كَسْبُكَ مِنْ طَبِيبٍ
أَحَاطَ بِجَمْعِهِمْ فِي كُلِّ نَسَابٍ
ظِلَامُ الْكُفْرِ فِي لَيْلِ الذُّنُوبِ (١)

وشارك ابن الساعاتي في تحرير صلاح الدين على فتح "حلب" ومناراتها، وكان ذلك بعد انتهاء صلاح الدين من "آبد" سنة ٥٧٩ هـ، ونزوله على "تل خالد" (٢)، فصور تلك المدينة فتاة حسنة، وما يستحقها بعلا غير صلاح الدين، ثم يصورها وقبيل غارت من غيرها من البلاد المجاورة، فتساءلت عن عدم اهتمام صلاح الدين بها كسائر المدن، ويشير الشاعر اهتمام صلاح الدين بالقدس، حين يبشر أن الفتح قريب، كما يبدو في قوله :-

ما "تل خالد" الْمُعْتَزُّ جَانِبُهُ
إِنْ هُنَّ إِلَى "حلب" فِي كُلِّ سَابِقَةٍ
هِيَ الْعَقِيلَةُ حَسَنًا وَالزَّمَانُ بِهَا
فَمَا سِوَاكَ لَهَا بَعْلٌ وَقَدْ عَطَاكَ
غَارَتْ وَحَقَّقَكَ مِنْ جَارَاتِهَا فَشَكَّتْ
فَلَيْعَمَ الْقُدْسُ أَنَّ الْفَتْحَ مُنْتَظَرٌ
أَدْيَاكَ إِلَّا ذَلِيلٌ عَاجِزُ الْحَيْسِلِ
سُرُوجُهَا قُلَلٌ تُغْنِي عَنِ الْقَلَسِلِ
مُتِمِّمٌ كَأَنَّهُ الْأَحْشَاءُ غَيْرُ خَلِيسِي
فَحَلَّهَا بِتِلَافِهَا مِنَ الْعَطَسِلِ
مَا بَالُهَا بِإِفْتِضَائِي غَيْرَ مُحْتَزِلِ
حَاوَلَهُ وَعَلَى الْإِتِّاقِ أَلْيَطَسِلِ (٣)

ولما فتح صلاح الدين حلب، وصعد القلعة، قرأ قوله تعالى: "قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمَالِكِ تَوَكَّلْ عَلَى الْمَالِكِ" وتَنَزَّعَ الْمَالِكُ مِنْ تَشَاءُ وَتَعَزَّزَ مِنْ تَشَاءُ وَتَذَلَّ مِنْ تَشَاءُ بِمَسَدِكَ الْخَيْرِ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ".

وكان فرحه بها شديداً، ثم دخل المسجد، وصلى به ركعتين، وأطال السجود، ثم عاد إلى الخيم، فتقاطر الشعراء على مجلسه من كل صوب، يبطون جيده بغرر شعرهم (٤).

- (١) الخريدة، قسم شعراء الشام: ٣٠٣/١.
- (٢) تل خالد: قلعة من نواحي حلب. انظر معجم البلدان: ٤١/٢.
- (٣) ديوان ابن الساعاتي: ٣٨٢/٢ - ٣٨٤. والأبيات ٢٠١، ٢٠٢ في كتاب الروضتين: ٤٣/٢.
- (٤) انظر كتاب الروضتين: ٤٥/٢. والآية من سورة آل عمران رقم (٢٦).

ومن هؤلاء الشعراء سعيد بن محمد الحريري (١) الذي مجد قوة صلاح الدين،
وعند فتح " حلب " بعثا لها من رقادها ونشرا للحياة في نواحيها ، بعد أن كانت ميتة
لا حراك بها ، ولا يرجى أن تعمر مرة أخرى ، كما يبدو في قوله :-

وَصَبَّحَتْ شَهْبَاءُ الْمَوَاصِمِ مَضْلَتَا قَوَاضِبَ عَزَمٍ ، لَا يُغْلَى شَهِيرُهَا
تَأْمَلَيْتُ مِنْهَا غَارِباً ، مِنْكَ رَاغِباً وَعَادَ يَسِيرُ فِي يَدَيْكَ عَسِيرُهَا
وَرَدَّ إِلَيْهَا رُوحٌ عَدْلِكَ رَوْحَهَا وَكَانَتْ رَمِيّاً لَا يُرْجَى نَشُورُهَا (٢)

وهناك بنتها أبو طي النجار (٣) ، فرأى أن " حلب " ذات مكانة تخربها على سائر
المدن ، وأن دخول صلاح الدين إليها زادها قدرا وجلالا ، ورأى أن من يملكها قد
حاز العلى ، وهو جدير بأن يملك الأرض ، يقول :-

" حَلَبٌ " شَامَةُ الشَّامِ وَقَدْ زِينَتْ دَثَّ جَلَالِ بِيُوسُفٍ وَجَمَّالَا
هِيَ أَمُّ الْفَخَارِ مِنْ نَالِ أَعْلَا هَا تَعَالَى فُخَامَةٌ وَتَغَالَى
وَمَحَلُّ الْعِلَاءِ مَنْ حَلَّ فِيهَا تَاهَ كِبْرًا وَعِزَّةٌ وَجَمَّالَا
مَنْ حَوَاهَا مُلْكًا مَلَكُكَ الْأَرْضَ ضَاقَتْ سَارًا سَهْوَةً وَجَمَّالَا (٤)

وهناك بنتها ابن سناء الملك وأشار إلى سياسته في ضم تلك البلاد كما تقدم ،
وإلى وحدة الشام ومصر على يديه ، كما يظهر في قوله :-

وَفِي زَمَانِ ابْنِ أَيُّوبَ عَدَّتْ " حَلَبٌ " مِنْ أَرْضِ مِصْرَ وَعَادَتْ " مِصْرٌ " مِنْ " حَلَبِ

ويرى هذا الفتح فتح الفتوح ، وصاحب هذا الفتح يسمو على غيره من حكام المسلمين ،
فهو أحق الناس به ، كما يرى أن بلاد الساميين الكبرى قد صبحت بعد فسادها ،

(١) لم أجد له ترجمة في المصادر التي أمكن الرجوع إليها .

(٢) كتاب الروضتين : ٤٥ / ٢ .

(٣) هو : والد المؤرخ الشهير يحيى بن حميدة بن ظافر بن عاي بن عبد الله الحلبى ،

الشهير بابن أبي طي النجار ، انظر كتاب الروضتين : ٤٥ / ٢ ، الأعلام الخطيرة -

لبنان والأردن وفلسطين / ١١٥ ، لسان العيزان : ٢٦٣ / ٦ ، أعلام النبلاء :

٣٢٨ / ٤ ، الأعلام : ١٤٤ / ٨ .

(٤) كتاب الروضتين : ٤٥ / ٢ .

كما يبدو في قوله :-

فَتَحُ الْفَتْوحُ بِلا مَتِينٍ وَصَاحِبُهُ
تَهَنُّ بِالْفَتْحِ يَا أَوْلَى الْأَنَامِ بِهِ
بِكَ الْعَوَاصِمُ طَابَتْ بَعْدَ مَا خَبِثَتْ
بِمَا لِكَيْهَا ، وَلَوْ أَنَّكَ لَمْ تَطِيبْ (١)

ومن عجيب ما ذكر أن القاضي محيي الدين بن زكي لما أقبل على مجلس السلطان يومئذ ، وهنأه بفتح حلب ، تنبأ بفتح بيت المقدس في شهر " رجب " فقال من قصيدة :-

وَفَتْحَكُمْ " حَلِباً " بِالسَّيْفِ فِي صَافِرٍ قَضَى لَكُمْ بِافْتِتَاحِ الْقُدْسِ فِي رَجَبِ (٢)

وقال العماد في البرق : " مدح القاضي محيي الدين بن الزكي السلطان بأبيات منها :-

وَفَتْحَكُمْ " حَلِباً " بِالسَّيْفِ فِي صَافِرٍ مَبَشِّرُ بَفَتْحِ الْقُدْسِ فِي " رَجَبِ "

فوافق فتح القدس كما ذكره ، فكانت من الغيب ابتكره ، ففي صفر سنة تسع وسبعين كان فتح " حلب " وكان فتح القدس سنة ثلاث وثمانين في رجب " (٣) .

وقام صلاح الدين بضم " الموصل " سنة ٥٨١ هـ إلى الحضيرة الإسلامية ، وذلك بالصلح مع أهلها (٤) ، وهذا يكون صلاح الدين قد أتم الوحدة بين بلاد المسلمين في مصر ، والشام ، والجزيرة .

وهكذا قام الشعراء بدور فعال في هذه المرحلة من مراحل اعداد صلاح الدين للهجوم على الصليبيين ، فما إن يضم صلاح الدين حصناً أو بلداً إلى الحضيرة

(١) ديوان ابن سناء الملك / ٤٠١ ، وانظر بعض الأبيات في الروضتين : ٤٤٠ / ٢ ، ٤٤١ ،

ومفج الكروب : ١٤٥ / ٢ ، ١٤٦ .

(٢) كتاب الروضتين : ٤٦ / ٢ .

(٣) البرق الشامي : ١١٩ / ٥ ، والبيت موجود في معظم المصادر التي كتبت عن

صلاح الدين مع اختلاف في رواية المتن ، انظر على سبيل المثال : سناء البرق /

٢٢٦ ، مرآة الزمان : ج ٨ ق ١ / ٣٧٦ ، مفج الكروب : ١٤٥ / ٢ ، البداية والنهاية :

٣٣٥ / ١٢ ، النجوم الزاهرة : ٩٥ / ٦ .

(٤) انظر الروضتين : ٦٤ / ٢ .

الاسلامية عتق يقابله الشعراء بالاستبشار والبهجة والتهنئة ؛ لأنهم كانوا يمتبسون
وحدة البلاد إرهابا بفتح القدس وتطهير البلاد والمقدسات من أيدي الخوذة الطامعين ،
فكانوا يربطون الوحدة بالفتح المنتظر .

ومن الجلي أن الشعراء لم يقفوا عند حد التهنئة ، وإنما أخذوا على عاتقهم مسؤولية
حث البطل على ضم البلاد التي لم تضم بعد ؛ حتى تحققت الوحدة الشاملة ، وهم في
ذلك كله يعبرون عن آمال وطموحات المسلمين الذين تأقت أنفسهم لتحرير بيت المقدس
بعد غياب عنه طويلا .

* * *

البطل المجاهد

قام صلاح الدين بفرض الجهاد خير قيام ، فقد كان يؤمن إيمانا عميقا بأن الجهاد فرض من فروع الاسلام ، ولعل ما سنعرضه من فتوحات الناصر وغزواته وغاراته على الفرنج ، يثبت ذلك ، نمنذ أن كان وزير " مصر " حتى وفاته عمل على جهاد الأعداء للحفاظ على الاسلام والمسلمين ، وخير ما يمثل قيام صلاح الدين بفريضة الجهاد قول ابن الساعاتي في فتح طبرية سنة ٥٨٣ هـ :-

قَضِيَتْ فَرِيضَةُ الْإِسْلَامِ مِنْهُمْ وَصَدَقَتِ الْأُمَانِي وَالظُّنُونُ (١)

فصلاح الدين في قتاله إنا يؤدي فرضا من فرائض الاسلام ، وذلك حقوق أمانى المسلمين وطموحاتهم ، فهم لا يقاتلون لعصبية أو لغنائم أو غير ذلك من أمور دنيوية ، إنا يؤدون فرض الجهاد الذي كتب عليهم .

يقول صلاح الدين مبينا إيمانه العميق بفرض الجهاد ، ووثوقه بنصر الله عز وجل : " قد أمرنا الله بالجهاد لأعداء الدين ، واغترضه علينا ، فنحن قائمون في طاعته بأداء ما اغترض علينا من الجهاد ، وهو الذي يقدرنا على فتح البلاد ، واواجتمع علينا أهل الأرض لتوكلنا على الله تعالى " (٢) .

وهذا الجاهلي يرى ما يراه صلاح الدين من أن الحرب ضد الأعداء حرس مقدسة ، يفرضها الإيمان ، ويبين عشق الناصر العميق للحرب في سبيل الله ، ذلك العشق الذي لم يعقه برد الشتاء ، ولم يمنعه حر الصيف ، يقول في قصيدته المسماة " التحفة الجوهريسة " :-

فَأَنْتَ الَّذِي أُثِقْتَ حِزْبَ مُحَمَّدٍ جِهَاداً ، وَهُمْ فِي غَلَّةِ الْمُتَنَكِّمِ
فَحَارَبْتَ الْإِيمَانَ لَا إِصْفَاءَ بَيْنَ وَرَابَطْتَ لِلرُّضْوَانِ لَا إِمْنَانٍ بَيْنَ

(١) ديوان ابن الساعاتي : ٤٠٧/٢ ، كتاب الروضتين : ٨٥/٢ .

(٢) كتاب الروضتين : ١٢٩/٢ ، مارج الكروب : ٢٦١/٢ .

أَتَعَشَّقُكَ الْهَيْجَاءُ أَمْ أَنْتَ عَاشِقٌ لَهَا فِي وَصَالٍ مِنْ حَبِيبُكَ دَائِمٌ
شَتَاءٌ وَصَيْفًا لَا تَزَالُ نَرَاكَ فِي مَسَاءٍ وَصُبْحٍ كَالْأَذَانِ الْمُسْلِمِ
فَهَجَرْتَ حَتَّى قِيلَ لَيْسَ بِقَائِلٍ وَبَيْتَ حَتَّى قِيلَ لَيْسَ بِنَائِلٍ (١)

ويبين الرشيد بن بدر النابلسي (٢) إعجابه بجهاد صلاح الدين الذي لا يثنيه عنه حرٌّ أو قترٌ، ولا سأمٌ أو ضجرٌ، ويمجد صبره على مخاطر الجهاد ومكآربه فهو يستمر في هذه المكآره، بل يراها كالشهد في فمه، كما يبدو في قوله :-

لَيْسَ يَثْنِيهِ حَرٌّ إِنْ تَوَقَّدَ عَنْ رَضَى إِلَهُ وَلَا إِنْ أَغْدَقَ الْمَطَرُ
وَلَا يُثْمِنُهُ عَمَّا يَكَابِدُهُ ضَجٌّ، أَعِزَّ مُعَالِيهِ، وَلَا ضَجَجَرُ
وَلَا يَرَى الرُّوحَ إِلَّا ظَهَرَ سَلْبَهُ فِي بَطْنِ مَعْرَكَةٍ مَرْكُوبُهَا وَعِيسَرُ
صَبْرٌ جَمِيلٌ كَطَعَمِ الشَّهْدِ فِي فَمِهِ وَعِنْدَ كُلِّ مَا يَكُ طَعَمُهُ الْبَصِيرُ (٢)

ويمجد ابن جبير صبر صلاح الدين في الجهاد، ونصره لدين الله، وإذا كانت تسميته المالك الناصر، ويوازن بينه وبين غيره من المالك، فقد أحب الجهاد، ونذر نفسه له، وآثر حياته الخشنة على الترف والدعة، في حين أن المالك آثروا الراحة وطيب العيش، يقول :-

وَقَدْ بَنَصُرُ إِلَهُ السُّورَى فَسَعَاكَ بِأَمَالِكَ النَّاصِرِ
وَجَاهَدْتَ مُبْتَهِدًا صَابِرًا فَلِلَّهِ دُرُكٌ مِنْ صَابِرِ

(١) عيون الأنباء / ٦٣١.

(٢) هو: عبد الرحمن بن محمد بن بدر بن الحسن بن العنبر بن بكار، المعروف بابن النابلسي، نشأ بدمشق، وسعى في طلب العلم، فأخذ عن تاج الدين الكندي الذي مرّت ترجمته، واشتغل في صباه على الشاعر فتيان الشافعي، ثم توجه إلى بغداد طالباً العلم، وأخذ عن عدد من علمائها، ذكر أن له ديوان شعر يقع في مجلدين، توفي سنة ٦١٩ هـ بدمشق، ودفن بباب الصغير فيها.

انظر: معجم الأدباء: ٢٩٧/١٦، كتاب الروضتين: ١١٨/٢، وفیات الأعيان:

٢٦٦/٥، بيت المقدس في شعر الحروب الصليبية / ١٧٣.

(٣) كتاب الروضتين: ٢٢١/٢.

تَبَيَّنَ الْمُلُوكُ عَلَى نُفُوسِهِمْ
وَتَوَضَّعُوا جَاهِدَ عَيْشِ الْجِهَادِ
وَتَشَهَّرَ لِيَاكَ نَبِي حَقِّ مَكْنُ
وَتَرَفُّلُ نَبِي الزُّكْرِ السَّابِرِ
عَلَى طَلِبِ عَيْشِهِمُ النَّاصِرِ
سَيُضْمِكُ نَبِي جَفَنِكَ السَّاهِرِ (١)

ويرى العماد أن لذة صلاح الدين تكمن في الجهاد ولا في نزوة من نزوات النفس أو شهواتها ، يقول :-

لَذَّ الْمَتَاعِ فِي الْجِهَادِ وَلَمْ تَكُنْ مُدَّ عَاشِرَ قَتْلِ لِدَاثِهِ لِدَاثُكُ (٢)

ويبين ابن المجاور صلاح الدين وقد قاد مسيرة الجهاد وضبطها بالسيف والعزم والرأي ، يقول :-

وَضَبَطَتْ دِيَوَانَ الْجِهَادِ بِعَامِلٍ
وَجَهَّزَتْ الْعِزْمَ الَّذِي لَا يَنْثَنِي
مِنْ عَامِلٍ وَمِعْشَرٍ مِنْ مَشْرِفِي
وَيُنَظِّرُ الرَّأْيَ الَّذِي كَمْ يَطْطُرُ (٣)

ويصف ابن شداد صبر صلاح الدين في الجهاد بقوله : " . . . وقنع بالذلّ نيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الريح يمنا ويسرة ، ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة ريحة عاصسي مرج عكا ، فلم يكن في البرج والآن قتلته ، ولا يزيد ذلك إلا رغبة ومصابرة واهتماما " (٤) ، وكان صلاح الدين يرى أن أشرف الميقات الموت في سبيل الله (٥) .

وثمة صورة واضحة في الشعر ذات ارتباط وثيق بجهاد صلاح الدين ، تلك هي صورة حامي الدين الاسلامي وناصره ، فهذا أسامة بن منقذ يصور صلاح الدين مجاهداً لإحياء الإسلام ونصره ، في حين أن ملوك زمانه قد تخاذلوا عن نصرته ، ويرى أن قيامه بأمر الدين قد حقق للمسلمين النصر على أعدائهم ، حزب الكفار ، وبالتالي لم يكن هدفه المالك ، بل طاعة الله ، ويصوره ثائرا لله غاضبا له ، يقول :-

- (١) كتاب الروضتين : ١٠٦ / ٢ .
- (٢) ديوان العماد ٨٦ ، كتاب الروضتين : ٢١٥ / ٢ .
- (٣) كتاب الروضتين : ١٠٤ / ٢ .
- (٤) النوادر السلطانية / ٢١ .
- (٥) نفسه / ٢٣ .

يا ناصراً للإسلام حين تَخَازَلَتْ عَنْهُ المَؤَانُ وَمُظْهِراً للإيمان
بِكَ قَدْ أَغْزَى اللهُ حَزْبَ جَنَسُودِهِ وَأَذَلَّ حَزْبَ الكُفْرِ وَالظُّفْيَانِ
لَمَّا رَأَيْتَ النَّاسَ قَدْ أَغْوَاهُمُ الشُّبُهَاتُ شَيْطَانُ بَالِ الإِحْسَادِ وَالْعِصْيَانِ
جَرَدَتْ سَيِّئُكَ فِي العِدَى لَا رَغْبَةَ فِي المَلِكِ بَلْ فِي طَاعَةِ الرَّحْمَنِ
وَعُظْمَتِ المَلِكِ الَّذِي أَعْطَاكَ فَضْلاً لُ الحُكْمِ غَضِبَةً ثَائِرَ حَسْرَتَانِ (١)

وصلاح الدين قد نهض لنصرة الإسلام بصدق وعزيمة، وقوة وإرادة، ليبرأ صدعه،
ويسد الخلل الذي وقع بأهله، وقد كان غضبه ورضاه كله لله، كما يبدو في قول ابن
التماويستي :-

وَنَهَضْتُ لِلإِسْلَامِ نَهْضَةً صَادِقِ الْمَوَدَّةِ عَزَمَاتِ تَرَأَبُ مِنْ ثَأْنِ تَشَعُّبِ (٢)
وَعُظِمَتْ لِلدِّينِ الحَنِيفِ وَلَمْ تَكُنْ فِي اللهِ تَرْضَى مَذْ كُنْتَ وَتَغْضَبُ (٣)

ويقول سعادة الأعمش :-

نَصَرْتُ الْهُدَى لَمَّا تَخَازَلْ حَزْبُهُ فَنَادَاكَ حَزْبُ اللهِ يَا نَاصِرَ الْهُدَى
عُظِمَتْ لِدِينِ أَنْتَ حَقّاً صَلاَحُهُ فَأَرْضَيْتَ لَمَّا أَنْ غَضِبْتَ مُحَمَّدًا (٤)

وصور ابن سناء الملك صلاح الدين محبباً لدين الإسلام بعدما كانت شعائره
معتقدة، يقول :-

إِنَّ دِينَ الإِسْلَامِ مَنْ عَلَى الْخَالِ قِ وَأَنْتَ الَّذِي عَلَى الدِّينِ مَنْكَ
أَنْتَ أَحْيَيْتَهُ وَقَدْ كَانَ مَيِّتًا ثُمَّ أَعْتَقْتَهُ وَقَدْ كَانَ قَتْلًا (٥)

وصلاح الدين باحيائه للهدى يبيت الكفر ويزيله، يقول العمصاني :-

أَحْيَا الْهُدَى وَأَمَاتَ الشُّرْكَ صَارُمُهُ لَقَدْ تَجَلَّى الْهُدَى وَالشُّرْكَ مُنْجَابُ (٦)

- (١) الخزيدية - قسم شعراء الشام : ١ / ٥٣١، ٥٣٢، والأبيات غير موجودة في ديوان الشاعر .
(٢) راب : أصلح، والثاني : الأنساد، انظر المحيط : (راب)، (الشاي) .
(٣) ديوان سبط بن التماويستي / ٢٥٠ .
(٤) كتاب الروضتين : ٢ / ١٢٠ .
(٥) ديوان ابن سناء الملك / ٣٤٠ .
(٦) ديوان العمصاني / ٢٥، كتاب الروضتين : ٢ / ١٠٢ .

ولم يكن جهاد صلاح الدين وقتاله الأعداء، إلا من أجل الدين، وفي حسين
أن الملوك الآخرين لم يخلصوا لدينهم، فقد كانت تهمهم مما لحقهم، يقول ابن
الساعاتي :-

يُقَاتِلُ كُلُّ نَبِيٍّ مَلِكًا رِيَاءً وَأَنْتَ تُقَاتِلُ الْأَعْدَاءَ دِينًا (١)

وصوره ابن الجاور والدا للدين، عطفوا على أبنائه، وقد شددت أركانهم
وقواعده :-

شَدَّتْ قُوَى أَرْكَانِ مِلَّةِ أَحْمَدٍ وَتَحَمَّاتُ جِهَادِهِ فِي الْعَوَاقِبِ
مَوْلَى غَدَا لِلدِّينِ أَكْرَمَ وَالسُّلْبِ حَذَّبَ عَلَى أَتْنَائِهِ مُتَوَفِّرٍ (٢)

ويقول الجلياني في انتصار صلاح الدين للإسلام :-

هَذَا الْمَلِكُ الَّذِي بَشَّرَ النَّبِيُّ بِهِ فِي فِتْنَةِ الْبَغْيِ الْإِسْلَامَ يَنْتَصِرُ (٣)

* * *

(١) ديوان ابن الساعاتي : ٤٠٦/٢ .

(٢) كتاب الروضتين : ١٠٣/٢ .

(٣) ديوان المبشرات والقدسيات / ١٣٨ ، كتاب الروضتين : ١١٧/٢ .

* القائد العسكري : الشامي لاسترداد البلاد :-

نشأ صلاح الدين في جو سياسي وعسكري أثر فيما بعد في تكوين شخصيته العسكرية؛ إذ تربى في حجر والده الذي كان والي تكريت ، ثم انتقل إلى الشام ، حيث تربى في بلاط نور الدين ، فتأثر به ، وشاهد أكثر حروبه مع الصليبيين ، وسار في جيش عمه أسيد الدين شيركوه في الحملات الثلاث التي بعثها نور الدين إلى مصر ، وألحق أن صلاح الدين استقى دروساً من مواجهة الأعداء في تلك الحملات ، مما أهله ليكون قائداً ناجحاً (١) ، ونخس من تلك الحملات الحملة الثانية ، حيث قاد الجيوش في عمل حربي ، واضطلع بمسؤوليات الدفاع عن الاسكندرية * (٢) .

انطلق صلاح الدين إلى ميدان المعركة من واقع الإيمان بالإسلام عقيدة ومنهج حياة يحقق للأمة مجداً وكياناً قوياً ، وقد رأى أن هذا الإيمان لا يقوم إلا بجعل كلمة الله هي العليا ، وقد جعل هذا هدفه في حروبه ، بل في حياته كلها ، فنقد روحه رخيصة لهذا الهدف الأسمى ؛ ولذلك لم يخش الموت قط ، بل سعى إلى طلب الشهادة ، فكان قائداً عسكرياً مسلماً مؤمناً ، إيماناً يقينيا بالله ونصره ، فانعكس هذا الإيمان في سلوكه وصفاته .

وقد رسم لنا الشعراء سمات صلاح الدين العسكري ، ومن أهم تلك السمات الشجاعة في الحرب ؛ فهو صاحب قلب ثابت ، وهو يعتمد المعون من الله ، صادق اليقين بنصره ، يقول الجويني :-

لَكَ قَلْبٌ عِنْدَ اللَّقَاءِ مَكِينٌ وَلَهُ مِنْ تَقَاهُ أَلْفُ كَيْفٍ
يَا مَائِكَا يَلْقَى الْحُرُوبَ بِحَوْلِ اللَّهِ مُتَعَصِّمًا وَصِدْقِ الْيَقِينِ (٣)

(١) انظر صلاح الدين - ملكوم وجاكسون / ٢٢ - ٤٥ .

(٢) نفسه / ٣٣ .

(٣) البرق الشامي : ١٧٢ / ٣ ، كتاب الروضتين : ٩ / ٢ .

ان شجاعة صلاح الدين مرتبطة بالله أيما ارتباط ، ويبدو ، من خلال عبارة قالها ابن شداد ، ان صلاح الدين كان يقرأ جملة من الأحاديث النبوية الشريفة حين يرتب جنوده قبيل المعركة ، يقول ابن شداد : " قريء عليه جزء من الحديث بين الصقيين " (١) . وفي هذا ما يدل دلالة واضحة على اقتران الحرب عند صلاح الدين بالسلوك التعبدية .

ويمجد أبو المرحف النميري صفة الثبات في صلاح الدين ، حين يكون في أشد موضع في الحرب ، يقول : -

شَدِيدُ ثَبَاتِ الْجَأْشِ فِي حَوْمَةِ الْوَعْصِ إِذَا الْجَأْشُ فِيهَا مِنْ سِوَاهُ تَقْلُقًا (٢)

ويمور سعادة الأعي ثبات صلاح الدين في الحرب كثبات زحل في مكانه ، ويمجد فيه صفة التنبه واليقظة والبهجة عند مقابلة الشدائد ، يقول :-

جَدَلَانِ أَبْهَجُ فِي الظَّلَمَاءِ مِنْ قَمَرٍ يَقْطُرَانِ ، أَثْبَتُ فِي الْهَيْجَاءِ مِنْ زُحَلٍ (٣)

ويقول ابن سناء الملك :-

يُرَى جَدَلًا فِي حَوْمَةِ الْحَرْبِ ضَاحِكًا فَلَا الْقَلْبُ مَنْخُوبٌ وَلَا الْوَجْهُ مُقْبِعٌ (٤)

ويعلني ابن الدهان الموصلية من ثبات قلبه في الحرب حين تكون القلوب فيها هلعة جزعة ، يقول :-

ثَبَتَ الْجَنَانُ إِذَا الْقُلُوبُ تَطَايَرَتْ فِي الرَّوْعِ يَعْدِلُ أَلْفَ أَلْفٍ مُدَرَّعٍ (٥)

-
- (١) النوادر السلطانية / ٢٠ .
 (٢) الخريدة ، القسم العراقي : ٤٥٥ / ٣ .
 (٣) الخريدة ، شعراء الشام : ٤٢١ / ١ .
 (٤) ديوان ابن سناء الملك / ١٧٤ .
 (٥) ديوان ابن الدهان / ٣٠ .

وصلاح الدين هو القائد العابد ، الذي يشكر الله على نصره ، كما في قول ابن سناء الملك ، حين أغار القائد على نابلس قبل معركة حطين ، وكان ذلك يوم الجمعة ، فأخذ يكبر الله ، ثم صلى بها جماعة :-

وَقَدْ شُغِلَتْ عَنْ أَهْلِهَا بِإِسَارِهَا وَأَنْتَ بِشُكْرِ اللَّهِ فِي أَشْغَالِ الشُّغْلِ
تُكَبِّرُ فِيهَا اللَّهَ فِي الْجَامِعِ الَّذِي جَمَعْتَ بِهِ بَيْنَ الرِّبْضَةِ وَالنَّفْلِ
وَصَلَّيْتَ فِيهَا جُمُعَةً بِجَمَاعَةٍ تَنَادِيكَ الْإِسْلَامَ يَا جَامِعَ الشُّغْلِ (١)

ومن صفات القائد المجاهد الوفاء ، وهذه سمة نجدها واضحة في قول عبد المنعم الجلياني ، حين يتحدث عن الأعداء :-

وَكُنْتُ لَهُمْ حَتَّى أَحْبَبُكَ سَاطِئًا نَهْمُ وَفَاءِ الْعَهْدِ قَيْدُ الْمَخَاصِمِ (٢)

هذا ، وإن جانب ما اشتهر به من العفة ، والتسامح ، ومعاملة الأسرى معاملة حسنة ، يقول أسامة بن منقذ :-

مَالِكٌ يَمُنُّ عَلَى أَسَارِي سَبِيٍّ فَيُسَيِّدُهُمْ فِي الْأَسْرِ بِالْإِحْسَانِ (٣)

وقد سجد الشعراء في صلاح الدين مهاراته العسكرية ، فهو خير في الحرب ، فقيهه بأمورها ، يقول نجم الدين يوسف بن الحسين بن المصنوع :-

مَالِكٌ لَهُ فِي الْحَرْبِ بِحُرُوقِهِ وَلَهُ غَدَاةُ السَّلَامِ زُهْدٌ تَسْوَوِي (٤)

ويقول أبو الحكارم هبة الله بن مقلد المصري :-

لَقَدْ أَوْضَحَ الْآيَاتِ فِي الْحَرْبِ يُوسُفُ نِقَامَ بَرَهَانَ النَّصَالِ شُهُودُهَا

(١) ديوان ابن سناء الملك / ٢٢٥ ، منج الكروب : ١٦٣ / ٢ .

(٢) عيون الأنبياء / ٦٣١ .

(٣) الخريدة - قسم شعراء الشام : ٥٣١ / ١ ، والبيت غير موجود في الديوان .

(٤) كتاب الروضتين : ١٠٣ / ٢ .

مَا يَكُ لَهُ عَزْمٌ يُخَبِّرُ أَنْتَهُ قَدِيمُ سِيَاسَاتِ الْوَعْدِ وَجَدِيرُهُمَا (١)

وصلاح الدين عسكري ناجح يخطط للايقاع بالأعداء ، فهو بملكه مصر والشام جعل الفرنج بين شقي الرحى ، فيسهل بالتالي القضاء عليهم ، نراه في التخطيط العسكري رأي مصيب يعبر بالذبح على المحاربين ، يقول ابن رواحة (٢) :-

تَمَلَّكَ حَوْلَهُمْ شَرْقًا وَغَرْبًا	فَصَارُوا لَا قِتَاصَ تَحْتَ رَهْمِنِ
أَطَاعُوا عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ نَجْعٍ	قِبَائِلُ يُقْبِلُونَ بِفَيْرٍ وَهَمِنِ
أَقَامَ بِالْأَيْسُوبِ رِبَاطًا	رَأَتْ مِنْهُ الْفَرَنْجُ مَضِيقَ سَجَمِنِ
فَهُمُ الدِّينِ وَالْدُّنْيَا جَبَالٌ	رَوَّاسٍ لَا تُرَى أَبَدًا كَعَهْمِنِ
إِذَا اتَّبَعُوا لَهُ عَزْمًا وَرَأْيًا	غَنَوْا فِي الْحَرْبِ عَنْ ضَرْبٍ وَطَعْنِ

ويقول أن صلاح الدين قائد مطاع ، فإذا ما نادى للحرب حين لزومها فسان جيشه يلبي النداء ، فما يبالي أيقا تل إنسا أم جنتا :-

وَرَأَى نَادَى : نَزَالَ نَحْنُ بِيَا لَوَا قَتَالَهُمْ لِنَسْ أَوْ إَجِرْ سَنَ (٣)

وقد مجّد الشعراء القوة التي يتمتع بها صلاح الدين والتي تركت أعداء الله في حالة يرثى لها ، منهم بين قتيل ، أو خائف يترقب الموت ، أو هارب ضاقت عليه الدنيا برحبها ؛ لأنه لا مثرا له من الوقوع في قبضة صلاح الدين ؛ ولهذا أصبحت غزواته في بلادهم مقرونة بالانصراف وما ، يقول ابن التعاويذي :-

غَادَرَتْ أَهْلَ الْبَيْتِ بَيْنَ مُجَبِّدٍ لَقِيَ الْحِمَامَ وَخَائِفٍ يَتَرَقَّبُ
أَوْ هَارِبٍ ضَاقَتْ عَلَيْهِ بِرَحْبِهَا الْأَرْضُ الْغَضَاءُ وَأَيْنَ مِنْكَ الْمُهْرَبُ؟

(١) الخريدة - قسم شعراء مصر : ١٤٥/٢ . كان أديبا ، فقيها ، وشاعرا مجيدا ، ولد هو : الحسين بن عبد الله الأنصاري الحموي ،

(٢) بحمة ونشأ بها ، وحل إلى دمشق فاقام بها مدة ، واشتغل بالفقه ، وسمع الحديث من الحافظ ابن عساكر وآخرين ، ورحل إلى مصر فسمع بها وبالإسكندرية ، ثم عاد إلى دمشق ، فشهد واقعة مرج عكا فسقط شهيدا فيها سنة ٥٨٥ هـ . انظر الخريدة - قسم شعراء الشام - : ٤٨١/١ ، معجم الأدباء : ٤٦/١٠ .

(٣) الخريدة ، قسم شعراء الشام : ٤٩٣/١ .

فَأَصْبَحَ بِلَادَ الرُّومِ مِنْكَ بِغَسَّارَةٍ
الْمَنْصُورِ فِيهَا رَأَيْدٌ لَا يَكْذِبُ (١)

وهذا الجوهني يصور ملوك الفرنج بعد الفتح القدسي ، وقد أصبحوا صيدا في يد
صلاح الدين ، وقد كانوا من قبل أقوياء :-

أَضْحَتْ مُلُوكُ الْفَرَنْجِ الْقَيْدُ فِي يَدِهِ
صَيْدًا وَمَا ضَعُفُوا يَوْمًا وَمَا هَانُوا (٢)

ويصور القاضي الفاضل صلاح الدين صاحب هبة ثلأ قلوب أعدائه رعبا وخوفسا ،
إن يقول مخاطبا إياهم :-

أَصْلَابُ أَظْهَرَهُمْ تَخْكِ صَلِينَهُمْ
كَلَامًا بِالْقَا وَالرَّغْبُ مُنْكَسِرُ
سَعَادَةٍ قَابِلَتِ وَالرَّمَحُ مُضْطَجِعُ
وَعِزَّةٌ بَرَزَتْ وَالسَّيْفُ مَدْ شِسِرُ (٣)

فالقائد العسكري الذي تتوفر فيه الصفات القيادية والمهارات العسكرية مسع
الايان العقدي الثابت الراسخ يشكل مصدر قلق دائم لأعدائه ، يقول عبد المنعم
الجلاني واصفا الصليبيين :-

هُمْ الْفَرَّاشُ لَهَيْبِ الْخَرْبِ يَمْزَعُهُ
وَكَلَّمَا لَجَّ صَدْمًا جَلَّ مَقَاتُلُهُ
كَمْ قَدْ أَعْدُوا وَكَمْ قَدْ قُلَّ جَمْعُهُمْ
مِنْ غَيْرِ ضَرْبٍ وَلَا طَعْنٍ يُزِيلُهُ
وَأِنَّمَا اسْمُ صَلَاحِ الدِّينِ يُذَكِّرُنِي
جَيْشِ الْعَدُوِّ فَيَسْمِيهِمْ تَخْيَاكُهُ (٤)

وفي هذا المعنى يقول ابن رواحة :-

يُرُونَ خَيَالَهُ كَالطَّيْفِ يَسْتَرِي
أَبَادَهُمْ تَخَوُّفُهُ فَأَسْكَسِي
فَلَوْ هَجَعُوا أَتَاهُمْ بَعْدَ وَهْنِ
مُنَاهُمْ أَوْ يَبِيتُهُمْ بِأَمْنِ (٥)

(١) ديوان ابن التعاويذي / ٢٥٠ .

(٢) كتاب الروضتين : ١٠٥ / ٢ .

(٣) ديوان القاضي الفاضل : ٢٢٥ / ١ .

(٤) كتاب الروضتين : ١٥١ / ٢ .

(٥) الخريدة - قسم شعراء الشام - : ٤٦٢ / ١ ، معجم الأديباء : ٤٧ / ١٠ .

* * *

قام صلاح الدين بأعمال عسكرية عدة ضد أعدائه الصليبيين ، وقد سجل الشعراء لنا هذه الأعمال التي تدل على القيادة العسكرية الفذة ، فأظهر لنا دفاعه عن بعض المدن الإسلامية ، وأظهر لنا هجومه وغاراته على بعض المدن والقلاع الصليبية وتحريرها ، وسجل لنا المعارك الكبرى التي قام بها ، والتي أدت إلى الانتصار عليهم في النهاية وتحرير البلاد الإسلامية ، هيت المقدس ، وهو في ذلك كله يصف العناصر القتالية المتعددة ، فقد رسم لنا صورة هذا البطل المسلم ، وقدم لنا وصفاً لما حلّ بالأعداء من هزيمة ، وما كانوا يخططون له ، وأظهر في مواقع كثيرة صورة للقادة الصليبيين وجيوشهم ، وما حل بهم من أسر أو قتل أو هزيمة ، ويصف لنا بعض أساليب القتال المتبعة آنذاك ، كما يظهر هذا الشعر صورة جليلة للجيش الإسلامي وبعض أدوات القتال التي استخدموها .

ومن الجدير بالذكر أن عدداً من الشعراء الذين وصفوا هذه الأعمال كانوا مشاركين فيها مشاركة فعلية ، منهم العماد الأصفهاني ، وابن رواحة ، وتقي الدين عمر .

كان على صلاح الدين وهو وزير "مصر" أن يصد هجمات الصليبيين عنها كما تقدم ، وقد استطاع بحنكته العسكرية وتخطيطه مع نور الدين أن يصدّهم عن "دمياط" سنة ٦٥٥ هـ ، ثم عادوا أولاً مهزومين ، وقد كانوا أعدوا العدة لهذا الأمر ، كما يصورهم الشافعي (١) .

ولم يكتف صلاح الدين ، وهو نائب نور الدين بمصر ، بصد هجمات الصليبيين ، بل قام بالإغارة على المدن والقلاع التي كانت تحت سيطرتهم ، "كإرملة" ، و "عسقلان" ، ثم "غزة" سنة ٦٦٥ هـ ، وقد وصف عبارة اليني هذه الغزوة ، وما أصاب المشركين من خزي ، وذكر عظم الجيش الإسلامي ، كما تقدم .

(١) انظر ما سبق ص ١٠٠ .

وسجل سعادة الأعشى انتصار المسلمين في هذه الغزوة ، وذكروا صلاح الدين للمدينة المذكورة بالخيول والمشاة ، ثم أشار إلى كثرة قتلى الصليبيين :-

فَتَبَى مَذْغَا بِالْخَيْلِ وَالرَّجُلِ غَزَاً * نَأَى عَنْ نَوَاحِيهَا الرِّضَا وَدَنَا السَّخَطُ
رَمَاهَا بِالْعَدَمِ مَا لَهَا مِنْ مَرَايِفٍ * وَلَا أَجَمٌ (١) إِلَّا الَّذِي يُنْبِتُ الْخَطُ
وَعَاتَ ضَوَاحِيهَا ضَحَى بِكَتَائِبٍ * مِنَ التُّرُكِ لَا رُومَ طِفَامٍ وَلَا قَبْطُ
وَطَاخَتْ عَلَى تِلْكَ الرَّمَالِ جُسُومُهُمْ * فِي كُلِّ سَقَطٍ مِنْ جَمَاهِمُ سُقُطُ (٢)

وسجل الشاعر هزيمة لحقت بصلاح الدين ، حينما التقى بالصليبيين في " الرملة " سنة ٥٧٣ هـ (٣) ، يقول ابن سعدان الحاربي :-

قُلْ لِلْمُفْرَقَةِ الْخَذَلَى : " رَوَيْدُكُمْ * بِالتَّائِبِ أَوْ تَخْرُجَ الشُّمُورُ مِنَ الْحَمَلِ
تَرْقُبُوهَا مِنْ " الْغَوَارِ " طَالِعَةِ * خَوَارِقِ الْأَرْضِ تَمْحُورُونَ الْأَصْلِ

ولا يشعر الناظر في هذين البيتين أنه بصدد موقعة كانت الغلبة فيها للأعداء ، فالشاعر لا يتحدث عن الهزيمة ، بل يهدد ويتوعد ، ولكن يمكن معرفة نتيجة المعركة من خلال قوله :-

حَسَبُ الْعَدَا يَا صِلَاحَ الدِّينِ حَسْبُهُمْ * أَنْ يَقْرَنُوكَ بِجَحٍ غَيْرِ مُنْدَمِيلِ
وَهَلْ يَخَافُ لِسَانَ النَّحْلِ مَا تَمْسِسُ * مَرَّتْ عَلَى أَصْبَعِهِ لَذَّةُ الْعَسَلِ (٤)

ويرجع سبب هذه الهزيمة إلى اطمئنان المسلمين إلى نصرهم في " عسقلان " واعتراهم بخمود الفرنج " فاسترساوا وانبسطوا " (٥) .

- (١) الأَجَمُ والأَجْمُ : الطعام ، انظر قاموس المحيط . (أَجَم) .
- (٢) الخريدة - قسم شعراء الشام : (١/٤١٩) ، والأبيات الثلاثة الأولى في الروضتين : ج ١ ق ٢/٦٤٦ ، ٦٤٧ .
- (٣) انظر : البرق الشامي : ٣٦/٣ - ٣٨ ، سنا الرق : (١/١٢٧) ، الكامل : (١١/٤٤٢) ، النوادر السلطانية / ٥٣ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢/٦٦٩ ، مفرج الكروب : ٥٨/٢ .
- (٤) كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢/٧٠٤ .
- (٥) البرق الشامي : ٣٦/٣ - ٣٨ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢/٧٠٠ .

وانتصر صلاح الدين على الفرنج في معركة " مرج عيون " سنة ٥٧٥ هـ ، وكان قد نزل على " هانياس " ، فجاء الخبر بأن الفرنج قد استعدوا للقائه ، فلاقاهم وهزمهم شـر هزيمة . ويسجل ابن سناء الملك انتصار صلاح الدين في تلك المعركة ، ويشير إلى الأسرى الذين أسرههم ، ومنهم : مقدموا الداوية والاسبتارية (١) ، وصاحب الرملة ، وغيرهم (٢) ويشيد ببسالة صلاح الدين وصبره في الحرب ، ومجالدته الأقران ، يقول :-

وَلَمَّا رَأَوْهُ أَذْبَرُوا حَيْنَ عَايُنُـوَا أَعْنَةَ خَيْلٍ لَا تَعُودُ وَلَا تُثْنَسِي
وَقَدْ وَقَفُوا لَكِنْ لِأَسْرَاقِهِمْ وَقَلْفٍ رَوْسٍ مِنْهُمْ أَنْ تُجَنَسِي
ثَبَّتَ لَهُمُ وَالسَّيْفُ قَدْ كَرَهُ الطَّلَا وَجَالَدَتْهُمْ وَالْقِرْنُ قَدْ سَمَّ الْقِرْنَا
بِضَرْبِ يَدَيْهِ الشَّمْسُ فِي الْأَنْقُرِ حَرَهُ وَيَخْرِقُ مَا بَيْنَ الْقُلُوبِ مِنَ الشَّخْنَا (٣)

ونتعرف على أسلوب من أساليب القتال في هذه المعركة من خلال قصيدة ابن التعاويذي ، فيشير أن الأعداء اتبعوا طريقة الكائن في قتالهم ، ولكن النتيجة كانت لصالح المسلمين في النهاية ، يقول مخاطباً صلاح الدين :-

كَمُنُوا وَكَمْ لَكُمْ مِنْ كَيْسٍ سَعَادَةٍ فِي الْغَيْبِ تَظْهَرُ مِنْ وَرَاءِ كَيْسٍ
فَهُوَ نَجْوَى سَعُودِهِمْ وَقَضَى لَهُمْ بِالْخَيْسِ طَائِرُهُمْ " بِمَرْجِ عَيْسُونَ " (٤)

ويبدو أن القتال كان شديداً ، حتى كادت الدائرة تدور على المسلمين ، مما جعل الجويني يقرن هذه المعركة بفزوة حنين ، وإن يقول :-

(١) الداوية : فرقة من فرسان الصليبيين كانت تعرف بفرسان المعبد (*Templars*) ، والاسبتارية : فرقة أيضاً منهم تسمى الهسبتاليين ، وهو تحريف للكلمة الانجليزية (*Hospitellers*) ، ومؤسسها (*Blessed Gerard*) ، وكان لهاتين الفرقتين دور خطير في الحروب الصليبية . انظر الفتح / ٦٢ ، ١٢٥ ، السهرق الشامي : ٣ / ٣٩ ، حاشية (٧) و ١٦٩ / ٣ ، حاشية (٣) ، النوادر السلطانية / ٧٧ ، حاشية (٥) منج الكروب : ١ / ١٨٨ ، تاريخ الحروب الصليبية - رنسيان -

٢٤٩ / ٢ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ .

(٢) انظر كتاب الروضتين : ٨ / ٢ .

(٣) ديوان ابن سناء الطلسك / ٣٢٣ .

(٤) ديوان ابن التعاويذي / ٤٢٣ ، كتاب الروضتين : ١٠ / ٢ .

إِنْ هَذَا الْفَتْحُ الْمُبِينُ شَفَاءٌ
هُوَ يَوْمٌ أَضْحَى كَيْفُومٌ حُنَيْنٌ
أَمْدُورٌ وَقَرَّةٌ لِعَيْسُونَ
سَهْلُ الْمَلَّةِ نَصْرُهُ نِي الْحَزُونِ (١)

وفي السنة نفسها قام صلاح الدين بالهجوم على حصن "بيت الأحرار" (٢) ،
وكان هذا الحصن يشكل خطراً كبيراً على المسلمين ، وإن كان الفرنج يقطعون الطريق
على قوافل المسلمين (٣) ، وقد أدرك صلاح الدين هذا الأمر فسار إليه بجيوش كثيرة ،
واستطاع فتحه ، على الرغم من حصانته ، والقضاء على الصليب ، كما يبدو في قول سعادة
الأعمش :-

وَقَدْ تَرَأَى الْأَعْدَاءُ جَيْشًا عَزِيزًا
لَمْ تَبْقَ لِلطَّغْيَانِ شَيْئًا مُجْمَعًا
إِذَا أَبْرَقَتْ فِيهِ الصَّوَارِمُ أَرْعَدًا
وَلَمْ تَبْقَ لِلْإِيمَانِ شَيْئًا مُبَدَّدًا
وَزُرَتْ بِهِ الْحَصَنُ الَّذِي لَوْ تَحَمَّصَتْ
فَضَمَّتْ بِهِ صُلْبَ الصَّالِبِ وَرَعَتْهُ
وَشَهِدَتْهُ لَمَّا غَلَا فِتْنَتُهُ (٤)

ويشير نشو الدولة أحمد بن قنادة الدمشقي إلى هلاك الفرنج ، وهوان الصليب ،
ويشير إلى تعمير الفرنج لهذا الحصن ، محسناً التعليل ، هذا التعمير الذي سبب
هلاكهم ، وهذا يدل على مدى خطورة هذا الحصن ، يقول :-

هَلَاكُ الْفَرَنْجِ أَتَى عَاجِلاً
وَلَوْ لَمْ يَكُنْ قَدْ دَنَا حَتْفُهُمَا
وَقَدْ آنَ تَكْسِيرُ صُلْبَانِهِمَا
لَمَّا عَمَرَتْ بَيْتَ أَحْزَانِهِمَا (٥)

- (١) البرق الشامي : ١٢٣ / ٣ ، كتاب الروضتين : ٩ / ٢ ، منج الكروب : ٢ / ٧٨ .
(٢) بلاد بين دمشق وحلب والساحل ، قال ابن الأثير إنه يقارب بانياس ، وهو يقع شمال
طبرية ، وتسميه بعض المصادر " حصن المخاض " ، زعم أن يعقوب عاينه السلام كسان
يتفرد فيه ويكي على يوسف ، شرع الفرنج في عمارته سنة ٥٧٤ هـ . وكان هذا الحصن
للداوية التي مر ذكرها . انظر البرق الشامي : ١٤٤ / ٣ ، معجم البلدان : ١ / ٥١٨ ،
الكامل : ١١ / ٤٥٥ ، مرآة الزمان : ١ / ٢٢٣ - ٢٥٤ ، كتاب الروضتين : ٢ / ٨ ،
الأعلاق الخطيرة - لبنان والأردن وفلسطين : ٢٨٢ ، منج الكروب : ٢ / ٧٢ ،
صلاح الدين - جيب - ١٢٩ .
(٣) كتاب الروضتين : ٨ / ٢ .
(٤) نفسه : ١٢ / ٢ .
(٥) مرآة الزمان : ٨ / ٣٥٤ ، كتاب الروضتين : ١١ / ٢ ، البداية والنهاية : ١٢ / ٣٢٤ .

ومما تجدر الإشارة إليه أنّ الشعراء اهتموا بتمجيد هذا الفتح ، ولعلّهم
في ذلك أدركوا خطورة هذا الحصن الحصين ، الذي سبّب كثيرا من المتاعب للمسلمين ،
ولذا اعتبر ابن الساعاتي أنّ موقف صلاح الدين من هذا الحصن "موقف حق لا يوازيه
موقف" ، وهذا مما يدل على معرفة القائد المسلم للأخطار التي تحدق بالمسلمين ، فيسمى
إلى التخفيف منها أو إزالتها ، إن أمكنه ذلك ، وقد سمى بعض الشعراء هذا الحصن
"بحصن المخاض" في شعرهم مثل ابن الساعاتي ، وقد اعتبره وطن الأنبياء ، فلا يجوز
لهؤلاء الفرنج أن يبقوا فيه ، كما يبدون في قوافي مخاطبا صلاح الدين :-

بِحَدِّكَ أَعْدَاكَ الْقَنَا تَتَعَطَّفُ	وَطَرَفُ الْأَعَادِي دُونَ مَحْدِكَ يَطْرِفُ
وَقَفَّتْ عَلَى "حِصْنِ الْمَخَاضِ" وَارْتَهَ	أَمَوْفَتْ حَقَّ لَا يُوَاظِمُهُ مَوْفَتْ
أَيْسَكُنْ أَوْطَانُ النَّبِيِّينَ عُصْبَةً	تَمِينُ لَدَى أَيْمَانِهَا وَهِيَ تَحْلِفُ؟ (١)

وفي فتح هذا الحصن قام صلاح الدين نفسه بنقب سوره ، حيث أخذ الجانب
الشمالي منه ، واستخدم هو وجنده طرقا عدّة لهدمه ، منها النقب كما أشير ، ثم حشي
السور بالخطب وأحرقه ، ثم نادى صلاح الدين فيمن حوله بقوله : "من جاء بقرية ماء فليسه
دينار" ؛ وذلك حتى يغرقوا الثقب ليسهل نهبها ، والفعل استطاع صلاح الدين
وجنده اختراق الحصن (٢) ، هذا يدل على مدى مشاركة القائد جنده مشاركة فعليّة
في ميدان المعارك ، سواء أكانت هذه المشاركة بالقيام بالأعمال الحربية أم بتحريض
الجند على القتال ورفع معنوياتهم .

في تلك الفترة كان صلاح الدين يسعى إلى ضمّ ما تبقى من مدن الشام والجزيرة
إلى الحظيرة الإسلامية ، فلا غرو أن نراه يقبل الصلح مع المماليك ، الذين اضطـ~~روا~~
إلى مصالحته بعد هذه الواقعة سنة ٥٧٦ هـ ؛ فقد رأوا تصميمها وعزما على مواجهتهم

(١) ديوان ابن الساعاتي : ٢ / ٤٠٩ ، سنا البرق : ١ / ١٧١ ، كتاب الروضتين : ٢ / ١١٠ ،

منج الكروب : ٢ / ٨٤ ، البداية والنهاية : ١٢ / ٣٢٤ .

(٢) البرق الشامي : ٣ / ١٧٨ - ١٨٠ ، كتاب الروضتين : ٢ / ١١٠ .

والهجوم عليهم بين الفينة والأخرى ، وهذا أسلوب الكر والفر ، أسلوب القائد الناجح الذي يخطط لإنهاء العدو وإضعافه ، وهذا ابن الدهان يعبر تعبيرا واضحا عن ذلك بقوله :-

وَمَا خَضَعَ الْفَرَنْجُ لَدَيْكَ حَتَّى
رَأَوْا مَا لَا يُطَاقُ مِنَ الْكَرَّاحِ (١)

وعلى الرغم من انشغال صلاح الدين بوحدة البلاد ، إلا أنه كان يشن الغارات على الصليبيين مرة تلو الأخرى ، ففي سنة ٥٧٨ هـ قام بفنزويبيروت (٢) ، وفي سنة ٥٧٩ هـ أغار على "بيسان" و"صقورية" و"عين جالوت" (٣) ، وفي سنة ٥٨٠ هـ هاجم صلاح الدين حصن الكرك (٤) ، وكان هذا الحصن يشكل خطرا على قوافل المسلمين ، وقد سجل ابن سناء الملك هذا الهجوم ، مشيرا إلى كثرة القتل من الصليبيين ، حتى أنه وصف الكرك بأنها ثكلى بأولادها ، وأشار إلى استعداد صلاح الدين لهذا الهجوم ، حيث استخدم الخيل والفرسان والمنجنقات وخرج بها القلعة ، فأصيب "البرنس" (أرنسط) صاحبها بهزيمة كبرى نتيجة هذا الهجوم ، يقول :-

هَلِ الْكَرْكُ الثَّكَلَى بِأَوْلَادِهَا انْتَهَتْ
إِذَا كُنْتَ مِنْ قِتْلِكَ تَمْلَأُ سُبَاهَا
فَدَا بَعْلُهَا إِلَّا بَرْنُسُ يَلْعَنُ عُرْسَهُ
يَرَى الْخَيْلَ وَالْفُرْسَانَ يَنْشُونَ رَوْحَهُ
وَقَدْ رَجُمْتُهَا الْمَنْجَنِقَاتُ إِذَا رُمَتْ
عَنِ النَّسْلِ مِمَّا جُرْعَتْهُ مِنَ الْفُكْلِ
فَكَيْفَ يَمِيرُ الْجَيْشُ فِيهَا بِلَا سُبُلٍ؟
بِهَا وَهْيَ لَا تَنْفُكُ مِنَ الْعَقَةِ الْبَعْلِ
فَيَضْطَرُّ لِمُتَعَمِّلِهِ غَلَّةَ الْخُفْلِ
لَشَيْخٍ لَعِينٍ كَانَتْ جَاهِلٌ رَذُلٌ

ويشير ابن سناء الملك في القصيدة نفسها إلى أن صلاح الدين انتقل من الكرك إلى نابلس (٥) ، واستطاع دخولها وهزيمة الصليبيين ، مستخدما الفرسان والمشاة ، ومستخدما السيوف والرماح ، مما يدل على أن القتال كان مواجهة ، كما أشار

- (١) ديوان ابن الدهان ٦٦/٢ ، كتاب الروضتين : ١٦/٢ .
- (٢) انظر النوار السلطانية / ٥٦ ، كتاب الروضتين : ٢٩/٢ ، مغز الكروب : ١١٥/٢ .
- (٣) انظر النوار السلطانية / ٦١ ، ٦٢ ، كتاب الروضتين : ٥٠/٢ ، مغز الكروب : ١٤٨/٢ - ١٥١ .
- (٤) انظر الكامل : ٥٠٦/١١ ، النوار / ٦٦ ، كتاب الروضتين : ٥٦/٢ ، مغز الكروب : ١٥٨ ، ١٥٧ / ٢ .
- (٥) وانظر النوار السلطانية / ٦٦ ، ٦٧ ، كتاب الروضتين : ٥٥/٢ ، مغز الكروب : ١٦٠/٢ .

أن صلاح الدين قام بشكر الله وتكبيره وتعظيمه ، وهذا من صفات القائد العابد ، الذي ارتبطت الحرب عنده بالسلوك التعبدى ، كما تقدم ، يقول ابن سناء الملك :-

فَمَنَّا بِلَهُنَّ لَمَّا أَنْ نَزَلَتْ بِرُئُوسِهِمَا أَقَامَتْ بِهِمْ حَقَّ الْخِيَاْفَةِ وَالنُّزُلِ
وَمَا شَرَقُوا بِالْمَاءِ وَالرَّيْصِ إِذْ رَأَوْا جِيُوشَكَ لَكُنْ بِالذُّوَارِسِ وَالرَّجُلِ
شَبَّتَ وَقُودَ الْحَرْبِ بِالْبَهْنِ وَالْقَنَا عَلَيْهِمْ فَقَدْ أَضْحَتْ دُمَا وَهُمْ تَغْلِي (١)

ويعلمنا ابن سناء أيضا أن صلاح الدين قام بفارات عدة سنة ٥٨٢ هـ (٢) ، حيث كان الصليبيون محصنين أنفسهم في قلاع وحصون كثيرة ، ويشير إلى إراقة دماء الأعداء ، حتى إن لون الأعشاب والنبات قد صار أشد حمرة من لون الدم ، ويشير إلى السلوك التعبدى لصلاح الدين وجيشه في الحرب ، يقول :-

تَقَارُ لَكَ الْأَبْطَالُ قَبْلَ لِقَائِهِمْ لَا تَهُمُّ مِنْ نَقْعِ جَيْشِكَ قَدْ عَمُوا
وَمَا يَغْنَمُ الْكَأْرُ عَنْكَ حُصُونُهُمْ وَلَا شَيْءٌ بَعْدَ الْمَغِيرَةِ يَغْنَمُ
شَنَنْتَ بِهَا الْفَارَاتِ حَتَّى نَبَاتُهَا وَأَعْشَابُهَا مِنْ حَمْرَةِ الدَّمِ عِنْدُكُمْ (٣)
فَكَمْ قَدْ أَقِيمَتْ جَمْعَةً نَاصِرِيَّةً بِهَا وَمَصْلِيهَا الْخَمِيسُ الْفَرَسِيَّةُ
وَكَمْ بَيْعَةً قَدْ أَصْبَحَتْ وَهِيَ جَامِعٌ وَكَمْ كَافِرٌ أَضْحَى بِهَا وَهُوَ مُسَارِمٌ (٤)

يتبين مما سبق أن أعمال صلاح الدين العسكرية قد اقتضت ، في هذه المرحلة من مراحل صراعه مع الصليبيين ، على غارات خاطفة ومركزة على بعض معاقلهم وحصونهم ، والمواغمة على عقد معاهدات قصيرة ؛ لفرض التفرغ الكامل لبناء وحدة البلاد وتعبئة القوات ، وقد كان صلاح الدين حريصا على الالتزام بالمواثيق ، ولكنه كان ينفذ مــــن الغرض التي تحتاج له من أجل الهجوم على الصليبيين ؛ لضعاف القدرة القتالية لديهم ، ووقاية البلاد من هجوم متوقع منهم ، وهذا ما يسمى " باستراتيجية الهجمات الوقائية " (٥)

(١) ديوان ابن سناء الملك / ٢٢٣ - ٢٢٥ ، وانظر بعض هذه الأبيات في مــــنجز

الكروب / ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٢) وانظر الكامل : ٥٢٢ / ١١ .

(٣) المبتدأ : نوع من النبات يقال له البَقْمُ ، وهو شجر ورقه كورق اللوز ، وساقه أحمر يصطبغ به ، انظر قاموس المحيط (عــــنــــدكم) .

(٤) ديوان ابن سناء الملك / ٢٩٢ .

(٥) صلاح الدين الأيوبي - العســــلــــي - / ١٨٣ .

بمغامرة الصليبيين صفورية: "جاءنا ما نريد، ونحن أولو بأس شديد، وإذا صحت كسرتهم فطهرية وجميع الساحل ما دونه مانع ولا عن فتحه وانزع" (١).

كان صلاح الدين قد استدعى العساكر من الجهات كلها؛ نظرا لما كان يتطلبه نظام الاقطاع الحربي الذي اعتمده، ونزل بجيشه إلى منطقة حطين، واستطاع كسر الفرنج في معركة حاسمة، كان لها صدى كبير في الشعب.

وقد أوضح لنا هذا الشعر المعالم الكبيرة في هذه المعركة، وما يدور حولها، فنجد العماد الأصفهاني، في قصيدة له، يحدد موقع المعركة، ويشير إلى هزيمة الأعداء، وكثرة الأسرى من ملوكهم، ووقوع عدد كبير من السبايا في الأسر، حتى أن هؤلاء الأسرى أصبحوا يباعون بأبخس الأثمان، ثم ذكر مقتل "البرنس" أرنالط لفدرة، بعد أن وقع في الأسر، يقول:-

سَحَبَتْ عَلَى الْأَرْضِ رُذُنًا مِنَ الْقَنَسَا	رَدَّيْنِيَّةً مُلْدًا وَخَطِيئَةً مُلْسَا
حَطَلَتْ عَلَى حِطَّيْنٍ قَدَّرَ مَلُوكُهُمْ	وَلَمْ تَبْقَ مِنْ أَجْناسٍ كَثَرَهُمْ جِنْسَا
بِوَأَقْعَةٍ رَجَّتْ بِهَا الْأَرْضُ جَيْشُهُمْ	دَمَارًا كَمَا بَسَّتْ جِبَالُهُمْ بَسَا
تَقَادُ بِدَأْمَاءِ الدَّمَاءِ مَلُوكُهُمْ	أَسَارَى كَسَفْنَ الْيَمَّ نَطَّتْ بِهَا الْقُلْسَا
سَبَايَا بِلَادُ اللَّهِ مِثْلَ مِثْلِهِمْ	وَقَدْ شَرِبَتْ بَخْسًا وَقَدْ عُرِضَتْ نَخْسَا
يَطْفَأُ بِهَا الْأَسْوَاقُ لَا رَاغِبٌ لَهَا	لَكَثَرَتِهَا كَمَ كَثَرَتْ تَوَجُّبُ الْوُكُوسَا
ثَمَكًا يَيْسًا رَأْسُ الْبَرْنَسِ الَّذِي بِهِ	تَنْدَى حُسَامٌ حَاسِمٌ ذَكَ الْيَيْسَا
حَسَا دُمُهُ مَاضِي الْفِرَارِ لِفَدْرِهِ	وَمَا كَانَ أَوْلَا غَدْرُهُ دُمُهُ يُحْسَى (٢)

وهذا عبد المنعم الجليلاني في قصيدة رائية يتحدث عن أسر ملك القدس (٣) ويصور نرسان الاستتارية والداوية أتمويا، وقد اتحدوا كأنهم سد حمين، ولكنهم، على الرغم من ذلك هزموا، ويحدد الجليلاني في هذه القصيدة يوم المعركة، وهو يوم السبت، كما يحدد المكان الذي وقعت فيه، وأشار إلى إحاطة صلاح الدين بالصليبيين

- (١) كتاب الروضتين: ٢/ ٧٦، نقلا عن العماد الأصفهاني في كتابه "السيرة".
 (٢) ديوان العماد / ٢٣٥، ٢٣٦، كتاب الروضتين: ٢/ ٨٣، ٨٤، والمُلْدُ: اللين الناعم، اللبَاءُ: البحر، القلنس: الجهل الضخم، والوكوس: النقص. انظر قاموس المحيط: (ملد) (دام)، (قلنس)، (وكوس).
 (٣) ملك القدس في ذلك الحين هو: جاي دي لوزجنان Guy de Lusignan، تولى

كما يحيط القانس بسرب الحماير ، وذلك بفضل التخطيط العسكري الناجح ، ويذكر مقتل
البرنس "أرناط" أمير الكرك وناء لنذره ، مما جعل ملك القدس يصاب بجزع شديد عندما
شاهد "أرناط" وهو يقتل ، وأورد الجلياني خبر إرسال السبايا من الفرنج إلى دمشق ،
وسقوط صليب الصليبيات (١) بأيدي المسلمين ، يقول :-

مَا لِي أَرَى مَلِكَ الْإِفْرَنْجِ فِي قَفْصٍ
وَالْأَسْبِيَّاءُ إِلَى الدَّاءِيَةِ التَّأْمُسُوا
وَالنَّفْسُ مَوْلَعَةً عَجَبًا بِسِيرَتِهَا
يَا وَقْعَةَ التَّلِّ مَا أَبْقَيْتَ مِنْ عَجَبٍ
وَمَا ضَحَى السَّبْتِ مَا لِلْقَوْمِ قَدْ سَبَتُوا
حَطَّوْا بِحَطِّينَ مَلَكًا كَانِيًا عَجَبًا
أَهْوَى إِلَيْهِمْ صَاحِبُ الدِّينِ مَغْتَرِسًا
أَمَانٌ عَلَيْهِمْ فَعَارَوْا وَسَطَ كَفْتِهِ
وَأَنْجَزَ الْمَلِكُ لِلْإِسْلَامِ مَوْعِدَهُ
وَعَايَنَ الْمَلِكُ الْإِبْرَنْسَ فِي دَمِيهِ
رَأَى مَلِكًا مَلُوكُ الْأَرْضِ تَتَبَعُوهُ
بَيْنَنَا سَبَايَاهُ تُجَلِّي فِي دَمَشْقٍ إِذَا
إِزَاهُ زُعْمَاءُ السَّاحِلَيْنِ مَعًا
يَتْلُوهُمْ صَالِبُوتُ سَيْفٍ مُنْتَكِسًا

أَيْنَ الْقَوَاضِبُ وَالْعَسَاةُ السُّمُورُ؟
كَأَنَّهُمْ سَدٌّ يَأْجُوجُ إِذَا اسْتَجَرُوا
وَفِي الْمَقَادِيرِ مَا تُسَلِّي بِهِ السَّيْرُ
جَحَانِلٌ لَمْ يَكُنْ مِنْ جَمْعِهَا بِشَرُّ
تَهَوُّدٌ أَمْ يَكْأَسُ الطَّعْنُ قَدْ سَكِرُوا؟
فِي سَاعَةِ زَالِ ذَاكَ الْهَلَكُ وَالْقَسْدُ
وَهُوَ الْفَضْلُ أَعْدَى ظَلَمَرِهِ الظُّفْرُ
كَسِرَبٍ طَيْرٍ حَوَاها الْقَانِصُ الذَّكْرُ
وَنَذَرُهُ فِي كَبُورٍ مِنْهُ الْبَطْلُ
نَمَاتَ حَيًّا وَحَيًّا وَهُوَ يَعْتَبِرُ
وَالنَّجْمُ يَخْدُمُهُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
مَلِكُ الْفَرَنْجِ مَعَ الْأَثَرِ مُحْتَجِرُ
مَصْقَدِينَ بِحَبْلِ الْقَهْرِ قَدْ أُسِرُوا
وَحَوْلَهُ كُلُّ قَسِيْسٍ لَهُ زُكْرُ (٢)

ملكة بيت المقدس سنة ١١٨٦ م. ويستقى في المصادر العربية (جفري) . انظر
النوادر السلطانية / ٧٧ ، كتاب الروضتين : ٨١ / ٢ ، صلاح الدين والصليبيون /
٢٩٣ ، حطّين بين أخبار مؤرخيها . ٥٦٠ ، ٢٣ / ٠٠٠ .

(١) صليب الصليبيات هو : صليب خشبي ، يزعم الصليبيون أن قطعة منه قد صلب
عانيها المسيح عليه السلام ، وقد غافوه بالذهب الأحمر ، ورضعوه بالجواهر ، وقد
كان شعارهم في الحروب ، وهو أعظم عندهم من ملكهم .
انظر الكامل : ٥٣٦ / ١١ ، كتاب الروضتين : ٧٨ / ٢ .

(٢) ديوان المبشرات والقدسيات / ١٣٧ - ١٣٩ ، كتاب الروضتين : ١١٦ / ٢ - ١١٧ .

ويتحدث الشاغوري عن بداية القتال في المعركة ، ويشير إلى أن صلاح الدين قد استخدم القوة الهجومية ، فأحدث اضطراباً وهياجاً في صفوف الأعداء ، ويتحدث عن كثرة أعداد الجيش الصليبي المدجج بالسلاح ، وبعد ابتداء القتال يصف الشاغوري كثرة الطعن والضرب ، وما ألحقه القائد وجيشه المجاهد بالأعداء ، ثم يصف جيش القتلى منهم ، وقد تعرضت لانتهاش السباع والطيور ، وبين ضخامة أعدادها ، وأعداد الأسرى الذين بيعوا بأبخس الأثمان ، ويشير إلى تعرض جيش الأعداء للعطش الشديد في المعركة ، وذلك بسبب حجب الماء عنه قبيل المعركة ، ثم بفضل تخطيط القائد ، حيث كان ذلك سبباً في هزيمته ، يقول :-

يَتَذَامِرُونَ عَلَى مُتُونِ الضُّمَرِ بُظُيْنٍ وَزَعْفٍ مُتَحَكِّمٍ وَسَنَابِرٍ (١) وَلَفْنٍ فِي عَاقِ النَّجِيعِ الْأَخْضَرِ مَنْ كُلَّ ذِي نَابٍ وَصَاحِبِ مَسْكَرٍ قَبْلًا وَمَنْ مِنْ جَمْعِهِمْ لَمْ يُوَسِّرْ بِالسَّيْرِ بِالثَّمَنِ الْأَخْضَرِ الْأَخْضَرِ بِيضِ الصَّوَارِمِ بِالدَّمِ الْمُتَعَجِّجِ (٢)	جَاشَتْ جِيوشُ الشَّرْكَ رِيَوْمَ لَقِيَتَهُمْ وَكَاثَهُمْ بَحْرُ تَدَانِجٍ مُوجُجَةٍ أَوْرَدَتْ أَطْرَافَ الرَّمَاكِ صُدُورَهُمْ فَالْقَوْمُ نَهَبَ لِلسَّبَاعِ تَنَوُّشَهُمْ فَمَنْ الذِّي فِي جَيْشِهِمْ أَمَّ يُخْشَرُ حَتَّى أَقْدُ بَيْعَتِ عَقَائِلُ أَرْهَقَتْ مَاتُوا بِفُلْتِهِمْ وَأَرَوَى مِنْهُمْ
---	---

وعلى الرغم من استعداد الصليبيين للقتال ، وتدبيرهم للايقاع بالسامريين ، إلا أنهم هزموا في المعركة ، وحاول شجعانهم الهروب منها ظناً منهم أنهم سينجسون بأنفسهم ، لكن صلاح الدين ومن معه استطاعوا القبض عليهم وأسروهم ، يقول ابن سننار الماسك :-

جَعَلَتْهَا حِمَلَاتُ خَيْالِكَ عَهْنَا نَا فَمَنْ قَدْ فَارِسًا هَدَا رَكْنَا عَ هَرَوًا أَوْ الْفَرَارِ مَجْنَسَا	حَمَلُوا كَالْجِبَالِ عِظْمًا وَكَسَنَ جَمَعُوا كَيْدَهُمْ وَجَاءَ وَكَأَرْكَسَا أَشْجَعُ الْقَوْمِ فِيهِمْ جَاعِلُ الدَّرَ
--	--

- (١) الزعف : المين من الدروع ، والواسع المحكم ، والسنور : حملة السلاح ، والباس الدرع ، انظر قاموس المحيط (زعف) ، (السنور) .
- (٢) ديوان الشاغوري / ١٤٣ ، ١٤٤ ، والمتعجب : السائل بفخارة ، انظر القاموس المحيط (شعجره) .

ويقول :-

وَتَصِيدُ تَهُمْ بِحَاقَّةٍ صَنِيدٍ تَجْمَعُ اللَّيْثَ وَالْغَزَالَ الْأَقْنَا (١)

ويذكر الجلياني في قصيدة أخرى هزيمة جيش الأعداء الذي تجاوز عدده خمسين ألف مقاتل مدجج أمام جيش لم يكن بهذا العدد ، يقول :-

وَمِنْ عَجَبِ خَمْسُونَ أَلْفًا مُقَاتِلٍ سَبَتْهُمْ جِيُوشٌ لَيْسَ فِيهَا مَنْ ارْتَدَى (٢)

لم يكن انتصار صلاح الدين في حطين انتصاراً عشوائياً ، ولم يكن نتيجة ضعف في أعدائه الصليبيين ، فاعدادهم كثيرة ، وعدتهم وفيرة . . . بل كان انتصاراً نتيجة تخطيط عسكري ذكي ، وإيمان عقدي قوي راسخ ، فقد أحسن صلاح الدين اختيار موقع المعركة ، كما أحسن اختيار زمانها ، فاستدج العدو إلى منطقة بعيدة عن المياه ، واختار شهر تموز أشد الشهور حرارة ، فكان العطش والجحر من العوامل الأساسية التي أدت إلى انتصاره الحاسم ، إضافة إلى إشعال النيران في الأعشاب حول الصليبيين ، " فاجتمع عليهم العطش ، وجحر الزمان ، وجحر النار والدخان ، وجحر القتال " (٣) ، وهذا إضافة إلى وحدة الجيش الإسلامي ، واشتراك صلاح الدين نفسه في ميدان المعركة ، حيث كان الجند ، وكان يحسهم على القتال (٤) ، وقد قام بنفسه بترتيب الجيش ، وتعيين موقع كل أمير (٥) . يقول أبو شامة نقلاً عن العماد الأصفهاني في البسرق : " وقد وثق بنصر الله ، فهو يمضي بنفسه على المشوف ، يحضهم ، ويعدهم من الله "

- (١) ديوان ابن سناء الملك / ٣٤١ ، ٣٤٢ .
- (٢) ديوان المبعثرات والقدسيات / ١٤١ ، كتاب الروضتين : ١١٨ / ٢ .
- (٣) الكامل : ٥٣٥ / ١١ ، وانظر كتاب الروضتين : ٧٧ / ٢ .
- (٤) انظر حول هذه المعركة وأسباب انتصار صلاح الدين فيها : الفتح / ٧٦-٨٧ ، سناء البرق : ٢٩٥-٢٩٩ ، الأنوار السلطانية / ٧٦-٧٩ ، مرآة الزمان : ج ١ / ٣٩٢-٣٩٤ ، زبدة الحلب : ٩٣-٩٥ ، كتاب الروضتين : ٧٦ / ٢ ، ٧٧ ، مخرج الكروب : ٢ / ١٨٩-١٩٤ ، البداية والنهاية : ١٢ / ٣٤١-٣٤٤ ، النجوم الزاهرة : ٦ / ٣٤٤-٣٤٦ ، صلاح الدين - ج ١ / ١٩٠ ، دراسات في حضارة الإسلام / ١٣١ ، تاريخ الحروب الصليبية - رنسيان : ٢ / ٧٣٥-٧٤٠ ، شعلة الإسلام / ١٠٧-١١٦ ، سياسة صلاح الدين / ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، الحركة الصليبية : ٢ / ٧٦٦ ، ٧٧٩ ، حطين مسيرة التحرير . . . / ١٥٥ ، ١٥٦ ، حطين بين أخبار مؤرخيها . . . / ٢٤ ، ٧٨ ، صلاح الدين والصليبيون / ١٨٢ ، ١٩١ ، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية / ١١٨ ، صلاح الدين - العسلي - / ١٩١ ، ١٩٢ .
- (٥) الفتح / ٧٠ ، كتاب الروضتين : ٧٦ / ٢ .

ومن الجدير بالذكر أن صلاح الدين كان يأخذ بمبدأ الشورى في الحسب، ومن أمثلة ذلك أنه أجمع رأيه في معركة " مرج عيون " مع " بقية المسلمين على أن يقتحموا على الكارديارهم ، ويستوعبوا ما بقي في أيديهم من الغلات في يوم واحد " (٢) ، وقد استشار قواده قبل معركة حطين فأشار فريق منهم باتباع طريقة الإغارات على الصليبيين واضعائهم ، ثم القضاء عليهم قضاء حاسماً ، وأشار فريق آخر بالاشتباك معهم في معركة فاصلة مباشرة (٣) ، وهذا ما قام به بالفعل فتحقق النصر .

وبعد النصر الكبير في حطين ندرك حنكة صلاح الدين العسكرية ؛ إذ إنه استغل هذا الانتصار استفلا لا جيداً ، فالجنود المسلمون في حالة حماس شديد ، والروح المعنوية لديهم عالية ، والفرنج يتجاذبهم الرعب واليأس ، فتوجه إلى معاقلهم في الساحل ، فأخذ يفتحها معقلاً معقلاً بسرعة نادرة ، فقد كان يتبع أسلوب الحرب الخاطفة المباشرة ، وقد اعترف أعداؤه بأنه كان يقاتل ليل نهار ، ولم يدع أعدوه وقتاً للأكل والراحة (٤) .

ويرصد العماد الأصفهاني في سينيّة له بعض أسماء هذه المعاقل والمدن بدقة ، إذ سجلها حسب أولويتها في الفتح ، مما يدل على أن العماد كان ملازماً لصلاح الدين في حروبه ، فقد فتح صلاح الدين " عكا " ، و " صيدا " ، و " بيروت " ، و " تبنة " ، و " يافا " ، و " أرسوف " ، و " يبنس " ، و " غزة " ، و " عسقلان " (٥) ، يقول :-

- (١) كتاب الروضتين : ٥٢٢/٢ .
- (٢) نفسه : ٥٨/٢ .
- (٣) الكامل : ٥٣٢/١١ - ٥٣٣ ، الحبر - ابن خلدون - مجلد : ٦٦٩/٥ .
- (٤) شمعة الاسلام / ١٥٦ ، ١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، صلاح الدين والصليبيون / ١٣٨ ، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية / ١١٩ ، صلاح الدين - العسلي - / ١٨٥ .
- (٥) الفتح / ٨٨ ، ٩٥ ، ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، الكامل : ٥٣٩/١١ - ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٤٥ ، كتاب الروضتين : ٨٨/٢ ، مخرج الكروب : ٢٠٢/٢ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ٢٠٦ ، سير أعلام النبلاء : ٢٨٦/٢١ . وتبين : بلدة في جبال بني عامر المطلّة على بانياس بين دمشق وصور وهي جنوب لبنان اليوم ، انظر معجم البلدان : ١٤/٢ ، الأعلام الخطيرة - لبنان والاردن وفلسطين / ١٥٢ ، أطلس العالم / ٤١ .

أرسوف : مدينة ساحلية بين قيسارية ويافا ، وتبعد عن يافا سبعة كيلومترات . انظر معجم البلدان : ١٥١/١ ، الأعلام الخطيرة - لبنان والاردن وفلسطين / ٢٥٣ - ٢٥٤ ، الموسوعة الفلسطينية : ١٦٨/١ .

وَعَا " وما " عكا " فَقَدْ كَانَ نَحْمُهَا
وَصِيدَا " و " بَيْرُوتُ " و " تَبْنِينُ " كُلُّهَا
وَيَافَا " وَأَرْسُوفُ " وَيُونَى " و " غَزَّةُ "
وَفِي " عَسْقلَانُ " الْكَثْرُ ذَلَّ بِمُلْكِهِمْ
لَا جَلَاثِمَهُمْ عَنْ مَدَنٍ سَاحِلِهِمْ كُنُسَا
بَسِيْفِكُ الْفَى أَنْفَهُ الرِّغْمُ وَالتَّغْسَا
تَخَذَتْ بِهَا بَيْنَ الطَّلَى وَالطُّلُبِ عُرْسَا
نَمْنُظَرُهُ بَلْ أَمْرُهُ أَرِيدُ وَأَرْجَسَا (١)

وتبدو حنكة صلاح الدين العسكرية واضحة حين ترك بيت المقدس ونزل على مدن الساحل ، لأنه بهذا العمل يكون قد حرم المسلمين من قواعدهم البحرية التي يأتيهم منها المدد من الغرب ، وبالتالي يكون قد ضرب عليهم حصارا داخل بلاد الشام (٢) .

وبعد هذه الفتوحات توجه صلاح الدين إلى بيت المقدس ، هدفه الأكبر ، وتمكن من تحريره في السنة نفسها سنة ٥٨٣ هـ . وقد قيل في هذا الفتح قصائد كثيرة سميت القدسيّات ، حيث تحدثت عن بيت المقدس ، فكانت المدينة المحررة هي " قطب الرّحى الذي تدور حوله الأحداث " (٣) .

حاصر صلاح الدين القدس في الخامس عشر من رجب سنة ٥٨٣ هـ ، وبعد محاولات عديدة تمكن من فتح المدينة ، وكان ذلك يوم الجمعة من الشهر نفسه ، فخر ساجدا لله ، شاكرا إياه على النعمة الكبرى بالفتوح (٤) .

لحق الشعراء ينشدون الأشعار ويتغنّون بهذا الفتح العظيم ، وقد حمار بعض الشعراء بهذا الفتح ، واستغفروه ، وتساءل بعضهم هل هذا حقيقة أم حاسم ؟

ويُننى (بالضم ثم السكون) ، أو يُننه : بلدة من أعمال فلسطين تقع في الجنوب

من الرملة . انظر معجم البلدان : ٤٢٨ / ٥ ، بلادنا فلسطين : ج ١ / ٤٥٠ .

(١) ديوان العماد : ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، كتاب الروضتين : ١٠٢ / ٢ .

(٢) انظر الحركة الصليبية : ٢ / ٧٨١ ، ٧٨٢ ، صلاح الدين والصليبيون : ١٩٢ ، سياسة

صلاح الدين : ٢٩٨ ، ٣٠٥ ، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية : ١١٨ .

(٣) بيت المقدس في شعر الحروب الصليبية : ٧ .

(٤) الكامل : ٥٤٦ / ١١ ، النوادر السلطانية : ٨١ ، كتاب الروضتين : ٩٣ / ٢ ، مفسر

الكروب : ٢ / ٢١١ .

وكان الدافع لهذا التساؤل اليأس الذي كان مسيطرًا على النفوس مدة تسعين عامًا ، ولكن هذا الفتح لم يعد حلمًا ، بل أصبح واقعًا ملموسًا ، فقد تحقق كسر الفرنج كما يبد ونفي قول الجَوَانِيسِي (١) :-

أُتْرِى مَنَامًا مَا بَعْنِي أَبْصِرُ الْقَدْسُ يُنْتَجُ وَالْفَرَنْجُ تُكْسَرُ

ويذكر الجَوَانِيسِي ما فعله القائد المسلم من محولات الشوك ، فقد طهرت الديار من كل الآثام ، يقول :-

وَقُومَةُ (٢) قُمْتُ مِنَ الرَّجْسِ الَّذِي بِزَوَالِهِ وَزَوَالِهَا يَتَطَهَّرُ

ويذكر الشاعر قضية هامة تتعلق بسلوك القائد التميمي في الحرب ، وهي أن صلاح الدين كان يتخير أيام الجمع لغزواته ومعاركه ، يقول :-

غَارَاتُهُ جَمْعٌ فَإِنْ خُطِبَتْ لَكَ فِيهَا السَّيُوفُ فَكُلُّ هَامٍ مَبْنَرُ (٣)

وهذه حقيقة تاريخية يقدّمها لنا الشاعر بطريقة فنية جميلة تؤثر في السامع تأثيرًا شديدًا ، يقول ابن شداد : " وكان أبدا يقصد بوقعاته الجمع ، لا سيما أوقات صلاة الجمعة ، تبركا بدعاء الخطباء على المنابر ، فربما كانت أقرب إلى الاجابة " (٤)

-
- (١) الجَوَانِيسِي (بتشديد الواو) هو: شرف الدين أبو علي محمد بن أسعد بن علي ابن معمر بن علي بن الحسين العبيدي العاوي الحابي ، أصله من الموصل ، ولد في مصر ونشأ بها ، كان يلزم الاشتغال في علم النسب ، وله تصانيف عدة فيه ، كان في فترة من الفترات نقيب الأشراف بالديار المصرية ، توفي سنة ٥٨٨ هـ . انظر: الخريدة - قسم شعراء مصر: ١١٧/١ ، كتاب الروضتين: ١٠٥/٢ ، مغنّي الكروب: ٢٣٣/٢ ، النجوم الزاهرة: ٤٣/٤ ، ١١٩/٦ ، بيت المقدس في شعر الحروب الصليبية / ١٨٠ .
- (٢) القامة: أطلق المؤرخون هذا الاسم على كنيمة القيامة ؛ لأنها كانت موضعًا للقامة من قبل اليهود ، وكان النصارى قد ظهره واتخذوه كنيمة لهم ، ثم صار المسلمون يطلقون عليها هذه التسمية للاستهزاء والتحقير ، انظر البدايية والنهاية: ٥٩/٧ ، الساموك: ج ١ ق ٩٧/١ .
- (٣) كتاب الروضتين: ١٠٥/٢ .
- (٤) النوادر السلطانية: ٧٥/٢ ، كتاب الروضتين: ٨٠/٢ .

وبيّن عبد المنعم الجليلاني في قدسيته الكبرى سرعة هذا الفتح ، ويعتبر
أن في هذه السرعة سرّاً مغيّباً لا يعلمه أحد ، يقول :-

تصاريفُ دهرٍ أُعريتَ لِمَن اهْتَدَى وبسطةُ أمرٍ أُعريتَ مَن تَعَسَّرَ دَا
اسرعةُ فتحِ القدسِ سرٌّ مغيّبٌ وفي سرعةِ الافرنجِ معتبرٌ بسداً (١)

ولعلّ السرعة في هذا الفتح راجعة إلى تخطيط القائد السليم ، إذ قام بفتح
الساحل ، كي يثبت في قوّة الأعداء ، ويضمن الآيصل إليهم أي مدد خارجي .

ويرى الجويني أن فتح صلاح الدين هذا من فتوح الأنبياء ، وليس للانسان إلا أن
يشكر الله عاياه ، كما يشير إلى أنه قد مضى تسعون عاماً على بيت المقدس ، ولم يقم أحد
من ملوك المسلمين بتحريره ، ويذهب إلى أنه لو كان هذا الفتح في زمن الرسول ، صلّى
الله عليه وسلّم ، لنزلت فيه آيات من الذكر ، يقول :-

جُنْدُ السَّمَاءِ لِهَذَا الْمَلِكِ أَعْوَانُ مِنْ شَكِّ نِيهِمْ فَهَذَا الْفَتْحُ بَرَهَانُ
مَتَى رَأَى النَّاسُ مَا نَحْكِيهِ فِي زَمَنِ وَقَدْ مَضَتْ قَبْلُ أَرْمَانُ وَأَرْمَانُ
هَذَا الْفَتْحُ فَتَوْجُ الْأَنْبِيَاءِ وَكَأَنَّ لَهُ سِرُّ الشُّكْرِ بِالْأَنْعَالِ أَثْمَانُ
تَسْمَعُونَ عَاماً بِإِلَهِ اللَّهِ تَصْخُ وَالسَّ إِسْلَامُ أَنْصَارِهِ مَسْمُوعٌ وَمَعْنِيَانُ
لَوْ أَنَّ ذَا الْفَتْحِ فِي عَصْرِ النَّبِيِّ الْقَدُّ تَنَزَّلَتْ فِيهِ آيَاتُ وَقَدْ رَأَى (٢)

وفتح صلاح الدين آية عظمى لعامة منزهة وقدره ، فلا بد للكتاب والشعراء
أن يشبهوا خبره ، لأنّه ليس هناك مناسبة أجلّ من هذه المناسبة حتّى يدّخر الأدباء
شعرهم ونثرهم ، ولهذا الفتح صدى في النفوس ، فقد أُنشِج الأمة الإسلامية ، ولكنّه
عَمَّ بال أعداء ، يقول ابن الساعاتي :-

(١) ديوان المبشرات والقدسيات / ١٤٠ ، كتاب الروضتين : ١١٧ / ٢ .

(٢) كتاب الروضتين : ١٠٤ / ٢ ، ١٠٥ .

أعياً وَقَدْ عَايَنْتُمُ الْآيَةَ الْعَظُمَى
وَقَدْ سَاغَ فَتْحُ الْقُدْسِ فِي كُلِّ مَنْطِقٍ
تَحِلُّ بِهِ الْأَصْدَانُ وَاللَّغْظُ وَاحِدٌ
لَا يَتِيحُ حَالٌ تَذَخُّرُ النَّشْرَ وَالنَّظْمَا ؟
وَسَاغَ إِلَيَّ أَنْ أَسْمَعَ الْأُسْلَ وَالصَّمَا
فَكَمْ سَرَّ قَلْبِي فِي الْأَنَامِ وَكَمْ غَسَا (١)

ويرى الرشيد بن بدر النابلسي أن هذا النصر قد حقق الآمال ، ولذا وجب على المسلمين أن يؤثروا بنذرهم ، ويقسم بأن فتح القائد لا مثيل له في الأخبار والسياس المروية ، ويصور الشاعر بيت المقدس جذلان ، وقد رفعت راية الاسلام فوقه خفاقة ، وقد أزيل شعار الصليبيين منها ، وغدا صوت القرآن مسموعا ، وانطلق صوت الأذان من القباب بدلا من صوت النواقيس التي كانت تقرر الأذان ، وشتان ما بين هذين الصوتين ، وإن أن في الأول اثاره وخشوعا ، وتأثر به حتى الجمادات ، وهذا ما لا يستطيعه الصوت الآخر ، يقول :-

هَذَا الَّذِي كَانَتْ الْآمَالُ تَنْتَظِرُ
بِمِثْلِ ذَا الْفَتْحِ لَا وَاللَّهِ مَا حُكِيَتْ
الآنَ طَابَ إِلَى الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ كَالِ
يَا بَهْجَةَ الْقُدْسِ إِذَا أَضْحَى بِهِ عِلْمُ
يَا نَوْرَ مَسْجِدِهِ الْأَقْصَى وَقَدْ رُفِعَتْ
شَتَانُ مَا بَيْنَ نَاقُوسِ يَدَانِ بِسَمْعِ
إِلَهُ أَكْبَرُ صَوْتِ تَقَشُّعٍ لِكُفِّ
فَيُوفِي لِلَّهِ أَقْوَامٌ بِمَا نَسْذَرُوا
فِي سَالِفِ الدَّهْرِ أَخْبَارٌ وَلَا سِيرُ
بَيْتِ الْمَحَرَّمِ إِحْرَامٌ وَمَعْتَسِرُ
رَأْيَانٍ مِنْ بَعْدِ طَيِّرٍ وَهُوَ مُنْتَشِرُ
بَعْدَ الْعَلَّابِ بِهِ الْآيَاتُ وَالسُّورُ
وَبَيْنَ ذِي مَنْطِقٍ يُضْغِي لَهُ الْحَجَرُ
شَمُّ الذُّرَى وَتَكَادُ الْأَرْضُ تَنْفَطِرُ (٢)

وكان لفتح صلاح الدين هذا صدى في أنحاء الأرض ، فقد وصل الخبر للخليفة العباسي ببغداد ، فبهذا العماد يبشّره بذلك ، وهذا يدل على العلاقة الحسنة التي كانت قائمة بين القائد صلاح الدين والخليفة العباسي ، كما تقدّم ، يقول العماد :-

- (١) ديوان ابن الساعاتي : ٣٨٥/٢ ، كتاب الروضتين : ١٠٦/٢ ، منرج الكروب : ٢٣٤/٢ .
(٢) كتاب الروضتين : ١١٨/٢ .

أُبَشِّرْ بِفَتْحِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُسِّسُ وَصِيَّتُهُ فِي جَمِيعِ الْأَرْضِ جَسَّابُ (١)

وهذا الفتح يمتاز على غيره من الفتح ، فهو أعظمها ، وإذا تتضاءل الفتوحات الأخرى أمامه ، ويوم الفتح يشبه يوم الحشر لهوله وعظمته ، كما يبدو في قول نبتيـــــان الشاغـــــوري :-

فَتَحَّ تَطَاطَا كُلُّ فَتْحٍ دُونَكَه
وَالشَّمْسُ تَكْسِفُ كُلَّ جَسْمٍ نَيِّرٍ
وَأَرَبْتَهُمْ لَمَّا اتَّقَى الْجُمُعَانِ بِالْـ
بَيْتِ الْمُقَدَّسِ هَوْلَ يَوْمِ الْمُحْشَرِ (٢)

ومما يسترعي النظر أن الشعراء قد ربطوا بين فتح صلاح الدين للقدس والفتوحات الإسلامية السابقة ، وذلك لربط ماضي الأمة بحاضرها من أجل الاعتبار .

فهذا عبد المنعم الجلياني يربط ما بين الفتح القدسي ومعركة القادسية في قدسيته الناصرية ، فيقول :-

أما رأيكم فتوح القادسية فسي
أكتاف " لؤبية " تجلَى وَذَا عَسَرُ (٣)

فمعركة القادسية من المعارك الحاسمة في الإسلام ، ولها شأن عظيم إذ كان النصر بها قضاء على دولة شرك ، كانت تريد القضاء على الإسلام ، ومعركة حطين وفتح بيت المقدس ، حدثان عظيمان بهما كان الخلاص من العدوان الصليبي الذي كان يسمى دوماً "المقضاء" على الإسلام والمسلمين .

ويربط العماد بين فتح صلاح الدين للقدس وفتح الرسول ، صلى الله عليه وسلم مكة ، إذ أن هناك أموراً تجمع بين الفتحين ، " فالأقصى " يحتل المكانة الثالثة بعد البيت الحرام بمكة " المكرمة " ، والمسجد النبوي في " المدينة المنورة " . والصخرة المشرفة بقدسيتهما تأتي بعد الحجر الأسود في الكعبة ، هذا إلى جانب ما قام به

(١) ديوان العماد / ٧٥ ، سنا البرق : ١ / ١٧٤ ، كتاب الروضتين : ٢ / ١٠٢ .

(٢)

ديوان نبتيان الشاغـــــوري / ١٤٣ .

(٣)

ديوان الميشرات والقدسيات / ١٣٨ ، كتاب الروضتين : ٢ / ١١٧ .
ولؤبية ، قرية من قرى طبرية على بعد ٣ كم إلى الغرب منها ، على طريق الناصرة ، وهي موقع أثري فيه مدائن منقورة في الصخر ، ومعايير خمر ، وصهاريج ، ويوجد بالقرب منها إلى الشرق خان يسمى خان لؤبيا ، دمرها اليهود سنة ١٩٤٨ م .

صلاح الدين ، من إزالة للصلبان ، كما أزال الرسول الأنصاب والأزلام عند فتح مكة ،
والشاعر بهذا الربط يكون قد " جمع بين رمزي عبادة " (١) ، يقول :-

بِفَتْحِهِ الْقُدْسَ لِلْإِسْلَامِ قَدْ فُتِحَتْ فِي قَمْعِ طَاغِيَةِ الْإِسْرَاقِ أَبْجَابُ
فِي مَوَاقِفِ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ لِلَّهِ بَيْتَ الْحَرَامِ لِنَا تِيَهُ وَإِعْجَابُ
وَالصَّخْرُ وَالْحَجَرُ الْمَطْلُومُ جَانِبُهُ كِلَاهِمَا لَا عَتَمَارَ الْخَلْقِ مُحَرَّابُ
نَفَى مِنَ الْقُدْسِ مُلْبَانًا كَمَا نَفَيْتَ مِنْ بَيْتِ مَكَّةَ أَزْلَامَ وَأَنْصَابُ (٢)

ويربط ابن الساعاتي أيضا بين هذا الفتح ومكة والمدينة ، فيصور ما أحسست
به كلاهما ، ويصور ضريح الرسول - صلى الله عليه وسلم - مبتهجا جذلان بهمسنا
الفتح ، يقول :-

حَبَابُ مَكَّةَ الْحُسْنَى وَثَنَى بِشَرْبِ وَأَطْرَبَ ذِيكَ الْفَضِيحَ وَمَا ضَمَّا (٣)
ويقول من قصيدة أخرى :-

أَحْسَنْتَ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ وَبِشَرْبِ وَلَكَ الْفَعَالُ كَثِيرَةٌ حَسَنَاتُكُمْ
هَذَا سَيُوفُكَ مَعْرَمَاتٌ دُونَكُمْ لِبَكَائِهِمْ تَبَسَّمَتْ حُجْرَاتُكُمْ (٤)

وهكذا نرى الشعراء قد مجّدوا معركة حطين وفتح بيت المقدس تمجيدا
خاصا في قصائد كثيرة ، فأبرزوا ملامح خاصة للموقعين .

وظل صلاح الدين محافظا على بيت المقدس حتى وفاته ، وقد حاول الصليبيون
الاستيلاء عليه سنة سبع وثمانين وخمسائة هجرية ، إلا أن محاولتهم هذه باءت بالفشل

وأقاموا على أرضها مستعمرة سمّوها (*Lavi*) بمعنى الأسد .
انظر بلادنا فلسطين - ديار الجليل : ج ٢ / ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٦ ، ٢٩٦ ،
٤٢٤-٤٢٦ ، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية / ١٣٨ ، حاشية (١٦) .

- (١) حطين بين أخبار مؤرخيها ٧٢ / ٠٠٠ .
(٢) ديوان العماد / ٧٥ ، ٧٦ ، كتاب الروضتين : ٢ / ١٠٢ ، ١٠٣ .
(٣) ديوان ابن الساعاتي : ٢ / ٣٨٥ ، كتاب الروضتين : ٢ / ١٠٦ ، مفسر
الكروب : ٢ / ٢٣٤ .
(٤) ديوان ابن الساعاتي : ٢ / ٤١٠ ، كتاب الروضتين : ٢ / ١٠٦ .

وقد سجل الشعراء ذلك ، مستهزئين ساخرين ، يقول الرشيد بن بدر النابلسي :-

وَيْسَجِ الْفَرْجَةُ بِلْ وَبِلْ أَمَّهُمْ أَوْسَا	فِيهِمْ لِبَيْبٍ عَلَى الْعِلَاتِ يَعْتَبِرُ؟
فَكَمْ نَشَرْتَهُمْ ضَرْبًا إِذَا انْتَضَمُوا	وَكَمْ نَظَّمْتَهُمْ طَعْنًا إِذَا انْتَفَرُوا
إِنْ يَمُوكَ فَلَا بَدْعَ لَجَهْلِهِمْ	تَسْمَعُ إِلَى الْأُسْدِ فِي غَابَاتِهَا الْحُمُرُ
فَحَامَ عَنْ حَوَاطِ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ لَا	خَوْفًا وَحَاشَاكَ مِنْ خَوْفٍ وَلَا ضَرَرٍ (١)

وسجل ابن الجاور أطماع المليبيين في بيت المقدس من جديد ، يقول :-

يَا صَاحِبَ قَلْبِ الْأَنْكَتِيرِ الْكَلْبِ دُعْ	عَنْكَ الْجُنُونُ وَخَذْ مَقَالَةَ مُنْصِفٍ
الْقَدْسُ مَا فِيهِ لِمَرْجِكُ مَطْمَاحُ	كَلَّا وَلَا نُورُ إِلَّا لَهُ بِمَنْطَقَتِي
وَالْمَسْجِدُ الْأَقْصَى فَمَعْنَهُ تَقْصُ مِنْ	وَقَعَ الدَّبَابُ فِي الْأَلْيَةِ تَعْرِفُ (٢)

يستخلص مما تقدم أن صلاح الدين قام بغارات وغزوات كثيرة ضد أعدائه المليبيين ، كما خاض معهم أعنف المعارك المصيرية ، وكانت هذه الأعمال العسكرية منذ أن كان وزير مصر تكلل بالنجاح ، مما يدل على قدرته على التخطيط والتنفيذ ، وقد حسنت الشعراء القائد على القيام بهذه الأعمال ، وقاموا بتهنئته بالنصر بعد الانتهاء منها . وساهموا في تحقيق النصر مساهمة حقيقية ، إذ شنوا في قصادهم حرباً ضارية على معتقدات الأعداء ، وسعوا إلى الفت في سواعدهم بما يوجهونه لهم من حملات إعلامية في أشعارهم .

* * *

لم يحقق صلاح الدين انتصاراته تلك إلا بعد بغاء مجتمع معدٍ للحرب من الناحية الاقتصادية والعسكرية والنفسية ، وقد مر الحديث عن النواحي الاقتصادية والنفسية عند الحديث عن إدارته ، أما في المجال العسكري ، فقد اعتنى صلاح الدين

(١) كتاب الروضتين : ١٩٤/٢

(٢) كتاب الروضتين : ٢٠٤/٢

بالجيش اعتناءً بالغاً، إذ أنه يعدّ القوة التي يعتمد عليها صلاح الدين في جهاده، ضد الأعداء، فأنشأ ديواناً خاصاً للجيش، عرف بـ ديوان الجيش (١)، فقد قام بالانفاق عليه، وترتيب جنوده، وأمراؤه، واعتمد في تنظيمه له نظام الاقطاع الحربي، وخير دليل على ذلك أنه كان إذا أخذ بلاداً إسلامياً لا يشترط شيئاً إلا أن يكون العسكر تابعاً له في أوقات الحرب (٢).

يسجل أسامة بن منقذ اتفاق صلاح الدين على الجيش وتجهيزات القتال، ويذكر أن الأموال كانت قبالة محفوظة في الخزائن لا يسمح لها بالخروج، أما الآن فهي تنفق في مكانها الصحيح، يقول :-

هَذَلْتُ أَسْوَالَ الْخَزَائِنِ بَعْدَ مَا هَرَمْتُ وَرَاءَ خَوَاتِمِ الْخُسْرَانِ
فِي جَمْعِ كُلِّ مَبَاهِدٍ وَمَجَالِدٍ وَمِبَارِزٍ وَمُنَازِلِ الْأَقْرَانِ (٣)

فهو لا يضمن على جيشه بالمال، بل هو كريم مع جنده، وهذه سياسة حكيمة، كما يبدو في قول عبد المنعم الجلياني :-

إِنَّ الْمُلُوكَ الَّذِينَ امْتَدَّ أَمْرُهُمْ لَمْ يَخْزَنُوا الْمَالَ بَلْ مَهَّمَا هَوُوا هَذَلُوا
كَذَا السِّيَاسَةُ فَلَا جَنَابَ لَوْعَلُّوا بَخْلُ الْمَالِيسِ وَجَاءَتْ شِدَّةٌ خَذَلُوا (٤)

ضمت جيوش صلاح الدين فرقاً مختلفة، فقد كانت تتكوّن من الفرقة الأسديسة المنسوبة إلى أسد الدين شيركوه، والفرقة الصلاحية التي أسسها صلاح الدين في مصر اثر وزارته، والفرق العسكرية الشامية في دمشق، وحلب، وحماة، وحمص، والعراق،

(١) انظر: صبح الأعشى: ١٨/٤، صلاح الدين - جيب - ٩٧/١٢٨، ١٥٦، ١٥٧.

(٢) صلاح الدين والصلبيون / ١٠٨-١١٢، سياسة صلاح الدين / ٤٥٠.
(٣) قوانين الدواوين / ٣٦٦، كتاب الروضتين: ٣٢/٢، سياسة صلاح الدين / ٤٤٣، الشرق الأدنى في العصور الوسطى (الأيوبيون) / ١٥٦، ١٥٧، صلاح الدين والصلبيون / ١١٥.

(٤) الخريدة - قسم شعراء الشام: ٥٣٢/١، والبيتان غير موجودين في ديوان أسامة.

(٥) ديوان المبشرات والقدسيات / ١٢٥، كتاب الروضتين: ج ١ ق ٢ / ٤١٥.

والموصل ، والجزيرة ، ويضاف إلى القوات النظامية قوات إضافية أخرى من الأتراك والأكراد والعرب من بني منقذ وغيرهم ، والمتطوعين ، والمشاة ، والذين يقاتلون بالسيوف والرمح ، والنفابيين الذين ينقبون الأسوار وغيرهم (١) .

وقد أشار الشعراء إلى بعض العناصر التي يتكون منها الجيش الصلاحي ، كالأتراك ، يشير إلى ذلك قول معادة الأعمى حين انتصر صلاح الدين " بفسرة " سنة ٥٦٦ هـ :-

وما ضواحيها ضحى بكائب
من الترك لا روم طغام ولا قبيط (٢)

وفي قصيدة لفتيان الشاغوري يستدل اشتراك عناصر متعددة من الجيش الصلاحي ، منهم العرب ، والمعجم : من ترك وأكراد ، حيث يسمع تراطمهم كما يسمع ارتجاج العسرب وهم يخوضون غمرات القتال ، ويهبط الشاغوري جنود المساميين بالأسود في الحرب ، وهذا الجيش إذا ما يعم صوب الأعداء تزلزلت الأرض من شدة بأسه ، وهو جيش ترفرف فوقه الرايات ، وترانقه أسراب الطائر ، طمعا في الحصول على قوتها من جيش أعدائه ، وهو يشير العرب في قلوبهم ، فما أن يبد وأمامهم حتى تتقطع لهيبته أكبادهم ، يقول :-

جعا نبله أسد تزار في الوغى
وما غلبها إلا القنا والنفابيل (٣)
يسير بجيش يرجف الأرض بأسه
وتهد وأهها في كل قطر زل
خمين له الرايات ظل وفوقه
من الطير ظل يحجب الشمس سابل
تراطن فيه العجم من كل جانب
وترجز العرب الكرام البواسل
مضى عينته المشركون تقطعت
لهيبته أكبادهم والمناصيل (٤)

(١) انظر الكامل : (١١ / ٤٤٤٥٣٥) ، الروستين : ج ١ ق ٢ / ٤٣٨ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، مغز

الكروب : ٢ / ٤٠٠ ، البداية والنهاية : ١٢ / ٤٤٣ ، السالك ، ج ١ ق ٢ / ١٥٠ ،

صلاح الدين - جب - / ١٥٥ - ١٦٥ ، الشرق الأدنى في العصور الوسطى

(اليهوديون) / ١٥٥ - ١٦٨ ، صلاح الدين والصليبيون / ١١٣ - ١٢٠ ، سياسة

صلاح الدين / ٤٥١ - ٤٥٨ .

(٢) الخريدة - قسم شعراء الشام : ١ / ٤١٩ .

(٣) القنابل : طائفة من الناس ومن الخيل ما بين الثلاثين إلى الخمسين ، ومفرد

قنبل ، والمقصود الجيوش ، انظر لسان العرب (قنبل) .

(٤) ديوان فتیان الشاغوري / ٣١٧ - ٣١٨ .

تحدث الشعراء كثيرا عن جيش صلاح الدين الجرار باعتباره الأداة الرئيسية في الحرب التي تقود إلى النصر، إلا أنهم كثيرا ما استخدموا المعاني والصور التقليدية في تصويرهم لهذا الجيش كما هي الحال في أبيات الشاغوري السابقة الذكر. (١) ويبدو هذا جلياً في قول ابن الدهان، حيث يشبه الجيوش بالأسود، وقد ملأت البلاد، وقسمت ظلماتهم غابات من الرماح، كما يصور الجيش وقد رافقته أسراب الطير، تنتظر القتلى من الأعداء لتقع عليها :

مَلَأَتْ بِلَادَهُمْ سَهْلًا وَحَزَنًا أَسْوَدًا تَحْتَ غَابَاتِ الرَّمَاحِ (٢)

وقوله من قصيدة أخرى :

وَالطَّيْرُ مِنْ ثِقَةٍ بِأَكْلِ مَشْبَعٍ تَبِعَتْ جَيْوشَكَ فَرَقَ غَابِ مَسْبَعٍ (٣)

ورع سعادة الاعمى في وصف جيوش صلاح الدين، حيث وصفها بالشجاعة المتناهية، فهي عندما تقدم نحو الوغى تثير فوقها سحباً من الغبار، يتخللها النصر، يقول :

وَإِذَا جَعَلْنَاهُ أَثَرْنَ مَحَانِيًا لَمَعَتْ بِرُوقِ النَّصْرِ فِي أَحْضَانِهَا (٤)

وفي قصيدة أخرى يشبه سعادة الاعمى جيش صلاح الدين ببحر زاخر، حبابه الدروع، وخلصانه السيوف، وهو جيش كثيف كالجراد المنتشر، لا يحصى عدده، وإذا ما تحرك صوب الأعداء فلا تكفي الأنهار لشرب فرسانه ورماته، وهذا الجيش قد ركبت فوقه ساء من الغبار وقد اتخذت من رماحه عمداً لها، يقول :

أَوَسَمْتُمْ فَرَعُونَهُمْ لَمَّا طَفَى غَرَقًا بِزَاخِرٍ: لَجَّاتُهُ النَّقْعُ وَالنَّجْدُ
حَبَابُهُ الْبَيْضُ وَالْبَيْضُ الْحِدَادُ لَهُ كُحْلٌ، وَأَمَاجُهُ لَمَّا طَفَى الزُّبْدُ
عَرَمَرَمَ كَالدَّبَنِ الطَّيَارِ مُنْتَشِرًا تُحْصَى الرَّمَالُ وَلَا يُحْصَى لَهُ عَدَدُ

(١) انظر ما سبق، ص ١٠٠.

(٢) ديوان ابن الدهان/ ٦٦، كتاب الروشتين: ١٢/٢.

(٣) ديوان ابن الدهان/ ٣٣، كتاب البرق الشامي: ٢٢/٥.

(٤) الخريدة / شعراء الشام: ٤٠٩/١.

إِذَا نَهَدْتَ إِلَى أَرْضِ الْعَدُوِّ
لَمْ يَبْقَ مِنْ مَائِهَا غَمْرٌ وَلَا شَسْدٌ
تَسْبُو عَلَيْهِ سَمَاءٌ مِنْ عَجَاجَتِهِ
بُهْنِيَّةٌ مِنْ قَنَاةٍ تَحْتَهَا عُسْدٌ (١)

ويصف أسامة بن منقذ جند صلاح الدين بأنهم يردون الممارك بسيوفهم، فلا يسدرون، ألا وهي حربة قانية ما أصابها من دماء الأعداء، وهو ولا الجند يخوضون الممارك بظماً شديداً، كالذي يبحث عن موارد الغدران، يقول:

هَدَلْتُ أَمْوَالَ الْخِرَازِنِ بَعْدَ مَا
هَرَمْتُ وَرَاءَ غَوَائِمِ الْخُرْصَانِ
فِي جَمْعِ كُلِّ مُجَاهِدٍ وَجَالِ سِدْرٍ
وَمَارِزٍ وَمَنَازِلِ الْأَقْصَرَانِ
مِنْ كُلِّ مَنْ يَرِدُ الْحَرْبَ بِأَبْيَضٍ
مُتَّحِبٍ وَيَصْدُرُ وَهُوَ أَحْمَرُ قَانِ
وَيَخْرُضُ نِيرَانُ الْوَقَى وَكَأَنَّ نَسْأَهُ
ظِلْمَانُ خَاضَ مَوَارِدَ الْغُدْرَانِ

وجنوده أصحاب بأس شديد، يزلزل الجبال، وهو الذخيرة التي تفتح ما استعصى من البلاد والقلاع، كما يبدو في قوله:

أَوْ أَنَّهُمْ حَدَمُوا الْجِبَالَ لِرَمَزَعُوا
أَرْكَانَهَا بِالْبَيْضِ وَالْخُرْصَانِ (٢)
فِيهِمُ الذَّخِيرَةُ الْوَاقِعُ بِالْعِدَى
وَلَفَتْحٌ مَا اسْتَعَصَى مِنَ الْبُلْدَانِ (٣)

وأشار الصمد بجيش صلاح الدين وأسلحته، فقد شبه جنوده بالصفور والسهم بالطيور، وقد اتخذت قلوب الأعداء لها أوكارا، وأشار إلى قوة جيش صلاح الدين التي أرعبت الأعداء، وشركت بطون النصارى قبورا لهم، يقول مخاطباً:

وَكَمْ قَدْ قَالَتْ جُمُوعُ الْفَرَنْجِ
بِحُرْمٍ عَلَيْهَا رِجَالُ الْهَيْجِ
بِحَدِّ اعْتِزَامٍ شَبَّاهُ طَرِيسُ
كَأَنَّ صُقُوراً عَلَيْنَهَا حُقُورُ
مِنْ التَّرَاكِ عِنْدَ دَبَابِيسِهَا
صَحَاحُ الطَّلَى وَالْهَوَايِ كَسُورُ

- (١) الخريدة - قسم شعراء الشام: (١/٣٤٤٤٤٤) . والنجد: العرق من عمل أو غيره،
والشمد: الماء القليل، أو مجتمع الماء، والدبى: الجراد، انظر لسان العرب (نجد)،
(شمد)، (دبى).
(٢) الخُرْصَان: سنان الرمح، أو الرمح نفسه، انظر لسان العرب (خرص).
(٣) الخريدة - شعراء الشام: (١/٥٣٢٢)، والابيات غير موجودة في الديوان.

ويقول :

بَجَيْشِكَ أَزَعَجْتَ جَاشَ السُّدُورِ فَمَا نَفَرْنَا مِنْهُ إِلَّا نُفُورُ
تَرَكْتُ مَصَارِعَ الْمُشْرِكِينَ يَطْبُونُ الْقَشَاعِمَ فِيهَا قُبُورُ (١)

وفي إشارة الجيوش الإسلامية الرعب في نفوس الأعداء ، يقول عبد المنعم الجلياني في قصيدته " القدسية الكبرى " :

وأعدى جنود الرعب يردى عداته وسلم جميع المعامنين مُجَنَّدَا (٢)

ويقول ابن جبير مشيراً إلى انتصار جنود صلاح الدين ، لأنها جنود رعب ، وذكر ما أصاب الأعداء بهذا الجيش من هلاك :

جنودك بالرعب نصورة ففنا جزمتي شئت أو ما بر
فكلهم غارق هالك بتيار عسكرك الزاخر (٣)

وشمة صفة لا بد من وجودها في الجيش لتحقيق النصر على الأعداء ، وهي صفة الايمان بالله ، تلك الصفة التي يترتب عليها الجهاد في سبيله لأعلاء كرامته ، وجنود صلاح الدين ممن يتصفون بهذه الصفة ، منهم جنود الله الشجعان الذين اختارهم صلاح الدين لنصرة دينهم ، يقول ابن الجبار :

جاءت جنود الله تطلب ثارها ومدورها بل عن قليل تشتفي
قوم يخوضون الحمام شجاعة لا ينظرون إليه من طرف خفي
رأى صبحوا الأعداء في أوطانهم تركوا ديارهم كقاع صفدي

(١) ديوان العماد / ١٩٢ ، الخريدة - بداية قسم شعراء الشام / ٢٨ .

(٢) ديوان المبشرات والقدسيات / ١٤١ ، كتاب الروضتين : ٢ / ١١٨ .

(٣) كتاب الروضتين : ٢ / ١٠٦ ، مجلة آداب الرافدين عدد : ١ / ٥٠٣ .

أَنْتَ اصْطَفَيْتَهُمْ لِنُصْرَةِ دِينِنَا إِلَهُ دَرِّ الْمُصْطَفَى وَالْمُصْطَفِي (١)

ويقول الحماد :

جَنُودُكَ أَمْلَأكُ السَّمَاءِ وَطَنَهُمْ عِدَاتُكَ جَنُّ الْأَرْضِ فِي الْفَتَاكِ لَا الْإِنْسَا (٢)

ويقول ابن سناء الملك :

مَلِكٌ جَنْدُهُ مَلَائِكَةُ اللَّهِ هُ فُرَادَى جَاءَتْ إِلَيْهِ وَمُتَشَقَّى (٣)

ويجمع القاضي الفاضل بين مهارة جيش صلاح الدين في الحرب وحسن عبادته .

يقول :

إِذَا كَبُرَ الرَّحْمَنُ سَاعَةَ قِتَالِهِمْ تَشَابَهَ يَوْمُ الْقِتْلِ مِنْهُ بِنُسْكِيسِهِ (٤)

مذلل صلاح الدين في بناء الاسطول جهدا كبيرا (٥) ، وذلك لإدراكه أن الحروب ضد الصليبيين تتطلب قوات بحرية ، تساند جيوشه المجاهدة ، وهذا الشاعر ابن رواحة الحموي يشيد بالاسطول الملاحى الذي جلب الأسرى سنة ٥٧٢ هـ ، كما يشير إلى مساعدته للجيش في البحر ، يقول :

لَقَدْ خَبَرَ التَّجَارِبَ مِنْهُ حَزْمٌ وَقَلْبَ وَهْرُهُ ظَهْرًا لِهَاطِنٍ
فَسَاقَى إِلَى الْفَرَنْجِ الْخَيْلَ بَرًّا وَأَذْرَكَهُمْ عَلَى بَحْرِ سُفْنٍ
لَقَدْ جَلَبَ الْجَوَارِي بِالْجَوَارِي يَمْدُنَ بِكُلِّ قَدٍّ مُرْجَحِسِنٍ (٦)

وتصور عبد المنعم الجليلاني أساطيل صلاح الدين تغزو صقلية ، يقول :

تَغْزُو أَسَاطِيلُنَا مِنْهَا صَقْلِيَّةٌ فَتَغْزُو الرُّومَ وَالصَّقْلَابُ وَالْخَزَرَ (٧)

بهذا الجيش المؤمن التقى المدرب استطاع صلاح الدين أن يحقق انتصاراته على أعدائه الصليبيين ، واستطاع تحرير بيت المقدس .

* * *

- (١) كتاب الروضتين : ١٠٤ / ٢ .
- (٢) ديوان الحماد الأصهباني / ٢٣١ ، كتاب الروضتين : ١٠١ / ٢ ، معجم الأدباء : ٢٤ / ١٩ .
- (٣) ديوان ابن سناء الملك / ٣٤١ . (٤) ديوان القاضي الفاضل : ٢٦١ / ١ .
- (٥) وانظر أصداء الحروب الصليبية في أدب القاضي الفاضل / ١٧٥ ، ١٧٦ .
- (٥) انظر البرق الشامي : ١٢١ / ٣ ، قوانين الدواوين / ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٢٢ ، كتاب الروضتين ج ١ / ٢ / ٢٨٩ ، ٦٩٠ ، ١٧١ / ٢ ، البداية والنهاية : ٣١٦ / ١٢ ، الشرق الأدنى في العصور الوسطى / ١٦٦ - ١٨٨ ، صلاح الدين والصليبيون / ١٤٧ - ١٥٣ ، سياسة صلاح الدين / ٤٦١ - ٤٦٦ .
- (٦) الخريدة - قسم شعراء الشام : ٤٦٥ / ١ ، معجم الأدباء : ٤٦ / ١٠ ، ٤٧ .
- (٧) ديوان المبعشرات والقديسات / ١٣٩ ، كتاب الروضتين : ١١٢ / ٢ .

أما رايات القائسـد وجيشه فقد كانت صفراء (١) اللون، وقد شبهها ابن ممان بلون الاصيل، وجمع بين هذا اللون وأصالة رأي القائد على سبيل المجانسة، يقول:

رَايَاتُهُ تَحْكِي الْأَصِيلَ فَرَأَيْتُهُ الرَّأْيَ الْأَصِيلَ (٢)

وصور فتیان الشاغوري رايات صلاح الدين حين ترد ساحات الوغى، فتبدو عنده عطشى، ولا تصدر إلا وقد رويت من دماء أعدائه، كما يبدو في قوله:

وَأَبْرَأُكَ الرَّايَاتِ صُفْرًا صَوَادِيهَا وَإِصْدَارُهَا رَيًّا تَجُّ دَمًا حُمْرًا (٣)

وفي قصيدة ثانية يصف الشاعر صدورها عن المعركة وقد تغير لونها الأصفر فاستحالت لما أصابها من دماء الصليبيين، حمراء، وذلك كله بفعل صلاح الدين وفرسانه، يقول:

رَايَاتُهُ صُفْرًا تَرْدُنَ وَتَنْتَشِي حُمْرًا تَجُّ نَجِيعَ آلِ الْأَصْفَرِ (٤)

ووصف سعادة الأعمى هذه الرايات، فهي خفاقة دوما بالنصر، ولا تحمل إلا على أسنة الرماح، ولا تطوى حتى يحقق صلاح الدين كل ما يطمح إليه، كما يبدو في قوله:

وَرَايَةٌ مَا كَفَتْ يَوْمًا ذَوَائِبُهَا وَالْأَعْلَى قَدْ عَسَالَ مِنَ الذُّبُلِ
صَفْرًا، خَفَاقَةً بِالنَّصْرِ، حَائِيزَةً بِالْحَوْلِ مَا لَمْ يَحْزُهُ الْفَيْرُ بِالْحَيْلِ
مَنْشُورَةٌ لَيْسَ يُطْوَى عِزُّ نَاشِرُهَا حَتَّى يَنَالَ مَكَانًا قَطُّ لَمْ يُنْصَلِ (٥)

(١) انظر كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٦٩٧.

(٢) خريدة القصر — قسم شعراء مصر : ١ / ١٠٨.

(٣) ديوان فتیان الشاغوري / ١٥١.

(٤) ديوان فتیان الشاغوري / ١٤١، كتاب الروضتين : ٢ / ١١٩.

(٥) الخريدة — قسم شعراء الشام : ١ / ٤٢٢.

وهذا علم الدين الشاذلي (١) يرى ما يراه سعادة من اقتران النصر براهيات صلاح الدين ، وهو بالتالي حريّ بأن يملك الدنيا ، يقول :

أَرَى النَّصْرَ مَقْرُونًا بِرَاهِيَتِكَ الصَّفْـرَا فَمِـرْ وَأَمْلِكِ الدُّنْيَا فَأَنْتَ بِهَا أَحْرَى (٢)

ويقول ابن خزيمة (٣) إنه ما من مكان تخفق فيه رايات صلاح الدين حتى تسرى الأرض خاشعة لها :

إِذَا خَفَعَتْ بُنُودُكَ فِي مَقَامٍ رَأَيْتِ الْأَرْضَ خَاشِعَةً تُسَيِّدُ (٤)

وعرض الشعراء صوراً للسيوف التي كان يستخدمها البطل وجنده في المعارك ، والتي هي مظهر من مظاهر قوته واستعداده ، فهو إذا ما جرد سيفه من غمده فانه يفرق بين الرؤوس والاعناق ، وهذا دليل على شجاعة صلاح الدين وقدرته ومهارته العسكرية ، يقول ابن الدهان الموصلي :

إِذَا سَيْفُهُ فِي الرَّوْعِ فَارَقَ غَمْسُودَهُ يَفْرُقُ مَا بَيْنَ الْجَمَاحِ وَالطُّلَى (٥)

- (١) هو : علم الدين أبو علي الحسن بن سعيد بن عبد الله بن بندار بن إبراهيم الشاذلي ، كان فقيهاً ، غلب عليه الشعر فأجاد فيه واشتهر به ، ترك بلسنده ونزل الموصل ، واستوطنها ، وكان يتردد منها إلى بغداد ، سافر إلى دمشق غير مرة ، وكان قد سافر إلى مصر أيام الملك الناصر سنة ٥٧٢ هـ ، كانت ولايته سنة ٥١٠ هـ ، ووفاته سنة ٥٩٩ هـ بالموصل . وشاذان بلد من نواحي ديار بكر في تركيا اليوم ، انظر الخريدة — قسم شعراء الشام : ٢/٢٦١ — ٢٨٣ ، البرق الشامي : ٣/٢٩ ، كتاب الروضتين : ١٠٦١/٢ ، وفيات الأعيان : ١١٣/٢ .
- (٢) الخريدة — قسم شعراء الشام : ٢/٢٦٤ ، البرق الشامي : ٣/٢٩ ، كتاب الروضتين : ١٠٦١/٢ ، وفيات الأعيان : ٢/٢١١ ، سير أعلام النبلاء : ٢١/٢٩٠ ، النجوم الزاهرة : ٥٨/٦ .
- (٣) هو : القائد أبو المجد محمد بن سعيد البقري ، المرموق بابن خزيمة ، يقول المعاد الاصفهاني : " له رئاسة وكياسة ، يتولى الدواوين ، ويتصرف للملاطمين ، وله رأى مصيب وخاطر في النظم مجيب " . ويذكر المعاد أنه لقيه بالشام سنة ٥٧١ هـ ، وذلك عندما كان المعاد متوجهاً إلى الملك الناصر ، الذي كان مشغولاً في توحيد بلاد الشام .

انظر : الخريدة — قسم شعراء الشام : ٢/٧٥ ، الوافي بالوفيات : ٢/١١٣ .

(٤) الخريدة — قسم شعراء الشام : ٢/٧٥ ، الوافي بالوفيات : ٣/٧٣ .

(٥) ديوان ابن الدهان : ٣٩ .

ووصف سعادة سيف صلاح الدين بأنه حاد ، خفيف الحمل ، يسبق الأجل فسي
اختطاف الأرواح ، وأنه لم يُقَدَّ إلا من انتصاراته المقرونة بالسرور ، ويشبه الشاعر ما احمر
من نصله ما علق به من دماء المدو بزهرة الآس الحمراء وسط حديقة خضراء ، ويشبهه
هذا السيف ، وقد انتخذه يمين صلاح الدين ، بالبرق الذي يتلوه المطر الفزيز ، يقول :

وَصَارَ مَرْهَفٌ خَفَّتْ مَضَارِيهٗ	فَلَيْسَ يَسْبِقُ إِلَّا سُرْعَةَ الْأَجَلِ
سَيْفٌ لِيُوسِفَ مَا قَدَّتْ حَدِيدَتُهُ	إِلَّا مِنَ الذُّفْرِ الْقُرُونِ بِالْجَذَلِ
مُحْمَرَّةٌ بِالدَّمِ الْمَسْفُوحِ خَضِرَتُهُ	فَأَسْهًا نَابَتْ فِي وَرْدِهِ الْخَضِلِ
كَأَنَّهُ وَهَوٌ فِي يَمْنَاهُ مُنْصَلِتٌ	بَرَقَ جَلَا عَارِضًا فِي عَارِضِ هَطِلِ (١)

وهذا ابن حُرَيْبٍ يشبه سيوف صلاح الدين بالبرق أيضا ، وهي صورة تقليدية ،
فإذا ما استلقت في الحرب فانها تحصد رؤوس أعدائها حصدا ، يقول :

وَأَنْ بَرَقَتْ سَيْوُفُكَ فِي عَدُوٍّ فَمَا مِنْ قَائِمٍ إِلَّا حَصِينِدُ (٢)

وأما ابن الساعاتي فيشبه صوت سيوف صلاح الدين ، حين تضرب جماجم الأعداء ،
بصوت الغناء الذي يوتر في الطيور ، يقول :

لِيَهْزِكَ فِي جَمَاجِمِهِمْ غَنَاءٌ لَذِيذٌ عِلْمُ الطَّيْرِ الْحَنِينِ (٣)

وسيف صلاح الدين يحافظ على الدين ، وبه ينجز صلاح الدين وعد النصر ، يقول
ابن سناء الملك :

لَهُ صَارِمٌ يَشْفِي بِهِ الدِّينُ صَدْرَهُ وَيَنْجِزُ وَفْدَ النَّصْرِ فِيهِ بِلَا مَطْلٍ (٤)

ويعصور ابن سناء الملك في القصيدة نفسها سيوف صلاح الدين ، وهي تحز رقاب
الأعداء ، بالطباء التي ترعى ورق البقل ، فهي حادة قوية ، حتى انها تغل الحديد ،

(١) الخريدة - قسم شعراء الشام : ١ / ٣٢٢ .

(٢) نفسه : ٢ / ٧٦ .

(٣) ديوان ابن الساعاتي : ٢ / ٤٠٧ ، كتاب الروضتين : ٢ / ٨٥ .

(٤) ديوان ابن سناء الملك : ٢٢٣ / ٢ ، مغزى الكروب : ٢ / ١١٦ .

كما يبدو في قوله :

كُطِبَاهُ كَيْمَلِ الْبَقْلِ لَوْنًا وَإِنِّهَـا لترعى العِدَى رُغْيَ الظَّهْلِ وَرَقَّ الْبَقْلِ
حِدَانَةٌ عِدَاةٌ لِلْحَدِيدِ تَقْدُهُ من الْبُعْدِ حَتَّى كُلْ غَمْدٍ بِلَا نَهْـلٍ (١)

* * *

أما خيوله فقد رسم لنا سعادة صورة بديعة لها ، ففي إحدى قصائده يشبها حين تنقض على الأعداء ، بالبرق الخاطف ، هل قد تكون أسرع منه ، وهي خيل ضامرة خفيفة كالإرسان ، ويشبها بعقبان الجوّ ، وذئاب الغلاة ، يقول :

وَإِذَا صَوَاهِلُهُ مَزْعَنَ حَسِبْتَهَا مَا دَقَّ يَوْمَ الرَّوْعِ مِنْ أَرْسَانِهَا
مِنْ كُلِّ سَلْهَبَةٍ أَلَحَّ بِهَا الطَّسْوَى حَتَّى طَوَّاهَا الضُّرُّ طَيَّ عَنَانِهَا
جَرْدَاءُ تَطَّرَحَ الْبُرُوقُ إِذَا دَنَتْ وَتَغَوَّقُ مَا قَدْ فَاتَ مِنْ لَمَعَاتِهَا
خَيْلٌ هِيَ الْعَقَبَانُ فِي طَيْرَانِهَا لَا بَلَّ هِيَ السَّيْدَانُ فِي عَسَلَانِهَا (٢)

وخييل صلاح الدين عند فتیان الشاغوري ضوامر تخوض المعارك كأنما هي زاهية إلى المراعي ، فلا يرهبها طعن ، ولا يجعلها ضرب ، لأن الحرب عندها ، إنما هي نزهة إلى تلك الرياض ، فهي دائما منتصرة ، يقول :

فَخَيْلُكَ تَغْشَى الرَّوْعَ شُعْنًا ضَوَامِرًا شَوَازِبَ قَدْ عَوَّدَتْهَا الْفَتْحَ وَالنَّصْرَا
تَرَى الْحَرْبَ رَوْضًا وَالذُّرُوعَ بِهَا أَضَى وَسُمِرَ الْقَنَا دَوْحًا وَخِرْصَانُهَا زَهْرَا (٣)

ويشبه العماد خيل صلاح الدين بالصقور في سرعتها ونشاطها ، وهي تحمل صقورا من الجنود على ظهورها ، كما يبدو في قوله :

- (١) ديوان ابن منبأ الطليح / ٢٢٣ . (٢) الخريدة — قسم شعراء الشام : ١٠٠ / ٤١٠ .
(٣) والكُرْع : شدة السير ، والسَّلهَب : الطويل من الخيل ، والعسلان : أن يضطرم الفرس في غدوه فيخفق برأسه ، ويطرده منته ، عسل الذئب : قضى مسرعا ، أنظر : لسان العرب (مزع) ، (سلهب) ، (عسل) .
(٢) ديوان فتیان الشاغوري / ١٥١ . والشوازب : جمع شازب وهي : الخيول المضمرات ، وأضى : الأضاة : الغدير يشبه به الدرع ، والجمع أضوات وأضى . أنظر لسان العرب : (شزب) ، (أضأ) .

بَجَرْدٍ عَلَيْهَا رِجَالُ الْهَيْجَاجِ كَأَنَّ صُقُورًا قَلَمُهَا صُقُورُ (١)

ويصف ابن سناء الملك خيول أبطال المسلمين في الحرب المجندين في جيش صلاح الدين فيرى أنها تطفو على القلاع، وتنفوس في الدماء وقت الحرب، وذلك لكثرة القتلى من الأعداء، يقول :

خَيْوَلُهُمْ أَمَا عَلَى كُلِّ قَلْعَةٍ فَتَطْفُو، وَأَمَا فِي الدِّمَاءِ فَتُفْمَسُ (٢)

* * *

ويرسم سمادة الأعمى صورة بديعة لرمح صلاح الدين، إذ إنه جعلها برتيسة الاقلام، تخط بفعل صلاح الدين رقاب الأعداء، وهي كالأنابيب ولكنها أنابيب دم فسي الحرب، ويشبه سمادة هذه الرماح بالافاعي إذا ما بُثَّتْ في جيش الأعداء فليس لها إلا أن تأخذ أرواحهم، يقول :

وَلَيْسَ لَهُ، مَا عَاشَ إِلَّا مِنَ الْقَنَاسِ	قَنَا الْخَطِّ، أَقْلَامٌ إِذَا ذُكِرَ الْخَطُّ
يَخْطُبُهَا مَا شَاءَ مِنْ صُحُفِ الطُّلَى	فَطُورًا لَهَا شَكْلٌ وَطُورًا لَهَا أَنْقَطُ
أَنْبَابٌ تَجْرِي كَالْأَنْبَابِ سِنَّ دَمٍ	إِذَا بُرِيَّتْ فِي الرَّقْعِ أَتْبَعَهُ الْقَطُّ
أَفَاعِي رِمَاحٍ أَضْرَبَتْ فِي عُدَاتِهِ	فَلَيْسَ لَهَا مِنْ غَيْرِ أَرْوَاحِهِمْ نَشْطُ (٢)

لقد عرض الشعراء صوراً لبعض الأسلحة التي استخدمها القائد العسكري صلاح الدين وجنده في المعارك، وهذه الأسلحة، دون شك، ذات علاقة وطيدة بالقائد، إذ هي القوة التي يعتمد عليها في حربه ضد أعدائه، فهي تظهر من مظاهر عسكريته، ولا شك أن صلاح الدين كان يتقن استخدامها، كما يبدو من خلال ما تقدم من شعـر في وصف الأسلحة، وكما هو واضح من خلال سيرته وجهـاده .

(١) ديوان الحماد / ١٩٢، الخريدة - بداية قسم شعراء الشام / ٢٨ .

(٢) ديوان ابن سناء الملـك / ١٢٥ .

(٣) الخريدة - قسم شعراء الشام / ١٨، والنشط: العض والنزع . انظر لسان العرب (نشط) .

وقد بات من نافلة القول أن الشعراء الذين وصفوا هذه الأسلحة قد بثوا مسـنـ
خلال وصفهم لها انفعالاتهم وأحاسيسهم ، ووهج مشاعرهم ، ومزجوها بخواطرهم
وتطلّعاتهم إلى مستقبل مشرق ، هذا بالإضافة إلى أنّ هذا الوصف يشكل عاملاً إشارة
في نفس البطل وفي نفوس جنوده من أجل الاستمرار في القتال ، فجاء تصويرهم مجرداً
من الآلية ، كما هو الحال في آلات التصوير .

* * * *

* فاتح بيت المقدس *

=====

جاهد صلاح الدين من أجل مرضاة الله تعالى ، فكان جهاده ضد الأعداء لإخراجهم من ديار الإسلام ، وحماية الدين الإسلامي ، وقد وضع في جهاده لله هدفاً أسى ، وذلك الهدف هو استرداد بيت المقدس من أيدي الفزاة ، وبأقي الديار المحتلة ، وذلك ليسا للمقدس من قيمة روحية عند المسلمين ، فالمسجد الأقصى أولى القبلتين وثاني المسجدين وثالث الحرمين الشريفين ، فلا تشد الرحال بعد المسجدين الشريفين إلا إليه ، وهو سرى الرسول الأعظم ؛ ولذا سمى صلاح الدين البطل المؤمن بمقيدة الإسلام لاسترداد المقدسات وطرد الصليبيين منها ، كما سعى قبله نور الدين الذي لم يكن أقل شأنًا من صلاح الدين في هذا المجال ، فقد عمل نور الدين منبراً ، ووضع به جامع حلب على اسم القدس ، ولكنه توفي قبل أن يحقق أمله في فتح بيت المقدس ، فقام صلاح الدين بإتمام ما قام به نور الدين ، فنقل المنبر إلى نوضعه القدسي (١) ، وهنا تجدر الإشارة إلى أن هذا المنبر هو المنبر الذي أحرقه الصهاينة اللثام سنة ١٩٦٩م .

لقد أضاف صلاح الدين جهداً طيباً إلى جهد نور الدين ، فمض ملك مصر رأى أنه سيفتح بيت المقدس وبأقي البلاد ، فقد قال يومئذ : " لما يسر الله لي الديار المصرية علمت أنه أراد فتح الساحل ، لأنه أوقع ذلك في نفسي " . (٢)

وعندما عزم صلاح الدين على فتح بيت المقدس سنة ٥٨٣ هـ ، قال له المنجمون إنه سيفتح القدس ، ولكن ستذهب عين من عينيه ، فما كان جوابه إلا أن قال : " قد رضيت بأن أعى وأخذ البلد " . (٣) ، وما ذلك إلا لإيمانه بمقيدة الإسلام .

انطلق صلاح الدين بهذا الإيمان لتحقيق هدفه الأكبر : تحرير القدس والساحل وقد ساهم الشعراء في تحقيق ذلك من خلال تحريضهم له من مطلق إيمانهم بالإسلام

(١) كتاب الروضتين : ١١٢/٢ ، الكواكب الدرية / ٥٧ .

(٢) النوادر السلطانية / ٤١ ، كتاب الروضتين : ١٠١/٢ .

(٣) كتاب الروضتين : ٩٢/٢ .

كلما انتهى من عمل عسكري، أو من عمل من شأنه جمع شتات الأمة الإسلامية والقضاء على الأعداء .

جاءت دعوة الشعراء لصالح الدين من أجل تحرير الساحل وتطهير بيت المقدس من رجس الاحتلال المبكرة، منذ أن كان وزير مصر بعد وفاة عمه أسد الدين شيركوه سنة ٥٦٤هـ، فهذا العماد في قصيدة له يهنئ به بالملك ويحثه على قتال الفرنج، وتطهير القدس، وقد صورها فتاة بكرًا لم تمسها يد أحد، وبهذا العمل يشرك صلاح الدين ذكرًا طيبًا خالدا، ومطلع القصيدة :

أَيُّ يَوْسُفَ الْإِحْسَانِ وَالْحُسْنِ خَيْرٌ مَنْ حَوَى الْفَضْلَ وَالْإِفْضَالَ وَالنَّهْيَ وَالْأَمْرَ

ويقول :

فَصَبُّوا عَلَى الْإِفْرَنْجِ سَوَاطِعَ عَذَابِهِمْ
وَلَا تُهْلِلُوا الْبَيْتَ الْمُقَدَّسَ وَاعْزِمُوا
تَدْرِيكُونَ بِالْمَعْرُوفِ طَيْبَ ذِكْرِكُمْ
بِأَنْ تُقْسِمُوا مَا بَيْنَهَا الْقَتْلَ وَالْأَمْرَ
عَلَى فَتْحِهِ غَازِينَ وَافْتَرَعُوا الْبِكْرَ
وَمَا الْمُلْكُ إِلَّا أَنْ تُدْرِمُوا لَكُمْ ذِكْرًا (١)

وفي السنة نفسها كتب العماد من غيره إلى صلاح الدين قصيدة، أشاد فيها بكرمه، وحثه على تحرير الساحل، وتطهير بيت المقدس من دنس المحتلين الكفرة الأراذل، يقول :

يَا مَخْجِلَ الْبَحْرِ بِالْأَيْدِي
فَقَدْ سِ الْقُدْسَ مِنْ خِيَاثِ
قَدْ آتَى أَنْ تَفْتَحَ السَّوَاهِلَ
أَرْجَا مِنْ كَفْرِ قُتْمٍ أَرَاذِلِ (٢)

وفي السنة نفسها مدحه عبارة البيهقي، وأشار إلى تملكه مصر، متنبئًا بفتح القدس على يديه، فقال :

قُلْ لَا بِنِ أَيْتُوبَ وَكَمْ نَاصِحٍ
أَنْفَعُ مِمَّنْ هُوَ شَاكِي السَّلَاحِ

(١) ديوان العماد / ١٥٩، ١٦١، كتاب الروضتين : ج١ ق ٢ / ٤٥٤ .

(٢) ديوان العماد / ٣٢٦، كتاب الروضتين : ج١ ق ٢ / ٤٥٣ ، مفرج الكمر : ١٧٧ / ١ .

حارب على مثل نجوم السما
فأمر ما عليه اضطراح
قولا لمن في عزه فتسرة
أرجع إلى الجد وخل الزاح
فالقدس قد آذن اغلاقه
على يدي يوسف بالانفتاح (١).

وفي سنة ٥٧٠ هـ، نظم العماد قصيدة في الشوق إلى دمشق، وجعل صلاح الدين مخلصها، فحثه على فتح بيت المقدس الذي سيكون فتح الفتوح، وهشون عليه هذا الفتح، ودعا إلى الاعتماد على الله، كما يبدو في قوله:

نهوضاً إلى القدس تشفي الفيلد
ل' بفتح الفتوح وماذا عسير
سل الله تسهيل صعب الخطو
ب' فهو على كل شيء قدير (٢)

ولما فتح صلاح الدين "بعلبك" سنة ٥٧٠ هـ، كما تقدم، هناه العماد بهذا الفتح وحثه على الفتح الكبير: فتح بيت المقدس الذي هو تمام الفتوح وأعظمها، فقال:

فكلك فتحك وأقصد الفتح الذي
بحصوله لفتوحك الإتمام
ثم للعلى حتى يدوم نظامها
واسلم يعز بنصرك الإسلام (٣)

وأشدد سعادة الأعيان صلاح الدين قصيدة سنة ٥٧١ هـ، منها في التحريض على فتح السواحل قوله:

فانهض إلى فتح السواحل نهضة
قادت لك الأعداء بعد حرائبها
واسلم صلاح الدين وأبق لدولة
ذلت لدولتها ملوك زمانها (٤)

- (١) كتاب الروضتين: ج ١ ق ٢ / ٤١٤، وهناك أبيات أخرى من القصيدة في النكت / ١٩٢،
ديوان العماد / ١١١، الخريدة - قسم شعراء مصر - : ١ / ٢٠، كتاب الروضتين:
ج ١ ق ٢ / ٦٥٢، مفرج الكروب: ٢ / ٤١٠.
(٢) ديوان العماد / ٣٧٨، كتاب الروضتين: ج ١ ق ٢ / ٦٣١، مفرج الكروب: ٢ / ٢٠.
(٣) الخريدة - قسم شعراء الشام: ١ / ٤١١، كتاب الروضتين:
ج ١ ق ٢ / ٦٤٦.

وبعد أن ضم السلطان صلاح الدين " تل السلطان " إلى وحدة البلاد ،
هناك المصاد بفعله هذا ، ورأى أن الساحل الأقصى سيفتح ، وأن دماء الفرنج ستملأ
ساحاته ، كما يبدو في قوله :

وَكأنني بالسَّاحِلِ الْأَقْصَى وَقَدْ ساحتْ بِبَنَحْرٍ دَمُ الْفَرَنْجِ سَاحَهُ (١)

ومع استمرار صلاح الدين في اعداد السدة لتحرير بيت المقدس كانت السنة
الشعراء تلج بالدعوة إلى ذلك التحرير ، وقد قاد هذه الدعوة من الشعراء الممار
الاصفهاني ، ولعل ذلك راجع إلى قرينه من صلاح الدين ، فهو كاتبه ، ورئيس ديوانه ،
وشاعره المقرب إليه ، والمجدد لبطولاته ، فلا غرو أن يكون في طليعة الشعراء المحرضين
على فتح القدس .

ففي سنة ٥٧٢ هـ ، أنشأ قصيدة مدح فيها صلاح الدين ، وحثه على فتح القدس ،
وسفك دماء الاعداء حتى يظهر من وجودهم ، فهم كفار أنجاس ، يقول :

فَسِرُّوا فَتَحِ الْقُدْسَ وَاسْفِرْ بِهِ دَمَاءٌ مَتَى تُجْرَهَا يَنْظُرُ
وَحَلَّصْ مِنَ الْكُفْرِ تِلْكَ الْبِلَادَ يُخْلِصُكَ اللَّهُ فِي الْوَقْفِ (٢)

وشارك ابن الساعاتي في الدعوة إلى تحرير القدس ، ففي قصيدة أنشأها سنة
٥٧٥ هـ ، يهني بها السلطان بفتح بيت الحزان وتخريبه ، ينصح الاعداء بأن يرحلوا
من ذلك المكان ، لأنه وطن الانبياء ، ويذكر أن صلاح الدين آت لتحرير البلاد
يقول :

أَيْسَكُنْ أَوْطَانَ النَّبِيِّينَ عُصْبَةً تَجِنُّ لَدَى أَيْمَانِهَا وَهِيَ تَحْلِفُ
نَصَحْتُكُمْ وَالنُّصْحُ فِي الدِّينِ وَاجِبٌ ذُرُوا بَيْتَ يَعْقُوبَ فَقَدْ جَاءَ يُوسُفُ (٣)

(١) ديوان العماد / ١١١ ، الخريدة - قسم شعراء مصر : ٢٠ / ١ ، كتاب الروضتين :
ج ١ ق ٢ / ٦٥٣ ، مفرج الكروب : ٤١ / ٢ .

(٢) ديوان العماد / ٣٠٤ .

(٣) ديوان ابن الساعاتي : ٤٠٩ / ٢ ، سنا البرق : ١٢١ / ١ ، كتاب الروضتين : ١٢ / ٢ ،
مفرج الكروب : ٨٤ / ٢ ، البداية والنهاية : ٣٢٤ / ١٢ .

وفي سنة ٥٢٩ هـ، حدث ابن الساعاتي السلطان على فتح حلب، وتنبأ بفتح بيت المقدس، ما يشير اهتمام القائد ويحثه على الفتح، كما تقدم.

وفي السنة نفسها، منى ابن الزكي بفتح حلب أيضاً، وتنبأ له بفتح بيت المقدس في شهر رجب كما تقدم، فكان الفتح فعلاً في هذا الشهر وفي مثل ليلة الاسراء والسمرج المباركة، ما يدل على قبول الطاعة ورضى الله عز وجل عن القائد الفاتح ومباركته لسه بهذا الفتح (١).

واستمرت الدعوة لفتح بيت المقدس، والجهاد من أجل تحرير ما تبقى من ديار الإسلام المحتلة، إلى أن تم فتح القدس سنة ٥٨٣ هـ.

أنشأ العماد قصيدة سنة ٥٨٢ هـ، مدح فيها المظفر تقي الدين عمرا بن أخشي السلطان وكان قائداً من قواده، مشيداً بجهاده ضد الفرنج، وسبباً فيها أن الأيوبيين هم وحدهم الذين سيحررون بيت المقدس، يقول:

وَبَيَّضَتْ وَجْهَ الدِّينِ يَوْمَ لَقِيَتْهُمْ
وَأَبْيَضَكُمْ مِنْ أَسْوَدِ الْقَصْرِ أَشْوَسُ

ويقول مخاطباً البيت الأيوبي:

وَلَا يَفْتَحُ الْبَيْتَ الْقُدْسَ غَيْرُكُمْ
وَبَيْتُكُمْ مِنْ دَلَّ عَابِ مُقْسِدٍ (٢)

ويحدث عبد المنعم الجلياني صلاح الدين على حماية الإسلام، واستئصال الكفر، ويرغبه بالفتح الأكبر، وذلك حين يربطه بفتح مكة، كما يحدثه على تطهير المسجد الأقصى بهيمته وعزسه، والقضاء على الفرنج هناك، مستغلاً أي فرصة تتاح له، يقول:

فِيَا مُلِكًا لَمْ يَبْقَ لِلدِّينِ غَيْرُهُ
وَكَهْتَ عُمْدَ الْإِسْلَامِ فَاشْدُدْ لَهَا دَعْمًا
إِذَا صَفَرْتَ مِنْ آلِ الْأَصْفَرِ سَاحِلًا
مَقْدَسَ ضَاهَتْ فَتَحَ أُمُّ الْقُرَى قَدْ مَآ

(١) انظر كتاب الروضتين: ٩٦/٢.

(٢) ديوان العماد: ٢٣٨، كتاب الروضتين: ٧٢/٢.

فَذَا الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى وَهَيْتُكَ الْعُلَى
وَأَنْتَ لَمْ تُزِدِ الْفَرَجَ بَوَقْعَةً
وَمَا كُلُّ حِينٍ يُتَمَكِّنُ الْمَرْءَ فَرَسَةً
وَعَزَمْتُكَ الْقُصُوى وَرَهْمَتُكَ الصَّامَا
فَمَنْ ذَا الَّذِي يَقْوَى لِبْنَانِهَا هَذَا ؟
وَلَا كُلُّ حَالٍ أَمَكَّتْ تَقْتَضِي خُصَمَا (١)

ولما فتح السلطان صلاح الدين طبرية سنة ٥٨٣ هـ، أنشأ ابن الساعاتي فسي مدحه قصيدة بيتين فيها أن صلاح الدين قد قضى فريضة من فرائض الإسلام، كما ذكره، وأنه بهذا الفتح قد أدخل السرور والابتهاج لقلب القدس، وربط ذلك كله بهمة المكرمة حيث يجعلها راضية عنه، ودعاه إلى الاستمرار بالجهاد، وتحرير السواحل التي تاقست راليه، ويقول:

قَضَيْتَ فَرِيضَةَ الْإِسْلَامِ مِنْهَا
تَهَزُّ مَحَاطِفُ الْقُدْسِ ابْتِهَاجًا
فَلَوْ أَنَّ الْجِهَادَ يَطِيقُ نَطْقًا
فَالْتِمَ بِالسَّوَاخِلِ فَهَيَّ صَوْرَ
وَصَدَقْتَ الْأَمَانِي وَالظُّنُونَا
وَتَرْضَى عَذْكَ مَكَّةَ وَالْحَجُونَا
لَنَادَتْكَ أَدْخُلُوهَا آمِينَا
رَالِيكَ وَالْحَقِّ الْهَامِ التُّونَا
سُطَاكَ لَكَانَ مُكْتَبًا حَزِينَا (٢)

ويشارك الملك المظفر تقي الدين، وكان شاعرا، الشعراء في دعوة عمه صلاح الدين لفتح القدس، ولكنه يصور هذه المدينة فتاة عروسا حسنا بكرًا تمنعت عن الخاطبين؛ لأنهم ليسوا أكفاء لها، وليس لها من كفا إلا صلاح الدين، يقول:

جَاءَتْكَ أَرْضُ الْقُدْسِ تَخْطُبُ نَاكِحًا
زَفَّتْ إِلَيْكَ عَرُوسٌ خَذِرٌ تُجْتَلِسِي
رَأَيْتُ صَلاَحَ الدِّينِ خُذُّهَا غَادَةً
كَمْ خَاطِبٍ لِحَمَالِهَا قَسَدٌ رَدَّهُ
يَا كَفَّاهَا مَا الْمُدْرُ عَنْ عُدْرَائِهَا ؟
مَا بَيْنَ أَعْبُدِهَا وَبَيْنَ إِمَائِهَا
بِكْرًا مَلُوكُ الْأَرْضِ مِنْ رُقْبَائِهَا
عَنْ نَيْلِهَا أَنْ لَيْسَ مِنْ أَكْثَائِهَا (٣)

(١) ديوان البشراوات والقدسيات / ١٢٣، كتاب الروضتين : ١١٦ / ٢

(٢) ديوان ابن الساعاتي : ٤٠٧ / ٢، ٤٠٨ .

(٣) الخريدة - بداية قسم شعراء الشام / ٨٦ .

وقد نهج تقي الدين في قصيدته هذه نهج أبي تمام في فتح عوربة، حين
صور البادية بفتاة، كما هو الحال هنا .

وما يذكر في هذا المجال أن شأبا من الذين كانوا بأسورين في بيت المقدس،
كتب إلى صلاح الدين بعض الابيات على لسان الأقيس، يدعوه فيها إلى تحريرها، وكان
ذلك سنة ٥٨٢ هـ، فقال :

يا أيها الملك الذي	للملأ الصلأان نكس
جاءت إليك ظلامسة	تمس من البيت المقدس
كل المساجد طمرت	وأنا على شرفي منجس (١)

وبحث العماد الاصفهاني صلاح الدين على متابعة الجهاد بعد فتح القدس،
حتى يتم تحرير " صور " و " انطاكية "، وغيرها من البلاد، يقول :

قل للمليك صلاح الدين أكرم من	يمشي على الأرض أو من يركب الفرسا
من بعد فتحك بيت القدس ليس سوى	صور، فإن فتحت فاقصد طرابلسا
أثر على يوم انطرسوس ذا الجبر	وابعث إلى ليل انطاكية العسسا
وأخل ساحل هذا الشام أجمعه	من المداف ومن في دينه وكسا
ولا تدع منهم نفسا ولا نفسا	فانهم يأخذون النفس والنفسا (٢)

وفي قصيدة أخرى يتطلع العماد إلى اليوم الذي يتمكن فيه صلاح الدين من
القضاء على الصليبيين نهائيا، ثم ينطلق إلى الغرب والشرق، فيقضي على كل من
يكفر بالله، ويحكم العالم كله :

وصار بصور عصبة يرقبونكم	فلا تبطئوا عنها وحسوها حسا
توكل على الله الذي لك أصبحت	كلاؤه دُرعا، وعصيته ترسا

(١) الانس الجليل : ٣١٨/١ - ٣١٩، أخبار الدول وآثار الاول / ٤٣٠ .

(٢) ديوان العماد / ٢٢٨، ٢٢٩، كتاب الروضتين : ١٠٢/٢ .

وَدَّرَ عَلَى الْبَاقِينَ، وَاجْتَثَأَ أَصْلَهُمْ فَإِنَّكَ قَدْ صَيَّرْتَ دِينَهُمْ فَلَسَا
وَلَا تَنْتَسِ شَرْكَ الشَّرْقِ قَرْنُكَ مَرْوِيًّا بِمَاءِ الطُّلَى مِنْ صَادِيَاتِ الطُّبَى الْخَمْسَا
وَأَنَّ بِلَادَ الشَّرْقِ مَظْلَمَةٌ فَخُذْ خِرَاسَانَ وَالنَّهْرَيْنِ وَالْتَرِكَ وَالْفُرْسَا (١)

وهكذا يبدو صدى دعوة صلاح الدين إلى تحرير القدس والديار الإسلامية جلياً في الشعر، وذلك لأن الشعراء قد وجدوا في صلاح الدين البطل المسلم المجاهد والساعي حقاً لاسترداد المقدسات والأراضي المحتلة، كما وجد سلفهم من الشعراء ذلك في أبطال الأمة الإسلامية من قبل، فعقدوا عليه الأمل لتخليص تلك الديار والمقدسات من أيدي الغزاة، مستغلين في ذلك كل مناسبة و فرصة، لا سيما أن هؤلاء الشعراء كانوا يعبرون عن مشاعرهم ومشاعر الأمة الإسلامية نحو القدس الشريف، فكان شعرهم نابعا من عقيدتهم، مما كان له الأثر في تحقيق الغاية القصوى .

* * *

لم يكن صلاح الدين لمحظى بقسط وافر من شعر الشعراء لولا فتحه لبيت المقدس، ولما نال ذلك الإعجاب والتقدير، وهو بالتالي مميز عن غيره من أبطال الأمة في ذلك الوقت، فلا عجب إذن أن نرى بعض الشعراء يصرفون جل اهتمامهم لتخليد صورة البطل الفاتح، ويذكر في هذا المجال الشاعر عبد المنعم الجلياني، الذي خص صلاح الدين بقصائد طوال، منها في التبشير، ومنها في الفتح العظيم، وما احتواه ديوانه " البشريات والقدسيات"، الذي قام بتحقيقه ما وصلنا منه الدكتور عبد الجليل عبد المهدي (٢) .

رسم الشعراء في قصائدهم القدسية التي قيلت في فتح القدس صورة جليية للبطل المسلم الفاتح، والحديث هنا ليس إلا استكمالاً لصورته السالفة في جوانبها المتعددة، فقد ذكر أن صلاح الدين لبى داعي الجهاد، ففتح القدس، وأنسسه

(١) ديوان العطار / ٢٣٣، كتاب الروضتين : ١٠٢ / ٢ .

(٢) انظر ديوان البشريات والقدسيات / ٦٤، وبيت المقدس في شعر الحسروب الصليبية / ٦ .

صورة الشعر صلاح الدين ، وقد حرر بيت المقدس ، متحيزا عن الملوك الآخرين ،
فقد استطاع تطهيره من رجس الأعداء ، وتخليصه من يجعلون شعار الكفر ، واستطاع
بذلك رفع راية الدين ، فقد عادت الاحكام الدينية مطبقة به ، كما يبدو في قول
الحمد الاصفهانسي :

وصوره فتیان الشاغوري ، وقد ملك السواحل في ثلاثة أشهر ، جديرا بأن تخضع
له الملوك الشجعان ، ومزبلا للنجاسة والكفر من بيت المقدس ، يقول :

وبهذا الفتح يعلو على باقي الملوك، لأنه قد أنجز ما لم يستطيعوا انجازه .
فأعمالهم تتضاءل أمام أفعاله ، فله المآثر والمفاخر، وقد آثره الله بهذا الفتح العظيم
كما يبدو في قول الشاغوري :

(١) ديوان العماد / ٢٣٢ ، كتاب الروضتين : ١٠٢ / ١٠١ / ٢ .

(٢) ديوان فتيان الشاغوري / ١٤١٠

(٣) نفسه / ١٤٦ .

وبصوّر الشاعر التهنّئات تتوالى على صلاح الدين بقوله :
لَمْ تَخْلُ سَمْعًا مِنْ هَذَا مُهَنّسِيٍّ لِلْمُسْلِمِينَ وَمِنْ سَمَاعٍ مُبَشِّرٍ (١)

وهو منقذ القدس بعد أن طال عليه الأسر، وذاق المسلمون فيها الهلاك الواسع،
وبفعله هذا يكون قد أحسن للبيتين المقدسين في مكة والمدينة ؛ وذلك لأنه جمع هذه
المساجد الثلاثة تحت راية الاسلام ، تلك المساجد التي لا تشد الرحال إلّا إليها ،

يقول ابن الساعاتي :

هُوَ مَنْقَذُ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ بَعْدَ مَا طَالَتْ فَمَا وَجَدَ الشَّعَاءَ شَكَتُهُ
أَحْسَنَتْ بِالْبَيْتِ الْمُعْتَبَرِ وَيُشْرِبُ وَلَكَ الْفِعَالُ كَثِيرَةٌ حَسَنَاتُهُ (٢)

وصلاح الدين منقذ القدس بقوة عزيمته ، يقول جعفر بن شمس الخلافة :
وَأَصْبَحَ لِلْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ مُنْقِذًا بِأَصْلَبِ عَزَمٍ مِنْ مَقَارَعَةِ الصُّلْبِ (٣)

وبصوره ابن المجاور معيدا للسواحل محافظا عليها ، كما يبدو في قوله :
مَا لِلسَّوَاهِلِ غَيْرُ بَحْرٍ حَافِظٌ بِشَبَا سَنَانٍ أَوْ بِصَفْحَةٍ مَرَّهَافٍ
هَذَا الطَّرَازُ الْأَخْضَرُ اسْتَفْتَحَتْهُ فَرَّهَا بِثَوْبٍ مِنْ عِلَاكِ سُسُجُوفٍ (٤)

وببشر عبد المنعم الجلياني صلاح الدين فاتح الاقصى بملك عظيم ، يقول :
يَا فَاتِحَ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى عَلَيَّ بِهِمْ وَقَانِصَ الْجَيْشِ لَا يُخْصَى بِغَفَرَتِهِ
أَبْشِرْ بِمَلِكٍ كَظْهَرِ الشَّمْسِ بِمَلِكٍ عَلَى الْبَسِيطَةِ فَتَاحٍ بِنَشْرَتِهِ (٥)

-
- (١) ديوان فتيان الشاغوري / ١٤٧ .
(٢) ديوان ابن الساعاتي : ٢ / ٤١٠ ، كتاب الروضتين : ٢ / ١٠٦ .
(٣) كتاب الروضتين : ٢ / ٢٢٤ .
(٤) نفسه : ٢ / ١٠٤ .
(٥) ديوان المبشرات والقدسيات / ١٣٦ ، كتاب الروضتين : ٢ / ١٠٣ .

ويخاطب ابن جبير صلاح الدين ، مبشرا إياه بالنصر والقضاء على الأعداء ، ويقول
أنه قد استعاد أرضا مقدسة من أراضي المسلمين ، وطهرها من أيدي الأعداء ، فعادت
كما كانت عليه من قبل ، ويبين تحطيم صلاح الدين لرمزهم الديني وهو (الصليب) ،
يقول :

أُطْلِتْ عَلَى أَفْئِكَ الزَّاهِرِ	سَمِعْتُكَ مِنَ الْفَلَاحِ الدَّائِرِ
فَابْشُرْ فَإِنَّ رِقَابَ الْعَدَا	تَمَدُّ إِلَى سَيْفِكَ الْبَاطِرِ
كَمَرَتْ صَلَيبُهُمْ عَنَّا	فَلَمْ تَرَكَ مِنْ كَاسِرِ
وَأَذْبَرَ مَلِكُهُمْ بِالشَّامِ	وَوَلَّى كَأَمْسِهِمُ الدَّابِرِ
فَتَحَّتْ الْمُقَدَّسُ مِنْ أَرْضِهِ	فَعَادَتْ إِلَى وَضْعِهَا الطَّاهِرِ (١)

وهذا ابن سناء الملك يبدو حائرا في توجيه التهنية إلى صلاح الدين ؛ لأنه يرى
فتوحاته كثيرة ، وجديرة بالتهنية ، يقول :

لَسْتُ أَذْهَبُ بَأَيِّ فَتْحٍ تَهْنِئُ	يَا مُنِيلَ الْإِسْلَامِ مَا قَدْ تَهْنِئُ
ولكنه يقرر بعد ذلك أن التهنية بفتح القدس أولى ، يقول :	
كُلُّ فَتْحٍ يَقُولُ إِنِّي أَوْلَى	وَهُوَ أَوْلَى لِأَنَّهُ كَانَ أَهْنَى
أَنْهَيْتُكَ إِذْ تَمَلَّكَ شَامَا	أَمْ تَهْنِئُكَ إِذْ تَمَلَّكَ عَدَا (٢) ؟

صلاح الدين رب الملاحم ؛ لأنها تفوق الملاحم المعروفة في تاريخ الأمم منذ القدم ،
كما يبدو في قول فتیان الشاغوري :

رَبُّ الْمَلَا حِمٍ لَمْ يُؤَرَّخْ مِثْلَهَا	الْعُلَمَاءُ قَدَمًا فِي قَدِيمِ الْأَعْصَرِ (٣)
--	--

وملاحم صلاح الدين تفسي ملاحم ذي القرنين ، وقد اعترف له بذلك الرواة ، كما
يبدو في قول الجليانسي :

- (١) كتاب الروضتين : ١٠٥ / ٢ ، ١٠٦ ، مجلة آداب الرافدين عدد : ٢ / ٩ ، ١٠٠٣٥٠٠
(٢) ديوان ابن سناء الملك / ٢٤٠ ، فرج الكروب : ٢ / ٢٢٤ ، ٢٢٥٠
(٣) ديوان فتیان الشاغوري / ١٤١ .

هَذَا الْمَلِكُ الَّذِي بُشِّرَ النَّبِيُّ بِمِ فِي فِتْنَةِ الْبَغْيِ لِلْإِسْلَامِ يُنْتَصَرُ
أَنْسَى مَلَا حَمَ ذِي الْقَرْنَيْنِ وَاعْتَرَفَتْ لَهُ الرُّوَادُ بِمَا لَمْ يُنْمِهِ أَشْشَرُ (١)

ومما لا بدّ من الإشارة إليه هنا أن شخصية صلاح الدين البطل في الشعر الذي نظم فيه يختلف في كثير من الأمور عن شخصيات الأبطال التقليدية في الملاحم الشعرية الأجنبية القديمة والحديثة ، حيث كانت تنسب للبطل في تلك الملاحم أعمالاً خارقية للمعارضة متحدة قوانين الطبيعة ، فهو فوق أسوأ البشر ، وقد يتعامل هذا البطل مع الآلهة ، كما هي الحال في ملحمة هوميروس مثلاً ، وبهذا تكون شخصية البطل شخصية أسطورية ، بخلاف الحال في شخصية البطل صلاح الدين في الشعر ، فهو أحد الشخصيات البشرية العظيمة المألوفة التي لم تخرج من دائرة الواقع التاريخي ، ولكن نجد حديثاً عن مساندة الله عز وجل لهذه الشخصية في الشعر ، وهذا أمر طبيعي لمن يؤمن بمعتقد الإسلام ، لأن الله سبحانه وتعالى ، ينصر من ينصر دينه ، وصلاح^{الدين} من نصر دين الله ، كما تقدّم ، فنصره الله على أعدائه ، وحقق على يده أعظم الفتوحات (٢) ، وقد أشير إلى سلوك صلاح الدين التبعدي ورعاية الله له في المعارك التي خاضها ، عند الحديث عن عسكريته .

وبعد ، فليس غريباً أن يؤيد بملائكة الله ، يمينونه وينصرونه على أعدائه ، الله ، كما يبدو في قول الحسن بن علي الجويني :
جَمَدُ السَّمَاءِ لِهَذَا الْمَلِكِ أَعْسَوَانُ مَنْ شَكَّ فِيهِمْ فَهَذَا الْفَتْحُ بَرَهَانُ (٣)

ويربط الشعراء بين شخصية صلاح الدين والشخصيات المعروفة في التاريخ كشخصية الإسكندر المقدوني ، فهذا الرشيد بن بدر النابلسي يعقد مقارنة بين فتوحات

(١) ديوان المبشرات والقدسيات / ١٣٨ ، كتاب الروضتين : ١٠٣ / ٢ .

(٢) أنظر : حطين بين أخبار معاصريها . . . / ٥٩ - ١٤ .

(٣) كتاب الروضتين : ١٠٤ / ٢ .

صلاح الدين وفتوحات الاسكندر ، فيجعل فتوحات الثاني قليلة الشأن ، لا تذكر أمام فتوحات صلاح الدين ، يقول :

فَإِذَا مَرَرْتَ بِمُلْكِهِ وَفَتْوحِهِ فَاَسْخَرْ بِمَا يُزَوِّى عَنِ الْاِسْكَنْدَرِ (١)

ويخصّ الشمرء الشخصيات الإسلامية من بين الشخصيات الأخرى في تاريخ الأمة ، فنرى الربط جلياً بينها وبين شخصية صلاح الدين ، لا سيما شخصية عمر بن الخطاب ، وهذا أمر طبيعي ، وذلك لأن الشخصيتين هما اللتان فتحتا القدس ، ولكن في زمنين مختلفين .

ويتكرر مثل هذا الربط في القصائد القدسية ، ويرجع ذلك إلى أن الشمرء أرادوا أن يربطوا ماضيهم المجيد بحاضرهم المجيد ، وهم أيضاً يذكرون أعداءهم بقادة المسلمين السابقين الذين هم رمز بطولتهم ، وذلك من أجل أن يفتوا في عزائم هؤلاء الأعداء ، هذا إضافة إلى أن في ربطهم هذا تمجيدها لصلاح الدين قائد هم ، الذي يشكل مصدر رعب دائم في نفوسهم .

"المقتدي بالسلف الصالح" =====

وجد الشعراء في صلاح الدين الحاكم المسلم، والبطل الاسلامي المجاهد، والساعي لتحرير المقدسات والارض المحتلة، كما وجدوا في سيرته سيرة السلف الصالح من الامة الاسلامية، فربطوا شخصيته بشخصياتهم.

كان صلاح الدين مقتدياً بالسلف الصالح، ويذكر في هذا المجال اقتداؤه بالخلفاء الراشدين، يقول ابن شداد يوم وفاته: " وكان يوماً لم يصب المسلمون والايسلام بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدون " (١).

ويقول ابن واصل: " ومنذ ملك الفرنج البلاد الساحلية، واستولوا عليها، لم يقع للمسلمين معهم يوم ك يوم حطين، فرحم الله الملك الناصر صلاح الدين، وقد من روحه، فلم يؤيد الاسلام بعد الصحابة، رضي الله عنهم، به رجل مثله ومثل نور الدين محمود بن زنكي، فانهما جدد الاسلام بعد دروسه، وشيدوا بنيان التوحيد بعد طموسه " (٢).

وثمة صفات تمثلت في شخصية صلاح الدين جعلته يقارن بالخلفاء الراشدين ومن تلك الصفات: الشجاعة المنبثقة من عقيدة المسلم، والكرم، والعدل وفق ما يتطلبه الشرع، وتقوى الله عز وجل، والزهد، والتواضع، والصبر في الملمات وفي الجهاد، وكرم الأخلاق، والبأس، والحلم، والرأي الحصيف، والعفو عند المقدرة، والهزم، وغير ذلك.

فقد سلك صلاح الدين سلوك الخلفاء الراشدين، إن التزم أوامر الشرع المظهر، فألقى المكوس والضرائب التي كانت خارجة عن الشرع، وأنشأ ديوان الزكاة، وأمسر بالمعروف ونهى عن المنكر، كما قام بفرض الجهاد حق القيام، كما تقدم، فلا عجب بعد ذلك كله أن يربط الشعراء بينه وبين السلف الصالح من الامة الاسلامية.

(١) النوادر السلطانية / ٢٤٦ .

(٢) مفرج الكروب: ١٦٣/٢، وانظر: الاعتبار/ ١٨٤، وكتاب الروضتين: ٥/١، ٦٤ .

ربط الشعراء بين صلاح الدين الفاتح وعمر بن الخطاب ، وقد جاء هذا الربط لسببين ، الأول : أن عمر بن الخطاب كان قد فتح القدس بعد استسلام أهلها وبمسد حصارها فترة من الزمن ، وكذلك كان فتحها على يد صلاح الدين ، والثاني : أن صلاح الدين قد نهج نهج عمر بن الخطاب والخلفاء الراشدين في سيرته وحكمه وجهاده .

يقول ابن الساعاتي :

هُوَ الْفَاتِحُ الْبَيْتِ الْقُدْسِ بَعْدَ مَا تَحَامَشَهُ سَادَاتُ الدُّنَا وَسُودُهَا
فَضِيلَةُ فَتْحِهِ كَانَ ثَانِي خَلِيفَةٍ مِنْ الْقَوْمِ مُدِيرِهَا وَأَنْتَ مُعِيدُهَا (١)

ويتوقع الشاعر نفسه أن لو رأى عمر بن الخطاب فعل صلاح الدين لشهد بصوابه :

فَلَيْتَ فَتَى الْخَطَّابِ شَاهِدَ فَتْحِهَا فَيَشْهَدُ أَنَّ السَّهْمَ مِنْ يُوسُفَ أَصْمَى
وَقَدْ أُوتِيَ الْفَتْحَيْنِ مَالًا وَبِلَدَةً فَلَمْ يَبْقَ نَصْرًا مَا حَوَاهُ وَلَا غُصَا (٢)

ويشير الشاغوري إلى ما قدمه صلاح الدين للدين ، وما فعله من إعادة الفتح

العمرى ، وبالتالي هو شريك عمر في اعتقاده وسلكه ، فيقول مخاطباً :

أَعْدَتِ مَا أَبْدَاهُ قَبْلَكَ فَاتِحًا عُمَرُ فَأَنْتَ شَرِيكُهُ فِي الْمَتَبَرِ (٣)

ويبين ابن جبير أن الله قد خص صلاح الدين بعد الفاروق عمر بهذا الفتح ،

يقول :

لَكُمْ نَاحِرَ اللَّهِ هَذَا الْفَتْحُ حَ مِنْ الزَّمَنِ الْأَوَّلِ الْغَابِ
وَخَصَّكَ مِنْ بَعْدِ فَارُوقٍ بِهَا لَاصْطِنَاعِكَ فِي الْآخِرِ (٤)

ويربط عبد المنعم الجلياني بين الفاتحين ، كما يربط بين صلاح الدين وأبي عبيدة ،

فائد المسلمين في معركة القدس في عهد عمر ، فيقول :

- (١) ديوان ابن الساعاتي : ٤١٠ / ٢ ، كتاب الروضتين : ١٠٧ / ٢ .
- (٢) ديوان ابن الساعاتي : ٣٨٥ / ٢ ، والبيت الأول في الروضتين : ١٠٦ / ٢ .
- (٣) ديوان فتيان الشاغوري / ١٤٣ ، كتاب الروضتين : ١١٩ / ٢ .
- (٤) كتاب الروضتين : ١٠٦ / ٢ ، مجلة آداب الرافدين ، عدد : ٥٠٣ / ٩ .

أَهْمَا الْمُظْفَرِ أَنْتَ الْمُقْتَبَى لِهُدَى أُخْرَى الزَّمانَ عَلَى خُبْرٍ بِخُبْرَتِهِ
فَلَوْ رَأَى وَقدْ حَزَّتْ الْعُلَى عُمُرُ فِي قُلَّةِ التَّلِّ قَضَى كُنْهَ عِمْرَتِهِ
وَلَوْ رَأَى أَهْلَ الْقَدَسِ فِي وَلَمِ أَبُو عَيْدَةَ قَدَى مِنْ مَسَرَّتِهِ (١)

ويربط الجلياني بينه وبين الشخصيتين الإسلاميتين المشهورتين بالورع والتقوى والمزم: شخصية عمر بن الخطاب، وشخصية عمر بن عبد العزيز، فيقول مخاطباً:

فَأَنْتَ لِلْمُفَرِّقِ ثَالِثٌ وَرَعَسٌ وَعَزْمَةٌ شَبَّ بِهَا لِلْهُدَى عُمُرُ (٢)

وبين الجواني وجه الشبه بين صلاح الدين وعمر وعشان وعلي، فصلاح الدين فتح القدس كما فتحها عمر، وهو شبيه عشان بالتزامه بأوامر القرآن الذي جمعه على يد عشان، وهو شبيه علي في نصر النبوة وخوض المعارك لنصرة الإسلام، كما أنه يربط بين صلاح الدين وأبي بكر الصديق قبل أن يربط بين هو ولا الخلفاء وصلاح الدين، إلا أنه لم يوضح وجه الشبه بينه وبين الخليفة الأول كما فعل مع باقي الخلفاء، إنما اكتفى بوصف يوسف صلاح الدين بالصديق، مما يشد انتباه السامع أو الباحث إلى شخصية النبي يوسف عليه السلام، وأرى أن الحديث قصد به الربط بشخصية أبي بكر، وذلك لأسباب ثلاثة، الأول: أن الشاعر تحدث عن الخلفاء الثلاثة، فلم يهمل الحديث عن أبي بكر ما دام الحديث عن الراشدين؟، والثاني: أن أبا بكر ليس أقل شأنًا من الخلفاء المذكورين، بل هو الخليفة الأول، وهما حامي الدين من الضياع، لا سيما في الفترة الأولى من حكمه، والثالث: أن ربط صلاح الدين بيوسف النبي عليه السلام لا يعني إلا تشابه الاسمين، وارتباط الشخصين بمكان معين هو مصر، والقصيدة المنظومة في مكان وزمان مختلفين. أما وجه الشبه بين أبي بكر والصديق ويوسف صلاح الدين فهو ما قدمه كل منهما للإسلام والمسلمين، يقول الجواني:

مَنْ كَانَ هَذَا فَتَحَهُ لِمُحَمَّدٍ مَاذَا يُقَالُ لَهُ وَمَاذَا يُذَكَّرُ ؟

(١) ديوان البششرات والقدسيات / ١٣٥، كتاب الروضتين: ١٠٣/٢

(٢) ديوان التدبيح أو منادح المصاحح: الورقة الثامنة من المخطوط المصور في مكتبة الجامعة الأردنية.

يا يوسف الصديق أنت لفتحها
فأروقها عمر الإمام الأظهر
ولأنت عثمان الشريفة بقده
ولأنت في نصر النبوة حمدر (١)

أما ربط الشعراء بين شخصية صلاح الدين وشخصية النبي يوسف عليه السلام ، فقد كان منذ أن ولي صلاح الدين شخصية دمشق ، فهذا عرقله الكلي يحذر لصوص الشام من صلاح الدين ، ويرى أن وجه الشبه بين الشخصيتين هو تشابه الاسمين وفعل الاثنين ، وهو قطع الأيدي ، مع تنبؤ الشاعر إلى أن النبي يوسف بجماله كان سبباً في تقطيع أيدي النساء وتجريرهن كما تشير قصة يوسف مع امرأة العزيز في القرآن الكريم ، في حين أن صلاح الدين قام بتنفيذ الأحكام ضد المفسدين السارقين من أهل الشام ، يقول عرقله :

رَوَيْدُكُمْ يَا لُصُوفَ الشَّامِ
وَأَيَّاكُمْ مِنْ سَعْيِ النَّبْرِ
فَإِنِّي لَكُمْ نَاصِحٌ فِي مَقَالِي
يَا يَوْسُفَ رَبِّ الْحَبَالِ وَالْجَمَالِ
وَهَذَا مُقَطَّعُ أَيْدِي الرِّجَالِ (٢)

وبين عرقله الكلي في قصيدة أخرى قالها سنة ٥٦٢ هـ ، وجه شبه آخر بين الشخصيتين حين أمل أن يملك صلاح الدين مصر كما ملكها النبي يوسف من قبل ، فجمع بين الشخصيتين بمكان واحد ، وهذا ما حصل بالفعل حين استلم صلاح الدين وزارته هناك ، يقول :

أَقُولُ وَالْأَتْرَاكُ قَدْ أَرْمَعَتْ
بَصْرًا إِلَى حَرْبِ الْأَعَارِبِ
رَبِّ كَمَا مَلِكُهَا يَوْسُفُ الصَّدِيقِ مِنْ أَوْلَادِ يَعْقُوبَ
يَمْلِكُهَا فِي قَصْرِنَا يَوْسُفُ الصَّادِقِ مِنْ أَوْلَادِ إِيْسَافِ (٣)

(١) كتاب الروضتين : ١٠٥ / ٢ .

(٢) ديوان المرقلة / ٨٧ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٢٥١ ، البداية والنهاية : ١٢ / ٢٥٠ ، الكواكب الدرية : ١٤٧ .

(٣) ديوان المرقلة / ١٣ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٣٦٤ ، مفرج الكروب : ١ / ١٤٩ ، البداية والنهاية : ١٢ / ٢٧١ ، حسن المحاضرة : ٢ / ٢٠ ، بدائع الزهور : ج ١ ق ١ / ٢٣٣ .

والى مثل هذا يشير العماد ، ولكن أمله في ملك صلاح الدين مصر كان أقرب إلى الواقع من أمل العرقلة ، إذ أمل أن يستقر صلاح الدين بمصر ، وأن يأتي أخوته إليه ، وتقر عين أبيه به ، وهذا ما حصل لصلاح الدين فيما بعد ، كما هو واضح في سيرته ، يقول العماد :

بِمَلِكٍ مِصْرٍ وَنَصْرٍ الْمُؤْمِنِينَ غَدًا تَحْطِي النَّفُوسُ بِتَأْنِيهِمْ وَتَطْيِيبِ
وَيَسْتَقِرُّ بِمِصْرٍ يُوسُفٌ ، وَبِهِ تَقَرُّ بَعْدَ التَّنَائِي قِيُنُ يَحْقُقُ سَوْبُ
وَيَلْتَقِي يُوسُفٌ فِيهَا بِأَخَوَاتِهِ وَاللَّهُ يَجْمَعُهُمْ مِنْ غَيْرِ تَشْرِيبِ (١)

وتجري الأحداث مشكلة لما جرى للنبي يوسف عليه السلام في قصته مع أبيه وأخوته ، وكان ذلك سنة ٥٦٥ هـ ، حين قدموا جميعا إلى صلاح الدين وهو في مصر (٢) ، وفي ذلك يقول عمارة :

رَدَّ إِلَهُ بِمِصْرٍ قَضِيَّةَ يُوسُفَ نَسَقًا عَلَى ضَرْبٍ مِنَ التَّقْرِيبِ
جَاءَتْهُ أَخَوَاتُهُ وَوَالِدُهُ إِلَى مِصْرَ عَلَى التَّدْرِيجِ وَالتَّرْتِيبِ (٣)

ويوضح الجلياني الفرق بين ورود أخوة يوسف النبي عليه ، وورود أخوة صلاح الدين عليه أيضا ، فيقول ما دحا نجم الدين أيوب والصلاح الدين :

فِي مَشْرِقِ الْمَجْدِ نَجْمُ الدِّينِ مَطْلَعُهُ وَكُلُّ أُنْثَاءٍ شَهَبٌ فَلَا أَفْلُوَا
جَاءُوا كَيْعُوبَ وَالْأَسْبَاطِ إِذَا وَرَدُوا عَلَى الْعَزِيزِ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ وَاشْتَلَوْا
لَكِنْ يُوسُفُ هَذَا جَاءَ أَخَوَاتُهُ وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ نَزَعٌ وَلَا رَكَلُ (٤)

إن تشابه الشخصيتين في أسمائهما وبعض الأحداث التي جرت لهما دفع الشعراء إلى الربط بينهما ، ولا شك أن ثمة فوارق أساسية بين هاتين الشخصيتين ، منها :

- (١) ديوان العماد / ٨٣ ، سنا البرق : ١٩ / ١ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٣٦١ .
- (٢) الفوائد السلطانية / ٤٤ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٤٦٣ .
- (٣) كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٤٦٣ .
- (٤) ديوان المبشرات والقدسيات / ١٢٤ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٤٦٧ .

نبوة النبي يوسف ، وتفسيره للاحلام ، وعلاقة اخوته به قبل أن يكون أمينا لخزائن مصر ، تلك العلاقة التي كانت مبنية على الرغبة في الايقاع بيوسف ، وهذا ما أشار إليه الجليلاني في الابيات السابقة .

ويقرن بعض الشعراء بين شخصية صلاح الدين وبعض الأنبياء الآخرين كما فعل أبو علي الحسن بن علي الجويني في قصيدة له في الفتح الناصري ، إذ يقرن بينه وبين النبي داود وسليمان عليهما السلام ، فقد نصره الله نصرا عزيزا كما نصر أنبياءه ، وفتح له فتحا مبهنا ، لم يكن لأحد من الملوك السابقين ، كما يبدو في قوله :

لِلنَّاصِرِ انْخَرَتْ هَذِهِ الْفُتُوحُ وَمَسَا مَنَّمَتْ لَهَا هِمُّ الْمَلَائِكَةِ مَذْكَائُهَا
حَبَاءُ ذَوِ الْعَرْشِ بِالنَّصْرِ الْعَزِيزِ فَكَا لَ النَّاسِ دَاوُدُ هَذَا أَمْ سُلَيْمَانُ ؟ (١)

وهذا الشاعر الشافعي يدعو الله أن يُعَمِّرَ صلاح الدين ما عُمِّرَ نوح عليه السلام ، وأن يوتئى ملكا كملك سليمان ، يقول :

عِشْ عُمَرُ نُوْحٍ يَا ابْنَ أَيُّوبَ وَكُوسْنِ مَلَكًا سُلَيْمَانًا وَجَاهِدْ وَأُظْفِرْ (٢)

ويجمع ابن الدهان بين صلاح الدين والمسيح عليه السلام بجامع الإحياء ، ولكن إحياء صلاح الدين إحياء للفقراء ، في حين أن إحياء المسيح كان إحياء للاموات ، كما يبدو في قوله :

إِذَا مَا أَتَى كَيْتًا مِنَ الْفَقْرِ جُودُهُ فَمَا هُوَ إِلَّا عَازِرٌ وَمُسِيحُ (٣)

وصلاح الدين كحاتم الطائي في الكرم ، وهو في الوقار والحلم والحكمة كالأحنف بن قيس ، زعيم تميم في الإسلام ، وفي هذا يقول العباد الأصفهاني :

وَإِنَّ مِصْرًا بِمَلِكِ يَوْسُفَها جَنَّةٌ خُلِدَ بِهَرَقُ زُخْرُفَها
وَإِنَّهُ فِي السَّمَاحِ حَاتِمُها وَإِنَّهُ فِي الْوَقَارِ أَحْنَفُها (٤)

(١) كتاب الروضتين : ١٠٥ / ٢

(٢) ديوان الشافعي / ١٤٨

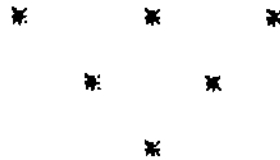
(٣) ديوان ابن الدهان / ١٢١

(٤) ديوان العباد / ٣٠٨ ، الخريدة — قسم شعراء مصر : ١٠ / ١

وفي هذا المعنى يقول ابن الساعاتي :
أَعْطَى مَنْ عَلَى الْمُسِيءِ بِعَفْوِهِ عَنْهُ فَأَنْسَى حَاتِمًا وَالْأُحْنَفَا (١) .

ويقول في قصيدة أخرى مخاطبا صلاح الدين :
مَنْ حَاتِمٌ عِنْدَمَا كَفَّاكَ وَاهِبَةٌ حَتَّى غَدَا مَثَلًا نَاهِيكَ مِنْ مَثَلِ (٢)

نخلص إلى القول إن الشعراء قد رأوا في سيرة صلاح الدين إحياء لسيرة الخلفاء الراشدين ، كما وجدوا فيه الحاكم المسلم ، والسياسي المحنك والقائد العسكري الفذ ، والبطل المجاهد المسلم الساعي لاسترداد المقدسات والأراضي المحتلة من أيدي الأعداء ، كل ذلك حمل الشعراء إلى تصويره مقتديا بالسلف الصالح ، من أجل ربط ماضي الأمة المشرق بحاضرها المجهيد .



(١) ديوان ابن الساعاتي : ١٥٠/٢ .

(٢) نفسه : ٣٨٢/٢ .

الفصل الثالث

"صلاح الدين وشعره" قصصه

" صلاح الدين وشعره " عصره

ظفر صلاح الدين بتقدير الشعراء واعجابهم وحبهم له ، وذلك لما قام به من أعمال ضد أعدائه الصليبيين ، لاسيما تحرير بيت المقدس ، منطلقا في ذلك من عقيدة الاسلام ، فأعاد للأمة الاسلامية أيام مجدها وعزها ، فالتف حوله الشعراء ، وأشادوا بوقائعه وبطولاته وانتصاراته العظيمة ، وسجلوا سيرته وصفاته ، فرسموا صورة واضحة المعالم لشخصيته ، فكان هذا الشعر سجلا مذكرا لمعاركه وجهاده ، كما أنه سجل لبعض القضايا التي تتصل بحياته ، ووثيقة لا يمكن الاستغناء عنها عند دراسة هذه الشخصية فسي جوانبها المتعددة .

وكان الشعراء بشعرهم الصادق النابع من الايمان بالعقيدة الاسلامية ، يعبرون عن آمالهم في استرداد ما سلب من الأراضي الاسلامية ، وهم في ذلك يعبرون عن آمال الجماعة الاسلامية وطموحاتها ، كما انهم يرصدون الأحداث السياسية والعسكرية والاجتماعية ، فكان شعرهم مرآة لاحداث عصرهم .

تضافر على رسم بطولة صلاح الدين شعراء كثيرون ، منهم المصري ، والشامي ، والعراقي ، وكان بعضهم يقد إليه حيث هو مقيم في مخيمه ، أو في المكان الذي يحل به ، ولعل ما سيدكر في مجالسه يكفي للتدليل على ذلك ، أو قد يرسل بعضهم إليه بقصائده من غير أن يلتقي به .

وقبل أن اتعرض للحديث عن علاقة صلاح الدين بالشعر لابد أن أبين مدى حب صلاح الدين للشعر ، وكيف أن كثيرا من مجالس الشعر كانت تعقد بحضوره .

كان صلاح الدين ذا ثقافة واسعة ، متعددة الجوانب ، ومن ذلك معرفته بالشعر ، وحفظه له ، فقد كان يحفظ ديوان الحماسة (١) ، وكان يستحسن الشعر الجيد ، ويردده في مجالسه (٢) ، فقد روى العماد أن السلطان قد استحسن قصيدة طائية لأسامة بن منقذ في ذات ليلة ، كان يستمع فيها لحديث عن الشعر والشعراء ، يقول : " كنت ليلة عند السلطان ، وهو يذكر جماعة من الشعراء ، وعنده ديوان الأمير مؤيد الدولة ، أسامة بن منقذ ، وهو به مشغوف ، وقد استحسن قصيدة طائية ، ولوع بها الطائيات لأقربا بفضيلها " (٣) .

ويصرح العماد الأمفياني في حديث له عن حب صلاح الدين الشعر ، وتذوقه له ، يقول : " فالملك الناصر صلاح الدين أبو المظفر ، يوسف بن أيوب ، أمير المسلمين بالناصر سلطانه ، وأبد بالشكر إحسانه ، وإن كان لا يقول الشعر ، ولكنه ناقد خبير ، وناقد بصير ، يمجبه المعنى المعري ... ، ولا يجري في مجلسه وأنسه إلا ما هو من الحكيم والكلام الفائق الرائق ، يحب الشعر الجيد ، ويحبوه بشعار جوده " (٤) .

ومن مظاهر اهتمام صلاح الدين بالشعر ، وحبّه له ، وأعجابه به ، أنه كان كثيرا ما ينشد قول الشاعر (٥) :

وَزَارَنِي كَأَيْفُ مَنْ أَهْوَى عَلَى حَذَرٍ	مِنَ الْوُشَاةِ وَدَاعِي الصُّبْحِ قَدْ هَتَفَا
فَكَذْتُ أَوْعِظُ مَنْ حَوْلِي بِوَفْرَحَا	وَكَاذَ يَهْتِكُ سِتْرَ الْحُبِّ بِي شَفَا
ثُمَّ انْتَبَهْتُ وَأَمَالِي تُخَيِّلُ لِي	نَيْلَ السُّنَى فَاسْتَحَالَتْ غِيْطَاتِي أَسْفَا (٦)

- (١) سنا البرق : ١٧٨ / ١ ، كتاب الروضتين : ١٨ / ٢ ، طبقات الشافعية : ٣٤٠ / ٧ ، البداية والنهاية : ٦ / ١٣ ، الدارس : ٨٣ / ٢ ، حسن المحاضرة : ٢٩ / ٢ .
- (٢) وفيات الأعيان : ٢٠٧ / ٧ ، السلوك : ج ١ ق ١١٣ .
- (٣) سنا البرق : ٨٥ / ١ ، وانظر كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٦٣٢ ، البداية والنهاية : ٣٥٣ / ١٢ ، الدارس : ٣٨٤ / ١ .
- (٤) الخريدة ، بداية قسم شعراء الشام : ٧٨ / .
- (٥) وهو أبو منصور ، محمد بن الحسين بن أحمد بن الحسين بن اسحاق الحميري .
انظر وفيات الأعيان : ٢٠٧ / ٧ .
- (٦) وفيات الأعيان : ٢٠٧ / ٧ .

وقول نشو الدولة أبي الحسن (١) المعروف بابن المنجم :

وَمَا خَضِبَ الْمَنَاسِقَ الْبَيَاضُ إِلَّا بِحَرِيرِهِ وَأُفْتُِحَ مِنْهُ حَرَمٌ يَظْهَرُ نَاصِبُهُ
وَالْكُنْهُ مَاتَ الشُّبَابُ فَسُودَتْ عَلَى الرَّسَمِ مِنْ حُزْنٍ عَلَيْهِ رَمَازُهُ (٢)

ويقول ابن شداد في سيرته : " وأقد سمعت منه ، وقال يقول له :
" إنَّ الوجع قد عظم في مرج عكا ، بحيث أن الموت قد كثر في الطائفتين ، فأزهد . تمثلاً :

اقْتُلَانِيْسِي وَمَا لِكِيْسِي وَاقْتُلَا مَا لِكِيْسِي مَعْرِيْسِي

يريد بذلك : أنني قد رضيت أن أتلغ أنا إذا تلاف أعداء الله " (٣) .

وكثيراً ما كان صلاح الدين يقترح على العماد أن يعمل أشعاراً في مناسبات مختلفة
فمن ذلك أنه في سنة ٥٧٢ هـ . قدم توران شاه أخو السلطان من اليمن إلى الشام ،
وكان ، عند مفارقتها اليمن ، بعث إلى أخيه كتاباً ضمنه هذه الأبيات في الشوق إليه ، وهذه
الأبيات من شعر ابن المنجم المذكور سابقاً ، وأولها :

- (١) وهو : نشو الدولة ، أبو الحسن علي بن مرج ، المعروف بابن المنجم ، المصري الأصل ، المصري الدار والحقبة ، كان مرافقاً لتوران شاه عند عودته من اليمن إلى الشام سنة ٥٧٢ هـ ، يقول عنه السيوطي : " كان أشعر أهل زمانه ، وأفضل أقرانه ، وكان من أعلام أدباء مصر المشاهير ، مدح الملوك والوزراء ، وفيه فضائل ، ولد سنة ٥٤٩ هـ ، وتوفي سنة ٦١٦ هـ " . أنظر سدا البرق : ١٠٦/١ ، الخريدة ، قسم شعراء مصر : ١٦٨/١ ، وفيات الأعيان : ١٩٧/١ ، ٢٠٨/٧ ، حسن المحاضرة : ٢٧/١ .
- (٢) وفيات الأعيان : ٢٠٨/٧ .
- (٣) النوادر السلطانية / ١٥٠ ، كتاب الروضتين : ١٨٠/٢ ، وفيات الأعيان : ١٩٥/٧ ، وذكر ابن خلكان أن البيت لعبد الله بن الزبير ، وذكر سيب إنشاده ، وهو أن ابن الزبير تخاصم هو ومالك بن الحارث ، وكان مالك من خواص علي رضي الله عنه ، وكان ذلك يوم وقعة الجمل المشهورة ، وكان ابن الزبير مع خالته عائشة ، أم المؤمنين ، رضي الله عنها ، وكانوا يحاربون علياً ، فلما تماسكا صار كل واحد منهما ، إذا قوي على صاحبه جماله تحته ، وفعل ذلك مراراً ، فأشدد ابن الزبير البيت المذكور . أنظر وفيات الأعيان : ١٩٥/٧ .

الشُّرُوقُ أَوَّلُجُ بِالْقَابِ وَأَوَّلُجُجُ
فَعَلَامُ أَدْنَسُ مِنْهُ مَا لَا يُدْفَعُ

وهو قول :

حَمَلْتُ مِنْ وَجْدِ الْأَحِبَّةِ مَرْدًا
لَا يَسْتَقِرُّ بِي النَّوَى فِي مَوْضِعٍ
إِلَى مِلَاحِ الدِّينِ أَشْكُو أَنْفِي
جَزْءًا لِيُفَرِّدَ الدَّارَ مِنْهُ وَأَمْ أَكُنْ
فَلَا زَكَبَنْ لِيَاهِ مَتْنٍ عَزَائِمِي
حَتَّى أَشَاهِدَ مِنْهُ أَسْمَدَ فَالْعَمَلِ
مَا لَيْسَ تَعْمَلُهُ الْأَحِبَّةُ أَجْمَعُ
إِلَّا تَقَاضَانِي التَّرَحُّلُ مَوْضِعُ
مِنْ بَهْدِهِ مَضَى الْجَوَانِحُ وَجَعُ
أَوَّلًا هَوَاهُ ، لِيَعْدِدَ دَارَ أَجْسُنُ
وَيُخَبِّبِي رُكْبَ الْفَرَامِ وَيَوْضِعُ
مِنْ أَفْقِهَا صَبْحَ السَّعَادَةِ قَرِيبًا لِي (١)

فسأل الساطع ملاح الدين العماد أن يكتب له في جوابها ، على رؤيتها
ورزنها ، فقال العماد :

مَوْلَايَ شَمْسُ الدَّوْلَةِ الْمَارِكُ الَّذِي
مَالِي سِرَاكُ مِنَ الْحَوَارِثِ مَأْجِدًا
وَلَأَنْتَ فَخْرُ الدِّينِ فَخْرِي فِي الْعَمَلِ
وَيُخَيِّرُ قُرْبِكَ كُلُّ مَا أَرْجُوهُ مِنْ
النَّصْرِ إِنْ أَتَيْتَ نَحْوِي مُتَبَرِّكًا
شَمْسُ السَّيَادَةِ قَرْمِنْ سَنَاءِ تَطَانُجُ
مَالِي سِرَاكُ مِنَ النَّوَابِثِ مَضَى
وَمَلَانُ آمَالِي وَرُكْنِي الْأَمْنُجُ
دُرُكُ الْمُنَى مَتَعَدِّمٌ مَتَمَّنُّجُ
وَالْيَقِينُ إِنْ أَسْرَعْتَ نَحْوِي مُسْتَسْرِعُ (٢)

وتدل هذه الأبيات ، إضافة إلى دلالاتها على حب ملاح الدين المشعر ، على حسن
العلاقة التي كانت قائمة بين ملاح الدين وأخيه توران شاه .

- (١) سندا البرق : ١٠٧/١ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٦٧٠ ، مفتح الكرب :
٤٨/٢ ، ٤٩٠ .
(٢) ديوان العماد : ٢٩٠ ، ٢٩١ ، سندا البرق : ١٠٧/١ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ /
٦٧٠ ، ٦٧١ ، مفتح الكرب : ٤٩/٢ .

وأما رجل السلطان من القاهرة إلى الشام سنة ٥٧٣ هـ ، وكان العماد مرافقاً له ، سأل السلطان العماد أن يعمل أبياتاً خفيفة لطيفة يكتب بها إلى أخيه (١) بدمشق ، فارتجل العماد أبياتاً ، منها :

الشُّوقُ أَبْسَحُ مَا يَكُونُ	نُ إِذَا دَنَا أَمَدُ اللَّيْلِ
كَمْ غَاةٍ فِي الْقَلْبِ أَيْسَرُ	مَتْ نَارُهَا ذَاتُ انْطِرَاءٍ
أَشْفَاؤُكُمْ شَوْقُ الْمَرْبِ	خِي إِلَى مَعَاوِدِ الْفَرْجِ
وَأَحْبَبُكُمْ حَسْبُ الْفُورِ	سِرَاجًا تَوَجَّهْتُ مِنْ بَقَاءِ
الْحَبْدُ يَخْسِدُ بِالْمَسْلا	مِ وَالتَّحَنُّنُ وَالْأَمْسَاءُ
السَّيِّدِ الْمَلِكِ الْمُعْظَمِ	مِ زِي الْكِبَالَةِ وَالْعِيسَاءُ (٢)

وفي السنة نفسها افتتح السلطان على العماد عمل أبيات يكتب بها إلى مصر ، فقال العماد :

أَيَا سَاكِنِي مِصْرَ أَلَمْ تَتَحَقَّقُوا	بِأَنْكُمْ أَمْ تَبْرَحُوا سَاكِنِي قَلْبِي
حَرَانَاكُمْ زَادَ الْحَزْنَ مِنْ أَيْكُمُ	فَأَضَعَفَ مِنْ صَهْرِي وَضَاعَفَ مِنْ كَرْبِي
لَقَدْ أَشْفَقْتُ مِنْ أَوَمَةِ الْحَبِّ مُهْجَتِي	وَهَلْ مُهْجَةٌ تَبْقَى عَلَى لَوْنِ الْحَبِّ
وَأَوْأَنْتِي أَوْزَعْتُ شَوْقِي كُنْزِي	لَحِزْتُ لِقَابِي مُخْرَقًا وَقَدْ كُنْتُ
بِشَيْرِ الرَّخَا مِنْتِي بِيَمَدِ مَزَارِكُمُ	رَضِيْتُ بِأَهْدَاءِ الْمَلَامِ مَعَ الرُّكُوبِ (٣)

* * * *

(١) لم يذكر العماد اسمه ، بل ذكره غيره ، انظر ديوانه ، ص ١٢٧/١ .

(٢) الديوان / ٦٢ ، ٦٣ ، البرق الشامي : ٥٧/٣ ، سنا البرق : ١٢٧/١ .

(٣) ديوان العماد / ٨٥ ، البرق الشامي : ٦٤/٣ .

أما مجالس الشعراء التي كانت تعقد بخضرة السلطان ، فقد كانت كثيرة ، وإن كان كثير من الشعراء يقدرون إليه في مخبئه الذي يقيم فيه ، أو المكان الذي يحل به ، فينشدونه فمأذهم ما حين مهنتين بعد نصر من به الله عليه ، أو حاشين محررين ، لاستكمال ما قد بدأه القائد من عمل جهادي ، أو ذاكرين الحال التي عليها السلطان ، فيستمتع لهم ، ويشجعهم على ذلك ، بل يكافئهم ويمنحهم ما تجود به نفسه . وأم يكن دور صلاح الدين في هذه المجالس دور المستمع ، بل كان له ذوق ينقد به ما يمرض عليه من شعر أحياناً .

يقول ابن العديم : " وكانت الوفود في كل عام تزدهم ببابه من الشعراء ، والقراء ، وفيرهم ، وكان يوسمهم فضلاً وانعاماً ، ويوليهم مبرة واكراماً " . (١)

ومن تلك المجالس ذلك المجلس الذي استمع فيه السلطان لقصيدة ابن الدهسان الموالي ، الذي قصده حين كان مخبئاً بظاهر " حمص " سنة ٥٧٠ هـ ، منها قوله ما دحا :

مَلِكٌ إِذَا أَبْصَرَتْهُ فَلَقِيَتْهُ	أَبْصَرَتْ بَصِيرَةً رَأً بِالنَّجَاحِ مُبْقِيَةً
رَدَفَ الْأَكْمَامِ فِي مَدَى بَذْلِ النَّدَى	وَجَزَى فَكَانَ السَّابِقَ الْمَتَأَخِّرَ
مَا حَلَّ رَيْحَ السَّحَابِ أَفْبَرَّ قَاتِلًا	إِلَّا وَأَصْبَحَ مِنْ نَدَاهُ أَخْضَرًا
مِدْحُ الْمَاوِكِ فَرَى وَيُوسُفُ يُوَسِّفُ	مَا مَدَحَهُ الْوَاقِي حَدِيثًا يُفْتَكِرُ (٢)

فقال القاضي الفاضل لصلاح الدين : " هذا الذي يقول :

" وَالشُّعْرُ مَا زَالَ عِنْدَ التَّرْكِ مَتْرُوكًا "

فمجل صلاح الدين جائزته لتكذيب قوله وتصديق طئه ، وجمع له بين الخدمة والضعف ، قال العماد : " فأعطاه السلطان ، وقال حتى لا تقول إنه متروك " (٣) .

-
- (١) زبدة الحلب : ١٢٥ / ٣ .
 (٢) ديوان ابن الدهان / ٥٠ ، ٥١ ، ٥٤ .
 (٣) الخريدة ، قسم شعراء الشام ، : ٢٨٥ / ٢ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٦١٥ ، وفيات الأعيان : ٣ / ٥٨ ، شذرات الذهب : ٢٢٠ / ٤ .

وعنى الفاضل ما قاله ابن الدهان في قصيدة ، مدح فيها المالـح
ابن رزيك (١) :

مَنْ أَرْتَجِي يَا كَرِيمَ الدَّهْرِ يُنْعِمَ سَنِيَّ جَدَّ وَاهٍ ، إِنَّ خَابَ سَعْيِي فِي رَجَائِيكَ
أَأَمْدُحُ التُّرْكَ أَبْقِي الْفَعْلَ عِنْدَهُمْ وَالشَّهْرَ مَا زَالَ عِنْدَ التُّرْكَ مَشْرُوكًا ؟ (٢)

وهذا السلطان يستمع إلى قصيدة طاعية ، نظمها العماد ذات ليلة وهو في
مجلسه ، حينما عرف أن السلطان قد أعجب بقصيدة طاعية لأسامة بن منقذ ، كما تقدم ،
يقول العماد في هذه القصيدة :

يَلَا زِمُ قَلْبِي فِي الْمَوَى الْقَبْضُ مِثْلَمَا يَلَا زِمُ كَفِّ النَّجْوَى الْمَالِكِ الْبَسْطُ
حَايِكَ حَوَى الْمُلُوكَ الْمُقِيمَ بِخَبْرِهِ كَرِيمٌ وَمَا لِلْمَالِ فِي يَدِهِ خَبْرُ
إِذَا لُتُّتْ أَيْدِي الْمُلُوكِ فَوَيْسِدُهُ مَدَى الدَّهْرِ إجلالاً لَهُ تَأْمُرُ الْبَسْطُ

ويقول مخاطباً :

وَأَوَ كُنْتَ جَاراً لِلْمَعْرِيِّ أَمْ يَقُولُ "لِمَنْ جِيرَةُ سِنِيَّ وَالنَّوَالُ قَامَ يُنْطَوُ" (٣)

يصور العماد السلطان كريماً ، فلو عاش المعري في عصره لم يطالب النوال من أحد ،
ويصوره صاحب جلال وهيبة .

(١) هو : الملك الصالح طلائع بن رزيك ، أبو الغارات ، وزير مصر ، كان والياً بمصر بنى
خمساً في أعمال حميد مصر ، دخل القاهرة ، وتولى الوزارة أيام الفاطم ، واستقل
بالأمر وقد بصر أحوال الدولة ، كانت ولايته سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، وكان فاضلاً
سليماً في العطاء ، سهلاً في القاء ، محباً لأهل الفضائل ، جيد الشعر ، له
ديوان شعر مطبوع ، كانت وفاته سنة ٥٥٦ هـ . أنظر الخريدة ، قسم شعراء مصر :

١٧٣/١ ، وفيات الأعيان : ٥٢٦/٢ - ٥٢٨ .

(٢) ديوان ابن الدهان / ٢٢٣ ، والبيت الثاني في الخريدة ، قسم شعراء الشام :

٢٨٥/٢ ، والبيتان في كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٦١٥ .

(٣) ديوان العماد / ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨٤ ، الخريدة ، قسم شعراء مصر :

٢٦/١ ، ٢٧ ، ٣١ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٦٢٢ .

ويشير الشاعر في البيت الأخير هنا إلى قصيدة المعري الطاعية التي عارضها ، وقد
استشهد به بأول شطريها ، فختتم به طائفة ، أنظر ديوان سقط الزند / ١٧٢ ، وشاح
سقط الزند : ق ٤ السفر الثاني / ١٦٠٦ .

وهذا أسامة ينفذ إلى مجلس السلطان سنة ٥٧٠ هـ ، وذلك أول نزول السلطان الشام ، فينشده :

حَدَّثْتُ عَلَى طَوْلِ عُمَرَى الْمَشِيِّيَا وَإِنْ كُنْتُ أَكْثَرْتُ فِيهِ الدُّنُوبِيَا
لَأَنْبِي حَبِيبْتُ إِلَى أَنْ لَقِينَا تَبَعْدُ الْعَدُوَّ صَدِيقًا حَبِيبِيَا (١)

وأُشيد فرخشا (٢) العماد ، وهو بقلعة دمشق بين يدي السلطان :
إِذَا شِئْتُ أَنْ تُعْطِيَ الْأُمُورَ حُقُوقَهَا وَتُوقِعَ حُكْمَ الْعَدْلِ أَحْسَنَ مَوَاقِعِهَا
فَلَا تَصْنَعِ الْمَعْرُوفَ مَعَ غَيْرِ أَهْلِيهِمْ فَظَلَمْتُكَ وَضَعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ (٣)

وفي سنة إحدى وسبعمين وخمسمائة كان السلطان صلاح الدين جالسا بدار العدل بدمشق ، والعماد من جملة الجالسين بين يديه ، فحضر سعادة الأعيان في العاشر من شعبان ، فوقف ينشد السلطان قصيدة ، منها قوله :

سَمِحَ بِرُوحٍ إِلَى النَّدَى بِرَاحَةٍ قَدْ أَغْشَبَ الْمَعْرُوفُ بَيْنَ بَنَانِيهَا
وَقَتَّى إِذَا زَخَرَتْ بِحَارُ نَوَالِيهِ غَرَقَتْ بِحَارُ الْأَرْضِ فِي خُلْجَانِيهَا
تِلْكَ السَّيُوفُ الْمُرْهَفَاتُ بِكَفِّهِمْ أَنْصَى عَلَى الْأَيَّامِ مِنْ حَدَثَانِيهَا
وَاسْلَمْ صَلَاحُ الدِّينِ وَابْقَ لِدَوْلَةٍ ذَلَّتْ لِدَوْلَتِهَا مَلُوكُ زَمَانِيهَا (٤)

-
- (١) كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٦٧٧ ، البداية والنهاية : ٣٥٣ / ١٢ ، والبيتان غير موجودين في ديوان الشاعر .
- (٢) هو : عز الدين فرخشا بن أيوب بن شاذي ، الملقب الملك المنصور ، ابن أخي السلطان صلاح الدين ، استنابه عمه بدمشق سنة ٥٧٦ هـ ، وكان يستشيره ويأخذ برأيه ، ويعتمد عليه ، وكان في مقدمة الجيش الصلاحي ، وكان كريما ، شجاعا نبيلًا ، كثير الأدب ، مطبوع النظم والنثر ، توفي سنة ٥٧٨ هـ . أنظر : البرق :
- ٣ / ١٦١ ، ١٧١ ، و ٥٩ / ٥ ، الخريدة ، بداية قسم شعراء الشام / ١١٣ ، مرآة الزمان : ق ١ ج ٨ / ٣٧٢ ، كتاب الروضتين : ١٩ / ٢ ، ٣٣ ، وفيات الأعيان في ترجمة أبيه : ٤٥٣ / ٢ ، النجوم الزاهرة : ٩٣ / ٦ .
- (٣) مرآة الزمان : ق ١ ج ٨ / ٣٧٢ .
- (٤) الخريدة ، قسم شعراء الشام : ٤٠٨ / ١ ، ٤٠٩ ، ٤١١ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٦٤٥ ، ٦٤٦ .

يمرر سعادة الأعمى في هذه الأبيات صلاح الدين كريماً شجاعاً ، ويدعولـــــــــــــــــه
أن يبقى في الدولة الفتية التي خضعت لها الممالك المتنازعة .

وجلس السلطان صلاح الدين للعدل في اليوم الذي يليه ، فقام سعادة أيضاً
وأشده قصيدة ، يقول فيها :

أَبَا الْمُظَافِرَ ، كَمْ قَدْ نَدَّتْ مِنْ ظَفَرٍ لَوَاؤُهُ بِلَوَاءِ الْمَلِكِ مُنْفَقِرٌ
فَاسْلَمْ وَجَيْشُكَ لَا يُبْنَى لَهُ عِلْمٌ وَاسْعُدْ وَبَيْتُكَ لَا تَهْوِي لَهُ عُنْدُ (١)

وأشده من قصيدة أخرى :

جِبَالٌ عَلَاءُ تَطَاوَلَهَا هَضَابٌ وَأَسْدٌ وَغَسَى ثَوَائِبُهَا نَرَسَابٌ
فَتَى لِلْمُعْتَدِينَ بِهِ عَقَبٌ كَمَا لِلْمُجْتَدِينَ بِهِ ثَنَابٌ (٢)

ويصور سعادة صلاح الدين في الأبيات السابقة الذكر ، مرفوع اللواء ، مظقراً ،
ويشيد بقوته وردعه الأعداء ، وعطائه للمعانة المحتاجين .

ووفد إليه وهو جالس ريدار العدل في السنة نفسها الشاعر أسعد بن يحيى
السنجاري (٣) ، وأشده قصيدة ، يقول فيها :

وَجَرَى بِي الْأَمْلُ الطَّمُوحُ فَأَمَّ بِرِّي سُلْطَانُ أَرْضِ اللَّهِ طُرّاً يُؤَسِّفُ
النَّاهِبُ الْأَرْوَاحَ فِي طَلَبِ الْقُلُوبِ الْوَاهِبُ الْآجَالَ فِي حُسْنِ الْوَفَا
وَاللَّهُ نَاصِرُهُ عَلَى أَعْدَائِهِ كَتَبَ الْقَضَاءُ لَهُ بِذَلِكَ أَحْرَفُهَا (٤)

(١) الخريدة ، قسم شعراء الشام : ٤١٥/١ ، ٤١٦ .

(٢) الخريدة ، قسم شعراء الشام : ٤٢٦/١ .

(٣) هـ : أسعد بن يحيى بن موسى بن منصور بن عبد الميزيز بن وهب بن هبان السلمي
السنجاري ، أبو السعادات ، المنعوت بالبهاء ، كان فقيهاً ، غلب عليه الشعر ،
وأجاد فيه ، واشتهر به ، وخدم به الملوك ، وأخذ جوائزهم . طاف البلاد ، ومدح الأكابر
كانت ولادته سنة ٥٣٣ هـ ، توفي في أوائل سنة ٦٢٢ هـ بسنجار . انظر
وفيات الأعيان : ٢١٤/١ ، ٢١٧ .

(٤) الخريدة ، قسم شعراء الشام : ٤٠٣/٢ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٦٤٧/٢ .

ولما نزل صلاح الدين سنة ٥٧١ هـ. حصل تلقاه أبوالمجد ، المعروف بابن
حرّية ، فأنشده قصيدة صور في بعض أبياتها شدة بأس صلاح الدين على أعدائه ، فقال :

إِذَا خَفَقَتْ بُتُودُكَ فِي مَقَامٍ رَأَيْتِ الْأَرْضَ خَاشِعَةً تَعْمِيْدُ
وَأِنْ طَرَقَتْ جَبَانُكَ دَارَ قَوْمٍ فَشَمَّ الشَّامِخَاتِ لَهَا وَهُوَ دُودُ
وَأِنْ بَرَقَتْ سَيُوفُكَ فِي عَمْدٍ فَمَا مِنْ قَائِمٍ إِلَّا حَصِيْدُ (١)

وجلس السلطان ذات ليلة في مجلسه سنة ٥٧١ هـ، وقد حضر العماد وأسامة
وغيرهما ، وشرع الحضور يتناشدون مَلَحَ القصائد ، وينشدون ضالة الفوائد ، فجرى حديث
اقتضى أن ينشد الأمير أسامة بيتين لأحد الشعراء (٢) ، هما :

كُنْتُ أَسْتَعْمِلُ السَّوَادَ مِنَ الْأَمْسِ شَاطِرٍ وَالشَّعْرُ فِي سَوَادِ الدَّيَاجِرِ
أَتَلَقَّى مِثْلًا بِمِثْلٍ فَلَمْ يَلَا صَارَ عَاجًا سَرَحَتْهُ بِالْعَاجِ

وقال الأمير أسامة : " وقد أخذ هذا المعنى عني نصر (٣) وعكسه ، وقال :

كُنْتُ أَسْتَعْمِلُ الْبَيَاضَ مِنَ الْأَمْسِ شَاطِرٌ عَجَبًا يَلِغْتِي وَشَبَابِرِي
فَاتَّخَذْتُ السَّوَادَ فِي حَالَةِ الشَّيْءِ بِرِ سُلُوءٍ عَنِ الصَّبَا بِالتَّصَابِرِي (٤)

وكان السلطان يستحسن بعض القصائد ، فتُنشد في مجلسه ، فيطرب لسماعها
ويعجب بآدابها ، كذلك القصيدة الرائية للعماد الأصفهاني التي نظمها في طريق
مصر، وهو مع السلطان سنة ٥٧٢ هـ ، يقول العماد : " ونظمت في طريق مصر قصيدة
مشتلة على ذكر المنازل بالترتيب ، وإيراد البعيد منها والقريب ، واتفق أن السلطان

(١) الخريدة ، قسم شعراء الشام ، : ٧٥/٢ - ٧٦ ، الوافي بالوفيات : ٢١٣/٣ .

(٢) وهو : أبو الحسن أحمد بن محمد بن الدزينة . معجم الأدباء : ٢٣٩/٥ .

(٣) الأمير عز الدولة أبو العرف ، نصر بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ ، عم مؤيد

الدولة أسامة ، صاحب قلعة شيزر بعد والده شديد الملك ، كانت وفاته سنة

٤٩١ هـ . انظر معجم الأدباء : ٢٣٨/٥ ، ٢٤١ ، ٢٤٣ .

(٤) معجم الأدباء : ٢٣٨ - ٢٤٠ .

سير إلى مصر المالك المظفر تقي الدين ، وكان لا يستدعي من شأنيه إلا انشادهما فسن
نأديه ، ويطرب اسماعيلها . . . ، يقول في قصيدته :

هَجَرْتُكُمْ لَا عَنْ مَلَالٍ وَلَا غَسَدٍ وَلَكِنْ لِمَقْدُورٍ أُتِيحَ مِنَ الْأَمْسَرِ
وَأَعْلَمُ أَنِّي مَخْطِيٌّ فِي فِرَاقِكُمْ وَهَذَرِي فِي ذُنُوبِي وَنُفْثِي فِي عُسْدِي
يَكُنْ أُمُّ عَمْرٍو مِنْ وَشْرِيكَ تَرْجَايَ فَمَا خَجَلِي مِنْ أُمِّ عَمْرٍو مِنْ عَمْسَرِ
تَقُولُ : إِلَى مِصْرٍ يَسِيرُ تَعْجَبًا وَمَا الَّذِي تَبْهِي وَكُنْ أَلَا فِي مِصْرٍ ؟
فَقُلْتُ مَلَاذِي النَّاصِرُ الْمَالِكُ السَّيِّ حَمَلْتُ بَعْدَ وَاهٍ عَلَى الْمَالِكِ وَالنَّصَرِ (١)

والبيت الأخير في هذه الأبيات يعود إلى العلاقة الحسنة التي كانت قائمة بين
العماد والسلطان ، فهو يشير إلى رعاية السلطان له وإكرامه وإيثاره .

وأما كان السلطان مخيمًا بمرج " فاقوس " (٢) ، عازيا النية على غزو غزقة ، حضر
ابن راحة ، فأشده قصيدة هذا فيها بالعيد ، وعرض بها وجهه له من الإماء والعبيد ،
وذلك بعيد الأضحي سنة ٥٧٢ هـ ، كما يبدو في قوله :

أَيَسُنُّ بَعْدَ ضَنْكَ حُسْنٍ خُلِّصَ فَأَجْمَعَ بَيْنَ يَأْسِي وَاتَّمَرِ
وَمَا نَفْعِي بِهِ طُفُوكَ بَعْدَ قُتُوتِ كَرَّةٍ شَامِتٍ مِنْ بَعْدِ نَفْسِنِ
أَأَطْمَعُ أَنْ أَكُونَ شَهِيدَ حُسْبٍ فَأَصْبَحَ بَيْنَكَ حُورِيًا بَعْدَ نَسْنِ

نقول له : " هذا البيت حسن لولا أن الحوري مُذْكَرٌ " (٣)

ونقول واصفا الأساطيل المنصورة ، والسبايا المأسورة :

لَقَدْ جَاءَ الْجَوَارِي بِالْجَوَارِي يَمْدَنَ بِكُلِّ قَدَرٍ مُرْجِحِينَ (٤)

(١) ديوان العماد / ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، الخريدة ، قسم شعراء مصر .

٦/١ ، ٨ ، ٩ ، كتاب الروضتين : ج ١ ، ق ٢ / ٦٨١ .

(٢) مدينة في آخر ديار مصر من جهة الشام وهي شمال القاهرة ، فوق بابيئس . انظر
معجم الأدباء : ٢٣٢/٤ ، وانظر الاطلس التاريخي / ٣٠١ .

(٣) الخريدة ، قسم شعراء الشام : ٤٩١/١ .

(٤) الخريدة ، قسم شعراء الشام : ٤٩٥/١ ، وانظر حول هذا المجلس كتاب

الروضتين ج ١ ، ق ٢ / ٦٩٣ ، معجم الأدباء : ٤٦/١٠ .

ويغد حسان التدمري (١) . إلى الملك الناصر سنة ٥٧٢ هـ ، وهو في المخيم
الماكي الناصري الملاحي بحماة ، وينشده قصيدة طويلة ، فيها ذكر سيطرة صلاح الدين
على البلاد ، فسنت به هيمته نحو المعالي وتجسدت فيه السمات الجليلة فهو جدير بالفخر :
أَسَاطَانُ أَرْضِ الْمَرْدَا الطَّوْلِ وَالْقَهْرِ حَايِفُ الْمَعَالِي وَالْمَنَاقِبِ وَالْفَخْرِ (٢)

وخيم السلطان في " الميمنة " (٣) سنة ٥٧٣ هـ ، وكان معه في المخيم
تألم الدين الشافعي ، فأنشده قصيدة منها هذان البيتان اللذان أشار الشاعر فيهما
بانتصاراته وخطائه ، كما يبدو في قوله :

بَعْدَ الْمَسْرِ مَعْقُودُ أِبْرَائِيْلَكَ التَّمَنُّسُ
فَمَسِرٌ وَانْتَحَ الدُّنْيَا فَأَنْتَ بِهَا أَحْسَرُ
يَعْنِيكَ فِيهَا الْيَمْنُ وَالْيَمْرُ فِي الْيُسْرِ
فَيُشْرَى لِمَنْ يَزْجُو النَّدَى مِنْهُمَا بَشْرَى (٤)

وقال العماد في البرق ، لما كان السلطان عائداً من مصر إلى الشام سنة ٥٧٣ هـ :
" كنا ساعرين في رقة من أهل الأدب ، فتجاري فيما عن لنا فيه من الأدب ، وكل يترح معنى ،
وبتطف مجنى ، فمبرنا مروق في صورة ملك اسمه " شاهملك " ، فافتح علي أن الفزفي
أبيات انظمها اسمه ، فقبلت رسمه ، وقالت :

اسْمٌ مَحْبُوسٌ سُدَّ اسْمِي إِذَا
سَقَطَ الثَّلَاثُ فَمَكَّنُ الْكَامِلَةَ
وَإِذَا قُدِّمَ ثَانِي شَطْرِي
فَهُوَ سَاطِئٌ لَنَا ذُو عَظَمَتِهِ
وَمَتَى يَنْقُصُ ثَانِيْنُهُ فَسَلَا
نَقْصُ يَدِي وَفِي بِنَاءِ الْمُخَمَّسَةِ

- (١) أنظر ترجمته في الفصل الأول من هذه الدراسة .
- (٢) الخريدة ، قسم شعراء الشام . : ٢٣٢/٢ .
- (٣) الميمنة : هي بلدة أول ما يلقي القاصد لمصر من الشام ، من الديار المصرية ،
ذات نخل ، كان كثيراً ما يخرج الناس إليها للصيد ، لأن إلى جانبها ما يلي
البرية مستنقع ماء ، يأوي إليه طير كثير . معجم البلدان : ٧٥/٤ .
- (٤) البرق الشامي : ٢٩/٣ ، سنا البرق : ١٢٦/١ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢/٢
٦٩٦ ، ونبات الأعيان : ١١٣/٢ ، ١١٤ .

عَرَيْتُ عَجْمِي نَعْمًا _____
وَأَنَا سَأَا هُمْ فَمَنْ تَصَحَّفَ فِيهِ
وَهُوَ إِنْ شَاءَ هُمْ لَكُنْ _____
كَلَّمَهُ مَعْنَى لِمَنْ قَدْ عَامَا _____
لَكَ بِأَقْبِيهِ فُسْرٌ أَنْ تَنْهَكَ _____
فيه إيضاح لهذه المبهمة (١)

ميأتي ابن الدهان الموصلي السلطان مرة أخرى سنة ٥٧٦ هـ ، لما وصل السلطان إلى حمص ، وخيم بالعاصي ، وكان السلطان قد انتصر على المايبيين في مواقع عدة ، فهادته الفرنج ، فقبل منهم ذلك ، فأشده ابن الدهان من مدائحه قصيده .
منها هذا البيتان :

وَمَسَا خَضَعَ الْفَرَنْجُ أَدْيَاكَ حَتَّى
وَمَسَا سَأَلُوكَ عَقْدَ الصَّلَاحِ وَدَا
رَأَوْا مَا لَا يُطَاقُ مِنَ الْفَتَا
ولكن خوف مَعَا _____ وداح (٢)

وحضر إلى مجلس السلطان صلاح الدين ابن الساعاتي ، وقد أتت زبارة ، فقال :

كَانَ حَرْبُهُ كُحْلُ الشَّارِكِي
وَسُيْدُهُ فُلَانٌ عَنْ فُلَانٍ
مَعَ الْأَجْبَابِ أَوْ قُبُلِ السُّودَاعِ
فَعَرِطُفُ الْأَرْضِ يَرْتُهُ لِلْسَّمَاعِ (٣)

وحجس السلطان سنة ٥٧٧ هـ في سرداقه ، وهو في مصر يتأهب للخروج إلى الشام ، والناس حوله مجتمعون ، من عاماء ، وفخلاء ، وشعراء ، وكل واحد ينشد بيتا في الوداع ، إذ أخرج أحد مؤيدي أولاده رأسه وأنشد :

تَمَتَّعَ مِنْ شَرِيمِ عَرَارِ نَجْدٍ
فَمَا يَمْنَعُ الْعَشِيرَةَ مِنْ عَسَارِ (٤)

(١) ديوان العماد ٤٠٣/ ، البرق الشامي : ٥٧/٣ ، ٥٨ ، وانظر سنن البرق : ١٣٨/١١ .

(٢) ديوان ابن الدهان ٦٦/ ، كتاب الروضتين : ١٦/٢ ، ١٧ .

(٣) ديوان ابن الساعاتي : ٢٧٣/١ .

(٤) ديوان الحماسة لأبي تمام ، شرح المزدوقي تحت رقم ٤٦٦ ، ص ١٢٤٠ .

ومن مجالس السلطان التي كانت تنشد فيها الأسماء ذلك المجلس الذي عقده اثر فتحه قلعة حلب سنة ٥٧٩ هـ ، وهو يعمل للوحدة ، فقد جلس للهناء لهذا العمل العظيم ، فأنشده جماعة من الشعراء قصائد هم مهنتين مآد حين ، ومن هؤلاء : أبوطسي النجار ، وسعيد بن محمد الحريري ، وابن الزكي ، وقد تقدم ذكر ذلك .

كان صلاح الدين لا ينقطع عن مجالسه حتى في أوقات المرض ، ففي سنة ٥٨١ هـ مرض السلطان مرضاً شديداً ، فلم يمنعه ذلك من استقبال الوفود ، ومجالسة ذوي الفضل من العلماء والشعراء ، وتفريق ما اجتمع من الخزائن عليهم ، يقول العماد : " وكنا نظن أن ما به من الألم شغل شاغل ، فوجد بتلك الساحة راحة ، واستمر مدة استمرار مرضه على بذل جواهر ماله وعرضه ، وكان خُلُقُه أحسن ما كان في حالة الصحة ، يخاطبنا بسجاياء السهلة السعدة ، ولا يخلو مجلسه من ذوي الفضل ، وأولي نباهة ونبل ، يتجاذبون بحضرته أطراف الفوائد ، ويهزون لمكارمه أعطاف المحامد ، فتارة في أحكام شرعية ، ومساائل فقهية ، وآونة في صناعات شعرية ، وألفاظ عربية ، ومعان أدبية ، ومرة في أحاديث الأجواد وشيم الأجداد ، ودفعة في ذكر فضائل الجهاد وفرائض التأهب والاستعداد ، وينذر أنه إن خلّاه الله من نوبة هذه النوبة . . . ، اشتغل بفتح بيت المقدس " (١) .

نستنتج مما ذكره العماد أن مجالس السلطان لم تقتصر على الشعر والأدب فحسب ، وإنما كانت مجالس ذات صبغة دينية ثقافية ، لا تخلو من الحديث عن الجهاد ومحاربة الأعداء .

ومن هذه المجالس ، ذلك المجلس القدسي الجليل يوم الفتح ، حيث توافد الناس إليه من كل فج عميق ، منهم : العلماء ، والمتصوفة ، والفقهاء ، والقرّاء ، والشعراء ، كلّ يتحدث في مجالسه ، مستبشراً بهذا النصر ، خاشعاً مهتلاً ، ويصف العماد هذا المجلس ، فيقول :

(١) سنا البرق : ٢٦٨/١ ، كتاب الروضتين : ٦٥/٢ .

" وجلس السلطان بالمخيم ظاهراً القديس للهنا ، وللقاء الأكابر والأمرء ، والمتصوفة والعلماء ، وهو جالس على هيئة التواضع ، وهيبة الوفاق ، بين الفقهاء ، وأهل العلم جاساً الأبرار ، ووجهه بنور البشر سافر ، وأهله بمنزلة النجح ظافر ، وبابه مفتوح ، ورفده منوح ، . . . ، قد خلت له حالة الظفر ، وكأن دسسته به هالة القمر ، والقرأ جليوس يقرؤون ، ويردون ، والشعراء وقوف ينشدون ويستشدون ، والأعلام تبرز لتتشعر ، والأقلام تبرز لتبشر . . . " (١) .

وكان صلاح الدين يجلس في الأعياد لسماع الشعر ، فهذا الرشيد النابلسي ينشده ، يوم عيد الأضحى سنة ٥٨٨ هـ ، قصيدة ، يقول فيها :

وَأَبْنَاهَا لَوْلَا تَهْزُلُ عَيْنِي	هَذَا لَمَّا قُلْتُ فِي التَّهْزُلِ شَمْسِي
وَلَكِنَّتْ مَدَائِحُ الْمَلِكِ النَّسَا	صِرَ أَوْلَى مَا فِيهِ أَعْمَلُ فَكُنْصِي
مَلِكٌ طَبَقَ الْمَمَالِكُ عَسْدًا	بِثَلِّ مَا أَوْسَعَ الْبَرِّيَّةُ بِرَّي

ثم قال في آخرها :

نَبِّتْ مَا تَبْتَفِي مِنَ الدِّينِ وَالْدُّنَا	يَا ، فَتِيهَا عَلَى الْمُلُوكِ وَفَخْرَا
فَتَمَلُّ الْأَعْيَادَ صَوْمًا وَفَطْرًا	وَتَلْقَى الْهَنَا فَطْرًا وَنَحْوًا (٢)

كان صلاح الدين في هذه المجالس يفهم الشعر ويتذوقه ، فيثنى على بلاغة بعضهم أحياناً ، ويصحح ما لم يوافق الطبع والذوق ، بما تجود به قريحته وثقافته الأدبية حيناً آخر ، فقد أثنى على بلاغة الشاعر الفقيه البليغ السخاوي (٣) .

(١) كتاب الروضتين : ٩٦/٢ ، وانظر سنا البرق : ٣١٣/١ ، ٣١٤ ، وانظر أيضاً مجلساً آخر لصلاح الدين في القدس في كتاب الافادة والاعتبار/ ١٥١ ، عيون الأنبياء/ ٦٨٨ ، سير أعلام النبلاء : ٥٨٢/٢١ ، طبقات الشافعية : ٣٤٨/٧ ، الدارس : ١٨٠/٢ .

(٢) كتاب الروضتين : ٢٠٨/٢ .

(٣) الخريدة ، قسم شعراء مصر : ١٧٣/١ .

والسخاوي : موسى بن علي أبو عمران السخاوي ، من الأعمال الغربية بمصر ، كان يسكن الاسكندرية ، وكان فقيهاً ، وشاعراً مجيداً ، مدح القاضي الفاضل ، وقد سمي بليفاً لشعره الذي هو أحسن من شعره . توفي فجأة ، وجد ميتاً في فراشه بمنزله في ذي الحجة سنة ٥٧٢ هـ . انظر الخريدة ، قسم شعراء مصر : ١٧١/١ ، ١٧٣ ، ولم يرو العماد ما قاله صلاح الدين في بلاغة هذا الشاعر .

وكتب نشوالة أحمد بن نغادة الدمشقي أبياتا سنة ٥٨٨ هـ إلى العماد الأصفهاني ، يدعو فيها إلى دمشق ، وكان أوان الشمس ، منها هذا البيت :

فَقُمْ يَا عِمَادَ الدِّينِ تَحْطِ بِأَكْلِهِ وَلَا تَشْنِ عَنْهُ عَزْمَةَ السَّيْرِ تَسْبِقُ

فعرض العماد على السلطان ما كتبه نشوالة الدولة ، فقال له السلطان : " ما قلت في جوابه " ، فقال العماد من جملة أبيات واصفا حبّات الشمس :

بَدَتْ بَيْنَ أَوْرَاقِ الْخُصُونِ كَأَنَّهَا كُرَاتُ نَضَارٍ فِي لُجَيْنٍ مَطْرَقٍ

فقال السلطان : " تشبيه الورق باللجين غير موافق ، فإن الورق أخضر " ، فقال العماد : " كرات نضار بالزمرّد محذوق " (١) . فغير الشاعر المشبه به ليطابق المشبه .

إن هذه المجالس التي كانت تعقد بحضرة السلطان صلاح الدين لهي ذات دلالات واضحة ، وأولى تلك الدلالات : أن السلطان صلاح الدين كان يحب الشعر والشعراء ، فيستمع لهم ، ويغدق الأموال عليهم ، والدلالة الثانية : أنه كان ذا ثقافة أدبية ونقدية واسعة ، والدلالة الثالثة : أن الحركة الشعرية بل الفكرية والثقافية كانت نشطة ابان عصره .

* * * *

(١) أبيات نشوالة في كتاب الروضتين : ج ٢ / ٢٠٩ ، ٢١٠ ، وأبيات العماد في الديوان / ٣١٦ ، ٣١٧ ، وكتاب الروضتين : ٢ / ٢٠٢ .

كانت علاقة صلاح الدين بالشعراء علاقة حسنة ، فقد أولاهم اهتماما بالغا ، ورعاهم رعاية حقة ، ومن ذلك أنه كان لا يبخل عليهم في العطاء ، فكان كثيرا ما يمنحهم جوائز قيمة : من أموال ، وخلع ، واقطاعات ، وكان يصرف لبعضهم رواتب في كل شهر ، وكان يولي بعضهم مناصب رفيعة أو يقرهم عليها في دولته ؛ لعلهم انهم يستحقون ذلك ، كما كان يهتم بقصائد الشعراء التي ترسل إليه من الأقطار الأخرى فيرسل لأصحابها الجوائز والاعطيات ، وقد ظهر في دولة صلاح الدين عدد كبير من الشعراء ، وكانت علاقاتهم بصلاح الدين علاقة وطيدة ، ومن هؤلاء عرقلة الكلبي ، الذي كان يرافق صلاح الدين منذ سنة ٥٥٢ هـ ، فقد أشار إلى نجاة صلاح الدين وصاحب له يقال له "عبيد" من زلزال كان قد ضرب حماة في تلك السنة ، يقول :

قُلْ لَصَلَّاحِ الدِّينِ رَبِّ النَّاسِ . بَلِّغْ "عَبِيداً" كُلَّ مَا أَمَلَسَهُ
بِثَغْلِهِ لَمَّا تَحَايَبْتُمُوهَا . سَلَّمَكَ اللَّهُ مِنَ الزَّلْزَلَةِ

وكان عبيد هذا الوصف بالثقل في بيت بمدينة حماة يوم الزلزلة ، ف وقعت المدينة بأسرها سوى البيت الذي هما فيه (١) .

وكان صلاح الدين مديق عرقلة في شهابه ، وكان يحبه ويستحضره ، ويألف سماع أحاديثه ، إن قدم إلى مجالسه في الشام قبل تملكه ، فقد انشده العرقلة أوان الورد قوله :

أَقْسَمْتُ مَا الْوَرْدُ فِي الْأَزْهَارِ قَاطِبَةً . إِلَّا كَيْلَ صَلَّاحِ الدِّينِ فِي النَّاسِ
الْوَارِثِ الْمَجْدِ مِنْ آبَائِهِ أَبَدًا . مِثْلَ الْخِلَافَةِ فِي أَوْلَادِ عَبَّاسِ (٢)

وكان صلاح الدين مشغوفاً بنكته ، كلفا بسماع نتفسه ، فقد كان عرقلة شاعرا حلوا العنادسة لطيف النادرة (٢) .

(١) ديوان عرقلة / ٨٨ ، كتاب الروضتين : ج ١ / ٢ / ٢٦٨ .

(٢) ديوان عرقلة / ٥٣ ، ٥٤ ، الخريدة ، قسم شعراء الشام : ١ / ٢١٠ .

(٣) الخريدة ، قسم شعراء الشام : ١ / ١٢٨ .

ولما تولى صلاح الدين إياالة دمشق في عهد نور الدين ، مدحه العرقلة بأبيات تقدم ذكرها (١) ، ولما تردد صلاح في الخروج إلى مصر في الحملة الثانية مع عمه أسد الدين شيركوه ، خرج له العرقلة ، وأسهم بدوره في اقناعه وحثه على الذهاب إلى مصر ، كما في قوله :

إِلَى كَمْ ذَا التَّوَانِي فِي دِمَشْقٍ وَقَدْ جَاءَتْكُمْ مُصْرُتُهُمْ سَادِي (٢)

وحين مرَّ عرقلة بدار صلاح الدين ، حين ترك الشام ، فوجدها مغلقة ، تأسف لذلك ، وحزن لفراق صديقه حزنا شديدا ، مما يدل على حبه له وعلاقته الوطيدة به ، وقد عبر عن ذلك بقوله :

عَبَّرْتُ عَلَى دَارِ الصَّلَاحِ وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ الْقَمَرِ الْوَضَاحِ وَالْمَنْهَلِ الْعَسْبُ
فَوَاللَّهِ لَوْ لَا سُرْعَةُ مِثْلٍ عَزَمِيهِ لَفَرَقَهَا طَرْفِي وَأَحْرَقَهَا قَلْبِي (٣)

ولعل عرقلة كان يريد الذهاب مع صلاح الدين إلى مصر ولكنه لم يتمكن من ذلك .

وبعد أن استتبت أمور صلاح الدين في مصر بعد وزارته ، لم ينس شاعره وصديقه عرقلة ، فبعث إليه الذهب ، وحمل رسوله تحيته وسلامه له ولأهل دمشق ، فقال العرقلة :

صَلَاحُ الدِّينِ قَدْ أَصْلَحَتْ دُنْيَا شَقِيٍّ لَمْ يَبْتَ إِلَّا حَرِيصًا
أَتَى مِنْكَ السَّلَامُ لَنَا عُمُومًا وَجُودُكَ جَاءَنِي وَخُدِّي خُصُوصًا
فَكُنْتُ كَيُوسُفَ الْمَدِّيْقِ لَمَّا تَلَقَّى مِنْهُ يَعْقُوبُ الْقَمِيصَ (٤)

ومدحه عرقلة مشيرا إلى وزارته :

أَصْبَحَ الْمَلِكُ بِضَدِّ آلِ عَلِيٍّ مُشْرِقًا بِالطُّلُوكِ مِنْ آلِ "شَانِي" (٥)

(١) أنظر الفصل الأول من هذه الدراسة ، ترجمة الشاعر .

(٢) ديوان العرقلة ٣٢ / ، الخريدة ، قسم شعراء الشام : ٢٠٠ / ١ ، كتاب الروضتين :

ج ١ ق ٢ / ٣٩٤ .

(٣) ديوان الشاعر ١٤ / ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٣٩٥ .

(٤) ديوان الشاعر ٥٧ / ، الخريدة ، قسم شعراء الشام : ٢١١ / ١ .

(٥) ديوان الشاعر ٣٧ / ، الخريدة ، قسم شعراء الشام : ٢٠٣ / ١ ، مفرج الكروب :

٢٢٠ / ١ ، البداية والنهاية : ٢٨٧ / ١٢ ، حسن المحاضرة : ٢٨ / ٢ .

وكان صلاح الدين قد وعد عرقلة في أحد مجالسه ، ان ملك مصر أعطاه ألف دينار ، فلم ينس الشاعر هذا الوعد ، ولم يكتف بما وهبه إياه صلاح الدين من الذهب ، فطفق يطالب صلاح الدين ، وهو بمصر ، بأن يفي بوعده ، ويبعث له ما وعده به ، وكانت بنفسه رغبة ملحّة للذهاب إليه هناك ، ولكن خوفه من الفرنج الذين كانوا يترصدون من يسلك طريق فلسطين من المسلمين ، جعله يتردد في ذلك فقال ، والحيرة تملأ قلبه :

إليك صلاح الدين مولاي ، اشتكيتني	زماناً على الحرّ الكريم يجور
تري أبصر الألف التي كنت وأعدي	بها في يدي قبل المكات تصير
وهيها وإلا فرنج بيني وبينكم	سياج ، قتيل دونه وأسير
ومن عجب الأيام أنك ذو غنى	بمصر وأنت في دمشق فقير (١)

وعلى الرغم من كل المخاطر التي كانت تلوح أمام عينيه ، إلا أن الثروة دفعت به للذهاب إلى صلاح الدين بمصر ليكون بقربه ، وما إن حل أرض مصر حتى تغمره السعادة ، فينطلق لسانه بحمد الله الذي أنزل الكفار ، ويخاطب أهل مصر مشيراً إلى أبي نواس الذي حل بها أيام الرشيد ، يقول :

الحمد لله السميع العليم	قد هلك الشرك وصل الصليب
يا ساكني أكناف مصر أنسا	أبو نواس والصلاح الخصيب (٢)

(١) ديوان عرقلة / ٥٠ ، الخريدة قسم شعراء الشام : ٢٠٨ / ١ ، ٢٠٩ .

(٢) ديوان عرقلة / ١٣ ، الخريدة قسم شعراء الشام : ١٧٩ / ١ .

والخصيب : أبو نصر بن عبد الحميد ، كان صاحب ديوان الخراج بمصر لما زارها أبو نواس ، وقد مدحه أبو نواس ، فمن ذلك قوله مخاطباً أهل مصر :

فإن يك فيكم إناك فرعون باقياً فإن عصا موسى بكف خصيب

ديوان أبي نواس / ٣٧١ ، وشرح الديوان / ١٤٥ ، وفيات الأعيان : ٩٦ / ٢ ، ٩٧ .

وانظر أيضاً وفيات الأعيان : ٦١ / ١ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ٣٥٤ / ٦ .

ومدح عرقلة صلاح الدين بقصيدة عرض فيها بوعده الذي وعده اياه قائلا :

قُلْ لِلصَّالِحِ مُغِيثِي عِنْدَ إِعْسَارِي يَا أَلْفَ مَوْلَايَ ، أَيْنَ الْآلِفُ بَرِّيئَارِ ؟
أَخْشَى مِنَ الْأَسْرَانِ حَاوَلْتُ أَرْضَكُمْ وَمَا تَفْعِي جَنَّةُ الْفِرْدَوْسِ بِالنَّارِ
فَجَدْتُ بِهَا عَاضِدَاتٍ مُسَطَّرَةً مِنْ بَعْضِ مَا خَلَّفَ الطَّائِفِيُّ أَبُو الْعَارِ (١)

ووفى صلاح الدين لصديقه عرقلة بما وعده ، فأعطاه من خاصته ما عليه ، وأخذ له من اخوته مثلهما ، بيد أن النية ادركت عرقلة فجأة سنة ٥٦٧ هـ (٢) .

لقد كان عرقلة الكلبى أكثر من شا عر عند صلاح الدين ، فكان صديقه الذي قضى معه فترة شبابه ، وهو الذي لم يأل جهدا في الوقوف معه عند ما تشدد به الأزمات ، فهو الذي حثه على الذهاب إلى مصر ، وأمل أن يكون بها ذاشان ، وهو الذي دعاه للصبر معزيا عند وفاة أحد ابنائه قائلا :

صَبْرًا صَالِحَ الدَّيْسَنِ يَا رَبَّ السَّمَاكِ وَالْوَفَا (٣)
فلا غرو إن خصه صلاح الدين برعايته وعطفه وعطاائه .

* * * *

-
- (١) ديوان عرقلة / ٤٩ ، ٥٠ ، مرآة الزمان : ق ١ ج ٨ / ٢٨٦ ، شذرات الذهب : ٢٢٠ / ٤ .
(٢) مرآة الزمان : ق ١ ج ٨ / ٢٨٢ ، شذرات الذهب : ٢٢٠ / ٤ .
(٣) ديوان عرقلة / ٦٥ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٧١١ .

أما العماد الأصمهباني فلم تكن بينه وبين صلاح الدين علاقة فعلية حتى سنة ٥٦٢ هـ ، وإنما كانت علاقة العماد بوالده نجم الدين أيوب ، وكانت تلك العلاقة قديمة منذ أن كان أيوب والي تكريت (١) ، فلما سمع نجم الدين بنزول العماد دمشق سنة ٥٦٢ هـ اتصل به ، فدحه العماد بقصيدة ذكر فيها صلاح الدين ، وكان حينئذ قد توجه مع عمه أسد الدين شيركوه إلى مصر في الحملة الثانية ، كما تقدم ، يقول :

بُطْلُكُ مِصْرَ وَنَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ غَدًا تَحْدُلِي النُّفُوسُ بِتَأْنِيْسٍ وَتَطْيِيْسٍ
وَيُسْتَقْرُ بِمِصْرٍ يَوْسُفٌ ، هَرَمٌ تَقْرُبُ عَدَا التَّنَائِي عَيْنُ يَعْقُوبِ (٢)

وعاد صلاح الدين من مصر إلى الشام فدحه العماد بقصيدة كانت بها بدايعة العلاقة بين الطرفين ، وقد ذكر العماد في هذه القصيدة ما قام به صلاح الدين بمصر من أعمال بطولية ضد الصليبيين ، كحماية الاسكندرية ، ومقاومة شاور الذي اتفق مع الفرنج ضد أسد الدين وابن أخيه . . . ، ثم هنأه بالعودة من مصر ، وأمل له مستقبلا عظيما (٣) .

أعجب صلاح الدين بشعر العماد ونثره ، وانتظمت العلاقة بينهما (٤) ، وأخذ العماد يتردد على منزل صلاح الدين ، ويعمل له أبياتا في الشوق ، كان صلاح الدين يروص بها كتبه إلى من يشاق إليه ويحبه ، فمن نظمه له في ذلك قوله :

وَحَرْقَةُ الْوَدِّ الَّذِي بَيْنَنَا وَمَا لَنَا مِنْ كَرَمِ الْعَهْدِ
مَا نَقَضَتْ عَهْدِي لَكُمْ جَفْوَةً وَلَا أَحَالَتْ حَالِيَّ وَدِّي
وَلَا تَفَيَّرَتْ ، وَيَأْبَى الْهَوَى وَذَاكَ فِي قُرْبٍ وَفِي بُعْدِ (٥)

- (١) أنظر سنا البرق : ١٦/١ ، ١٧ ، كتاب الروضتين : ج١ ق ٢/٣٦٩ .
- (٢) ديوان العماد ٨٣/ ، سنا البرق : ١٩/١ ، كتاب الروضتين : ج١ ق ٢/٣٦٩ ، البداية والنهاية : ٢٧٢/١٢ .
- (٣) أنظر الفصل الأول من هذه الدراسة ص ٤٦ .
- (٤) سنا البرق : ٢١/١ ، كتاب الروضتين : ج١ ق ٢/٣٧٢ ، ٣٧٣ .
- (٥) الديوان ١٣٦/ ، سنا البرق : ٢٣/١ .

ولم ينس صلاح الدين صديقه الجديد لما أصبح وزير مصر ، فبحث إليه بعمامة
مذهبة ، فكتب العماد إليه يقول :

أَمَّا الْعِمَادُ فَقَدْ تَضَاعَفَ شُكْرُهُ نَعْمَاكَ ، شَكَرَ الرُّوضُ نَعْمَى الصَّيِّبِ
لِعِمَامَةٍ نَدَّ هَبِيَّةً كَعِمَامَةٍ يَبْدُ وَبِهَا بَرَقَ الطَّرَازُ الْمُغْرِبِ
مَا كَانَ أَحْسَنَ حَالَهُ لَوْ أَنَّسَهُ كُسِفَتْ عِمَامَتُهُ بِشَوْبٍ مَذْهَبِ (١)

وبعد ذلك كتب العماد إليه يهنئه بوزارته كما تقدم ، ولم تنقطع المراسلات بين
صلاح الدين والعماد ، فكان العماد يستغل كل فرصة لدخوله ، وكان يرسل له أبيات
الشوق والعماد ، يومئذ ، ينعم بالمنزلة الرفيعة عند نور الدين . (٢)

ولما توفي نور الدين وساءت الأمور بالشام ، قرر العماد الرحيل إلى بغداد ، إلا
أنه سمع بقدم صلاح الدين سنة ٥٧٠ هـ ، فعاد أدراجه ، ولقيه بحمص ، فنظم
قصيدة في التشويق إلى دمشق ، جعل صلاح الدين مخلصها ، كما يبدو في قوله ،
مشيرا إلى ما قدمه صلاح الدين من خير وإصلاح :

وَلِلنَّاسِ بِالْمَلِكِ النَّاصِرِ الْمُنْتَهَى صَلَاحِ صَلَاحٍ وَنَحْرٍ وَخَيْسَرٍ (٣)

وكان السلطان في ذلك الوقت قد أخذ بعليك ، وهو يعد العدة للوحدة ، فهتأه
العماد بذلك ، كما تقدم .

-
- (١) ديوان العماد / ٨٥ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٤٤٧ .
(٢) أنظر الخريدة ، قسم شعراء مصر : ٩/١ - ٥ ، ٢٢ ، كتاب الروضتين :
ج ١ ق ٢ / ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٦١ ، ٥٨٦ ، مفرج الكروب :
١٧١/١ ، ١٧٢ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٣ .
(٣) الديوان / ١٨٥ ، ١٩٠ ، الخريدة ، بداية قسم شعراء الشام : ١٩/ ، ٢٧ ،
معجم الأدباء : ١٩/١٥ ، ١٧ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٦٢٧ ، ٦٣٠ .

واستمر السلطان بتكريم العماد ، وقبوله إياه ، ينزل العماد بنزواه ويرحل برحياه دون تقليد رسمي ، اوجود القاضي ، كاتبه ووزيره ومستشاره ، وظل العماد يفضي مجالس السلطان في كل وقت ، وينشده مدائحه ، حتى نظمه السلطان في سلك جماعته عن طريق القاضي الفاضل نفسه ، إذ طلب القاضي الفاضل من السلطان تعيينه في ديوان الانشاء ، موضعا أنه لا يستطيع ملازمته بصورة دائمة في حله وترحاله ، إضافة إلى أن العماد كان يجيد الفارسية ، وهذا ما يحتاجه السلطان من أجل مكتبة الأعاجم ، فوافق على تعيينه (١) ، وذلك بدأت فترة جديدة في العلاقة بين الطرفين ، امتدت إلى وفاة السلطان سنة ٥٨٩ هـ .

انطلق العماد يخط طريقاً جديداً في ظل دولة صلاح الدين ، فبينهم في أنبياءها وإزارة بميشة راضية ، يؤرخ في رسائله كما فعل القاضي الفاضل ، حروب صلاح الدين وأعماله ، ويوجد في شعره بطاه الذي شهد أغلب غزواته وفروحاته ومماركه ، فلم يتخلف سوى مرة واحدة سنة ٥٧٣ هـ في غزوة " غزة " و " عسقلان " و " الرملة " (٢) ، واعتذر عن ذلك بقوله :

فَمِنْ لِي سِرّاً إِلَى الْجِهَادِ ، وَإِذَا
أَمْسَ يَتَوَى فِي الْجَيْشِ جَاشِي وَلا قَسْو
بِالْخ فِي الْجِهَادِ جُهْدٌ مَسِيرِي
سَي مِرَى مَوْتوراً إِلَى مَوْتُورِ (٣)

ويعد ذلك نرى العماد يحبس نفسه على صلاح الدين ، ولم يلجأ إلى غيره من الأراء والحكام ، حتى توفي صلاح الدين .

-
- (١) انظر الخريدة ، قسم شعراء مصر : ٥/١ ، سنا البرق : ٨٥/١ ، ٩٠ ، معجم الأدباء ١٨/١٩ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢/٦٣١ ، ٦٣٢ ، رغبات الأعيان : ١٤٩/٥ ، والأدب في بلاد الشام / ٦٧٥ ، والأدب في العصر الأيوبي : ٢١٣/٠
(٢) انظر البرق الشامي : ٣٢/٣ ، ٣٤ ، سنا البرق : ١٢٨/١ .
(٣) الديوان / ٢٠٩ ، البرق الشامي : ٣٣/٣ ، سنا البرق : ١٢٨/١ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢/٦٩٨ .

ولا شك أن فترة الاتصال الطويلة ما بين صلاح الدين والشاعر ، قد أتاحت فرصة التعرف الوثيق الدقيق على البطل ، وبالتالي مكّنه من أن يصور لنا بعض معالم شخصيته ، ومراحل حياته ابان فترة الاتصال ، تصويرا يكاد يكون دقيقا يتسق في كثير من الأحوال مع ما أورده المؤرخون .

تتبع العماد عمل صلاح الدين في وحدة البلاد ، ان نجد له كثيرا من الشعر في ذلك ، كما تتبع مماركة ضد أعدائه فمجد بطاوته ، وسجل كثيرا من نجاحاته وأشواق بجيشه ، وقد شن حربا شعواء في شعره على الصليبيين وملكهم ، وقد تم الاستشهاد بأبيات كثيرة على ما تقدم .

كان العماد اذا ما هدأت الحرب بين صلاح الدين وأعدائه ، يجلس بمجلسه ، ينشد غزوة قصائده ، ويستمتع لحن يخضر مجالسه من الشعراء والعلماء والفقهاء وغيرهم ، ويشاركهم في تلك المجالس ، لاسيما الأدبية منها .

كان السلطان صلاح الدين يصحبه معه حيثما يتجه ، فقد ذكر ان العماد رحل معه ومع ابنائه إلى الاسكندرية اسماع الحديث ، فيشرع العماد بإنشاء السلطان مقطوعات في الطريق ، وكان ذلك سنة ٥٧٢ هـ . من ذلك قوله :

أُحِبُّكُمْ حُبَّ النَّفْسِ بَقَاءِ هَكَذَا وَاشْتَأْتُكُمْ شَوْقَ الظَّمَاءِ إِلَى الْوَرْدِ
تُرَحَّلْتُ عَنْكُمْ ، وَالْفَوَادُ بِحَالِهِ صُبُورٌ عَلَى الْبَلْوَى ، مُقِيمٌ عَلَى الْوَجْدِ (١)

وقد بلغت مدائح العماد التي وصلت إلينا في صلاح الدين بضما وعشرين قصيدة ذكرت منها أبيات كثيرة فيما تقدم .

ولم ييخل صلاح الدين على العماد منذ أن عرفه ، فقد تقدم ان صلاح الدين بعث له عمارة مذهبة أول ملكه مصر ، وطالب العماد من صلاح الدين جارية من سبي الاسطول سنة ٥٧٠ هـ بأبيات هي :

(١) الديوان / ١٢٨ ، سنا البرق : ١ / ١٢٠ ، وانظر كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٦٩٠ .

يُرْوِيكَ الْمَلُوكُ مُلُوكِيَّةً تُبَدِّلُ الْوَحْشَةَ بِالْأُنْسِ
فَتُوقِعُ الْيَسْمُ بِمَطَاهِرِهِ بِمَا سَنَسِبِي الْأَسْطُولُ بِالْأُنْسِ
لَا زِلْتَ وَهَابِيًا لِمَا حَاذَرَهُ سَيِّفُكَ مِنْ حُورٍ وَمِنْ لُحْسِ (١)
وَأَنْتِي أَمَلٌ مِنْ بَعْدِهِ

فوجهب له السلطان ما سأل ، وأعطاه عام الفتح من سياباه ما أمل . (٢)

وعرف صلاح الدين مقدار عشق العماد للكذب فأعطاه مئتي دينار ممن كتب كان العماد
قد اشتراها من القصر الفاطمي (٣) .

وظل العماد يحتل مركزاً رفيعاً في ظل دولة صلاح الدين ، ويسجل انتصاراته
ومفاخره وجهاده في سبيل الله حتى انفذ الماه قضاءه في السلطان ، فبكاه العماد أحس
بكاه ، ورثاه أصدق رثاء بقصيدة طويلة ، بين فيها ما أصاب الملك من تشتت وضياح ، وأشاد
ببطاله المجاهد الصادق ، وصفاته وحسن سيرته .

* * *

-
- (١) اللعن : الذين في شفاهم سواد " المحيط " (لعن) .
(٢) الديوان / ٢٤٠ ، البرق الشامي : ١١٩/٥ ، ١٢٠ ، سنا البرق : ١/٢٢٦ .
كتاب الروضتين : ٤٦/٢ .
(٣) أنظر سنا البرق : ١١٦/١ ، وأنظر حول عطاء صلاح الدين للعماد : الديوان /
٢٤٣ ، ٢٤٥ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٢٨٣ ، ج ٢ / ٩ ، الكواكب الدرية /
٢٠٤ ، وغيرها من المصادر .

جاء صلاح الدين إلى الوزارة بعد عمه ، وقد تولى له الكتابة القاضي الفاضل ، الذي كان كاتباً لعمه من قبل (١) ، ثم قُومَ إليه صلاح الدين الوزارة وديوان الجيش (٢) ، وهذا الفاضل في دولة صلاح الدين " حاكماً على الجميع ، وهو المشار إليه بالسيف والقلم ، ولا يصدر السلطان إلا عن رأيه ، ولا يمضي في الأمور إلا بمضائه " (٣) . وذكر أن السلطان صلاح الدين قال : " لا تظنوا أنني ملكة البلاد بغيركم ، بل بقاء القاضي الفاضل " (٤) .

حقاً لقد قام الفاضل بمساعدة صلاح الدين في إدارة دولة ولته ، فقد قَامَ باصلاحات سياسية ومالية وحربية (٥) ، يقول أبو شامة في حوادث سنة ٥٨٦ هـ ، لما كان السلطان محاصراً للحكة : " ... وكان القاضي الفاضل - رحمه الله - في هذه الأوقات بالديار المصرية ، يرتب للسلطان أموره ، من تجهيز العساكر ، وتجهيز الأسطول ، وحمل المال ، ونقل الميرة إلى مكة ، والسلطان يكاتبه في مهماته ، وترجع أجوبته بأحسن عباراته مشيراً وناصحاً وسليماً ، ويأخذ عن مصالح الإسلام متقصياً " (٦) .

ومن ذلك أنه كان ينوب عن السلطان في البلاد ، مع أحد أفراد أسرة السلطان ، إذا ما غاب لمحاربة الأعداء (٧) .

-
- (١) كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٤٠٣ .
 - (٢) وفيات الأعيان : ١٥٨ / ٣ ، صبح الأعشى : ١٣٠ / ١ ، ١٣١ .
 - (٣) مرآة الزمان : ج ١ ق ٨ / ٤٣٤ .
 - (٤) نفسه : ج ١ ق ٨ / ٤٧٢ .
 - (٥) انظر الكتاب الثاني الصادر عن السلطان إلى نور الدين ، بخصوص غزوة الكرك ، في كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٥٢٦ - ٥٢٧ ، وانظر حول اصلاحاته أيضاً كتاب الروضتين : ٤ / ٢ ، ٥٥ .
 - (٦) كتاب الروضتين : ١٦٥ / ٢ ، وانظر الهداية والنهاية : ٣٦١ / ١٢ .
 - (٧) انظر كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٧٠٧ ، و ج ٢ / ٥١ ، ١٨٢ ، ومفاتيح الكروب : ١٥٢ / ٢ .

كسان الفاضل مخلصا لملاح الدين ، محبا له حباً عظيماً ، فكان
 يخفف عنه حُزنه ، ويبعث في نفسه الصبر والجلد ، ويطرد عنه الهم والضجر ،
 ذكر أبو شامة أن السلطان قد اعتراه الهم وتنجس بمن على يابه ، لما سمع أن
 جماعة من أعوان الدولة الفاطمية أرادوا إعادة الحكم الفاطمي سنة ٥٨٤ هـ ، وهو
 على حصار " صند " ، فدخله القاضي الفاضل ، وهون عليه الأمر ، فحسن
 جملة ما قاله له : " يجب عليك أن تشكر الله على هذه النعمة . . . ، أليس
 لم يلبّ دعوتهم أحد ؟ فطبت نفسك ، وزد بمنزلك عند الله تعالى أنساً . . . ،
 وقد اجتمع أوائك المتفرقون على بابك . . . ، فأكرم وفورك . . . " .
 فأغرورقت بالدموع عيناه ، وبأسماح يده ، وأقسم أنه ما عاش لا يردّ قاصدا ولا يصنّد
 وانصد (١) .

ولما اشتد أمر الفرنج على عكا سنة ٥٨٦ هـ بمش القاضي الفاضل
 كتابا يهتّون فيه الأمر على السلطان ، ويبين فيه مدى حبه له ، يقول
 في الكتاب : " وما في نفس المملوك شائبة إلا بقية هذا الضعف الذي يجسيم
 مولانا ، فأنه بقاؤنا ، ونفديته بأسماعنا وأبمارنا " (٢) .

أحسب السلطان القاضي الفاضل ، فركن إليه ، واعتمد عليه ، واستأنسه
 برأيه ومشورته ، واصطحبه في كثير من غزواته ، ولكن الأمر الذي لا يسد من ذكره ،
 أنه على الرغم من المكانة التي حظي بها الفاضل في دراسة صلاح الدين ،
 فإننا لا نجد شهرا في تجديد صلاح الدين كما نجد في أدبه النثري ،

(١) كتاب الروضتين : ١٣٨/٢ ، وانظر الكامل : ٢٤/١١ ، ١٥٩ ، ومنج الكروب :

٢٧٩/٢ ، ٢٨٠ .

(٢) كتاب الروضتين : ١٦٢/٢ ، الهداية والنهاية : ٣٦١/١٢ .

ولم يزل ذاك يرجع، كما يقول الدكتور أحمد بدوي إلى أن "الفاضل قد أشبع رغبته فيما يريد من الحديث عن صلاح الدين في رسائله الكثيرة ، فقد سجل فيها كل شيء عنه ، حتى لم يفتن بحاجة إلى المزيد فـسـي الشعر" (١) .

ولا بد من القول إن الفاضل كان يتصدر مجالس السلطان حين يناد إليه الشعراء ، وكانت تصل إلى مجالس السلطان قصائد كثيرة من شعراء الأقطار ، فيتولى القاضي الفاضل حين وجوده عرضها على صلاح الدين ، وقد أنشأنا ببعض الشعراء إلى ذلك من خلال مدحهم للقاضي الفاضل ، من مثل ابن سناء الملك ، حيث يقول :

كُلُّكَ لَمْ يُعْلَسْ بِأَشْـهُ عَارِي وَلَمْ يُقْرَأْ مَدْحِي (٢)

وابن التعاويذي الذي كان يرسل قصائده إليه لينفذها إلى السلطان صلاح الدين ، ومن ذلك أنه بعث إليه قصيدة يمدح بها ، ويسأله عرض قصيدته التي مدح بها صلاح الدين سنة ٥٧٠ هـ . ، يقول في تلك القصيدة :

فَارْفَعْ إِذَا عُرِضَتْ عَلَيْكَ قَصَائِدِي مَدْحِي إِلَى الْهَائِكِ الرَّحِيمِ الْعَابِلِ (٣)

* * *

-
- (١) القاضي الفاضل - أحمد بدوي - ص ٢٧ .
 (٢) ديوان ابن سناء الملك / ٦٠ ، ٦١ ، وأنظر أيضا ديوانه / ٢٠٠ ، ٢٤٠ .
 (٣) ديوان ابن التعاويذي / ٣٣٦ .

وهذا أسامة بن منقذ كان في خدمة الملك المعادل نور الدين سنة ٥٤٩ هـ ، وهي السنة التي ملك فيها نور الدين دمشق (١) ، وكان صلاح الدين في تلك الفترة ملازماً لنور الدين (٢) ، وهذا يكون الاثنان قد عملا في خدمة نور الدين معاً .

ويخرج صلاح الدين في الحملات الثلاث إلى مصر ، ويعلم الشاعر عن بطولته في تلك الحملات ، ويعلم ما قام به مع عمه ، من القضاء على شاور ، ومدّ الفرنج الطامعين في بلاد مصر ، فيرسل إليه قصيدة ، أولها :

" سَأَمَّ عَلَى مِصْرَ لَا رَيْغَ يَذِي سَلَامٌ "

ومنها :

التَّائِبُ الْمَلِكُ الْمُؤَنِي بِذِمَّتِهِ
وَرَدَّ طَائِفَةَ الْإِفْرَنْجِ بِحَسَبِ مَا
وَمَنْ نَدَى كَفَّ يُفَنِّي عَنِ الدَّيَمِ
رَجَاءُ مِنْ مُلْكٍ مِصْرِي كَانَ فِي الْحُلُمِ (٣)

ويقول من قصيدة أخرى :

وَجَاءَ هَذَتْ حِزْبَ الْكُفْرِ حَتَّى رَدُّتَهُمْ
خَزَايَا عَلَيْهِمْ خَبِيَّةُ الذُّلِّ وَالسُّرُورِ (٤)

وكتب إليه قبل نزوله الشام سنة ٥٧٠ هـ ، يحثه على امتلاكه :

فَسِرُّ إِلَى الشَّامِ فَالْمَلَائِكَةُ الْأَبْشَارُ تَلْقَاكَ جَمْعُهُمْ مَدَدًا (٥)

-
- (١) كتاب الروضتين : ج ١ ، ق ١ / ٢٣٥ .
(٢) انظر سيرة صلاح الدين في الفصل الأول من هذه الدراسة .
(٣) كتاب الروضتين : ج ١ ، ق ٢ / ٣٩٥ ، والبيتان غير موجودين في ديوان الشاعر .
(٤) نفسه : ج ١ ، ق ٢ / ٣٩٥ ، والبيت غير موجود في ديوان الشاعر .
(٥) كتاب الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ / ٦٠٥ ، والبيت غير موجود في الديوان .

وهذا يدل على مدى إعجاب الشعراء ببطولة صلاح الدين ، وقدرته العسكرية والسياسية ، كما يشير إلى استمرار العلاقة بين الطرفين ، على الرغم من البعد المكاني ، حيث كان الشعراء يقيمون في حصن " كيفا " (١) .

وأما نزل صلاح الدين الشام سنة ٥٧٠ هـ استدعاه إلى دمشق وقد جاوز الثمانين (٢) ، فلما وصل أسامة انشده قصيدة مرّ ذكر بيتين منها في مجالس السلطان فمما تقدم . وعرف السلطان حال أسامة فأعطاه داراً واقطاعاً ، " وإذا كان السلطان بدمشق جالساً وآتسه ، وذاكره في الأدب ودارسه " (٣) ، ولعل ما ورد في مجالس السلطان عن أسامة ، فمما تقدم ، يفي لتوضيح ذلك .

وكان السلطان صلاح الدين مشغولاً بقراءة ديوان أسامة ، فقد أعجب بشعره ، واستحسن روائع قصائده ، مما دفع العماد أن ينسج نسجها .

كان صلاح الدين يستشير أسامة فيما يأم به ويستشير برأيه ، ويستأنس به ، وإن مضى صلاح الدين إلى الغزو كاتبه وأخبره بوقائعه ، فقد كان أسامة فارساً شجاعاً مقداماً ذا رأي (٤) . وكان يبعث إليه بقصائده مبدداً بطولاته وأعماله ، من ذلك القصيدة التي بعث بها إليه ، ويبدو أن صلاح الدين كان في مصر ، فلما وصلت للقاضي الفاضل قبال العماد : " خذها ، وأوردوها في الخريدة والجريدة " (٥) ، وفي هذه القصيدة يفصح أسامة عن إعجابه بالحاكم المسامح الذي طبق شريعة الإسلام ، وبالبطل الذي بياسه وقوته يواجه الأعداء ، ويقف لهم بالمرصاد ، فلا يستطيعون هرباً أو نجاة ، يقول :

(١) حصن كيفا : وهو بلد فيه قلعة عظيمة مشرفة على دجلة : معجم البلدان : ٢/ ٢٥٦ .

(٢) الامتبار ١٨٣/ ، الخريدة - قسم شمراء الشام : ٤٩٩/١ ، سنا البسرق :

١١١/١ ، معجم الأدباء : ١٥٣/٥ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢٧٧/٢ ،

وفيات الأعيان : ١٩٦/١ ، عيون التواريخ : ٣٩٠/١٢ .

(٣) كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢٧٨/٢ .

(٤) نفسه : ج ١ ق ٢٧٨/٢ .

(٥) الخريدة - قسم شمراء الشام : ٥٤٥/١ .

لا زلت يا مالك الإسلام في نعلهم
وسرت سيرة عدل في الأنام كمسا
فوق بنصر على الكفار إنهم
وما الفرار بهنجينهم ، وخلفهم
قريتها المسمى ان : المنصر والظفر
قضى به الصابقان : الشن والسور
يؤثر فيهم المهلكان : الشن والأشكر (١)
من بأسره المذكران : السور والبشر (٢)

لقد رعى صلاح الدين أسامة حق الرعاية ، وأولاه اهتماما بالغاً ، لما كان يتسلف
به من خصال مجيدة ، وهو شيخ قد نيف على الثمانين من عمره ، وقد شكر أسامة له منحه
هذا في كتابه الاعتبار ، يقول : " . . . فعداياه تطرفني ، وأنا راقد ، وتسري إلي وأنا
مستسبب قاعد . . . ، وأفاض علي من نوافل فضله ، بعد تأدية فرضه وسنته ، ما تعجز الأعناق
عن حمل أيسر ميثه ، ولم يبق لي جوده إلا أرجو نياه ، أقضي زمني بالدعاء له نهاره ولياء
... " (٣) .

ويرى أسامة في سيرة السلطان أحياء لسيرة الخلفاء الراشدين ، يقول : والسلطان
الذي أحيانا سنة الخلفاء الراشدين ، وأقام عمود الدولة والدين . . . " (٤) .

إن الوهن الذي دب في أوصال الشاعر الفارس ، بسبب كبر سنه ، منعه من أن يكون
في طليعة المجاهدين المجالدين في جيش صلاح الدين ، ولولا هذا الضعف لأبأن بسلا
حسننا في حروب صلاح الدين مع أعدائه .

* * *

- (١) الأشهر : (الحز) : انظر قاموس المحيط (أشر) .
- (٢) الهدية - قسم شعراء الشام - : ١ / ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، والأبيات غير موجودة فسي
ديوان الشاعر .
- (٣) الاعتبار / ١٨٣ ، ١٨٤ .
- (٤) نفسه / ١٨٤ .

رواي صلاح الدين الشاعر الأسعد بن ممتسي في دواته من مخطوطات عالميا ، وقد تواصل
ديوان الجيش (١) ، مما يدل على مدى ثقة صلاح الدين به ، ولذا بات من الطبيعي ان يكون
الشاعر ملأ بأحوال البلاد الادارية والمالية ، وله كتاب في ذلك اسمه "قوانين الدواوين"
أفدت منه في مواقع متعددة من هذه الدراسة .

كان الشاعر الأسعد يرافق صلاح الدين والعماد الأصمهان ، يقول العماد فسي
الخريدة : "اجتمعت به في القاهرة ، وسأيرني في العسكر الناصري ، وأنشدني من نظمته
المعنوي ، ما شئت به خنصر الاستحسان ، وأنزلت أجوانه في الاجراء في هذا الميدان ... " (٢)
ويقول : "ونظمتني وأياه سفره في خدمة الملك الناصر إلى شغري ومياط والاسكندرية ،

فوصلنا إلى شنع وخاجان ومخاضات وهدران ، فقال بديها :

لَوْ أَطْلَقَ الدُّعَى مُشْتَاقِي وَمَدَكِي سِرًّا لَمَنْ يُحِبُّ لَأَشْفِينَا عَلَى الْفَسْرِ سِرًّا
لَكِنَّا هَذِهِ الْخُلُجَانُ مُتَأَقِّسَةٌ (٣) لِأَنَّهَا رُشِحُ مَا يَعْصِي مِنَ الْحَقِّ قِرًّا (٤)

كان الأسعد معجبا بقائد الجيش ، فقد كتب إليه قصيدة تعرض فيها المشطرنج ، وقد
مر ذكر أبيات منها ، وذكر فيها تخطيط القائد المحارب واعداده للجيش ، فقال :

إِنَّ يَكُ الْمَشْطَرْنَجُ مَشْغَلِي سِرًّا الْمَعَارِي الْقُدْرُ وَالْهَمِّ سِرًّا
فَمَهِي فِي نَادِيكَ تَذَكُّرَةً لِأُمُورِ الْحَرْبِ وَالْكَسْرِ سِرًّا
فَلَكُمْ ضَاعَتْ هِدَّتُمْ سِرًّا بِالْعَطَاءِ الْجَمِّ لَا الْقَلَمِ سِرًّا
وَنَمَيْتَ الْحَرْبَ نَمَيْتُمْ سِرًّا فَانْتَشَتْ كَلَّاكَ بِالْعَمِّ سِرًّا
فَابْقِ الْإِسْلَامَ تَرْفَعُ سِرًّا وَأُمْرُ الْأَقْدَارِ كَالْخَسْرِ سِرًّا (٥)

وكان السلطان معجبا بعبقريه الأسعد ، فكان يكثر من النظر في كتابه الجمنس
"حجة الحق على الخلق" في التحذير من سوء عاقبة الظالم (٦) . قال القاضي الفاضل في
هذا الكتاب : "وقفت من الكتب على ما لا يحصى هدته ، فما رأيت والله كتابا يكون قبالة
باب منه ، وأنه والله من أهم ما طالعه الملوك " (٧) .

- (١) أنظر ترجمته في الفصل الأول من هذه الدراسة .
- (٢) الخريدة - قسم شعراء مصر - : ١/ ١٠١ .
- (٣) مثناة : مثناة ، انظر قاموس المحيط (تثق) .
- (٤) الخريدة - قسم شعراء مصر - : ١/ ١٠٣ .
- (٥) نفسه : ١/ ١٠٦ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٦٩٤ ، ٦٩٥ .
- (٦) الخطط العتريزية : ٢ / ١٦٠ .
- (٧) نفسه : ٢ / ١٦٠ .

* * * *

واتصل بصلاح الدين عبد المنعم الجبالي سنة ٥٦٤ هـ ، يدل على ذلك القصيدة الالامية التي أنشأها الشاعر آنذاك ، والتي أولها : * لا تسأل الدار عن طمعن قد احتملوا * . وهي أول ديوان المبشرات (١) ، وهذا يعني أنه قد شهد الاضطرابات التي كانت بمر ، والصراع الذي شب بين الوزراء على وزارة العاضد (٢) .

وطبق الجبالي يمدح صلاح الدين منذ ذلك الحين ، يقول الجبالي : * لم أزل من أول ما ولي الملك الناصر الأمر في مصر ، أعلم أنه مؤيد بعناية من الماء ببيحانه ، فامتدحته في سنة خمس وستين وخمسمائة هجرية بقميدة ، تذيب على مائه بيت * ، منها في التبشير :
لَتُظْفَرَنَّ بِمَا أَمْ يَحْوَاهُ مَلِكُكَ
أَبَا الْمُظْفَرِ حَقًّا خَطَاةُ الْأَزَلِ (٣)
وقد تقدم منها أبيات في قدوم اخوة صلاح الدين وأبيهم إلى مصر .

ومدحه سنة ٥٦٦ هـ عند قبوله من عزاة * غزة * (٤) ، وسنة ٥٦٨ هـ (٥) ، ومرض صلاح الدين سنة ٥٨٢ هـ ، وهو على حمى ، وشفي ، فبعث الجبالي إليه قصيدة هنأه بها بالمافية ، وحثه فيها على فتح القدس . (٦)

-
- (١) أنظر ديوان المبشرات والقدسيات / ٢٨ ، ١٢٣ ، كتاب الروضتين : ١١٥ / ٢ -
أم يصل إلينا من هذه القصيدة سوى هذا الشطر : أنظر ديوان المبشرات والقدسيات / ١٠٢ .
- (٢) أنظر ديوان المبشرات والقدسيات / ٢٨ .
- (٣) ديوان المبشرات والقدسيات / ١٢٥ ، كتاب الروضتين : ١١٥ / ٢ .
- (٤) أنظر ديوان الديبج أو * منادج الملاح . . . ، الورقة الثامنة من المخطوط المصور في مكتبة الجامعة الأردنية ، كتاب الروضتين : ١١٥ / ٢ ، ١١٦ ، ويذكر أبو شامة أنه أنشأها سنة ٥٦٧ هـ .
- (٥) كتاب الروضتين : ١١٦ / ٢ .
- (٦) نفسه : ١١٦ / ٢ .

وأنشأ الجلياني ديواناً خاصاً يتحدث فيه عن حروب صلاح الدين ، سماء :

* الميشرات والقدسيات * (١) ، احتوى قصائد طوالاً ، أشاد فيها الجلياني ببطولة صلاح الدين وجهاده وصفاته ، ومضى يمجّد الفتح القدسي أيما تمجيد ، من هذه القصائد ، " التحفة الجوهريّة " ، و " الفتحة الناصرية " (٢) . وصنف ديوانه " منادح المسادح وروضة المآثر والمفاخر من خصائص المالك الناصر " وقد كان في معظمه يتحدث عن صلاح الدين ، وفي قليل منه تحدث عن أبناء صلاح الدين . (٣)

لم يكن الجلياني مولعاً بالمديح سوى ما قاله في مدح صلاح الدين وماوك بني أيوب من بعده ، وكان يعتبر مدحه للسلطان صلاح الدين فرضاً ، وابن الطالب نوال ، فهو يشكره فيه ، ويؤيد عزمه أما قدمه من حفظ للدين ، كما يبدو في قوله :

فقرضاً أرى مدحي له متجنّباً
مدح سواه كاجتناب المحارم
وايمن اجتداً بك تحية شاكر
وتأييد آثار وتأيد عسان
فيا خير قوام على خير ملّة
يكافح عنّا كلّ الب مقام (٤)

أما صلاح الدين فقد كان يرضى الجلياني ، ويصدق عليه (٥) ، وقد اعترف الجلياني بالآث ، وانعمائه ، ورعايته ، يقول :

قد كان لي في صلاح الدين كمفج حمى
ومن أياديهم آلاف وأرخسون
ألفت ممتراً أهلي به ، فكأن
جليانة حضرت عني وحسان (٦)
وقد أمطاه مرة ستمائة دينار في أول ملاكته . (٧)

* * * *

- (١) انظر ديوان الميشرات والقدسيات / ٦٤ .
- (٢) انظر ديوان الميشرات والقدسيات ، كتاب الروضتين : ١١٥ / ٢ - ١١٧ .
- (٣) انظر ديوان التدبير ، أو منادح المسادح
- (٤) عيون الأنباء / ٦٣٣ ، والإجاب : القوم إذ جمعهم عدو واحد ، انظر القاموس المحيط (أ ب) .
- (٥) عيون الأنباء / ٦٣٠ ، فوات الوفيات : ٤٠٨ / ٢ .
- (٦) ديوان التدبير الورقة (٥٥) من المخطوط المذكور سابقاً وجليانة وحسان موقعان بالأندلس .
- (٧) الفصوص الينعة / ١٠٥ .

ومن الشعراء البارزين الذين رعاهم صلاح الدين سعادته الأعمى ، وقد خصص صلاح الدين جزءاً غير قليل من شعره ، وأعمل جزءاً من هذا الشعر قد فقد مع ما فقد من شعر الحروب الصليبية ، يدل على ذلك أن العماد الأصفهاني في خريدته كان يختار من قصائده ما يطيب الذوق (١) ، وكذلك فعل أبو شامة في كتابه (٢) .

واتجه سعادته الأعمى ، الحمصي إلى مصر أول مملكة صلاح الدين ، ومدحه بقصيدة طائفة ، فأعطاه صلاح الدين ألف دينار (٣) ، فمدح " بوفروافر ، وغنى ظاهراً " (٤) ، من تلك القصيدة :

أَلَا أَيُّهَا النَّصِيرُ يُوسُفُ مَسْنُونَا مِنْ الضَّرِّ مَا لَا نَسْتَطِيعُ بِهِ نَهْطُو
فَأَوْفِرْ لَنَا كَيْلَ النَّدَى مَصْدَقَانَا فَإِنَّ جَزَاءَ الْمُحْسِنِينَ هُوَ الشَّرْطُ (٥)

ولما قدم صلاح الدين الشام لتوحيدها مع مصر ، أخذ الشاعر يتردد عليه مادحاً مسجداً انتصاراته ، وجهاده في سبيل الله ، وكان ينفذ إلى مجلسه ، وينشده قصائده ، من ذلك ما أنشده سنة ٥٧١ هـ بدار العدل بدمشق ، كما تقدم .

وقد أثبت العماد لسعادته في خريدته سبع قصائد في مدح صلاح الدين ، وليست هذه القصائد كاملة ، كما ذكر ، وما يلفت النظر في هذه القصائد براعة الشاعر في وصف جيوش صلاح الدين ، وأساسه ، براعة تدعو إلى الإعجاب بما وصف ، إذ استطاع أن يصفها وصفاً دقيقاً معبراً ، واستطاع تصويرها تصويراً حياً ، فيخيل للقاري أنه وسط معركة تدعوه للمشاركة بها ، يقول في تصويره لجيش صلاح الدين :

عَرَّيْنَاهُ كَالدُّبَى الطَّيَّارِ مُنْتَشِرٍ تُحْصَى الرِّقَالُ وَلَا يُحْصَى لَهُ عَدَدُ (٦)

- (١) انظر الخريدة ، قسم شعراء الشام : ٤٠٧/١ - ٤٣٢ ، وانظر سنا البرق : ١٧١/١ .
- (٢) انظر كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٦٤٦ ، ٦٤٧ ، وج ٢ / ١٢٠ .
- (٣) الخريدة ، قسم شعراء الشام : ٤١٦/١ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٦٤٦ .
- (٤) الخريدة ، قسم شعراء الشام : ٤٠٦/١ .
- (٥) نفسه : ٤١٩/١ .
- (٦) نفسه : ٤١٤/١ .

ولعل هذه البراعة في التصوير والوصف عائدة إلى ذكاء الشاعر ، الذي أشار إليه
العماد بقوله : " قد توقدت بصيرته ، وإن ذهب بصره ، واقرحت قريحته ، وشبت فكره (١) .

لقد كان لسعادة دور فعال في جهاز الكلمة ، فلم يكن فقده بمره حائلاً
دون أن يضرب بسهمه في تمجيد البطل وموازته ، ولعل الشاعر توفي قبل فتح صلاح الدين
للقدس ، فلم أعر على شعره في ذلك الفتح ، أو لعل هذا الشعر قد فقد كما تقدم ،
فإننا لا نعلم عن حياة الشاعر سوى ما ورد في الخريدة :

* * *

ومن هؤلاء الشعراء فتیان الشاغوري الذي مدح صلاح الدين ببضع قصائد ، ولم
يحدد تاريخ أول قصيدة مدحه بها ، ولكن وجدت له قصيدة مدحه بها سنة ٥٦٥ هـ ، حين
استطاع صلاح الدين صد هجوم الفرنج على "دمياط" ، وذلك الحصار عنها ، وقد ذكرت بعض
أبياتها فيما تقدم ، وقد خاطب صلاح الدين في نهايتها ، سائلاً إياه أن ينقذه ما هو
فيه من فقر وسوء حال ، يقول :

إليك صلاح الدين سارت مدائحني ومثلك من تزكو لديه الفضائل
أجزني من فقر ملج وإن أقسل أجرني فكل منك لا شك حاصل (٢)

يبدو من خلال هذين البيتين أن الفقير قد أصاب الشاعر ، فلجأ من خلال
قصائده يطلب العون من صلاح الدين ، وقد أبقى صلاح الدين مطلبه ، يقول الشاغوري
من قصيدة أخرى :

(١) الخريدة ، قسم شعراء الشام : ٤٠٦/١ .

(٢) ديوان فتیان الشاغوري / ٣٢١ .

بِالْمَلِكِ النَّاصِرِ زَادَ نَصْرًا
وَلِي صَحَابَ عَمِّي وَعَمَّهُمْ
لَكُنِّي أَنْقَضَ حَقًّا مِنْهُمْ
نَقَهَرُ كُزَيَاتِ الزَّمَانِ قَهْرًا (١)
بِعُكْرُمَاتٍ مَا تَكَزَّلَ تَقَرُّرِي
فِيمَا أَتَانِي مِنْ نَدَاهُ بِرًّا (٢)

ومن قصائده الجديدة بالذكر تلك القصيدة التي أنشدتها صلاح الدين بقلعة دمشق ما دأبها ، بعد أن فتح بيت المقدس سنة ٥٨٣ هـ ، وهي تبلغ نحواً من مئة بيت ، ولسم يبدأها الشافري بالفزل ، وإنما بدأها بتمجيد القوة التي من شأنها أن تبني الدول ، وهذا يتناسب مع جلال الفتح وعظمته ، وبطولة الفاتح وقدرته ، يقول :

تُبْنِي الْمَالِكُ بِالْوَشِيحِ الْأَسْمَرَ
وَالْبَيْضُ تَلْمَعُ فِي الْعَجَاجِ الْأَكْدَرِ

ومنها قوله :

أَهْدَى صِلَاحُ الدِّينِ الْإِسْلَامَ ، إِذْ
وَاسْتَنْقَذَ الْبَيْتَ الْمُقَدَّسَ عَنْ عُنُوةٍ
أَرْدَى قَبِيلُ الْكُفْرِ ، مَا لَمْ يُكْفَرْ
مِنْ كُلِّ ذِي نَجَسٍ بِكُلِّ مُطَهَّرٍ (٣)

* * *

-
- (١) كُزَيَاتٍ : مفردها كُزَيْةٌ ، وهي : الشدة ، انظر القاموس المحيط . (اللزوب) .
(٢) الديوان / ١٥٣ .
(٣) ديوان نعتيان الشافري / ١٤٠ ، ١٤١ .

وهذا ابن الدهان الموصلي من الشعراء الذين كانوا يقدون إلى مجلس صلاح الدين ، فبشره قصائده مادحا معجدا ، فقد قصده سنة ٥٧٠ هـ بظاهر " حمص " ، ومدحه بقصيدة نال عليها من السلطان عطا وفي سنة ٥٧٦ هـ عبر السلطان " حمص " وخيم بالعاصي ، فأثاء ابن الدهان ، وأنشده من قصائده قصيدة أشاد فيها بكرمه وعطائه كما يبد وفي قوله :

” يَقُوبُ جُودُهُ أَقْصَى الْأَمَانِ نِسي وَيُضَعُّ بِشْرُهُ أَسْنَى النَّجَاحِ ”

وبعض الشاعر يشيد بأعمال صلاح الدين ضد الفرنج ، ويوجد صفاته ، ويشيد بجيشه في الحرب . . . (١) ، فلأعطاء السلطان مئة دينار مصرية ، وخلعة ، يقول العماد فسي عطاء صلاح الدين للشاعر : ” ورُسْنُهُ كَلَّمَا عَمِرَ السُّلْطَانُ ” بحمص ” مئة دينار مصرية وخلعة ” (٢) .

وجاء مرة أخرى وهو على " حمص " سنة ٥٧٩ هـ ، فمدحه ابن الدهان بقصيدة عينية ، بدأها بالغزل ، ثم أشاد فيها بجوده وبطولته ، كما فعل في قصيدته السابقة الذكر (٣) .

وللشاعر بضع قصائد في صلاح الدين ، نجد فيها اشادة بأعماله من توحيد البلاد ، وجها للأعداء ، وتمجيد لصفاته . . . ، كما نجد فيها شيئا عن علاقة صلاح الدين بالخلافة العباسية في بغداد .

* * *

-
- (١) ديوان ابن الدهان / ٥٩ - ٦٩ ، سنا البرق : ١٧٧/١ ، كتاب الروضتين : ١٦/٢ ، ١٧ .
 (٢) سنا البرق : ١٧٧/١ .
 (٣) أنظر الديوان : ٢٥ - ٣٤ ، البرق الشامي : ١٩/٥ ، كتاب الروضتين : ٢٩/٢ ، ٣٠ .

أما ابن سناء الملك فقد خص صلاح الدين بقصائد كثيرة ، تحدث فيها عن جهاده ، ومعاركه مع أعدائه الصليبيين ، كما تحدث فيها عن جهوده في إتمام الوحدة في البلاد .

كان ابن سناء الملك يرسل قصائده هذه إلى صلاح الدين ، ويتولى عرضها عليه القاضي الفاضل أحياناً (١) ، وقد شب ابن سناء الملك في أحضان دولة صلاح الدين ، إذ كان عمره لما ملك صلاح الدين دمشق ، نحو عشرين عاماً ، ولم أشر على شعر مدح به صلاح الدين في ذلك الوقت (٢) ، ولكن يبدو أنه لقيه بالشام سنة ٥٧١ هـ (٣) ، وقد مدح ابن سناء الملك السلطان سنة ٥٧٥ هـ ، وكان السلطان قد انتصر على الصليبيين في مواقع كثيرة (٤) ، ذكرها الشاعر في مدائحه ، ثم بين عطاء صلاح الدين له عطاءً سدد حاجته دون منة ، كما يبدو في قوله :

ثَبَّتَ لَهُمُ وَالسَّيْفُ قَدْ كَرِهَ الظُّلْمَ
وَجَالَدَتْهُمْ وَالْقِرْنُ قَدْ سَمَّ الْقِرْنَكَ

ثم قال :

وَلَكِنْ سَأَلْتُ النَّاصِرَ الْمَلِكَ النَّصْرَ
فَأَغْنَى وَأَقْنَى ثُمَّ مَنْ وَمَا مَنَّا (٥)

وكان صلاح الدين يكرم ابن سناء الملك ، فقد كان يرسل إليه الخلعة تلو الأخرى ، ومن ذلك أنه أرسل إليه خلعة مرة ، تسامحها له القاضي الفاضل ، وذكرها ابن سناء في إحدى قصائده التي مدح بها القاضي الفاضل ، وأشار إلى دور الفاضل في نشر قصائده ، وإعلامها وتوصيلها إلى صلاح الدين ، كما يبدو في قوله :

(١) انظر ديوان ابن سناء الملك / ١٧٢ ، ٢٠٠ ، ٢٢١ ، ٢٧٠ ، ٣٢١ ، ٣٤٠ ، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية / ١٩٨ ، شعر الجهاد في عصر الحروب الصليبية / ٣٧٣ .

(٢) انظر ديوان ابن سناء الملك .

(٣) أنظر الخريدة ، قسم شعراء مصر : ٦٥/١ وما بعدها ، وفيات الأعيان : ٦٦/٦ . كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٦٥٩ ، ٦٦٣ .

(٤) انظر كتاب الروضتين : ٨/٢ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ .

(٥) ديوان ابن سناء الملك / ٣٢٢ ، ٣٢٣ .

خَلَعَ عَلَى خَلْعٍ أَتَتْهُ
لَوْلَاكَ لَمْ يَمْلَأْهُمْ بِأَشْه
نِي كَا لَفُتُوحِ عَالِي الْفُتُوحِ
مَعَارِي وَلَمْ يَقْرَأْ مَدْرِيحِي (١)

ويضاف إلى تسجيل ابن سناء المالك وقائع صلاح الدين وتغنييه ببطولته ، لا سيما قبل الفتح ، حبه له ، فقد أحبه حبا شديدا وتعلق به أيما تعلق ، فقد نذر حين ممرض السلطان سنة ٥٨١ هـ حجة ، إنني شفاه الله من ذلك المرض ، وكان لزاما عليه أن يفي ، يقول :

وَلَقَدْ نَذَرْتُ عَلَى شَفَائِكَ حُجَّةً
سَهَّلْتُ لِي حَجِّي فَمِنْكَ مَوْصِلِي
وَلَقَدْ شُغِفْتُ فَقَدْ تَعَيَّنَ أَنْ أَفْرِي
لَعْنِي ، وَجُودُكَ مُوقِفِي فِي الْمَوْقِفِ (٢)

ويقول من قصيدة ، أنشأها سنة ٥٢٩ هـ ، لما تم فتح حلب ، بين فيها مدى حبه لصلاح الدين ، يقول :

إِنِّي أَحْبَبُّ بِلَاداً أَنْتَ سَاكِنُهَا
وَسَاكِنُهَا وَلَيْسُوا مِنْ نَوِي نَسَبِي (٣)

* * *

(١) ديوان ابن سناء المالك : ٦١

(٢) نفسه / ٢٠٢ .

(٣) نفسه / ٤ .

أما سبط بن التعاويذي الذي كان كاتباً في ديوان المقاطعات ببغداد (١) ، فقد كان يرسل قصائده كغيره من الشعراء إلى صلاح الدين حيث هو حالاً ، فقد أرسل إليه قصيدة سنة ٥٧٠ هـ ، ذكرت بعض أبياتها ، فيما تقدم ، ويبدو أنها أول قصيدة يرسلها إليه . أشاد في هذه القصيدة بعدل صلاح الدين ، وبين مكانته عند الخليفة العباسي ، وكان ، يومئذ ، الخليفة المستضيء بالله ، فقال :

الملكُ العادلُ في حُكْمِهِ فَهُوَ مِنَ الْأَسْلَافِ مَعْدُودُ
سَيِّدُ أُمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْبُذِي لَوَاؤُهُ بِالنَّصْرِ مَعْقُودُ (٢)

وأرسل إليه قصيدة سنة ٥٧١ هـ هلمّا كان صلاح الدين يعمل على وحدة البلاد ، فأشاد الشاعر بعبّاسه وجوده ، وحمايته للشام ، وحسن سياسته للبلاد برأيه السديّد ، وبين مكانته عند الخليفة العباسي ، كما فعل سابقاً ، وإن يشير إلى أن الخليفة قد فوّض لصلاح الدين الأمر ، يقول :

إلى بَأْسِهِ تُعْزَى الصَّوَارِمُ وَالْقَنَنُ وَعَنْ جُودِهِ يُرَوَّى حَدِيثُ الْمَكَارِمِ
لَقَدْ سَاسَ مِنْهُ الْمُلُوكَ وَهُوَ مُضَيَّعٌ بِرَأْيِ بَصِيرٍ بِالْعَوَاقِبِ حَزَازِمِ
وَأُضْحَتْ بِهِ الدُّنْيَا ، وَقَدْ رَدَّ أَمْرُهَا إِلَى مُعَصِدِ الْأَرَاءِ ثَبَتِ الْعَزَائِمِ
رَأَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ لِدَائِرِهَا وَقَدْ أَعْضَلَتْ أَدْوَاهَا ، خَيْرَ حَاسِمِ
وَأَلْقَى مَقَالِيدَ الْأُمُورِ مَفْقُصاً إِلَيْهِ فَلَمْ يَقْرَعْ لَهَا سِنَّ نَسَازِمِ
وَكَانَ لِشُعْرِ " الشَّامِ " أَتَمُّ ذَائِدِ وَهَلْ يَمْنَعُ الْأَغْيَالُ غَيْرَ الضَّرَائِمِ (٣)

(١) انظر ترجمته في الفصل الأول من هذه الدراسة .

(٢) ديوان ابن التعاويذي / ١٠٩ .

(٣) الأبيات في الخريدة ، قسم شعراء العراق : ٣ / ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، وذكر مرجليوت في الديوان أن هذه القصيدة في مدح عضد الدين أبي الفرج ، محمد بن عبد الله ابن هبة بن المظفر ، رئيس الرؤساء سنة ٥٦٦ هـ ، وقد قام " مرجليوت " بتحويل وتعديل بعض الألفاظ والأبيات ، بل حذف بعضها من القصيدة ليتساقق وحال المدح المذكور ، أنظر الديوان / ٤٠٠ ، ٤٠٢ ، ٤٠٥ ، إلا أن العماد الأصفهاني ثبت في خريدته أنها مرسلة إلى الملك الناصر سنة ٥٧١ هـ ، فهو يقول : " وسهر سبط بن التعاويذي من " بغداد " قصيدة إلى الملك الناصر سنة إحدى وسبعين وخمس مئة ، وهي : " ثم يذكر القصيدة ، قسم شعراء العراق : ٣ / ١٥ -

وأرسل إليه قصيدة سنة ٥٧٤ هـ ، أنفذها إليه من مصر ، يمدحه بها ، ويمعته
على تسويته بغيره من الشعراء في العطاء ، كما يمدح وفي قوله :

حاشاك أن تُرسلَ الصّلاتِ على	غيرِ نظامٍ وغيرِ ترتبٍ
سوّيتَ بي في العطاء من لا يُجاسا	رِئني في مدحٍ بي وأُسْلوبي
ولي عليهم فنبيلةُ السَّبَقِ في	مدحِك فاعرفَ سبقي وتَعَقِبي

ويتضح من هذه الأبيات أن صلاح الدين كان ينفذ إلى الشعراء الذين يرسلون إليه
قصائد هم ، عطاياهم إلى حيث هم يقيمون ، ويمدح حاجاتهم ، يقول ابن التعاويذي في
القصيدة نفسها :

كَبَى دُعَائِي مِنَ الْعِرَاقِ وَقَدْ أَسْمَعَهُ بِالصَّعِيدِ تَثْوِيًّا (١)

وأرسل إليه سنة ٧٥ هـ ، قصيدة ، وهو بدمشق ، يمدح فيها انتصاره "بمخرج
عيون" ، وأرسل إليه قصيدة سنة ٥٨ هـ ، أشار فيها إلى الخلعة التي أنفذها إليه
ال خليفة الناصر بيبرس ،

نخلص إلى القول أن صلاح الدين كان يمدح ابن التعاويذي ، على الرغم من البعد
المكاني بين الطرفين ، فلم يخرج ابن التعاويذي من بغداد للقاء السلطان وانتشاره
قصائده ، بل كان يرسلها إليه ، وكان القاضي الفاضل يعرضها على صلاح الدين ، وقد
أشار ابن التعاويذي إلى ذلك في قصيدة مدح بها القاضي الفاضل ، يقول مخاطبا إياه :

فَارْفَعْ إِذَا عُرِضَتْ عَلَيْكَ قَصَائِدِي ، مَدْحِي إِلَى الْمَلِكِ الرَّحِيمِ الْمَادِلِ (٢)

* * *

(١) ديوان سبط بن التعاويذي / ٢١ ، ٢٢٠ .

(٢) ديوان ابن التعاويذي / ٣٣٣ ، ٣٣٦ .

ومن الشعراء البارزين في دولة صلاح الدين ، ابن الساعاتي الذي كرس جزءاً كبيراً من شعره لمَدح صلاح الدين ، ويبدو أنَّ جزءاً منه قد فقد ، يدل على ذلك ما جمع من ديوانه ، إذ نجد ، في الجزء الأول منه خاصة ، أنَّ أغلب القصائد التي مدح بها صلاح الدين تُستهل بالنسب ، وتقف عند بيت التخلص ، الذي يوشيه الشاعر باسم صلاح الدين ، أو لقيه أو نسب ، كما يبدو في قوله :

لَمْ يُنْقِرْ جَفَاكَ لِي دَمْعاً يَنْهَلُ عَلَيْكَ وَيَنْسَكِرُ
كصلاح الدين النَّاصِرِ سَفَا جَاناً فَلَيْسَ لَهُ نَشَبٌ (١)

ونجد في آخر ديوان الشاعر ملحقاً اثبتت فيه بعض الأبيات من قصائد مدح بها صلاح الدين ، ويبدو أنَّ ابن الساعاتي كان أحياناً يرافق صلاح الدين (٢) ، أو يلقاه ، فينشده غرر قصائده ، من ذلك ما رواه سبط بن الجوزي في أخبار سنة ٥٧٩ هـ (٣) ، إذ يذكر أنَّ صلاح الدين لما عاد من " آمد " ، ونزل على " تل خالد " ، لقيه ابن الساعاتي ، فأشده قصيدة أشاد فيها بكرمه ، وسعيه للوحدة ، وحمه على فتح " حلب " ، وتنبأ لسه بالفتح العظيم في وقت قريب .

مَا بَعْدَ لُقْيَاكَ لِلْعَافِينَ مِنْ أَمَلٍ مُلْكُ الْعُلُوكِ وَهَذِي دَوْلَةُ الدُّوَلِ
مِنْ حَاتِمٍ عِنْدَ مَا كَفَاكَ وَاهِبَةً حَتَّى غَدَاً مَثَلًا نَاهِيكَ مِنْ مَثَلِ
لَوْلَا مَسَاعِي صلاح الدينِ مَا صَلُحَتْ شَمُّ الْعَمَالِكِ بَعْدَ الزَّيْغِ وَالْمِيلِ
فَانْهَضَ إِلَى حَلَبٍ فِي كُلِّ سَابِقَةٍ سُرُوجُهَا قُلُوبٌ تَغْنِي عَنِ الْقُلُوبِ
فَلْيَعْلَمْ الْقُدْسُ أَنَّ الْفَتْحَ مُنْتَظَرٌ حُلُولُهُ ، وَعَلَى الْآفَاقِ فَلْيَكْمَلِ (٤)

- (١) ديوان ابن الساعاتي : ٦٦/١ ، وانظر مزيداً من الأمثلة في ديوان الشاعر ص ٦١ ، ص ٦٢ ، ص ٦٣ ، ص ٦٩ ، ص ٧١ ، ص ٧٢ ، ص ٧٧ .
- (٢) انظر الأرب في بلاد الشام / ٢٦٦ ، ٢٦٧ .
- (٣) انظر مائة الزمان : ق ١ ج ٨ / ٣٧٦ .
- (٤) ديوان ابن الساعاتي : ٣٨٢/٢ ، ٣٨٣ ، والبيت الأول والرابع في الروضتين : ٤٣/٢ .

ويبدو أن الشاعر كان يصحب السلطان عام الفتح الذي تم فيه الانتصار على الصليبيين في طبرية، وحطين، وبيت المقدس، يدل على ذلك الأشعار التي قالها في تلك الفتوحات .

ظل ابن الساعاتي يمدح صلاح الدين بفتح بيت المقدس، ويكثر من ذكره وتخليده ، يقول :

هو الفاتح البيت المقدس بعدما تحامته سادات الدنا ومسودها (١)
ويقول من قصيدة أخرى :
هو منقذ البيت المقدس بعدما طالت فما وجد الشفاء شكاته (٢)

كان ابن الساعاتي كثيراً ما يتعرض لجود صلاح الدين وعطاءه، آملًا مساعدته ورفده، فقد كان الشاعر يشكو الفقر، يقول من قصيدة :

ولكنني أدلجت في طلب الفسنى رجاء مقام لا تخاف غوائله
وهل أقتضي دينا على ذمة العلى وجود صلاح الدين ذي الجود طافله (٣)

ويوضح ابن الساعاتي في قصيدة أخرى أنه يواجه مصاعب جمة، وما دام صلاح الدين يقف بجانبه فإنه سيتغلب عليها :

لست أخشى خطباً وبالملك النسا صر أبغي على الخطوب انتصارا (٤)

تعرض ابن الساعاتي لحادثة بعد فتح بيت المقدس، وهو في طريقه إليه، أتت على ماله كله، وأصبح معدماً، ويحتمل أن يكون الشاعر قد فقد ماله قبيل المعركة الأخيرة حينما التحق بصلاح الدين، ونسب إليه الفرنج ما كان يحمل.

-
- (١) ديوان ابن الساعاتي : ٢ / ٤١٠ ، كتاب الروضتين : ٢ / ١٠٢ .
(٢) ديوان ابن الساعاتي : ٢ / ٤٠ ، كتاب الروضتين : ٢ / ١٠٦ .
(٣) ديوان ابن الساعاتي : ١ / ٧٧ .
(٤) ديوان ابن الساعاتي : ١ / ٦٨ .

أما الأبيات التي تدل على تعرضه للحادثة المذكورة فهي من القصيدة القدسية

التي مطلعها :

أعياً وَقَدْ عَايَنْتُمُ الْآيَةَ الْعُظْمَى لَا يَهْجُرُ حَالِ تَذَخُّرِ النَّثَرِ وَالنَّظْمَا ؟

ويقول مخاطباً صلاح الدين لعنه يعرضه عما نقده :-

فَمَا كَاشَفَ الْجَلَى وَمَا مَحِيَّ الْهَدَى وَمَا قَاتَلَ الْبَلَوَى وَمَا كَاشَفَ الْفَسَا
رَمَتْنِي اللَّيَالِي وَاللَّيَالِي مُصَيَّسَةً كَمْ لِسِيَّامِ الْحُزْنِ فِي كَيْدِي كَلَمَا
وَأَصْبَحْتُ مِنْ مَالِي وَصَبْرِي مُعَدِّمًا وَفِي أَيِّ بَاغِي ثَرَوْهُ عَدَلْتُ قَدْ مَسَا ؟
وَحَاشَاكَ أَنْ تَرْضَى سُوءَالِي وَمُنْهَتِي مِنْ الْفَقْرِ مَنْ لَا يَعْرِفُ الْحَمْدَ وَالذَّمَا (١)

ولعل ما شكاه منه الشاعر للسلطان من قلة حيلة وحزن نفس وضياع مال ، من الحادثة

التي أصابته ، يجلى حاجته وعسوزه .

* * *

لم تكن علاقة صلاح الدين مقتصرة على الشعراء الأعلام الذين مر ذكرهم فهي
دولته ولكن علاقته امتدت إلى غيرهم من الشعراء ، فقد أولى هؤلاء الشعراء رعاية
واهتماماً كما أولى أولئك ، فبهذا ابن الفراهيدي من الشعراء الذين ولاهم صلاح الدين قضاء
عسكره ، وأمانة خزانته . وشهد ابن الفراهيدي عن كثب جهد صلاح الدين في وحدة البلاد
فمدحه بقصيدة طويلة تقدم ذكر بعض أبياتها ، ويبدو أن ثقافة ابن الفراهيدي كانت واسعة ،
فهو ذو معرفة بالعلاقات الداخلية للدولة ، ويبدو ذلك من خلال استشارة العماد له في
التأخر عن السلطان سنة ٥٧٣ هـ ، في غزو بعض مدن الساحل الفلسطيني ، فقال له ابن
الفراهيدي : رافقه ولا تفرقه (٢) .

(١) ديوان ابن الساعاتي : ٢/ ٣٨٥ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، كتاب الروضتين : ٢/ ١٠٦ ،

منج الكسروب : ٢/ ٣٣٤ .

(٢) أنظر البرق الشامي : ٣/ ٣٤ ، سنا البرق : ١/ ١٢٩ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ /

وهذا ابن المجاور الذي كان من المقربين لصلاح الدين ، إذ كان معلماً لأحد أبنائه (١) ، الذي كان يعمل وزيراً له في نهاية أبيه في مصر (٢) ، أرسل إلى صلاح الدين من مصر قصيدة ، مدحه بها بعد الفتح القدسي ، وذكر فيها الهدنة ، وقد تقدّم ذكر ذلك ، وقد قام العماد بعرضها على السلطان (٣) .

ولم يبخل صلاح الدين على هؤلاء الشعراء بل كان يكرمهم ويعطيهم ، فهذا الجويني تسوّء حاله في السنتين الأخيرتين من عمره ، فقد ذكر أبو شامة في أخبار سنة ٥٨٤ هـ أنه قرأ رقعة بخط القاضي الفاضل ، يخبر فيها السلطان صلاح الدين بسوء حال الجويني الذي بلغ السبعين من عمره ، وقد أنهكه المرض ، فندب فيه الضعف ، ولم يعهد قادراً على كسب رزقه ويّين له حاجته ، وقد جاء في آخر الرقعة : " وما يجب أن يعاين المولى أن أرزاق أرباب العمام في دولته ، اقطاعاً وراتباً ، يتجاوز ما تتي ألف دينار بشهادة الله ، وربما كانت ثلاثمائة ألف دينار " . وكان مكتوماً فوق الرقعة بالخط الصلاحي : " وقتلت على رقعة الفاضل ، وما يُقطع لأحد رزق ، إن شاء الله تعالى ، . . . ، وعلى الجملة ما تقدّم بقطع رزق أحد ، والورقة قد عامت ، أكتب فيها الذي لهما ، ولغيرهما ، إن شاء الله تعالى " . وكان في آخر الرقعة رجل كان له مثل حاجة الجويني (٤) .

كما رتب صلاح الدين راتباً لأبي الفتح البلطي ، وهو من الشعراء العلماء في النحو ، يقول العماد : " رتب الملك الناصر صلاح الدين له على جامع مصر كل شهر جارياً ليكون بها للنحو مقرراً " (٥) .

وأقطع السلطان الأمير أبا الفوارس ، مرفه بن منقذ ابن الشاعر المشهور أسامة ضياعاً في مصر يصرفها في مصالحه (٦) ، وقد كان هذا الأمير الشاعر جليش السلطان ونديمه وأنيسه ، وقد كتب شعر أبيه له ، وصحب السلطان بمصر والشام إلى آخره

(١) أنظر ترجمته فيما تقدم ، في الفصل الأول من هذه الدراسة .

(٢) الفصوص اليانعة / ١٩ .

(٣) أنظر كتاب الروضتين : ٢ / ١٠٣ ، ٢٠٤ .

(٤) كتاب الروضتين : ٢ / ١٣٨ .

(٥) الخريدة ، قسم شعراء الشام : ٢ / ٤٨٣ ، ولم أجد له مدحاً في السلطان فيما توفر لدي من مصادر .

(٦) معجم الأدباء : ٢٤٤ / ٥ .

وأجزل صلاح الدين العطاء للشاعر ابن رواحة ، "نفاز باحسانه المتواتر" (١) ،
ومن ذلك أنه أنعم عليه بمزرعة في "حلب" (٢) ، ووهب له سنة ٥٧٢ هـ إماماً وعبيداً لمّا
وصلت أساطيل ثغري دمياط والاسكندرية بسبي الكفار ، وكان ابن رواحة قد حضر إلى
مخيم السلطان بمرج فاقوس ، كما تقدم ، وذلك في عيد النحر ، فأنشده قصيدة ، منها
في مدحه وتهنئته بالغيد والاشادة بكرمه وعطائمه :-

إِذَا لَاقَى الْعِدَا فَأَشَدُّ لَيْسَتْ وَإِنْ بَذَلَ النَّدَى فَأَسَحَّ مُسْنَنُ
يُهَنِّي الْمَلِكَ عَبْدًا لَوَعْدَاكُمْ لَمَّا ظَفِرَ الْمُهَنَّا بِالْمُهَنِّي (٣)

ورافق هذا الشاعر السلطان صلاح الدين في واقعة مرج عكا ، فقتل فيها شهيداً
سنة ٥٨٥ هـ . (٤)

وهذا صلاح الدين يكرم علم الدين الشاتاني ويرعاه ، يقول العماد ، ويعني
الشاتاني : "ثم هاجر إلى مصر ، ووصل إليها في شهر رمضان سنة ٥٧٢ هـ ، وأتابها ،
وأنعم عليه الملك الناصر ، وشرفه وأكرمه ، وزاد إداره ، وأجاد إشاره" (٥) .

وكان الشاتاني ينفذ إلى السلطان في مخيمه فينشده قصائده ، من ذلك أنه
وفد عليه سنة ٥٧٣ هـ ، فمدحه بقصيدة ، يبيد وأن معظمها قد فقد ، وقد ذكر منها
بيتان عند الحديث عن مجالس الشعراء .

* * *

-
- (١) الخريدة ، قسم شعراء الشام : ٤٩١/١ .
 - (٢) كتاب الروضتين : ١٤٧/٢ .
 - (٣) الخريدة ، قسم شعراء الشام : ٤٩٦/١ ، انظر حول عطائه لابن رواحة
كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢/٦٩٣ .
 - (٤) معجم الأدباء : ٤٦/١٠ ، كتاب الروضتين : ١٤٧/٢ .
 - (٥) الخريدة ، قسم شعراء الشام : ٣٨٣/٢ .

وكان كثيرون من الشعراء يرافقون صلاح الدين ، ف هذا ابن النحاس المصري كان من المرافقين له ، يقول العماد : " وصل مع الملك الناصر صلاح الدين إلى الشام فسي خدمة تقي الدين ، وله شعر ، وجدت له قطعة كتبها إليه في أواخر سنة إحدى وسبعين " (١) وقد مدح في جزء منها صلاح الدين ، وقد ذكرت بعض أبياتها فيما تقدم .

وهذا الرشيد بن بدر النابلسي بيد وأنه كان يرافق صلاح الدين بعد فتحه القدس وظل مرافقا له حتى توفي السلطان ، وقد مدحه بقصيدة طويلة سنة ٥٨٣ هـ ، بعد فتح القدس ، وله من قصيدة أخرى أبيات في المناسبة نفسها ، وأنشده قصيدة سنسنة ٥٨٨ هـ في عيد الأضحى .

والمقري (٢) الذي شهد مع السلطان غزوة بلاد الأرمن سنة ٥٧٦ هـ . نظم قصيدة في السلطان منها قوله :-

لَقَدْ جَمَلَ اللَّهُ بِنِكَ الْوَرَى بِأَوْثَى مَا يَكُونِي هِجَانِ (٣)
تَهَشَّرُ إِلَى نَفَحَاتِ السَّيِّو فِي فِي الْهَامِ لَا تَفْحَاتِ الْقِيَانِ (٤)

وهذا نيهان العراقي (٥) الذي سافر إلى الشام يصحب السلطان صلاح الدين في بعض حروبه مع الفرنج ، ومدحه بقصيدة لما خرب " بيت الأحزان " سنة ٥٧٥ هـ ، يقول فيها :-

هَنِيئًا صَلاَحَ الدِّينِ بِالْفَتْحِ وَالنَّصْرِ وَنَيْلَ الْأَمَانِ الْغُرِّ وَالْفَتْكَ الْبَكْرِ
وَقَدْ عَرَفْنَا الْإِغْرَاجَ بِأَسْكَ فِي الْوَقْصِ وَجَرَعَتْهُمْ مِنْهُ أَمْرٌ مِنَ الصَّبْرِ (٦)

* * *

- (١) الخريدة ، قسم شعراء مصر : ١٢٢/٢ .
- (٢) الجمال الواسطي ، أبو غالب محمد بن سلطان بن الخطاب المقري ، كتاب الروضتين : ١٦/٢ .
- (٣) الهجان من الرجال : الكريم الحسيب . انظر المحيط (الهجنة) .
- (٤) كتاب الروضتين : ١٦/٢ .
- (٥) الأمير نجم الدين محمود بن الحسن بن نيهان العراقي من أهل الحلة المزيدية ، سنا البرق : ١٧٢/١ ، كتاب الروضتين : ١٢/٢ .
- (٦) كتاب الروضتين : ١٢/٢ .

وكان صلاح الدين يتلقّى من هؤلاء الشعراء قصائد هم المرسلة إليه، كما تلقى من غيرهم من الشعراء الأعلام، فأبو المرفف النميري من الشعراء العراقيين، الذين كانوا يكتبون قصائد هم ويرسلونها إليه، على الرغم من المكانة التي حظي بها الشاعر في بغداد، إذ أنه كان من المقربين لأعيان الدولة هناك (١)، إلا أن أعمال صلاح الدين قد جذبت شاعريته له، فقد أرسل إليه قصيدة سنة ٥٧١ هـ من بغداد، يمدحه بها، فأشاد بجهوده لإنهاء الخلافة الفاطمية بمصر، وأشاد بجهوده في وحدة البلاد، وقد تقدم ذكر ذلك، ويتشوّق في القصيدة إلى لقاء صلاح الدين، مما يدل على حبه له وأعجابه به ببطولته، يقول :-

ويا ليت شعري: هل تُسَاعِنُنِي النَّوَى باقياك يوماً عاجلاً أو مؤجلاً (٢)

وكذلك كان الجويني، فقد كان يرسل قصائده إلى السلطان، فقد أرسل إليه قصيدة سنة ٥٧٥ هـ، بعد أن انتصر على الفرنج في موقعة "مرج عيون" (٣)، وقد كان الجويني يرسل قصائده إلى العماد، فيقوم العماد بعرضها على السلطان، كالقصيدة التي أرسلها لما فتح صلاح الدين القسطنطين (٤).

وكان السلطان صلاح الدين يستمع إلى شكوى الشعراء الذين يذودون إليه، فهذا حسان التدمري، العالم النحوي، يقد إلى صلاح الدين متظلاً من والي تدمر في صفر سنة ٥٧٢ هـ إلى المخيم الماكي الناصري الصلاحي بحماة، وينشده قصيدة يبين فيها حاله، يقول فيها :-

أُنِّي عَدْلَكَ الْمَبْسُوطَ وَالشَّرْعَ حَاكِمَ بملكي أقص عنه بالدُّنْجِ وَالزَّجْجِ ؟
وَيُطْلَبُ مِنِّي فَوْقَ مَا أُسْتَطِيفُ على فائمةٍ مِنْ ضَيْقَةِ الْيَدِ وَالْعُسْرِ (٥)

- (١) انظر ترجمته في الفصل الثاني من هذه الدراسة .
- (٢) الخريدة، القسم العراقي : ٤٧٢، ٤٦٥ / ٣ .
- (٣) انظر الحديث عن عسكرية صلاح الدين في الفصل الثاني من هذه الدراسة .
- (٤) انظر كتاب الروضتين : ١٠٤ / ٢ .
- (٥) الخريدة، قسم شعراء الشام : ٢٣٢ / ٢، ٢٣٣ .

ويشكو ابن الزبير (١) سوء حاله للسلطان في قصيدة أنشدها بها سنة ٥٧٣هـ. وقد أشاد فيها بجهاده وكرمه، يقول :-

شَدَّتْ بِالْبَيْضِ وَالْعَسَالَةِ الذُّبُلُ	مَجْدًا أَنَا فَعَلَى النَّسْرَيْنِ وَالْحَمَلِ
تَخَضَّرُ أَكْنَافُ أَرْضٍ إِن نَزَلَتْ وَإِن	نَازَلَتْ تَحْمَرُ أَرْضُ السَّهْلِ وَالْجَبَلِ
تَخْشَى الرِّيحَ الذَّوَارِي مِنْ مَهَالِكِهَا	فَمَا تَهَبُّ بِهَا إِلَّا عَلَى مَهْسَلِ
حَتَّى أَنْخَتِ الْمَطَايَا فِي ذُرَى مَلِكِهَا	يُنْشِرُ النَّجْحُ فِي تَأْمِيلِهِ أَمَارِي
خَدَمْتُكُمْ لِيَكُونَ الدَّهْرُ مِنْ خَدَمِي	فَمَا أَحَالَهُ عَنْ حَالَتِهِ الْأُولَى
إِنْ لَمْ تَكُنْ بِكُمْ حَالِي مُبْدَلًا	فَمَا انْتَهَا عِي بِعِلْمِ الْحَالِ وَالْمَسْدَلِ (٢)

* * *

وشمة شعراء اقتصرت علاقتهم مع صلاح الدين على المدح بقصيدة أو ببضعة أبيات، كالشاعر هبة الله بن وزير بن مقلد المصري، الذي مدح صلاح الدين بقصيدة يبدو أنه قالها في أول مملكته، منها قوله :-

فِي وَسْطِهِ فِي مَصْرِ شَبِيهِ سَعْيِيهِ	بِمَمْلَكَةٍ يَسْمُو السَّمَاءَ صَعُودُ هَبَا
لَقَدْ شَرَفَتْ أَرْضٌ عَلاهَا رِكَابُهُ	وَعَزَّتْ جِيُوشُ عَزْمِهِ يُسْتَقِيدُ هَبَا (٣)

والشاعر السخاوي أبو الحسن الذي مدح صلاح الدين من خلال قصيدة مدح بها أحد أبنائه (٤)، منها قوله :-

مَا يَوْسُفُ مِمَّنْ يَقَامُ بِحَاتِمِ	أَنْتَ وَقَدْ وَهَبَ الْحُصُونِ وَأَصْفَدَا
أَوْ أَنْ يُقَالَ كَأَنَّهُ يَوْمَ الْوَفَاسِ	وَالرَّوْعِ كَالْأَسَدِ الْمَهْصُورِ إِذَا عَدَا

- (١) علي بن أحمد بن علي بن الزبير من أهل أسوان . الخريدة ، قسم شعراء مصر : ١ / ٢٠٢ ، ٢٠٠ .
- (٢) الخريدة ، قسم شعراء مصر : ١ / ٢٠٣ .
- (٣) الخريدة ، قسم شعراء مصر : ٢ / ١٤٦ .
- (٤) وهو ظهير الدين أحمد * أنظر كتاب الروضتين : ٢ / ١٠٧ .

بَلْ مَالِكُ الدِّنْيَا وَمَالِي رَحْبِهِمَا خِيَلًا وَرَجُلًا نَاصِرًا بَيْنَ الْهُدَى
وَمُخَلِّصُ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ بِقَدَمَيْهِمَا رَفَعَ الصَّلِيبَ عَلَى ذِرَاهُ وَمَجَّسَدًا (١)

وابن الذروي ، الذي مدح صلاح الدين سنة ٦٤٥ هـ ، لما كان صلاح الدين في مصر مع عمه أسد الدين شيركوه ، بأبيات أشاد فيها بفعل صلاح الدين ضد الفرنج ، وذكر الملك "مُري" (٢) ، وحث صلاح الدين على قتاله ، وطرده من بلاد الشام ، وبقيت المقدس ، يقول :-

وَلَكُمْ أَشْمَتُ الرُّومِ أَشْأَمُ بَارِقٍ أَضْحَتْ مِيَاهُ نُوسِهَا مِنْ قَطْرِهِ
وَإِنَّا كَبَجْرٌ دُرْعِيهَا عَنْ قَسْدِهِ وَمَضَى وَقَدْ حَكَمْتَ ظَبَاكَ بِجَزْرِهِ
وَلَقِيتَ "مُرِيًّا" وَطَعْمُ حَيَاتِيهِ حُلُوٌ نَبَذَ لَهُ الْقَتْلُ بُمْرَهُ
فَاعْقَدْ رَأْيِي فِي عَذَابِ الْقَنَا وَاحْلُلْ بِهَا عَجَلًا مَعَاقِدَ مَكْرِهِ
وَاطْرُدْهُ مِنْ وَكْرِ الشَّامِ ، فَإِنَّكَ قَدْ طَارَ مِنْكَ بَخَافِقٍ مِنْ بُغْضِهِ (٣)

وأنشد ، لما فتح صلاح الدين بلاد النوبة ، قصيدة ، أشاد فيها بجيشه ، قال :-

لِلْجَيْشِ مِنْكَ لَا يَنْثَرِي إِلَّا بِنَصْلِ دُمَيْتِ شَفَرَتَاهُ
أَسَادُ حَرْبٍ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ أَسَاوَدَ الطُّغْنِ ، فَهُمْ كَالْحَوَاهِ (٤)

- (١) كتاب الروضتين : ٢ / ١٦٧ .
- (٢) هو الملزبك (Amalric) ، ملك بيت المقدس في ذلك الحين ، وتسميته الحصار العربية أموري أو عموري ، وورد في الشعر باسم (مُري) ، لأنه عدة حملات على مصر ، منها حملته سنة ٥٥٩ هـ ، لما كان أسد الدين وصلاح الدين هناك ، توفي سنة ١١٤٧ م . انظر الكامل : ٣٠١ / ١١ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٢٣٥ ، والهاشية رقم (٢) / ٢٣٥ ، تاريخ الحروب الصليبية - رنسيان : ٢ / ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٤٨٠ ، ٤٨٤ ، ٤٨٩ ، ٥٠٥ ، ٥٣٩ ، ٥٨٥ ، وغيره .
- (٣) كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٣٩٦ .
- (٤) نفسه : ج ١ ق ٢ / ٥٣٢ .

ومدحه الشاعر الرِّمِّي (١) بأبيات من قصيدة أنشأها لمدح أخيه توران شاه
يتزل في تلك الأبيات :-

وما المالك إلا لائق بأخيكُم وغاربه إلا له غير مَرَكُوبٍ
فأنتم نجومٌ وهو كالشمس ضوؤها ملني بتشريفٍ يعم وتغريبٍ يسب
أيوسف مصر إنما أنت يوسف فأنت ابن أيوب وذاك ابن يعقوب (٢)

وهذا الشاعر شلشع (٣) يهدي العماد قطعة من شعره ، منها في مدح
صلاح الدين :-

عداك إلى أعدائك الذل والقهر ولا زال مخصوصاً بك العز والتضرر
ودمت صلاح الدين للدين مصلحاً يطيعك في تصرف أحواله الدهر (٤)

ومدحه أبو طالب الخشاب (٥) بقصيدتين ، فمن الأولى قواسمه :-

وأقد ظلمت فلم أجِدْ بدلاً من الـ ماء الزلال سوى مواطير سُحْبِهِ (٦)

ومن الثانية قواسمه :-

أطاعتك أطراف الرُّدَيْنِيَّةِ السُّمَرِ وسالملك التَّوْنِيْقُ في البرِّ والبحر (٧)

- (١) أبو الحسن علي بن أحمد عرام الرمي ، شيخ من أهل الأدب ، كان مقيماً في
أسوان ، قال العماد : " ملك الأدب الخاوص ، ومن الشعر الخصوص
سألت عنه بمصر سنة ٥٧٣ هـ ، فقليل إنه حي في أسوان . . . مات في حدود الثمانين
 وخمسائة هجرية ، انظر الخريدة ، قسم شعراء مصر ؛ ١٦٥ / ٢ ، حسن المحاضرة ؛
٢٧٠ / ١ .
- (٢) الخريدة ، قسم شعراء مصر ؛ ١٧١ / ٢ .
- (٣) أبو الفضل ، جعفر بن الفضل بن زيد بن خلف بن محمد بن أبي حامد بسن
العباس القرشي ، الملقب بالمهذب . الخريدة ، قسم شعراء مصر ؛ ١٢٤ / ٢ .
- (٤) الخريدة ، قسم شعراء الشام ؛ ١٢٥ / ٢ .
- (٥) عقيل بن يحيى ، من أهل باب شرقي دمشق ، من عوامها ، قال العماد : " رأيته
شيخاً في دار العدل بدمشق سنة ٥٧١ هـ . الخريدة ، قسم شعراء الشام ؛
٣٩١ / ١ .
- (٦) الخريدة ، قسم شعراء الشام ؛ ٣٩١ / ١ .
- (٧) نفسه ، قسم شعراء الشام ؛ ٣٩٢ / ١ .

وأشده يوسف البراعي (١) قصيدة حين جلس للمهنا، بفتح حلب سنة ٥٧٩ هـ ،
منها قوله :-

شُرِفْتُ بِسَامِي مَجْدِكَ الشَّهْبَاءُ وَتَجَلَّيْتُهَا بِنَهْجَةٍ وَضِيَاءُ
أَلَقْتُ إِيَّاكَ قِيَادَهَا هِيَ عَلَى كُلِّ الْمُلُوكِ تَرْفُوعُ وَإِبْهَاءُ (٢)

وثمة شعراء مر ذكرهم وكانت لهم حلة بصلاح الدين ، نكتفي بذكر أسمائهم وهم :
وحيش الأسدي ، ونشو الدولة بن نفاة ، وابن هُرَيْثِيَّة ، وابن سعدان الحلبي ، والبهاء
السبخاري ، وابن الزكي ، وسعيد الحريري ، وأبو طي النجار وسعيد الحلبي ، وجعفر
ابن شمس الخلافة ، وابن المنجم ، والجواني .

لقد أحب صلاح الدين الشعر والشعراء ، فأطلقهم بحميل رعايته ، وقد أحب
الشعراء صلاح الدين حباً شديداً لهذه الرعاية ولما قدمه للأمة الإسلامية من عزة ورفعة ،
وقد صرح بعض الشعراء بهذا الحب ، فهذا ابن جبير ، في قصيدة طويلة يذكر فيها رفع
صلاح الدين مكس مكة ، ويشير إلى فتح بيت المقدس ، ويصح عن حبه لصلاح الدين ،
وبيّن أنه لولا هذا الحب لما نطق بالقريض ، وأنه لا يريد نوالاً ، بل يذم الشعر الذي
يُنشد من أجل النوال والتكسب ، ويعتبر ابن جبير أن قبول صلاح الدين لهذا الشعر
تكريم له ، كما يبدو في قوله :-

وَحُبُّكَ أَنْطَقَنِي بِالْقَرِيضِ وَمَا أَتَيْتُ فِي صَلَةِ الشَّاعِرِ
وَلَا كَانَ نِيَمًا مَضَى مَكْسَبِي وَيَقْسُ الْبِضَاعَةَ لِلتَّاجِرِ
وَأِنْ كَانَ مِنْكَ قَبُولٌ لِسِي فَتِلْكَ الْكَرَامَةُ لِلزَّائِرِ (٣)

- (١) ذكره أبو شامة من جملة الشعراء الذين مدحوا صلاح الدين السافتح
حلب . كتاب الروضتين : ٤٥ / ٢ .
(٢) كتاب الروضتين : ٤٥ / ٢ .
(٣) كتاب الروضتين : ٤ / ٢ ، مجلة آداب الرافدين ، عدد ٥٠٥ / ٩ .

ويقول تاج الدين الكندي ، الشاعر العالم في النحوي أبيات كتبها إلى صلاح الدين ، تترجم عن حبه الشديد له :-

العبد يهدي إلى المولى ويتحفه ونفسه والذي تقنو (١) يداه لهُ
ولم يسأل الله من جاني مواهبه إلا وكنت له في السؤال أوله
ولم يرز بآبك الأعلى ليخدمه إلا وقد رضى الأدنى وأهلته
ولا غدت أرض مصر من مقاصده إلا ليحعل في مفناك منزلته (٢)

ويقول ابن الشحنة الموصلي :-

وإني امرؤ أخبتكم لمكارم سمعت بها والأذن كالعين تمشق (٣)

وهذا ابن مكي لشدة إعجابه بسيرة السلطان وحبه له يصنف أرجوزة في سيرته سماها : " حقائق الفصول وجواهر الأصول " يقول فيها :-

فهذه قواعد العقائد ذكرت فيها معظم المقاصد
حكمت منها أعدل المذاهب لأنه أشهر مرار الطالب
جمعتها للملك الأمين الناصر الغازي صلاح الدين
عزيز مصر قهر الشام ومسنن ملكه الله الحجاز واليمن
ذي العدل والجود معاً والبأس يوسف محيي دولة العباس (٤)

وعلى الرغم مما تقدم من حسن الملاقة القائمة بين صلاح الدين والشعراء ، إلا أن بعض الشعراء لم يوثقوا في علاقتهم معه ؛ وذلك لأسباب سياسية أو اجتماعية ، فالشاعر عمارة اليمني قد عرف بانتماؤه وإخلاصه للفاطميين في مصر ، فمقد نال في ظل دولتهم

- (١) تقنو : تكتسب . انظر المحيط (القنوة) .
- (٢) أبو اليمن تاج الدين ، حياته وما تبقى من شعره / ٤٨ ، ٤٩ .
- (٣) وفيات الأعيان : ٢ / ٢١١ ، كتاب الروضتين : ٢ / ٦١ .
- (٤) طبقات الشافعية : ٢ / ٢٧ .

العز والجاه والنفى ، وقد أحبه وأحبههم ، نمدحهم بقصائد كثيرة (١) ، وشهد
عمارة ، بعد استقراره في مصر ، حملات أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين
إلى مصر ، كما شهد تغاين الوزراء وأطاعهم في الاستيلاء على وزارة العاضد ، مما كان
له كبير أثر في اضطراب الأحوال هناك . وما من شك في أن عمارة قد أعجب بجهد صلاح
الدين في الحملات المذكورة ، كما أعجب بشخصيته القيادية ، لا سيما حين استلم وزارته ،
فنراه يهنته بها ، ويمجد قدرته على تحمل أعبائها ، ويشيد ببطولاته أمام الفرنج ، حتى
استطاع تأمين البلاد ، وحماية الخليفة ونصره ، يقول :-

لَكَ الْحَسَبُ الْبَاقِي عَلَى عَقَبِ الدَّهْرِ	بِلِ الشَّرَفِ الرَّاقِي إِلَى قَعَةِ النَّسْرِ
نَهَضْتُمْ بِأَعْبَاءِ الْوِزَارَةِ نَهْضَةً	أَقْلَمْتُمْ بِهَا الْأَقْدَامَ مِنْ زَلَّةِ الْعَشْرِ
كَشَفْتُمْ عَنْ الْأَقْلَمِ غَمَّتَهُ ، كَمَا	كَسَفْتُمْ بِأَنْوَارِ الْغِنَى ظُلْمَةَ الْفَقْرِ
حَمَيْتُمْ مِنَ الْإِفْرَنْجِ سِرْبَ خِلَافَتِهِ	جَرَيْتُمْ لَهَا مَجْرَى الْأَمَانِ مِنَ الدُّغْرِ
وَلَمَّا اسْتَفَاكَ ابْنُ النَّبِيِّ بَنَصْرَكُمْ	وَدَاثِرُ الْأَنْصَارِ أَضِيقُ مِنْ شَجَرِ
جَلَبْتُمْ إِلَيْهِ النَّصْرَ أَوْسًا وَخَزَزَجًا	وَمَا اسْتَقْتِ الْأَنْصَارُ إِلَّا مِنَ النَّصْرِ
طَرِيقَ تَقَارَعْتُمْ عَلَيْهَا مَعَ الْعِيْدَا	فَقَزَزْتُمْ بِهَا وَالصَّخْرُ يُغْرَعُ بِالصَّخْرِ

ومعد هذا يتصور الشاعر طبيعة العلاقة التي يرغب في إقامتها مع صلاح
الدين ، فيطلب منه أن يرعاه ، وأن يجد له مكانا عنده ، يلقاه به بالبشاشة والبشر ،
وهذا يكون قد نال الجائزة المرجوة من صلاح الدين ، كما يعتقد الشاعر أن مدحه
هذا ما هو إلا تقرب ، يرجو منه الأجر والثواب ، يقول :-

وَلَوْ لَا اعْتِقَادِي أَنَّ مَدْحَكَ قُرْبَةٌ	أَرْجِي بِهَا نَيْلَ الْمَثُورَةِ وَالْأَجْرِ
لَمَا قُلْتُ شِعْرًا بَعْدَ اعْتِاقِ خَاطِرِي	وَلِي سَنَوَاتٌ مُنْذُ تَهْتُ عَنْ الشُّعْرِ
فَأَوْصِيهِ الْأَيَّامَ خَيْرًا فَإِنَّهُمْ	مَصْرُفَةٌ بِالْثَّهْيِ مِنْكَ هَالِكَةٌ
وَجَائِزَتِي تَسْهِيلُ إِنْ دَنِي عَلَيْكُمْ	وَمَا تَأْكُمُ لِي بِالطَّلَاقِ وَالْبِشْرِ (٢)

(١) انظر على سبيل المثال النكت المعصرية / ٢٨٧ ، كتاب الروضتين : ج ١ / ٢٠٦٨ .

(٢) البيت الأول في النكت نقط / ٢٧٠ ، والأبيات جميعها في كتاب الروضتين :

ج ١ / ٢٠٦٢ - ٢٠٦٤ .

وانطلق عمارة بعد هذه القصيدة يمدح صلاح الدين ويمجده ، ومن ذلك قوله لما قدم والده إليه من الشام سنة ٥٦٥ هـ :-

صَحَّتْ بِهِ مِصْرٌ ، وَكَانَتْ قَبْلَهُ تَشْكُو سَقَامًا لَمْ يَعْنِ بِطَبِيبٍ (١)

ويبين عمارة اليمني في قصيدة له أن صلاح الدين لم ينسح له مكانا في دولته ، وأن الشاعر قد ضاق عليه رزقه ، وسدت في وجهه الأبواب ، كما يبدو في قوله :-

سَمِعْتُ بِصَلَاةِ الدِّينِ مَاءُ أَحْمَدٍ وَطَائِرُهَا فَوْقَ السَّمَاءِ مُحَاقٌ
لَكَ الْخَيْرُ قَدْ طَالَ انْتِظَارِي وَأُطْلِقْتُ لِغَيْرِي أَرْزَاقٌ وَرِزْقِي مَعْشُوقٌ
كَأَنَّكَ لَمْ يَسْمَعْ بِجُودِكَ مَقْرِبٌ وَلَمْ يَتَحَدَّثْ عَنْ عَطَائِكَ مَشْرِقٌ (٢)

عرف صلاح الدين بثاقب بصيرته أن عمارة لم يكن راضيا عن إداة دولة الفاطميين ، حين قطعت الخطبة لهم على المنابر ، وقد ظهر حزنه الشديد أما آل إليه حالهم ، فقد كان من أتباعهم ، ومن انتفع بهم ، يدل على ذلك قوله من قصيدة يرثيهم بها :-

رَمَيْتَ يَا دَهْرُكَ الْمَجْدَ بِالشَّالِ وَجِدَهُ بَعْدَ حُسْنِ الْحَالِ بِالْعَطَلِ
أَبْكِي عَلَى مَآثِرَاتٍ مِنْ مَكَارِمِكُمْ حَالِ الزَّمَانِ عَلَيْهَا وَهِيَ لَمْ تَحُلِ
وَاللَّهِ لَا نَزَايُومَ الْحَشْرِ مَبْنُوكُمْ وَلَا نَجَا مِنْ عَذَابِ النَّارِ غَيْرُ وَلِي
وَاللَّهِ لَا زَايَتَ عَنْ حُبِّي أَسَدَا مَا أَخَّرَ اللَّهُ لِي فِي مُدَّةِ الْأَجَلِ
عُمَارَةٌ قَالَهَا الْمُسْكِينُ وَهُوَ عَلَسَ خَوْفٌ مِنَ الْقَتْلِ ، لَا خَوْفٌ مِنَ الزَّلْزَلِ (٣)

وصار عمارة يظهر في غائات لسانه ، من نظمه ونثره ، ما يقتضي التحرزمه ، فإزادات الجفوة بينه وبين صلاح الدين ، فكتب إليه قصيدة ، سماها "شكاية المعتظم" ، ونكايته

(١) كتاب الروضتين : ج١ ق ٢ / ٤٦٣ .

(٢) المختار من ديوان عمارة / ٣٠٠ .

(٣) البيت الأول والثاني في الروضتين : ج١ ق ٢ / ٥٧٠ ، والأبيات جميعها في مفرج

الكروب : ٢١٢ / ١ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، وهي غير موجودة في المختار من

ديوان الشاعر .

المتألم " ، شكا بها حاله ، ثم طلب من صلاح الدين أن يصفى إلى قوله ، وأن يـسـرى ما فيه من خصال حميدة : من استمسك بمذهب السنة ، ومن انطباع على الشعر ، ومن مقدرة على النثر البليغ ، ومن حفظ للجميل ، ويختتم قصيدته الطويلة بأمل واسع عريض في أن يجد من صيلاح الدين ما يصبو إليه من البقاء والعز والفنى ، كما يبدو غـيـبي قولـه :-

نَقُولُ لِإِصْلَاحِ الدِّينِ وَالْعَدْلِ شَأْنُهُ
وَعِنْدِي مِنَ الْأَدَابِ مَا لَوْ شَرَحْتَهُ
إِنْ كُنْتَ تَرَعَى النَّاسَ لِلْفِقْرِ وَحَسَدَهُ
أَلَمْ تَرَعْنِي لِلشَّامِ نَهْيِي وَأَنْتَ لَمْ
مَلَكَتَ عَيْنَانَ النَّصْرَةِ خَذَلْتَنِي
فَعِنْدِي إِذَا مَا الْعَرْفُ ضَاعَ غَرِيبُهُ
وَهَيْبَتِي وَبَيْنَ الْجَاهِ وَالْعِزِّ وَالْغِنَى
فِيكَ أَهْلُ الْجُودِ وَالْبِرِّ وَالتَّقَى

ولكن صلاح الدين لم يأبه به ، فلم تُجبر قصيدته نفعاً ، فمضى يتفق مع جماعة
من يوفدون الحكم الفاطمي ، للاتصال بالفرنج والاسماعيلية في الشام (٢) ، للقضاء
على صلاح الدين ، وإرجاع الخلافة الفاطمية ، فقبض عليهم صلاح الدين ، وأُفتي بقتلهم ،
فصلبهم ، وكان ذلك سنة ٦٩٥ هـ (٣) .

- (١) المختار من ديوان عمارة / ٢٨٧ - ٢٨٩ ، ٢٩١ .
 (٢) انظر كتاب الروضتين : ج١ ق ٢ / ٥٦٥ ، منج الكروب : ٢٤٩ / ١ ، الحركة الصليبية : ٧٠٥ / ٢ .
 (٣) انظر الخريدة ، قسم شعراء الشام : ١٠٤ ، ١٠١ / ٣ ، مرآة الزمان : ق ١ ج ٨ / ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، كتاب الروضتين : ج١ ق ٢ / ٥٦٠ ، وفيات الأعيان : ٤٣٥ / ٣ ، منج الكروب : ٢١٢ / ١ ، البداية والنهاية : ٢٩٤ / ١٢ ، ثمرات الأوراق / ٣٠ ، السلوك : ج١ ق ١ / ٥٤ ، ٥٥ ، الكواكب الدرية / ٢٢٤ ، وغيرها .

وكان الشاعر أبو القاسم هبة الله بن كامل (١) من الجماعة الذين شنقهم صلاح الدين مع عسكرة .

وأم يوفى الشاعر ابن عنين (٢) في علاقته مع صلاح الدين ، بسبب فحش لسانه ، " وقبح هجائه " ، و " ثلجه لأعراض الناس " (٣) ، فقد نظم قصيدة هجائية مطولة في أعيان دمشق وغيرهم ، سماها : " مقراض الأعراض " (٤) . ولم يكتف ابن عنين بما قرضه لسانه من أعراض الناس ، وإنما تعدى ذلك إلى هجاء السلطان صلاح الدين ووزيره القاضي الفاضل ، وكتبه العمار الأصمهاني ، وغيرهم من رجالات الدولة (٥) .

كل هذا دفع صلاح الدين إلى نفيه من دمشق ، حيث يشاء من البلاد ، فخرج منها قائلاً :-

فعلام أبعدتم أخوا ثقفة
إن كان يُنفى كل من صدقنا (٦)

(١) هو: أبو القاسم هبة الله بن عبد الله بن كامل ، كان داعي الدعوة بمصر أيام الفاطميين ، وقاضي القضاة ، وكانوا يلقبونه بفخر الأئمة ، وكان عندهم في المحلة العليا ، انظر: الخريدة ، قسم شعراء مصر : ١٨٦/١ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٥٧١ .

(٢) أبو المحاسن ، محمد بن نصر بن الحسين بن عنين الأنصاري ، الملقب شرف الدين ، الكوفي الأصل ، الدمشقي الموالد ، كان مولعاً بالهجاء ، ونفاه صلاح الدين بطواف كثيراً من بلاد الشام والعراق والجزيرة وغيرها ، ثم عاد إلى دمشق بعد وفاة السلطان صلاح الدين ، ونال كثيراً من الاحترام والتقدير من قبل ملوك بني أيوب ، كانت ولايته بدمشق سنة ٥٤٩ هـ ، ووفاته سنة ٦٣٠ هـ بدمشق ، وفيات الأعيان : ١٤/٥ - ١٨ ، مرآة الزمان : ق ١ ج ٨/٤١٢ .

(٣) مرآة الزمان : ق ١ ج ٨/٤١٢ ، وفيات الأعيان : ١٤/٥ .

(٤) ديوان ابن عنين / ١٧٩ ، وفيات الأعيان : ١٤/٥ .

(٥) انظر ديوان ابن عنين / ٢١٠ ، مرآة الزمان : ق ١ ج ٨/٤١٢ .

(٦) ديوان ابن عنين / ٢١٠ ، مرآة الزمان : ق ١ ج ٨/٤١٢ ، حسن

المحاضرة : ٣١/٢ .

ويشعر قارىء هذين البيتين أن الشاعري يعتقد أنه على صواب، وأنه ما قال
في شعره غير الحق .

كان جديرا بآبن عنين أن يعجّد بطولات صلاح الدين في شعره، بما حُص
به من قدره على الوصف والتعبير، ولكن سوء لسانه جعله بعيدا عن أرض الصراع مع
الأعداء (١) بل بعيدا عن صلاح الدين نفسه .

وذكر ابن الجوزي أن الطبيب ابن المطران، وكان مقربا من صلاح الدين، قد
حرّض السلطان على نفيه (٢) .

نستنتج ما تقدّم أن صلاح الدين لم يكن يهمل الشعراء، لا سيما أنه كان
يتذوّق الشعر، بل اعتنى بهم جميعا اعتناء فائقا، ورعاهم رعاية نادرة، فـكـان
يستمع إليهم في حله وترحاله، ويحتفيهم بجوائز السنية، وأعطيات القيمة، بل نجمد
من هؤلاء الشعراء من هو رئيس ديوانه ووزيره، وكتب انشائه، وقاضي عسكره، وجندي
من جنوده البواسل الذين يخوضون معه غمار معاركه، وهكذا نرى أن الشعراء قد
تفاعلوا معه، وتفاعل هو معهم، فأثروا فيه وأثر فيهم .

ولما توفّي صلاح الدين رثاء الشعراء أصدق رثاء، كما يهدو ما تبقى من
قصائد هم، وهي قليلة، لا تتجاوز قصيدتين غير مكتملتين أو ثلاث قصائد لشاعرين هما:
العماد الأصهباني، وجعفر بن شمس الخلافة . وأعل قصائد أخرى في رثاء صلاح الدين
قد ضاعت، أو ما تزال تنتظر الكشف عنها .

* * *

* *

(١) انظر مقدمة ديوان ابن عنين / ٣٢ .

(٢) رسالة الزمسان : ق ١ ج ٨ / ٤١٢ .

الفصل الرابع الدراسة الفنية

- x بناء القصيدة .
- x اللفظة والأسلوب.
- x الصورة الشعرية.

بناء القصيدة

عنيت هذه الدراسة بالشعر الذي قيل في صلاح الدين، وحتى تكون صورة هذا الشعر واضحة وشاملة، رأيت أن أعتد فصلاً للحديث عن أبرز السمات الفنية (١).

لعل من أهم مقومات القصيدة، مطلعها أو استهلalها، وموضوعها، وخاتمتها. سنع ملاحظة طولها وقصرها، وسأعرض هذه المقومات بشيء من التفصيل.

عنى النقاد منذ القدم بمطالع القصائد، ودعوا إلى الاهتمام بها، والإجادة فيها، لأن الابتداء كما يرى أبو هلال العسكري أول ما يطرق سمع الإنسان من الكلام، ولأنه "إن كان حسناً بديعاً، ومليحاً رشيقاً" فإنه يقرع الأسماع، ويكون داعية إلى الاستماع لما يجيء بعده من كلام، وهذا يعني أنه يترك صدى في نفس السامع، فهو داعية الانشراح ومطية النجاج (٢)، وإذا كان المطالع مستقبها فإن النفس تنقبض لاستقباله (٣). ولا بد من أن يتحرز الشاعر ما يتطير منه، ولا سيما في المدائح والتهاني (٤)، ويرى حازم القرطاجني أنه ينبغي أن تكون العبارة في المطالع "حسنة جزلة، وأن يكون المعنى شريفاً تاماً"، وأن تكون الدلالة على المعنى واضحة (٥)، ولا بد أن يكون المطلع من الكلام دالاً على مقصد المتكلم، فإذا كان "مقصده الفخر كان الوجه أن يعتمد من الألفاظ والنظم والمعاني والأسلوب، ما يكون فيه بهاءً وتغخيم، وإذا كان المقصد التسيب، كان الوجه أن يعتمد منها ما يكون فيه رقة وعدوبة من جميع ذلك، وكذلك سائر المقاصد" (٦)، وفائدة ذلك كما يذكر ابن الأثير "أن يعرف من يبدأ الكلام ما المراد منه" (٧).

- (١) أنظر حول علاقة الأدب الفنى بالمادة الشعرية كتاب صدى الفزو الصليبي / ١٢٠.
- (٢) كتاب الصناعتين / ٤٨٩، ٤٩٤، ٤٩٦، وانظر العدة: ١ / ٢١٧، المثل السائر: ٢ / ٩٧، ٩٨، ٢٩٦.
- (٣) أنظر منهاج البلاغة / ٢٨٢.
- (٤) البديع في نقد الشعر / ٤٠٠، المثل السائر: ٣ / ٩٧.
- (٥) منهاج البلاغة / ٢٨٢.
- (٦) نفسه / ٣١٠.
- (٧) المثل السائر ٩٧٣، وانظر الموضحة في ذكر سرقات المتنبي / ٢٥، خزانة الأدب / ١٠، تاريخ النقد الأدبي عند العرب / ٢٦٥، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية / ٢٤٢.

وقد جاءت المطالع في كثير من قصائد الشعراء الذين مدحوا صلاح الدين، لا سيما القصائد التي تتجد انتصاراته وجهاده، مطابقة لما ذهب إليه النقاد فيما تقدم، فهي تتسم بالقوة، والتعبير عن الحدث والقصد، وتتلاءم مع الموضوع الذي أنشئت من أجله، وتدل بوضوح على المعاني المقصودة، ويبدو ذلك جلياً في مستهل قصيدة ابن الساعاتي، على سبيل المثال، التي مدح بها السلطان صلاح الدين، عندما خرب "بيت الأحزان" سنة ٥٧٥ هـ، حيث مجد اجتهاده في الأمر، هذا الاجتهاد الذي تتثنى له الذوايل، وذكر قلة شأن العدو، والخسارة أمام صلاح الدين، يقول :

بِحَدِّكَ أَعْطَاكَ الْقَنَا تَتَعَطَّفُ وَطَرَفُ الْأَعَادِي دُونَ مَجْدِكَ يَطْرِفُ (١)

وشبهه بهذا القول قول ابن نيهان العراقي في المناسبة نفسها :

هَنِيئاً صَلاَحَ الدِّينِ بِالْفَتْحِ وَالنَّصْرِ وَنَمِلَ الْأَمَانِي الْغُرَّ وَالْفَتَكَ الْبَذْرُ (٢)

فقد بدأها بالتهنئة، وذكر الفتح والنصر، والفتك، وهذا ما يتناسب وموضوع القصيدة.

ومن الابتداءات الحسنة الملائمة لمقتضى الحال، المرتبطة بموضوع القصيدة أشد ارتباطاً، ابتداءات القصائد التي أشادت بوحدة البلاد التي تمت على يد صلاح الدين، وهي كثيرة، وسأتناول منها ما يعني للاستدلال على ما ذكر.

من هذه المطالع، مطلع قصيدة نشو الدولة، أبي الفضل، أحمد بن عبد الرحمن في ضم صلاح الدين لدمشق سنة ٥٧٠ هـ، يقول :

بدا في ساء الملك من شخصك البذر وقابله الاقبال والفتح والنصر (٣).

ووفق السامد الأصفهاني في مطلع قصيدته التي مدح بها صلاح الدين، لما ضم بعلبك إلى الحظيرة الإسلامية، حين ربح افتخار الإسلام بفتوح صلاح الدين، واشراق

(١) ديوان ابن الساعاتي: ٤٠٩/٢، سنا البرق/ ١٧١، كتاب الروضتين: ١١/٢.

(٢) كتاب الروضتين: ١٢/٢، وانظر مطلع قصيدة الجويني في وقعة مرج عيون في:

البرق الشامي: ١٧٢/٣، كتاب الروضتين: ٩/٢، فرج الكروب: ٧٢/٢.

(٣) الخريدة، قسم شعراء الشام: ٣٢٩/١.

الأيام بانتصاره، وفي هذا تمهيد للاستقرار والاطمئنان، وعودة الأمور إلى مجاريها الصحيحة يقول:

بِفَتْوحِ عَصْرِكَ يَفْخَرُ الْإِسْلَامُ وَبِنُورِ نَصْرِكَ تُشْرِقُ الْأَيَّامُ (١)

وما يزيد من رونق هذا المطلع الموسيقى الداخلية التي فيه، من مثل: عَصْرِكَ ونَصْرِكَ، الْإِسْلَامُ وَالْأَيَّامُ، وما فيه من تصريح (٢)، فإن للتصريح وقعاً، وطلاوة فسي النفس. (٣)

ومن المطالع الجيدة الموحية المعبرة، الدالة على موضوع القصيدة في مجال الوحدة مطلع قصيدة ابن الساعاتي، التي مدح بها السلطان، ووحشه على المسير إلى حلب، وذلك عند توجهه عن آيد، وقد فتحها، ونزوله على تل خالد سنة ٥٧٩ هـ، يقول في المطلع:

مَا بَعْدَ لَقِيَاكَ لِلْعَافِينَ مِنْ أَمَلٍ مَلِكُ الْمُلُوكِ وَهَذِي دَوْلَةُ الدُّوَلِ (٤)

ففي هذا المطلع إشادة بعطاء صلاح الدين، وهو يومي* بذلك إلى منح ابن قرا ارسلان آيد، وقد تقدم ذكر ذلك، وهي سياسة حكيمة اتبعها صلاح الدين في وحدة البلاد، ثم يذكر سيطرته على الممالك بتعظيم شأنه وشأن دولته، وهذا يسوق السامع إلى موضوع القصيدة وهو الوحدة.

ومن الاستهلالات الباهرة الملائمة لمقتضى الحال، مطلع قصيدة العماد الاصفهاني في رثاء صلاح الدين، حيث ذكر تشتت الملك وضياعه، وتفرقه، وذكر الاستيلاء والنزول، يقول:

شَمَلُ الْهُدَى وَالْمُلْكِ عَمَّ شَتَاتُهُ وَالْدَّهْرُ سَاءَ وَأَقْلَعَتْ حَسَنَاتُهُ (٥)

- (١) ديوان العماد / ٢٧٧، كتاب الروضتين: ج ١ / ٢٢١، مفرج الكروب: ٥٩ / ٢.
 (٢) التصريح: ما كانت عروض البيت فيه تابعة لضربه: تنقص بنقصه، وتزيد بزيادته. انظر العماد: ١٢٣ / ١.
 (٣) انظر منهاج البلاغة: ٢٨٢ / ٢.
 (٤) ديوان ابن الساعاتي: ٣٨٢ / ٢، كتاب الروضتين: ٤٣ / ٢. وانظر مزيداً من الأمثلة أقوال الشعراء: أبي المرحف النسيبي: الخريدة، قسم شعراء العراق: ٤٦٥ / ٣، ابن سناء الملك: ديوانه / ١، وحيد الاسدي: الخريدة، شعراء الشام: ٣٤٢ / ١، وغيرهم.
 (٥) ديوان العماد / ٨٦، كتاب الروضتين: ٢١٥ / ٢.

ومن الاستهلالات البارعة القوية، الموحية، المستمدة من الحدث ذاته، الثلاثية مع موضوع القصيدة، تلك الاستهلالات والمطالع التي جاءت في القصائد التي قيلت فسي التفني بانتصارات صلاح الدين سنة ٥٨٣ هـ، لا سيما انتصاره بفتح بيت المقدس .

ومن هذه القصائد قصيدة ابن الساعاتي التي مدح فيها السلطان بعد أن فتح طبرية، وقد بدأها بتسجيد عزات صلاح الدين، التي كان لها الأثر اليبين في الفتح وبالتالي اطمئنان النفوس، يقول :

كَبَلَتْ عَزَمَاتُكَ الْفَتْحَ السُّبَيْنِيَا فَقَدْ قُرَّتْ عِيُونُ الْمُسْلِمِينَ (١)

فهذا التعبير يقود السامع إلى التفكير والتأمل بالحدث، مقصد الشاعر من هذه القصيدة وما يترتب عليه من نتائج .

ويستهل ابن سناء الملك قصيدته بالحيرة في توجيه التهاني إلى صلاح الدين فان كل فتح، من تلك الفتوح والانتصارات في ذلك العام، لجدير بالتهنئة، وبهذا فان الشاعر يثير في السامع لدى قراءة هذا المطلع الشعور بالفرح والسعادة، والتهنئة معظم الأعيال التي قام بها صلاح الدين، وهذا يدل دلالة واضحة على النصر، يقول :

لَسْتُ أَزْرِي بِأَيِّ فَتْحٍ تُهَنِّئُنِي بِأَمْنِهِمُ الْإِسْلَامُ مَا قَدْ تَعَسَّنِي (٢)

ويتضح حسن الاستهلال في معظم القصائد القدسيات التي قيلت في فتح بيت القدس، ومن ذلك : مطلع قصيدة الجواني الذي يعبر فيه عن الدهشة بالنصر، وكشر الأعداء :

أَتُرَى مُنَامًا مَا بَعَيْنِي أَبْصِرُ الْقُدْسُ يُفْتَحُ وَالْفِرْدَوْسُ تَكْسَرُ (٣)

-
- (١) ديوان ابن الساعاتي : ٤٠٦ / ٢ ، كتاب الروضتين : ٨٤ / ٢ ، مفرج الكروب : ١٩٨ / ٢ ،
النجوم الزاهرة : ٣٤ / ٦ .
- (٢) ديوان ابن سناء الملك : ٣٤٠ ، مفرج الكروب : ٢٣٤ / ٢ .
- (٣) كتاب الروضتين : ١٠٥ / ٢ ، مفرج الكروب : ٢٣٣ / ٢ .

أما الجلياني، فقد عبّر في مطلع قدسيته " الفتحية الناصرية " عن حكمة استمدّها من الفتح نفسه، وهي في الوقت ذاته تعبر عن الواقع، يقول :

فِي بَاطِنِ الْفَيْتَبِ مَا لَا تُدْرِكُ الْفِكْرُ فِدْوُ الْبَصِيرَةِ فِي الْأَحْدَاثِ يَمْتَهِرُ (١)

وربط الشاغوري مطلع قصيدته القدسية بالقوة والعزم والفتك، وبذل الجهد، حين قيل :-

تُبْنَى السَّالِكُ بِالْوَشِيحِ الْأَسْمَرِ وَالْبَيْضُ تُلْمَعُ فِي الْعَجَاجِ الْأَكْدَرِ (٢)

والناظر في هذه المطالع يلاحظ اهتمام الشعراء بقضية التصريح في البيت، وهذا ليس أمراً جديداً في الشعر العربي، كما نجد هذه المطالع تعبيراً تعبيرا صادقا عن نفسية الشاعر، وتعبر عن المعاني المرادة بوضوح، كما يلاحظ خلوكثير من القصائد التي تنفتت بجهاد صلاح الدين وبطولته وسعيه للوحدة من المطالع الغزلية؛ لأن موضوع هذه القصائد كان مسيطرا على أفكار الشعراء ومشاعرهم، فقد انغمسوا بمعارك صلاح الدين وانتصاراته، وعملوا للوحدة فليس ثمة وقت لديهم للإطالة في موضوعات تبعد عن القضية الأساسية التي يعمشونها وتعيشها الأمة.

إلا أن ثمة قصائد في مدح صلاح الدين وتجييد أعماله قد استهلّت بمطاليع ومقدمات غزلية، ومن أمثلة ذلك قصائد ابن الدهان الوصلي، التي مدح بها السلطان، فقد كانت في أغلبها تبدأ بالفزول، وبعض قصائد العماد الأصفهاني، وابن سناء الملك وابن التعاويذي.

* * *

- (١) ديوان البشرا والقدسيات / ١٣٧، كتاب الروضتين: ١١٦ / ٢.
- (٢) ديوان فتيان الشاغوري / ١٤٠، وانظر مزيداً من الأمثلة مطلع قدسية الرشيد حسن بدر النابلسي: كتاب الروضتين: ١١٨ / ٢، ومطلع قدسية الجويني: كتاب الروضتين ١٠٤ / ٢، ومطلع قصيدة عبد النعم الجلياني القدسية الكبرى: ديوان البشرا والقدسيات / ١٣٧، كتاب الروضتين: ١١٦ / ٢.

والبدء بالمقدمة الفزلية ظاهرة قديمة ، اطردت عند الشعراء القدماء في العصر الجاهلي ، وهذا حظهم كثير من الشعراء الذين جاءوا في العصر الإسلامية اللاحقة .

ولعل أهم ما يستحق انتباه الباحثين في الشعر في فترة الحروب الصليبية أن الشعراء قد أهملوا المقدمة الفزلية في كثير من قصائدهم الجهادية الحربية التي تصف الأحداث المتلاحقة ، وقد بدأوا بدائيات حاسمة موحية بطبيعة الموضوع ، فهي حماسية ، لا تقليدية ، وألغوا جزلة قسم بطابع القوة ، وإن أن الشعراء قد انغمسوا بتلك الأحداث أيما انغماس ، والمقدمة التقليدية الفزلية تصرف هذا الانغماس بالأحداث ، وتطفئ جذوة الحماس ، وهي تتناقض واحساسات الشعراء في ذلك العصر ، فاهتموا عنها وبرزوا مؤثرين في ذلك بأبي تمام ، وأبي الطيب المتنبي .

وينطبق هذا على معظم الشعراء الذين مجدوا بطولة صلاح الدين وانتصاراته ، وعمله من أجل الوحدة ، وإن إن قصائدهم جزء من القصائد الجهادية الآتفة الذكر ، ويبدو هذا جليا في مطالع القصائد التي تقدم ذكرها ، لا سيما القصائد القدسيات التي أشاد فيها الشعراء بالفتح صلاح الدين والفتح القدسي العظيم ، فقد ابتعدوا عن المقدمات الفزلية غالبا ، ومن هؤلاء الشعراء : ابن الساعاتي ، وابن سناء الملك ، والحسن بن علي الجويني ، وفتيان الشاغوري ، والحكيم عبد المنعم الجلياني ، وابن الجاور الذي اعتذر اعتذارا جميلا عن استهلاله بالمقدمة الفزلية في مطلع قصيدته التي قالها بعد الفتح حيث يقول :

الْوَقْتُ أَضْيَقُ مِنْ سَمَاعِ قَصِيدَةٍ مَوْسُومَةٍ لِصِفَاتِ أَغْيَدِ أَهْيَافِ (١)

ويستثنى من تلك القصائد القدسية قصيدة ابن الساعاتي التي بدأها بالفزل ، ومطلعها :

غُصُونُ الْحِمَى شَقَّ الْمُعْتَمَى قُدُودُهَا فَهَلْ لِأَحَادِيثِ الْفُضَى مَنْ يُعِيدُهَا (٢)

(١) كتاب الروضتين : ١٠٣ / ٢ .

(٢) ديوان ابن الساعاتي : ٧١ / ١ .

وقصيدة العماد الأصفهاني القدسية التي مطلعها :

أَطْرِبُ بِأَنْفَاسٍ تَطْرِبُ لَكُمْ نَفْسًا وَتَعْتَاظُ مِنْ ذِكْرَاكُمْ وَخَشْتِي أَنْسَا (١)

ونجد في الشعر الذي مدح به صلاح الدين ، غير ما أشير إليه في القصائد القدسية ، قصائد استهلكت بمقدمات غزلية ، ولا يعيب بعض النقاد المقدمة الغزلية في الأغراض كلها ، بل عابوها في بعض الأغراض ، يقول ابن الأثير : " يجب على الشاعر إذا نظم قصيداً أن ينظر ، فإن كانت مدحاً صرفاً لا يختص بحادثة من الحوادث فهو مخير بين أن يفتتحها بغزل أو لا يفتتحها بغزل ، بل يرتجل المديح ارتجالاً . . . ، وأما إذا كان القصيد في حادثة من الحوادث كفتح معقل ، أو هزيمة جيش ، أو غير ذلك ، فإنه لا ينبغي أن يبدأ فيها بغزل ، وإن فعل ذلك دل على ضعف قريحة الشاعر ، وقصوره عن الغاية ، أو على جهله بوضع الكلام في موضعه " ، ثم يقول : " إن الغزل رقة محضة ، والألفاظ التي تنظم في الحوادث المشار إليها في فعل الكلام ، وستين القول ، وهي ضد الغزل ، وأيضاً فإن الأسماع تكون متطلعة إلى ما يقال في تلك الحوادث ، والابتداء بالخوض في ذكرها ، لا الابتداء بالغزل ، إن المهم واجب التقديم " (٢) .

يتضح مما تقدم أن ابن الأثير يربط بين مقدمة القصيدة موضوعها ، فيذهب إلى أنه لا يجوز أن يستهل القصيدة بالغزل إذا كان الحديث أو موضوع القصيدة يختص بفتح معقل أو هزيمة جيش أو غير ذلك ، وإن أن طبيعة الغزل لا تسمح بذلك ، بل تتناقض مع طبيعة الموضوع .

والوجه في المديح المتخلص إليه من النسب أن " يصدر بتعديد فضائل المدوح " ، وأن يكون صدره : " حسن السبك ، عذب العبارات ، مستطاب المعاني ، ليناسب ما اتصل به من النسب ، ويجب أن تعتمد فيه مع ذلك الجزالة والبالغة في الأوصاف " (٣)

(١) ديوان العماد / ٢٣٠ ، معجم الأدباء : ٢٢/١٩ .

(٢) المثل السائر : ٩٢/٣ .

(٣) منهاج البلاغ / ٣٠٥ ، ٣٠٦ .

تحدث كثير من النقاد عن التخلص الذي يسميه أسامة بن منقذ " الخروج " (١)، ورأوا أن يكون مرتبطاً بالمقدمة الغزلية ، وأن يحسن الشاعر التخلص من تلك المقدمة إلى الغرض الذي يريد ، إذ إن القصيدة وحدة متكاملة لأعضاء الانسان يرتبط بعضها برقاب بعض ، فيذهب ابن رشيق إلى أنه ينبغي في " النسيب الذي يفتح به الشاعر كلامه أن يكون ممزوجاً بما بعده من مدح أو ذم ، متصلاً به ، غير منفصل عنه ، فإن القصيدة مثلها مثل خلق الانسان في اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر ماينه في صحة التركيب ، غادر بالجسم عاهة تتخون محاسنه ، وتعقبي معالم جماله " (٢).

ويقول ابن الأثير في التخلص " أن يأخذ مؤلف الكلام في معنى من المعانسي ، فيبينما هو فيه إن أخذ في معنى آخر غيره ، وجعل الأول سبباً إليه ، فيكون بعضه أخذاً برقاب بعض ، من غير أن يقطع كلامه ويستأنف كلاماً آخر ، بل يكون جميع كلامه كأنما أفرغ أفرغاً ، وذلك ما يدل على حذف الشاعر ، وقوة تصرفه " (٣) .

وينبغي أن يكون التخلص سهلاً لطيفاً ، يختلس اختلاسا رشيقاً ، بحيث لا يحسن السامع بالانتقال من معنى إلى معنى لشدة التلاحم بينهما ، وأن يكون النسيب معتزلاً بما بعده من مدح أو هجاء أو غيرهما ، وأن يكون الخروج إلى المدح بديعاً حسناً ، فإن كان كذلك فانه يحرك من نشاط السامع ، ويؤثر فيه للاستماع لما بعده (٤) .

وعند النظر في الشعر الذي قيل في صلاح الدين نجد قصائد خلت غالباً من المقدمات الغزلية ، كما تقدم ، ونجد قصائد مدحية أخرى تستوعب غير ما موضوع واحد ، أو تدور حول عدة محاور ، إذ إنها في هذه الحالة تبتدي بمقدمات غزلية ، قد تكون طويلة أحياناً ، ثم يجري بعد ذلك التخلص من الغزل إلى الموضوع الرئيسي ، وهو

-
- (١) البديع في نقد الشعر / ٤٠٣ .
 - (٢) العمدة : ١١٧/٢ ، وأنظر قانون البلاغة / ١٢٠ .
 - (٣) المثل السائر : ١٢١/٣ .
 - (٤) أنظر عيار الشعر / ١٢ ، ١١٥ ، الوساطة / ٤٧ ، شرح الكافية البديعية / ١٣٠ ، وأنظر بناء القصيدة العربية / ٢٢١ - ٢٢٢ .

المديح ، بطريقة لطيفة ، ملائمة ، تنطبق غالبا على ما أشار إليه النقاد سابقا ، ثم تتم الإشارة بجيش صلاح الدين ، ووقائعه ، وفعله بالأعداء وغير ذلك

ومن القصائد التي بدأت بالغزل تلك القصيدة العمادية القدسية التي مطلعها :

أَطِيبُ بِأَنْفَاسِ طَاطِبٍ لَكُمْ نَفْسًا وَتَعْتَاظُ مِنْ ذِكْرَاكُمْ وَحَشْتِي أَنْسَا

فعمد النظر في هذه القصيدة ، نجد التلاؤم جليا بين المقدمة والموضوع ، فإن العماد يختتم مقدّمته الغزلية بقوله :

فَلَا تَحْبِسُوا عَنِّي الْجَمِيلَ فَارْتَسَنِي جَعَلْتُ عَلَى حُبِّي لَكُمْ مَهْجَتِي حُبْسًا

ذكر العماد في عجز البيت السابق أنه قد جعل مهجته وقفا على من يحب ، وقال بعده مباشرة في مدح صلاح الدين :

رَأَيْتُ صَلَاحَ الدِّينِ أَفْضَلَ مِنْ غَدَا وَأَشْرَفَ مِنْ أَضْحَى ، وَأَكْرَمَ مِنْ أَمْسَى (١)

وقد أشير عند الحديث عن علاقة العماد بصلاح الدين أن العماد قد أحسب صلاح الدين حبا عظيما ، وهذا ما دفع العماد إلى أن يربط بين عجز بيت التخليص وبين مدح الفاتح صلاح الدين .

ويستهل ابن الدهان أغلب قصائده التي مدح بها صلاح الدين بمقدمات غزلية ، ولعل ذلك يعود إلى بقاء الشاعر في مدينة " حمص " بعيدا عن جوار المعارك التي خاضها صلاح الدين مع أعدائه ، فكان غالبا ما يمدحه بعد قفوله من المعركة أو الفزوة ، يثبت ذلك ما ورد عن ابن الدهان أنه كان يمدح صلاح الدين كلما عبر مدينة " حمص " (٢) . ومن ذلك أنه لما وصل السلطان إلى حمص ، وخيم بالعاصي أتابه ابن الدهان ، وانشده ، قصيدة غزرا مطلعها :

(١) ديوان العماد / ٢٣٠ ، ٢٣١ ، معجم الأدباء : ٢٤٠ ، ٢٢ / ١٩ ، كتاب

الروضتين : ١٠١ / ٢ .
(٢) أنظر ترجمته في الفصل الأول من هذه الدراسة ، وعلاقته بصلاح الدين في الفصل الثالث من هذه الدراسة .

أَمَّا وَجُفُونُكَ الرَّمَضَى الصَّحَّاحِ وَسَكْرَةُ مُقْلَتَيْكَ وَأَنْتَ صَاحِ
وَمَا فِي فَيْكَ مِنْ بَرْدٍ وَشَهْنَسٍ وَفِي خَدَّتِكَ مِنْ رُودٍ وَدَاحِ
لَقَدْ أَصْبَحْتُ فِي الْعُشَّاقِ فَكْرًا كَمَا أَصْبَحْتُ فَرْدًا فِي الْعِلَاحِ

ويطيل الشاعر في هذه المقدمة الغزلية التي تبلغ ثلاثة وعشرين بيتاً ، ثم يخرج
بحذق ومهارة إلى مدح صلاح الدين ، فيقول :

قَطَعْنَا اللَّيْلَ فِي شَكْوَى عَتَابِ إِلَى أَنْ قِيلَ حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ
وَلَا حَ الصُّبْحُ يَخْكِي فِي سَنَاهِ صَلاحُ الدِّينِ يُوسُفُ ذَا الصَّالِحِ
هُوَ الْمَلِكُ الَّذِي أَوْرَى زِينَتَهُ وَفَارَتْ عِنْدَ رُؤُوسِهِ قَدَاحِي
يُقَرِّبُ جُودَهُ أَقْصَى الْأَمَانِي وَيَضْمَنُ بَشْرَهُ أَسْنَى النَّجَاحِ (١)

يلاحظ فيما تقدم حسن تخلص الشاعر من المقدمة الغزلية ، وإنه بعد أن تحدث
عن اجتيازه الليل في الشكوى والعتاب مع من يحب ، قرن قدوم الصبح الضيء المشرق
بصلاح الدين ، الذي يؤمل بقدمه صلاح الأحوال ، كما يؤمل بظهور الصبح صلاحية
الحياة وتجدد ها واستمرارها ، وإذا ما علمنا أن صلاح الدين كان كلما ظهر بحمص أعطى
الشاعر مئة دينار وخلعة (٢) ، أدركنا أن هذا الظهور في كل مرة يعني صلاح أحوال
الشاعر ، وهذا يتفق مع ظهور الصبح الذي أشار إليه الشاعر في البيت . ويتحدث الشاعر
بعد ذلك عما قدمه صلاح الدين للشاعر من شد أزره والاحسان إليه ، ويشيد بجوده (٣) ،

وتجدر الإشارة إلى أن ابن سناء الملك لا يستهل قصيدة له ، قالها في سنة
٥٨٢ هـ بالفضل ، بل يؤخره إلى نهاية القصيدة ، وهذا ما لم تجربه العادة ، ولم
يألفه شعراء عصره ، ولا الشعراء من قبل ، وقد أشار ابن سناء إلى ذلك ، وعلل هذا

(١) ديوان ابن الدهان / ٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ .

(٢) انظر الحديث عن علاقة ابن الدهان بصلاح الدين في الفصل الثالث من هذه
الدراسة .

(٣) أنظر أمثلة أخرى : (الحاشية (١) من الصفحة التالية) .

الخروج عن المألوف بهيئة صلاح الدين التي ملأت عليه حسه ووجدانه ، ومطلع هذه القصيدة :

سعودك ردت ما ادعاه المنجم
وقد كذبت في الذي كان يزعم
ثم يقول :

ولا برحت مضراً أحق بيوسف
ورب طيح لا يحب وضد
هو الجيد خذته إن أردت مسلماً
بصر كما بي من جوء وصباية
أغار على قلبي حبيب مقتنع
ويقول في ختامها :

فياناصر الدين الذي بحساميه
لحدرك أخرت النسب تهيباً
ونائله الفياض يسلو الحشيم
وعندهم أن النسب يفسد (١)

وعني شعراً صلاح الدين بخواتيم قصائد هم ، إذ إن الخاتمة كما يقول ابن رشيق ، " قاعدة القصيدة ، وآخر ما يبقى في الأسراع ، وسبيله أن يكون محكماً ، لا تمكن الزيادة عليه ، ولا يأتي بعده أحسن منه ، وإذا كان أول الشعر مفتاحاً له ، وجب أن يكسبون الآخر قفلاً عليه " (٢) ، ولا بد أن يكون ، كما يقول القرطاجني ، " ما وقع فيها من الكلام كأحسن ما اندرج في حشو القصيدة ، وأن يتحرز فيها من قطع الكلام على لفظ كريه أو معنى منفر للنفس " ، وأن تكون مناسبة لغرض القصيدة ، فيجب أن تكون معانيها " سارة فيما قصد به التهاني ، وحزينة مؤسفة فيما قصد به التعازي والرناء " (٣) ، وهري

(١) ديوان ابن سناء الملك / ٢٩٠ ، ٢٩٣ . وانظر حسن التخلص على سبيل المثال ،

طائفة سعادة في الخريدة ، قسم شعراً الشام : ٤١٨ / ١ ، وقصيدة ابــــن الساعاتي : ٦٦ / ١ ، وغيرها .

(٢) القصيدة : ٢٣٩ / ١ ، أنوار الربيع : ٣٢٤ / ٦ ، وانظر الحياة الأدبية في

الشام / ٣٣٦ ، بناء القصيدة / ٢٢٩ .

(٣) منهاج البلاغة / ٢٨٥ .

أبو هلال العسكري والقرطاجني أن ما يزيد الخاتمة بها ، وحسنا ، ويجعلها محببة
للنفوس كونها مذيلة بأبيات من الحكمة أو يمثل سائر (١) . ويقول أبو هلال العسكري
إنه لا بد من أن يكون آخر بيت في القصيدة أجود بيت ، وأدخل بيت في المعنى السدي
قصد له الشاعر في نظمها " (٢) .

وما دام الأمر كذلك فانه ينبغي على الشاعر أو الناثر أن يجتهد في الخاتمة ،
لتبقى لذاتها في الأسماع ، فانها آخر ما يسمع إليه من الكلام (٣) .

ومن خير ما يمثل ما تقدم من حديث عن الخواتيم في الشعر الذي قيل في صلاح
الدين ، تلك الخواتيم التي نجدها في القصائد القدسيات حيث نجدها معبرة عن تمجيد
الفتح أو الفاتح ، أو الاثنين معا ، وما يتصل بهما كالإشادة بأيام الفتح ، والجنس ،
والخيل ، والوقائع .

ومن تلك الخواتيم خاتمة قصيدة عبد المنعم الجلياني التي أولها :

"أبا المظفر أنت المَجْتَبِي لهدى " يقول في الخاتمة :

يا فاتح المسجدر الأقصى علي بهم	وقائص الجيش لا يخص برفقتيه
أبشركم بك كظهر الشمس مطلع	على البسيطة فتاح بنشرته
حتى تكون لهذا الدين ملحمه	تحركي النبوة في أيام فترته (٤)

فنرى الشاعر يمجّد الفاتح ، ويتوقع له ملكا عظيما ، ويربط بين أيام النبوة
العظيمة ، وهذا ما يتناسب مع عظمة الفتح والفاتح ، غرض هذه القصيدة .

-
- (١) كتاب الصناعتين / ٥٠٣ ، منهاج البلغاء / ٣٠٠ .
 - (٢) كتاب الصناعتين / ٥٠٣ ، وانظر شرح الكافية البديعية / ٢٢٢ .
 - (٣) أنظر شرح الكافية البديعية / ٢٢٣ ، خزانة الأدب / ٥٦٢ .
 - (٤) ديوان المبشرات والقدسيات / ١٣٥ ، ١٣٦ ، كتاب الروضتين : ١٠٣/٢ .

ويقول ابن الساعاتي في ختام قصيدته التي مدح بها السلطان بعد الفتح ،
معرضاً بالحادثة التي أودت بماله :

وَمَا زِلْتُ رَبَّ الْحَزْمِ فِي كُلِّ مَوْطِئٍ وَمَا حَفِظَ الْأَمْوَالَ مِنْ ضَيْعِ الْحَزْمَا (١)

يلاحظ أن في خاتمة هذه القصيدة ذكراً للحزم الذي هو من عوامل النجاح والانتصار ، وهو
صفة اتصف بها الفاتح صلاح الدين ، وفي الخاتمة يومي الشاعر إلى ضياع ماله حين علق
حفظ الأموال بالحزم ، وهذا هو الفرض الرئيسي من القصيدة .

وبختتم الجواني قصيدته مصوراً خيول الجند ، وهي تمشي على جثث الأعداء قائلا :
وَصَوَانُ تَخْتَارُ أَنْ تَطَأَ السَّيْرَى فَيَصُدُّهَا عَنْهُ طُلَى وَسَبْـوَرٌ
تَمْشِي عَلَى جُثَثِ الْعِدَا عَرَجًا وَلَا عَرَجَ بِهَا وَلَكِنَّهَا تَتَمَسَّكُ (٢)

وقد تختتم بعض القصائد القدسية بالدعاء لصلاح الدين ، ومن ذلك قول الجويني
في ختام قصيدته القدسية " جند السما لهذا الملك أعوان " :

إِذَا طَوَى اللَّهُ دِيوَانَ الْعِبَادِ فَمَا يُطَوِّي لِأَجْرِ صَاحِبِ الدِّينِ دِيْوَانُ (٣)

ومثل هذا قول الشافعي في قصيدته القدسية : " تَبْنَى الْمَالِكُ بِالْوَشِيحِ الْأَسْمَرِ "
لَا زَالَ ظِلُّكُمْ الظِّلِيلُ وَلَا خَلَّتْ مِنْ ذِكْرِكُمْ فِي الدَّهْرِ نِزْوَةُ نَسِيرِ (٤)

فالجويني يدعوا بأن يستمر الأجر لصلاح الدين ويدوم ، في حين أن الشافعي
يدعوه بأن يبقى ذكره مدى الدهر ، تلهج به السنة الخطباء على ذرى المنابر .

(١) ديوان ابن الساعاتي : ٣٨٨ / ٢ .

(٢) كتاب الروضتين : ١٠٥ / ٢ .

(٣) نفسه : ١٠٥ / ٢ .

(٤) ديوان فتيان الشافعي / ١٤٨ .

أما خواتيم القصائد التي مدح بها صلاح الدين في غير القصائد القدسية ،
فيجري عليها ما جرى على القصائد القدسية من اتصال بموضوع القصيدة الأساسي ، وإشادة
بالممدوح غالبا ، فعلى سبيل التمثيل لا الاستقصاء والحصص ، نورد بعض خواتيم هذه
القصائد :

يقول ابن الساعاتي مخاطبا الأعداء الصليبيين لما خرب صلاح الدين بيت الأحزان :

نَصَحْتُكُمْ وَالتَّضَحُّ فِي الدِّينِ وَاجِبٌ ذُرُوا بَيْتَ يَعْقُوبَ فَقَدْ جَاءَ يُوسُفُ (١)

ويقول ابن الساعاتي أيضا مادحا صلاح الدين لما فتح آمد ، وتوجه إلى " تل خالد "

سنة ٥٢٩ هـ ، وهو يعمل من أجل وحدة الصف الإسلامي :

حَوَتْ صِفَاتِكَ لَمْ تَحْتَجْ إِلَى غَزَلٍ وَفِي صِفَاتِكَ مَا يُفْنِي عَنِ الْغَزَلِ
كَذَاكَ مَنْ حَاوَلَ الْعُلْيَا مَنَزِلَةً فَلْيَأْتِ أَبْوَابَهَا مِنْ أَوْضَحِ الشُّبُلِ (٢)

فابن الساعاتي يختتم قصيدته هذه بحكمة مؤداها : أن من يطلب العلى عليه
أن يسلك السبيل الصحيح الواضح ، وصلاح الدين ممن سلكوا السبيل ، فوصل إلى ما لم
يصل إليه أمراء الشام في عصره .

ومن القصائد التي اختتمت بالحكمة قصيدة ابن الدهان التي قالها في مدح صلاح

الدين معبرا عن قدرة البطل وشجاعته في الحرب ، يقول :

وَمَا كُلُّ مَنْ يَفْدُو إِلَى الْحَرْبِ فَسَارِسٌ وَلَا كُلُّ مَنْ قَالَ الدَّرِيحُ فَصَرِيحٌ (٣)

وهذا يتفق وآراء النقاد من حيث انتباه القصيدة ببيت من الحكمة أو المثل كما تقدم .

(١) ديوان ابن الساعاتي ٤٩/٢ ، كتاب الروضتين : ١٢/٢ .

(٢) ديوان ابن الساعاتي : ٣٨٤/٢ .

(٣) ديوان ابن الدهان / ٥٨ .

ويختتم ابن التعاويذي قصيدته التي أولها : " كَتَامُ أَرْضِي فِي هَوَاكَ وَتَغَضُّبُ... " .
يقول : —

وَتَلَّ مَا خَوْلَتْهَا مِنْ دَوْلَسَةٍ غَرَاءُ طَالِعِ سَعْدِهَا لَا يَفْسُرُ
فِي نِعْمَةٍ أَيَّامُهَا لَا تَنْقُصُ وَسَعَادَةُ سُلْطَانُهَا لَا يُغْلَسُ (١)

وكان ابن التعاويذي قد أرسلها إليه من بغداد يمدحه بها ، ويصف الخلع التي
أنفذت إليه من الخليفة العباسي سنة ٥٨٠ هـ ، وخاتمة القصيدة تشير إلى العلاقة الحسنة
التي كانت قائمة بين صلاح الدين والخليفة العباسي .

يتبين مما سبق أن الخواتيم كانت مناسبة لغرض القصيدة ومرتبطة بالأبيات لا سيما
السابقة لها ارتباطاً قوياً مما يجعل بناء القصيدة أكثر تماسكاً ، ولعل هذا مؤشر من
مؤشرات الوحدة في القصيدة ، وتربط اجزائها .

وهذه قصيدة لابن سناء الملك تبين مدى ترابط اجزاء القصيدة وتلاحمها :

بعث ابن سناء الملك هذه القصيدة إلى صلاح الدين ، يمدحه بها ، وهو في
الشام سنة ٥٧٥ هـ ، وهي السنة التي انتصر فيها على خصومه في وقعة " مرج عيون " .
ووقعة " بيت الأحرار " (٢) .

استهل ابن سناء الملك قصيدته بمقدمة غزلية ، يبين فيها هجر محبوبته له ،
وشوقه إليها ، ثم يتحدث عن ربح محبوبته ، الذي هيج أشجانه ، وأسأل دموعه ، لمسا
بذكره من حسن وصل ، ولكن الشاعر بعد ذلك يصحو من تخیلاته ، فيتمنى لو لم يكن ،
وبأخذ بعد ذلك يتحدث عن مكان يأوي إليه ، ومعين يعوضه عما فقد ، إلا أنه لم يجد ،
يقول :

(١) ديوان ابن التعاويذي / ٢٧ .
(٢) أنظر ديوان ابن سناء الملك / ٣٢١ ، كتاب الروضتين : ٨ / ٢ .

أَبَى صَدَّهَا أَنْ يَجْمَعَ الْحُسْنَ وَالْحُسْنَى
وَأَنْسَى سِوَى رَبِّعِ الْحَبِيبِ فَأَتَنِي
وَذَلِكَ رَبِّعٌ تُنَبِّتُ الْحُسْنَ أَرْضُهُ
وَصَلَّى بِنَا فِيهِ إِمَامٌ مَلَأَ حُجَّةً
ضَلَلْنَا وَقَدْ غَابَتْ أَهْلَةُ أَهْلِ بَيْتِهِ
سَأَلْتُ ، وَقَدْ بَانُوا وَمَا تَجَلَّى لِي ،
وَوَجَدِي بِهَا أَنْ أَجْمَعَ الْجَفْنَ وَالْجَفْنَ
تَسِيلُ دُمُوعِي حِينَ أَذْكُرُهُ حُزْنًا
تَرَى الْوَرْدَ فِيهِ الْخَدَّ وَالْقَامَةَ الْفُضْنَا
فَلَمَّا انْقَضَتْ تِلْكَ الصَّلَاةُ تَفَرَّقْنَا
فَمَا لَيْتَ لَا كَانُوا وَيَالَيْتَ لَا كُنَّا
مُحَلًّا فَمَا أَحْلَى وَمَعْنَى فَمَا أَغْنَى

بعد أن هياً السامع إلى ضرورة اللجوء إلى معين ، بعد أن أوقفه موقف المتأمل
المتفكر ، بعد استسلامه لليأس والضعف ، يستدرك حديثه جاعلاً صلاح الدين معينه
الذي أغناه بكرمه وجوده ، بعد ذلك يقول :

وَلَكِنْ سَأَلْتُ النَّاصِرَ الْمَلِكَ النَّصْرِي
فَأَغْنَى وَأَقْنَى شُمَّ مَنْ وَمَا مَنَّا

ويستمر في تمجيد صلاح الدين ، الشخصية المحورية في القصيدة ، والموضوع الرئيسي
فيها ، فيتحدث عن كرمه الذي جاء في زمن حكام يجعلون أهد بهم مغلولاً إلى أعناقهم ،
ثم ينتقل للحديث عما قدّمه للإسلام والمسلمين ؛ من أمن ، وعدل ، واستقرار ، وينتقل
للحديث عن بأسه وفعله بالأعداء ، ويرسم صورة أخرى للذكريات ، إلا أنها ذكريات تتعلق
بأفعال صلاح الدين بالأعداء ، فقد شنّ عليهم الغارات ، غارة تلو الأخرى كما يظهر
في قوله :

فَدَى لَابِنِ أَيُّوبَ الْمُلُوكَ لِأَنَّهُمْ
أَنَامَ بَنِي الْإِسْلَامِ فِي كَهْفٍ أَمْنِهِمْ
وَعَوَّضَهُمْ مِنْ بَعْدِ سُخْطِهِمْ رِضًى
لَهُ النَّصْلُ يُجَلَّى وَالْقَنَاءُ بِكَفِّهِمْ
أَقَامَ بَدَارَ الْكُفْرِ تُجْنَى لَهُ الْجِرَازَا
يَشْنُ عَلَيْهَا غَارَةً بَعْدَ غَارَةٍ
إِذَا بَخِلُوا أُعْطِيَ ، وَإِنْ أَفْقَرُوا أَغْنَى
وَأَوْسَعَهُمْ عَدْلًا وَأَسْكَنَهُمْ عَدْنًا
وَدَلَّ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا
تَقْوَمُ وَالْقَوْسُ الشَّدِيدُ لَهُ يُخَسِّنِي
وَتَوَدَّى لَهُ الْقَتْلَى وَتُسَبِّى لَهُ الْحُسْنَى
فَقَدْ أَصْبَحَتْ مِنْ شَنْ غَارَاتِهِ شَنْ (١)

(١) الشَّنْ : القرية الصغيرة البالية : انظر القاموس المحيط (شَنْ) .

ويدخل الشاعر في استذكار بعض الجزئيات الدقيقة التي تتعلق بأفعال صلاح الدين ، والتي تتصل بتلك الغارات ، كأسر بعض ملوك الفرنج ، وقتل بعضهم ، كما يبدو في قوله :

وأضحى أسيراً باد وبلاء وغديره
أسارى جبارى لا يرجون فديته
قرون ملوك كم أبادوا لهم قرناً
ولا يأملون الدهر فكاً ولا أمناً

ويختتم قصيدته بخاتمة جميلة مؤثرة في النفس حين جعل صلاح الدين كالشمس التي تهدد الظلام ، وذلك لما قام به من أعمال جليلة ، إن لولاه لفرقت البلاد في الظلم والتفكك ، ويدعو له بالبقاء لخدمة الدين والأمة ، وذلك تكون وحدة الصف الاسلامي ، والقضاء على الأعداء ، وهذا ما يتناسب ومضمون القصيدة ، والمناسبة التي قيلت فيها .

وما أنت إلا الشمس أظلم بعد ها ال
قطوبى لعين أبصرتها وحبسا
فلا زلت تبقى للنبي ودينه
بلاد وإلا السحب قد أفلعت عنا
محلك من شئ ومفناك من مفنى
وأنتم ، يفنى الزمان ولا تفنى (١)

يلاحظ مما سبق أن أجزاء القصيدة مترابطة يأخذ بعضها برقاب بعض ، فالمقدمة الغزلية فيها تحمل خطاً من الذكريات ، والمادة الرئيسية فيها تحمل خطاً آخر ، إن أنها ذكريات لوقائع ماضية للممدوح توجت بخاتمة لها صلة وطيدة بموضوع القصيدة .

* * *

(١) ديوان ابن سناء الملك / ٣٢١ - ٣٢٤ .

حداً وتنداسم الكثير من القصائد التي مدح بها صلاح الدين بطول النفس الشعري ، ولا سيما القصائد القدسيات ، فهي في معظمها طويلة ، ويعمل الدكتور عبد الجليل عبد المهدي ذلك بقوله : " ولعل ذلك يعود إلى أهمية الحدث نفسه من ناحية ، أو قدرة الشاعر من ناحية أخرى " (١) .

وقد رأى بعض النقاد أن القصائد الطوال أكثر هيبة في النفوس . يقول ابن رشيق : " المطيل من الشمرأ ، أهيب في النفوس من الموجز وإن أجاد " (٢) .

ويقول حازم القرطاجني : " والقصائد المطولة ، والمقاصد التي يذهب بها مذهب التهويل والتفخيم ، فإن تطويل الفصول سائغ فيها ، ومحتمل لموافقة الكلام ، وكون القصيدة فيها رَحْبَ لذلك وسعة " (٣) . وهذه القصائد المطولة " للمواقف المشهورة . . . " (٤) كما يرى ابن رشيق .

ويمكن تقسيم القصائد المطولة التي قيلت في صلاح الدين إلى قسمين : قسم استهل بمقدمات غزلية ، وقسم آخر لم يكن كذلك ، وهذه القصائد كثيرة لا مجال لحصرها ، وإنما يكتفى بتناول قصيدة واحدة تمثل كل قسم ، وأبرز القصائد المطولة التي لم تهـدأ بالفزل غالباً ، القصائد القدسيات ، منها قصيدة عبد المنعم الجلياني المسماة " القدسية الكبرى " التي بلغ عدد أبياتها مائة واثنين وخمسين بيتاً (٥) ، وقد سية فتیان الشاغوري التي بلغت مائة بيت وبيت (٦) .

* * *

(١) بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية / ٢٥٢ .

(٢) العدة : ١٨٧/١ ، وانظر تاريخ النقد الأدبي عند العرب / ٤٩٤ .

(٣) منهاج البلاغ / ٢٨٨ .

(٤) العدة : ١٨٦/١ .

(٥) أنظر ديوان المبشرات والقدسيات / ١٤٠ ، كتاب الروضتين : ١١٧/٢ .

(٦) أنظر ديوان فتیان الشاغوري / ١٤٠ - ١٤٨ ، وانظر حول طول القصائد القدسية

وعدد أبياتها كتاب بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية / ٢٥٣ .

ويذكر الحديث في القصائد القدسية حول البطل أو الفاتح ، فقد مجّدته ، ورسمت له صورة تقرب من المثالية ، كما تحدثت عن المعركة ، أو عن الفتح متغنية بالنصر الذي طال انتظاره ، والآن قد تحقق على يد البطل القائد وجنوده المسلمين ، كما تحدثت عن العدو والصليبي مصوّرة حاله الذي آل إليه ، هذا إلى جانب الدعوة إلى مواصلة الجهاد .

هذه هي المحاور التي تحدثت عنها القصيدة القدسية ، وعلى الرغم من تعدد موضوعاتها ، إلا أنها مترابطة متلاحمة ، فالحديث عن البطل مثلاً مرتبط بالحديث عن الفتح والمعركة ، وعن العدو أيضاً ، وهكذا ، فهي أجزاء متلاحمة تمثل وحدة القصيدة القدسية .

وهذه قصيدة لغتيان الشاغوري تبين ما ذهبنا إليه سابقاً ، فقد استعملها الشاغوري بتمجيد القوة التي من شأنها أن تبني الدول ، يقول في المطلع :

تَبْنِي الْمَالِكُ بِالْوَشِيحِ الْأَسْمَرِ وَالْبَيْضُ تَلْمَعُ فِي الْعَجَاجِ الْأَكْدَرِ

وهذه القوة كانت هي الطريق للفتح ، وإن الفتح لم يكن إلا بعد اعداد له في العدد والعدة ، ثم ينتقل الشاعر إلى تمجيد البطل وصفاته ، وما قدمه للإسلام قائلاً :

كَفَعَالِ مَوْلَانَا صَلَاحِ الدَّيْسَنِ نَبِيٍّ أَهْدَى صَلَاحُ الدَّيْنِ لِلْإِسْلَامِ وَإِنْ رَبُّ الْمَلَا حِمٍ لَمْ يُؤَخِّرْ مِثْلَهُمَا
الْمَجْدُ الْفُدايسِ وَالْعَطَاءُ الْكُوثَرِ أَرْدَى قَبِيلَ الْكُفْرِ ، مَا لَمْ يُكْفَرْ الْعُلَمَاءُ قَدْ مَأْ فِي قَدِيمِ الْأَعْصَرِ

ثم يشيد بالفتح قائلاً :

فَتَحَ تَطَاطَأُ كُلُّ فَتَحٍ دُونَهُ وَالشَّمْسُ تَكْشِفُ كُلَّ جِسْمٍ نَسِيرٍ

ويعود لتمجيد البطل مرة أخرى ، ذاكراً ما قدمه للإسلام ، وما فعله بالأعداء في بيت المقدس فيقول :

يَا نَاصِرَ الْإِسْلَامِ قُوتَ بَسْمِـ____وَرِدِ
حَسَنَ النَّشَا فِي الْعَالَمِينَ وَمَصْدَرِ
فَلَقَدْ وَأَنْتَ الشَّرَكَ يَوْمَ لَقِيتَهُمْ
وَعَدْتَ لِلْإِسْلَامِ عَيْنَ النُّشِيرِ
وَأَرْثُهُمْ لَمَّا التَقَى الْجَمْعَانِ بِالْبَيْتِ
وَعَدْتَ دَرِينِ اللَّهِ بَعْدَ قُطُومِهِ
بِالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى بِوَجْهِ مُسْفِرِ

ثم يتحدث عما حل بالأعداء ، قائلا :

فَالْقَوْمُ نُهَبَ لِلِسَبَاعِ تَنَوُّشُهُمْ
مِنْ كُلِّ ذِي نَابٍ وَصَاحِبِ مُنْسَبِ
فَمَنْ الَّذِي مِنْ جَيْشِهِمْ لَمْ يَخْبِرْهُمْ
قَبْلًا ، وَمِنْ مَنْ جَمَعَهُمْ لَمْ يُؤَسِّرْ
حَتَّى لَقَدْ بَيَّعَتْ عَقَائِلُ أَرْهَقَتِ
بِالسَّيِّئِ بِالشَّنِّ الْأَخْسَنِ الْأَحْقَرِ

ثم يتحدث القائد على متابعة الجهاد فيقول :

فَأَتَنَهَّدَ لِمُجُورٍ فَهِيَ أَحْسَنُ مَصُورَةٍ
فِي هَيْكَلِ الدُّنْيَا بَدَتْ لِمُصَصِّرِ
لَمَّا مَلَكَتْ حُصُونُ أَنْطَاكِيَّةِ
بَيْتِ الصَّلِيبِ وَحَزَنُهُ مِنْ مَظْهَرِ

ويختم قصيدته بالدعاء لصلاح الدين بقوله :

عِشْرَ عُمَرَ نُوْحٍ يَا ابْنَ أَيُّوبَ وَكُـ____نِ
مَلَكًا سَلِيمَانًا وَجَاهِدُ وَأُطْفِئِ
لَا زَالَ ظِلُّكُمْ الظَّلِيلُ وَلَا خَلَّتْ
مِنْ ذِكْرِكُمْ فِي الدَّهْرِ ذُرُوءُهُ يَنْسَبِرُ (١)

وبلاحظ أن القصائد القدسيات الطوال كقصيدة الشاغوري تتفق مع ما ذهب إليه النقاد من التهويل والتفخيم كما تقدم ، وأنها تقال في المواقف المشهورة . فالفتح موقف من المواقف المشهورة المشهود لها في التاريخ الاسلامي ، فهو جدير بالمطاولات الشعرية لأن موضوعه يقتضي ذلك .

وليست ظاهرة الاطالة في القصائد القدسيات بظاهرة جديدة في الشعر، بل نجد مثل هذا في شعر الحرب بشكل عام ، لاسيما في أشعار أبي تمام الحماسية والمنتبى .

(١) ديوان فتیان الشاغوري / ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٧ ، ١٤٨ .

ومن الجدير بالقول إن شعراء القديسيات لم يستطيعوا، في حد يثهم عن الفتاح أو الفاتح، أن يصلوا إلى مرتبة المتنبي في الشعر الذي قاله في سيف الدولة ومعاركه مع الروم ، ولقد كان من المتوقع أن تنشأ ملحمة ، بل عدة ملاحم لتخليد هذا الحدث العظيم ومطلوه (١) .

أما القصائد الطوال التي قيلت في مدح صلاح الدين غير القصائد القدسية، والتي ابتدأت بالغزل ، فهي متعددة ، تستوعب غير ما موضوع واحد كما تقدم ، وتشابه إلى حد بعيد في موضوعاتها الرئيسية التي بنيت عليها القصيدة ، فنجد المقدمة الغزلية الطويلة التي تبلغ في بعض القصائد أكثر من عشرين بيتاً . ثم ينتقل الشاعر إلى مدح الشخصية المحورية في القصيدة وهي شخصية صلاح الدين ، ويدعو الشاعر إلى الوحدة ، باعتبار أن هذه القصائد قيلت في معظمها بين سنة ٥٧٠ هـ إلى سنة ٥٨٢ هـ أي قبل عام الفتح ، ثم نجد حديثاً عن الأعداء وما حل بهم جرّاء الغارات والغزوات التي كان صلاح الدين يشنها عليهم ، وهو يعمل من أجل الوحدة ، وكل هذه المحاور ، كما يبدو، مترابطة يشد بعضها بعضاً ، فعلى سبيل المثال نتناول قصيدة ابن الدهان التي مطلعها : "أما وجفونك الرضى الصّاح" وقد أنشأها سنة ٥٧٦ هـ ، حين غزا صلاح الدين بلاد الأرمن ، وقد بلغ عدد أبياتها واحداً وثمانين بيتاً .

فبعد أن قدّم الشاعر بمقدمة غزلية تبلغ ثلاثة وعشرين بيتاً ، انتقل إلى مدح صلاح الدين ، فأشاد بجلوه كما تقدم عند الحديث عن المقدمة الغزلية ، وتحدث عن بعض صفاته الأخرى ، كاستهانته بالموت ، وقوته وأسه ، ثم تحدث عن بعض حكام المسلمين ، فوصفهم بالظلم والاستبداد ، والانشغال باللهو إلى غير ذلك من الصفات التي اتصف بها هؤلاء ، ويقارن بينهم وبين صلاح الدين الذي اقترنت به صفات مثلى كالشجاعة ، والتقى ، والعلم ، والكرم ، ومحامد الأخلاق ، وذكر ما قدّمه صلاح الدين من أجل جمع الأمة وجهاد الفرنج ، ثم يصف جيشه الذي ملأ بلادهم ، ويختتم قصيدته بالدعاء لصلاح الدين ، يقول :

(١) أنظر بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية / ٢٥٣ .

وَأَبْلَجُ يَسْتَهَيِّنُ الْمَوْتَ يَلْقَى	بَصْفَةً وَجْهَهُ حَدَّ الْقَفَا ح
إِذَا مَا دَبَّ فِي خَمَرٍ زَلِيلٍ	سَعَى سَعَى الْأَعْزَةِ فِي السَّرَاحِ
بِنَاسٍ مَذْهِلِ الْأُسْدِ الضَّوَارِي	وَسَيْبٍ مُخْجَلٍ سَيْلِ الْبِطْسَا ح
مِنَ النَّفَرِ الذَّرِينِ إِذَا تَحَلَّسُوا	أَعَادُوا اللَّهْلُ أَخْلَا مِنْ صَبَا ح
إِذَا مَا لَاقُوا الْأَعْدَاءَ عَسَادُوا	بِأَيِّ التَّصْرِ وَالظُّفْرِ الْمُسَارَا ح
مُلُوكُ جُلُومٍ مُفَرِّى بُظْلَمٍ	وَمُشْفُوعٍ بِلَهْوٍ أَوْ بِبِطْرَا ح
قَرْنَتْ شَجَاعَةً وَتُقَسِّى وَعِلْمَا	إِلَى كَرَمِ الْخَلَائِقِ وَالسَّمَا ح
هُمْ جَمَعُوا وَقَدْ فَرَّقَتْ لَكْسَنُ	جَمَعَتْ بِهِ الرِّجَالُ مَعَ الشَّلَا ح
وَمَا خَضَعَ الْفَرْنَجُ لِدَرْيَكَ حَسَقَى	رَأَوْا مَا لَا يُطَاقُ مِنَ الْكِفَا ح
مَلَأَتْ بِلَادَهُمْ سُهْلًا وَحَزَنَسَا	أَسُودًا تَحْتَ غَابَاتِ الرِّمَا ح
وَلَوْلَا جُودُكَ كُلِّ وَقَسِي	يُرَوِّى غُلَّتِي وَجَوَى التَّبَا حِيسِي
غَبَرْتُ مَدَى الزَّمَانِ حَلِيفَ فَقَر	خَسِيمًا غَارِبًا ظَلَمَانَ ضَا حِيسِي
بَقِيَتْ مُنْقَمًا أَبَدًا وَأَضْحَكْتُ	بِكُلِّ ضَا حِيسَةٍ أَضَا حِيسِي (١)

(١) ديوان ابن الدهان / ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٦٩ . هكذا ورد البيت الأخير في الديوان ولعل كلمة قد سقطت في بداية العجز .

أما المقطوعات الشعرية فهي كما يرى القرطاجني سائغة في المقاصد التي يذهب بها مذهب الرشاقة ، وتطويدها مستثقل في ذلك (١) ، وقد وصلنا منها شيء كثير فيما يتعلق بصلاح الدين ، وتتراوح هذه المقطوعات في طولها ما بين ثلاثة أبيات إلى عشرة في الغالب . وكل مقطوعة تدور حول موضوع واحد ، أو فكرة واحدة تمر سريعة في ذهن الشاعر ، وتتسم بالإيجاز والوضوح ، وقوة الانفعال ، فهي كالخاطرة في سرعتها وإيجازها وتعبيرها عن الغرض أو الحدث .

وتحدثت هذه المقطوعات في موضوعات عامة ، كالتهاني أو المدح ، أو الرثاء ، أو الشوق ، أو الوداع ، وقد تميز العماد الأصفهاني على غيره من الشعراء بهذه المقطوعات التي كان يخصص صلاح الدين بها ، والناظر في ديوانه يجد منها الشيء الكثير (٢) ، ولعل ذلك يعود إلى قربه من السلطان ، وملازمته إياه بعد سنة ٥٧٠ هـ .

وقد تحدثت العماد في بعض مقطوعاته عن الشوق على لسان صلاح الدين ، وهنأه بمناسبة عديدة ، كتهنئته بوزارته ، وفتحته بعليك ، وقدوم أحد أبنائه إليه وهو في مصر ، وغير ذلك ، كما تحدثت في بعضها الآخر عن علاقته به ومراسلته إياه ، وهذا يتناسب والمقطوعات التي اتسمت بالإيجاز كما ذكر ، يقول العماد في تهنئة صلاح الدين بالوزارة سنة ٥٦٤ هـ :

أَهَنِّي الْمَلِكَ النَّاصِرَ	رَبَّ الْمُلْكِ وَالنَّصْرَ
وَمَا مَهْدٍ مِنْ بَنِيهَا	نِ دِينِ الْحَقِّ فِي مَضَرٍ
وَمَا أَسَدَاهُ مِنْ بِيَرٍ	بِلَا عَدُوٍّ وَلَا حَضَرٍ
وَمَا أَحْيَاهُ مِنْ عَدُوٍّ	وَمَا خَفَّفَ مِنْ إِصْرٍ
وَأَعْلَاهُ سَنَا السُّنَنِ	ةً فِي بَحْبُوحَةِ الْقَصْرِ
قَدْ اسْتَوَى عَلَى مَضَرٍ	بِحَقِّ يُوسُفَ الْعَصْرِ
وَأَحْيَا سُنَّةَ الْإِحْسَانِ	نِ فِي الْبَدْوِ وَفِي الْحَضَرِ (٣)

(١) منهاج البلاغة / ٢٥٢ .

(٢) انظر ديوان العماد / ٦٢ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٩٩ ، ١٠٥ ، ١٥٨ ، ١٩٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٧٥ ، ٢٩٠ ، ٣٤٠ ، ٣٥٣ ، ٣٧٧ . وغير ذلك .

(٣) ديوان العماد الأصفهاني / ١٩٧ ، ١٩٨ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٤٤٧ ، ٤٤٨ .

وقال العماد في حوادث سنة ٥٧٤ هـ : " وسألني السلطان صلاح الدين أن أعمل أبياتا يكتبها في الشوق إلى مصر ، فقلت :

يا ساكني مصر ، لا والله ما لكم	شوقي الذي لدعت قلبي لواعجبه
أصبحت أطلب طرق الصبر أسلكها	هيهات ، قد خفيت عني مناهجه
إني لمن كرت يوم البين في شغل	لعل ربي بيوم الوصل فارجه
في القلب نار هوم زاد مضرها	والعين بحر دموع فاض ما عجه
ما قلت إن فؤادي قر ساكنه	إلا وبالذكر منكم نار هائجه
متى ترى يتسنى لي لقاءكم	وتزد هيني كما أهوى باهجه
القلب عندكم قد ظل مقتضيا	دين الوصال ، أما تقضى حوائجه (١)

ومن المقطوعات في المدح ما قاله تقي الدين عمر ، وكان شاعرا ، في عهده صلاح الدين :

خير الملوك أبو المظفر يوسف	ما مثل سيرته الشريفة يفسر
لو سطرت سير الملوك رأيتموها	ديوان شعر وهي فيها مصحف
ملك بيت الدهر يرعد هيبة	منه وليس يخافه من ينصف (٢)

ومن المقطوعات أيضا قول عرقلة الكلبلي لما فوض لصلاح الدين شحنة دمشق :

رويدكم يا لصوص الشام	فاتي لكم ناصح في مقالبي
واتاكم من سبي النهر	بي يوسف رب الحجا والجبال (٣)

-
- (١) ديوان العماد / ١٠٥ ، البرق الشامي : ١٤٠ / ٣ .
 (٢) الخريدة - بداية قسم شعراء الشام / ١٠١ ، ١٠٢ ، الدارس : ٢١٩ / ١ .
 (٣) ديوان عرقلة / ٨٧ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٢٥١ ، البدايات والنهاية : ٢٥٠ / ٢ ، الكواكب الدرية / ١٤٧ .

وقوله مواسيا صلاح الدين ، وداعيا رايّاه إلى الصبر ، عندما توفي ابن له اسمه

أحمد :

وَأَيُّ غُصْنٍ قُصِفَــا	أَيُّ هَلَالٍ كُسِفَــا
عَلَى الْوَرَى ، ثُمَّ انْطَفَــا	كَانَ سِرَاجًا قَدْ طَفَــا
يُقَلِّدُوهُ مُزْهِفَــا	لَمْ يَرْكَبِ الْخَيْلَ ، وَلَمْ
رَبَّ السَّمَاحِ وَالْوَفَــا (١)	صَبْرًا صَلاَحَ الدِّينِ يَــا

يلاحظ الفرق بين المقطّولات والمقطّوعات لا في الطول فحسب ، بل في طبيعة الموضوع ، وحتى الأوزان الشعرية ، إذ ينطب على المقطّوعات استخدام الأوزان الخفيفة كالهمز ، والرجز ، والقصر في الشعر، كما يقول ابن رشيق ، " أولج في المسامع ، وأجول في المحافل " (٢) ، وأسهل للحفظ . (٣)

* * *

-
- (١) ديوان عرقلة / ٦٥ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٧١١ .
 (٢) العمدة : ١٨٧/١ .
 (٣) انظر العمدة : ١٨٦/١ .

اللفظة والأسلوب

تتباين الأساليب في الشعر بتباين الأغراض ، وتتباين الألفاظ كذلك بتباين المعاني والمقاصد أيضا ، فلكل غرض أسلوبه الخاص به ، فأسلوب الغزل غير أسلوب المدح ، وأسلوب الفخر غير أسلوب الرثاء وهكذا ، وألفاظ الغزل غير ألفاظ المدح ، وألفاظ الفخر غير ألفاظ الرثاء .

وقد اهتم النقاد بالأسلوب وعلاقته بالأغراض ، كما اهتموا بالألفاظ وعلاقتها بالمعاني ، يقول القاضي الجرجاني : " ولا آثر لك باجرا أنواع الشعر كله مجرى واحدا ، ولا أن تذهب بجميعه مذهب بعينه ، بل أرى لك أن تقسم الألفاظ على رتب المعاني ، فلا يكون غزلك كافتخارك ، ولا مدحك كوعيدك . . . ، بل ترتب كلا مرتبته ، وتوفيه حقه ، فتلطف إذا تفرلت ، وتغخم إذا افتخرت ، وتتصرف للمديح تصرف مواقفه ، فإن المديح بالشجاعة والبأس يتميز عن المدح باللياقة والخرف ، ووصف الحرب والسلاح ليس كوصف المجلس والدمام ، فلكل واحد من الأمرين نهج ، وهو أملك به ، وطريق لا يشاركه الآخر فيه " (١) .

ويرى ابن رشيق أن " سبيل الشاعر - إذا مدح ملكا - أن يسلك الايضاح ، والاشادة بذكره للمدح ، وأن يجعل معانيه جزلة ، وألفاظه نقية ، غير مبتذلة - سوقية " (٢) .

وما دامت العلاقة قائمة بين اللفظ والمعنى ، إذ جعل النقاد اللفظ كالجسد وروحه المعنى (٣) ، كما هي وطيدة بين اللفظ وغرض القصيدة ، فلا بد أن تأتي الألفاظ الجزلة القوية في وصف مواقع الحروب ، والتهديد ، وما أشبه ذلك ، والألفاظ الرقيقة

(١) الوساطة بين الغتني وخصومه / ٢٣ ، قانون البلاغة / ١٥٠ ، وانظر تاريخ النقد الأدبي عند العرب / ٣٣٠ .

(٢) النص من المدة : ١٢٨ / ٢ ، وانظر كتاب الصناعتين / ١٦٦ ، ١٦٧ ، وصبح الأعشى : ٢ / ٢٢٤ .

(٣) انظر عيار الشعر / ١١ ، ١٤ ، كتاب الصناعتين / ١٧٩ ، المدة : ١ / ١٢٤ ، مقدمة في صناعة النظم والنثر / ٣٠ .

في الغزل ، ووصف الأشواق ، والاستعطاف ، وغير ذلك . (١)

وإذا ما نظرنا في أساليب الأشعار التي قيلت في صلاح الدين ، والألفاظ ومعانيها ، نجد أنها تتفق مع ما ذهب إليه النقاد فيما تقدم ، من التجانس بين الأسلوب وموضوع القصيدة من ناحية ، وبين الألفاظ والمعاني من ناحية أخرى .

ويبدو التجانس واضحاً بين محاور القصيدة المدحية ، فنجد فيها سمواً بالمدح وصلاح الدين ، كما نجد فيها صفات حقيقية له ، ونجد الألفاظ الجزلة والقوية والفخمة والفصيحة غير البتلة ، يقول ابن الدهان مادحاً صلاح الدين ، ومجداً بعض صفاته ، من قصيدة :

كَرَيْمٌ عَلَى الْعَافِينَ كَالْفَيْثِ مُسْتَبِلاً	شَدِيدٌ عَلَى الْعَادِينَ كَاللَيْثِ مُشْبِلاً
وَسَيْلٌ إِذَا مَا الْمَالُ أَقْنَى فَأَجْزَلاً	وَسَيْفٌ إِذَا مَا سُلُّ أَقْنَى وَقَلْبُلاً
تَجَمَّعَ فِيهِ الْبَأْسُ وَالْحِلْمُ وَالنَّسَدَى	وَضَمَّ إِلَى الْفَضْلِ الْغَزِيرُ التَّفَضُّلاً
وَرَأَى كَضَوْهَ الشَّمْسِ نُوراً إِذَا انْجَرَى	لِخَطْبٍ جَلَّ لَيْلاً مِنَ الشَّكِّ الْيَسْلاً (٢)

ويقول فتیان الشاغوري من قصيدة أيضاً :

أَسْرَجُ بِعِزِّمِي لَا بِجِسْمِي فَهَذَا أَنَا	الْمُقِيمُ بِأَرْضِ الشَّامِ وَالْعَزْمُ رَاحِلٌ
إِلَى مَلِكٍ تَعَنُّوْا الْعُلُوكَ لِأَسْرِسِهِ	أَخِي عَزْمَسَةٌ ذَلَّتْ لَدَيْهَا الْقَبَائِلُ

ويقول مخاطباً :

فَيَا أَيُّهَا الْبَحْرُ الَّذِي عَمَّ جُسُودُهُ	وَقَامَ بِمَا لَمْ تَسْتَطِعْهُ الْأَوَائِلُ
وَوَطِيقَ سَهْلِ الْأَرْضِ وَالْحَزْنَ عَدْلُهُ	بِمَصْرٍ فَقَالُوا لَمْ يَكُنْ قَبْلُ عَابِلُ (٣)

(١) انظر العدة : ١١٦/٢ ، العثر السائر : ١٨٥/١ ، الأسلوب / ٦٢ ، ٨٣ .

(٢) ديوان ابن الدهان / ٣٩ - ٤٠ .

(٣) ديوان فتیان الشاغوري / ٣١٧ ، ٣٢٠ .

ويقول سعادة الأعشى :

كَالْفَيْثِ وَاللَيْثِ ، هَذَا مِنْهُ فِي خَجَلٍ
يَلْقَى الْقَنَا وَهُوَ أَخْسَى مِنْ عَوَالِيهَا
صَعَبُ الْعَرِيكَ ، سَهْلُ الرَّاحَتَيْنِ ، لَهُ
رَأْيٌ شَدِيدُ الْقُوَى مَا فِيهِ مِنْ خَسِيرٍ
عِنْدَ الْعَطَاءِ ، وَهَذَا مِنْهُ فِي وَجَلٍ
فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ وَالْأَرَاءِ وَالْعَمَلِ
رَأْيٌ حَصِيفٌ قَوْنِمٌ غَيْرُ ذِي مَيْسَلٍ
لَا بَلَّ سَدِيدُ التَّهَيُّ مَا فِيهِ مِنْ خَلَلٍ (١)

يلاحظ من خلال الأمثلة الشعرية السابقة لشعراء ثلاثة أن الألفاظ تتسم بالجزالة والقوة ، والاعتماد على الابتذال والسوقية ، كما تتسم بالوضوح ، وعدم التعقيد .

ونجد التجانس بين الأسلوب والموضوع ، وبين الألفاظ والمعاني في الشعر الذي وصف معارك صلاح الدين ، كما يبدو جلياً في قول فتیان الشاغوري ، لما حاصر الصليبيون " دمياط " ، واستطاع صلاح الدين ردهم عنها سنة ٥٦٥ هـ :

جَحَافِلُهُ أَسَدٌ تَرَارُ فِي الْوَعْشَى
يَسِيرُ بِجَيْشٍ يُرْجَفُ الْأَرْضُ بِأَسْكَهْ
خَمِيرٌ لَهُ الرِّيَّاتُ ظِلٌّ وَفَوْقَهُ
وَلَا غَرَوْا أَنْ عَادَ الْفَرْنَجُ هَزِيمَةً
فَقَدْ أَتَقَدَّتْ أَعْدَاؤُهُ أَنَّ حَطَمَهُمْ
وَلَمَّا أَتَوْا دِمْيَاطَ كَالْبَحْرِ طَامِيئاً
رَأَوْا دُونَهَا أَسَدًا بِأَيْدِيهِمُ الْقَنَاسَا
ضُيُوفُهُمْ فِيهَا نُسُورٌ قَشَاعٍ مَسْمُومِ
وَمَا غِيلُهَا إِلَّا الْقَنَا وَالْقَنَابِلُ
وَتَبَدُّ وَلَهَا فِي كُلِّ قَطْرٍ رَزَازِلُ
مَنْ الطَّيْرُ ظِلٌّ يَحْجُبُ الشَّمْسُ مَا بَرُلُ
وَلَوْ لَمْ تَعُدْ لَمْ يَبْقَ لِلشَّرِكِ سَاحِلُ
لَدَيْهِ رِمَاحٌ أَشْرَعَتْ وَسِلَاسِلُ
وَلَيْسَ لَهُ مِنْ كُنْزَةِ الْقَوْمِ سَاحِلُ
مُبِيضاً رِقَاقاً أَهْكَمَتْهَا الصِّيَاقِلُ
وَمُبْنًى لِأَشْلَاءِ الْمُلُوكِ أَوَاكِلُ (٢)

- (١) الخريدة - قسم شعراء الشام - : ٤٢١ / ١ .
(٢) ديوان فتیان الشاغوري / ٣١٢ - ٣١٩ ، وبعض الأبيات في كتاب الروضتين :
ج ١ ق ٢ / ٤٦١ .

فقد اتسمت أبياته بالجزالة والفخامة والقوة ، والمشاكلة بين الألفاظ والمعاني ، وفي حديثه عن حصار " دمياط " نجده يتحدث عن الجيش وقوته ، وما يرافقه من القنا والرايات والطير ، وهذه الألفاظ استخدمت في شعر الحروب ، كما تحدث عن الهزيمة ، والرماح المشرعة والسلاسل والسيوف والنسور التي تنهش جثث الأعداء والاشلاء هنا وهناك . وكل هذه الألفاظ والعبارات التي استخدمها الشاعر تدل على قوة أسلوبه ، وجزالته .

ونجد مثل هذا في القصائد القدسية التي تحدثت عن الفتح ، ففي قصيدة عبد المنعم الجلياني " الفتحية الناصرية " مثلاً نجد ألفاظاً وعبارات جزلة فخمة ، وأسلوباً قوياً يتناسب مع الفتح والنصر ، فقد استخدم الشاعر الألفاظ والمبارات " القواضب والعسالة السمر " و " الجحافل " و " كأس الطعن " ، " فتوح القادسية " و " ملاحم ذي القرنين " ، يقول :

كأني أرى ملكاً الإفرنج في قفص والإسبطار إلى الدابة التأمسوا يا وقعة التل ما أبقيت من عجب وبما ضحى السبت ما للقوم قد سبتوا أما رأيتم فتوح القادسية في أنسى ملاحم ذي القرنين واعترفتم	أين القواضب والعسالة السمر كانهم سدأ جوج إذا استجروا جحافل لم يفت من جمعها بشر تهودوا أم بكأس الطعن قد سكروا أكناف " لوبية " تجلى وذا عمر له الرواة بما لم ينميه أشر (١)
--	---

وبعد والتجاسس المذكور آنفاً جلياً في قدسية ابن الساعاتي التي مطلعها :
" أعياء وقد عاينتم الآية العظمى . . . " ، وقدسية ابن سناء الطلك التي مطلعها :
" لست أدري بأي فتحة تهنى . . . " ، وقدسية الجويني ، وقدسية الرشيد بن بدر النابلسي ،
وقدسية فتیان الشاغوري الأنفة الذكر ، فهي تفيض قوة وجزالة .

(١) ديوان العشرات والقدسيات / ٢٧ ، ١٣٨ ، كتاب الروضتين : ١١٦/٢ ، ١١٧ .

ولم يقتصر التجانس المذكور سابقاً على الأبيات التي قيلت في مدح صلاح الدين ،
أو وصف معاركه ، وفتوحاته ، بل نجد في المقدمات الغزلية للقائد التي مدح بها
البيطل ، وهذا يعني تباين الأسلوب في القصيدة نفسها ، إذ أن أسلوب الغزل يختلف
عن أسلوب المدح ، ووصف الممارك ، ومن أمثلة التجانس بين الألفاظ والمعاني والأسلوب
في المقدمة الغزلية ، قول ابن سناء الطوك في قصيدة مدح بها السلطان سنة ٥٧٥ هـ .

يقول :

وَوَجَدِي بِهَا أَنْ أَجْمَعَ الْجَفْنَ وَالْجَفْنَ	أَبَى صَدِّجاً أَنْ يَجْمَعَ الْحُسْنَ وَالْحُسْنَ
وَنَأْيَا إِلَى أَنْ صَارَ أَعْلَاهُما الْأَدْنَى	بَدَتْ فَحَكَتْ بِدَرُ السَّمَاءِ مَلَا حَبْسَهُ
لَأَنْتَ نُورٌ مِنْ سَنَا شَفَرِهَا الْأَسْنَى	وَأَنْتَ نَارُ الْحَيِّ غَيْرِي وَإِنِّي
وَفَاحَتْ فَقُلْنَا هَذِهِ الرَّوْضَةُ الْغَنَى	تَفَتَّى عَلَيْهَا حَلِيهَا طَرِباً بِهَا

ثم يقول :

وَأَنْتَ سَيِّدُ رَيْحِ الْحَبِيبِ فَرْتَنِي تَسِيلُ دُمُوعِي حِينَ أَنْ كَرُهُ حُزْنَنا (١)

فهذه الأبيات فيها ألفاظ الغزل ومعانيه وعباراته وأسلوبه ، من مثل " الصّد " ،
" الحسن " ، " الوجد " ، " بدر السماء " ، " الملاحدة " ، " البعد " ، " الشفسر " ،
" الحلي " ، " الروضة " ، " سيل الدموع " ، " التذكر " و " الحزن " ، والألفاظ المذكورة
تتسم بالركة والمذومة ، وكذلك بالسهولة والوضوح ، وهذا الأسلوب يختلف بشكل جلي
عن أسلوب المدح ووصف الممارك .

ونجد أسلوباً مغايراً للأساليب المذكورة في الغزل والمدح ، في قصيدة الرثاء
التي أنشأها العماد الأصفهاني لما توفي صلاح الدين ، يقول :

(١) ديوان ابن سناء الطوك / ٣٢١ .

شَمَلُ الْهُدَى وَالْمَلِكِ عَمَّ شَتَاتُكُمْ
أَيُّنَ الَّذِي كَانَتْ لَهُ طَاعَتُنَا
مَنْ فِي صُدُورِ الْكُفْرِ صُدُورُ قَنَاتِهِمْ
دُفِنَ السَّاحُجُ ، فَلَيْسَ تَنْشُرُ بَعْدَ مَا
وَكَعَادَةُ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ يَحْزَنُ الـ
بِأَحْسَرَاتٍ مِنْ بَأْسِ رَاحَتِهِمُ الَّذِي
وَالِدُ هُرُ سَاءَ وَأَقْلَعَتْ حَسَنَاتُكُمْ
مُبْذُولَةٌ ، وَلِرَبِّهِ طَاعَاتُكُمْ
حَتَّى تَوَارَتْ بِالصَّيَاحِ قَنَاتُكُمْ
أَوْدَى إِلَى يَوْمِ النُّشُورِ رَفَاتُكُمْ
بَيْتُ الْحَرَامِ عَلَيْهِ ، بَلْ عَرَفَاتُكُمْ
يَقْضِي الزَّمَانُ وَمَا انْقَضَتْ حَسَرَاتُكُمْ (١)

يبدو وفي أبيات العماد السابقة التطابق بين الألفاظ والمعاني ، فقد استخدم
العماد " الشتات " و " التفرق " ، و " الاستيا " ، و " الصياح " ، و " الرفسات " ،
وكل هذه الألفاظ توحي إلى معنى الرثاء .

وعلى الرغم من أن الشعراء اختاروا الألفاظ الفصيحة ، والمعاني الواضحة التي
تتلاءم مع تلك الألفاظ ، إلا أن بعضهم لجأ أحيانا إلى التكلف والتعقيد ، وذلك لاعتماده
على المحسنات البدعية التي كانت ظاهرة عامة في ذلك العصر ، فنجد التعقيد اللفظي
في بعض أبيات القصيدة ، بل قد تكون في معظمها أحيانا ، ومن ذلك قصيدة العماد
الأصفهاني التي أنشأها في فتح بيت المقدس ، والتي مطلعها : " أطيّب بأنفاس تطيب
لكم نفسا . . . " ، ومنها قوله :

سَحَبَتْ عَلَى الْأُرْدُنِّ رَدْنًا مِنَ الْقَنَا
حَطَّطَتْ عَلَى حِطَّيْنِ قَدَرُ مُلُوكِهِمْ
أَتَوْا شَكْسَ الْأَخْلَاقِ خُشْنًا فَلَيْنَكْتَ
فَكَيْفَ مَكْنَسَتِ الْمُشْرِكِينَ رُؤُوسَهُمْ
شَكَا يَيْسًا رَأْسَ الْبَرْنَسِ الَّذِي بِهِ
رَدْنِيَّةٌ مُلْدَا وَخَطِيَّةٌ مُلْسَسَا
وَلَمْ تُبْقِ مِنْ أَجْنَسِ كُفْرِهِمْ جَنْسَا
حُدُّهُ الرِّقَاقُ الْخُشْنُ أَخْلَاقُهَا الشُّكْسَا
وَدَأْيُكَ فِي الْإِحْسَانِ أَنْ تُطْلِقَ الْمَكْسَا
تَنْدَى حُسَامٌ حَاسِمٌ ذَلِكَ الْيَيْسَسَا (٢)

- (١) ديوان العماد الأصفهاني / ٨٦ - ٨٩ ، كتاب الروضتين : ٢ / ٢١٥ ، ٢١٦ .
(٢) ديوان العماد / ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، معجم الأديب : ٢٤ / ١٩ ، ٢٥ ، ٢٧ ،
كتاب الروضتين : ٢ / ٨٣ .

وما من شك أن الكلام كما يقول أبو هلال العسكري، "يحسن بسلامته وسهولته ،
وفصاحته ، وتخير لفظه " ، وأنه " لا خير في المعاني إذا استكرهت قهرا ، والألفاظ
إذا اجترت قسرا " ، وأن أجود الكلام " ما يكون جزلا سهلا " وغير متوعر أو متقعر (١).

* * *

اتسم الشعر الذي قيل في صلاح الدين بسماط أسلوبية متعددة ، فقد اتسمت
أساليب الشعراء ، باستخدام الألفاظ والمصطلحات الإسلامية ، وهذا يدل على ثقافة
الشعراء الدينية المستمدة من مصادر العقيدة والتشريع الإسلامي ، لا سيما القرآن الكريم
والحديث النبوي الشريف ، فيستخدم فتيان الشاغوري كثيرا ألفاظ " الإسلام " و " الشرك "
و " دين الله " ، يقول :

يا ناصر " الإسلام " فزت بمؤيد حسن النشأ في العالمين ومصدر

ويقول :

فلقد وأدت " الشرك " يوم لقيتهم وقدوت " للإسلام " عين المنشير
وردت " دين الله " بعد قطوبهم " بالمسجد الأقصى " بوجه مسفير (٢)

واستخدم ابن سناء الملك من الألفاظ والتعبيرات الإسلامية " النجاسة " ، " تكبر
الله " ، " الفريضة " ، " النفل " ، " وصلاة الجمعة " ، يقول :

وكانت بهم تلك البلاد تنجست فأناب دُم منهم عن الماء في الغسل

ويقول :

" تكبر فيها الله " في الجامع الذي جمعت به بين " الفريضة " و " النفل "
وصلت فيها " جمعة " " بجماعية " تناديك للإسلام يا جامع الشمل (٣)

(١) كتاب الصناعتين / ٦٩ ، ٧٥ ، ٨١ .

(٢) ديوان فتيان الشاغوري / ١٤٣ .

(٣) ديوان ابن سناء الملك / ٢٢٥ ، وانظر مزيدا من الأمثلة في الخريدة - قسم شعراء

الشام : (١/ ٤٢٣ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ ، ديوان ابن الساعاتي : ٢/ ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ديوان

ابن التعاويذي / ٢٥ ، كتاب الروضتين : ١١٨ / ٢ . وغيرها .

إن استخدام الشعراء لهذه الألفاظ والمعاني الدينية الإسلامية لتعبر عن شدة ارتباطهم بالعقيدة الإسلامية واعتزازهم بها ، وهي توحى بطبيعة الصراع العقدي الذي كان قائما بين المسلمين والصليبيين .

ووردت بعض أسماء الأنبياء والخلفاء في شعر الشعراء ذكرت شيئا منها فيمينا تقدم (١) ، واستخدم الشعراء ألفاظا مستقاة من الديانة النصرانية ، وهذا أمر طبيعي ، إذ أن الصراع ، بين المسلمين والصليبيين ، كان صراعا دينيا قبل أن يكون صراعا على أرض يملكها الأعداء ، فجاءت الألفاظ معبرة عن هذا الصراع . ومن تلك الألفاظ النصرانية ، لفظ " الصليب " ، وقد ربطه الشعراء بالذل والهوان غالبا ، يقول ابن الساعاتي في هزيمة الأعداء بطبرية :

وَمِنْ بَكَ الصَّلِيبُ " وَكَانَ قَبْذَمَا يُعْمَرُ عَلَى الْعَوَالِي أَنْ يَهُونَنَا (٢)

وقول عبد النعم الجلياني في معرض التنديد بهزيمة الصليبيين في حطين ، في قصيدته القدسية " الفتحية الناصرية " :

إِذَا زَعَمَ السَّاحِلِينَ مَعَا مُصْقَرِينَ بِحَبْلِ الْقَهْرِ قَدْ أُسِرُوا
يَتَلَوُّهُمْ صَلْبُوتٌ سِنَقٌ مُتَكَبِّرًا وَحَوْلَهُ كُلُّ قَسَّيْنٍ لَهُ زُمَرُ (٣)

وبلاحظ استخدام الرموز الدينية كما هو واضح في بيت الجلياني السابق الذكر ، وبيت العماد الأصفهاني في قوله من قدسية له :

وَعَادَتْ بَنِيَتُ اللَّهِ أَحْكَامُ دِينِهِ فَلَا بَطْرَكَ " أَبْقَيْتَ فِيهَا وَلَا قَسَا (٤)

(١) انظر الحديث عن صلاح الدين المقتدي بالسلف الصالح في الفصل الثاني من هذه الدراسة .

(٢) ديوان ابن الساعاتي : ٤٠٧/٢ ، كتاب الروضتين : ٨٤/٢ .

(٣) ديوان المبعثرات والقدسيات : ١٣٩ ، كتاب الروضتين : ١١٧/٢ .

(٤) ديوان العماد الأصفهاني : ٢٣٢ ، كتاب الروضتين : ١٠٢/٢ .
والبطرك : رئيس رؤساء الأساقفة على أقطار معينة ، وفي طائفة معينة من الطوائف المسيحية . أنظر حاشية ديوان العماد رقم ٢/ص ٢٣٢ .

ويستخدم الشعراء كلمات مثل : الناقوس ، الكنيسة ، الرهبان ، يقول الرشيد ابن بدر النابلسي :

شَتَان مَا بَيْنَ " نَاقُوسٍ " يَدَانِ بِهِ وَيَيْنَ " نَزِي مُنْطِقٍ " يُصْفِي لَهُ الْحَجَرُ (١)

ويقول سماعة الأعمى :

فَإِذَا سَلَلْتُ سَلَلْتُ بَيْضَ حَدِّهَا وَإِذَا هَزَزْتُ هَزَزْتُ سَعْرَ لَدَائِهَا
فَافْخَرْتُ فَلَوْرَوْعَتْ " رُومِيَّةٌ " بِهَا خَرَّتْ " كِبَائِسُهَا " عَلَى " رُهْبَانِهَا " (٢)

ويقول عبد المنعم الجلياني ، مبيّنا اعتقاد النصارى " بالأب والابن والروح القدس " ، وهو ما عبّر عنه بالأقانيم ، مخاطباً صلاح الدين :

فَحَطُّكُمَا بِأَرْجَاءِ الْهَيْكَلِ صُورَةٌ لَكَ اعْتَقَدُوهَا كَاعْتِقَادِ الْأَقَانِيمِ (٣)

وشمة أسماء وألقاب غير عربية تتعلق بالصليبيين ، كأسماء الطوك وألقابهم ، وبعض فرقهم وردت عند شعراء صلاح الدين ، من ذلك ورود اسم " الهمفري دى تورون " (٤) . يقول العماد الأصفهاني في قصيدة له أنشأها سنة ٥٦٢ هـ ، في صلاح الدين بعد عودته من مصر في الحملة الثانية :

مِنُو " الْهَنْفَرِّيَّ " هَانُوا فَفَكَّرُوا وَمِنَ الْأُسْدِ كُلِّ كَلْبٍ فَفَرُّوا (٥)

- (١) كتاب الروضتين : ١١٨ / ٢ .
- (٢) الخريدة - قسم شعراء الشام : ٤١٠ / ١ .
- (٣) عيون الأبناء / ٦٣١ .
- (٤) هو : Humphrey, Lord of Torn : صاحب حصن بانياس ، جرت بينه وبين صلاح الدين معركة سنة ٥٧٤ هـ ، فأصيب إصابة بالغة أدت إلى وفاته ، كان يضرب به العثل في الشجاعة والرأي في الحرب . أنظر الكامل : ٤٥٣ / ١١ ، الحركة الصليبية : ٧٦٠ / ٢ ، وورد اسم " همفري " في قدسية فتیان الشاغوري ، وهو غير همفري المذكور . أنظر ديوان فتیان الشاغوري / ١٤٦ ، كتاب الروضتين : ٨٤ / ٢ ، حطين بين أخبار مؤرخيها وشعر معاصريها / ٥٧ .
- (٥) ديوان العماد الأصفهاني / ١٨١ ، كتاب الروضتين : ج١ ق٢ / ٣٧٢ .

وورد اسم ملك بيت المقدس "امريك" ، وورد في الشعر باسم "مري" ، يقول
ابن البرزوي في قصيدة انشأها سنة ٥٦٤ هـ ، مخاطبا صلاح الدين :

ولقيت "مرياً" وطعم حياتيه حلوقه له القتال بمُـرّه (١)

ووردت بعض الألقاب أيضا من مثل "الكند" أو "القنص" ، و "البرنس" (٢) ، فعلى
سبيل المثال يقول الجلياني في قدسيته الكبرى :

أنى "الكند" من إسبان يخفي قامة فكان تقني ملكه قبل يئسدي
ألم تر للسلطان صدق نذره دم الفادر "البرنس" فقتيد أربدا
وضاقت بنفس "القنص" الأرض مهوبا فأدركه الموت المفاجي مُـمـدا (٣)

ويقول ابن سناء الملك :

واللعين "البرنس" أصبح مذبو خالما يقدم اليوم يئسدا (٤)

ومن الألفاظ غير العربية "الداوية" ، و "الاستارية" (٥) ، يقول ابن رواحة :

أرى "داوية" الكفار خافست بهداً يضقف كل مـسـتـن (٦)

- (١) كتاب الروضتين : ج١ ق ٢ / ٣٩٦ .
(٢) الكند أو القنص أو الكونت حديثا بمعنى واحد وهو "الرفيق" ، وهو لقب شرف عند
النصارى ، وترتبة لرؤساء التجيوش ، وترد بمعنى الأمير ، وأصلها لاتيني "Comes" ،
وقد حوّرت إلى "Come" في الفرنسية . انظر النوادر السلطانية / ٧٧ حاشية (١) ،
مفرج الكروب : ٧٣ / ١ حاشية (١) ، ديوان العشرات والقديسات / ١٤١ ،
حاشية (١٩) ، بيت المقدس في شعر الحروب الصليبية / ١٩٣ حاشية (٣) ، حطين
بين أخبار مؤرخيها وشعر معاصريها / ٥٧ ، والبرنس : "The prince"
(٣) ديوان العشرات والقديسات / ١٤١ ، كتاب الروضتين : ١١٧ / ٢ ، ١١٨ .
(٤) ديوان ابن سناء الملك / ٣٤٣ .
(٥) مرآة التعريف بهما في الفصل الثاني من هذه الدراسة :
the Templars and Hospitalers .
(٦) الخريدة — قسم شعراء الشام : ٤٩٥ / ١ .

ويقول الجلياني :

و "الإشبتار" إلى "الدأوية" التأموا كأنهم سدّ يَجُوج إذا استَجَرُوا (١)

واستخدم الشعراء مصطلحات وألفاظ تدل على ثقافتهم الواسعة ، كالمصطلحات اللغوية والفلكية والزراعية والأدبية ، ومن ذلك على سبيل المثال ، قول ابن الساعاتي مستخدم ما مصطلحات نحوية ، كالرفع والنصب ، والجزم :

نصبت على الأعداء رأياً ورأيــــــــــــــــة يُفيد انهم من بعد رفعهم الجزماً (٢)

ويقول نشوالة ، أبو الفضل ، أحمد بن عبد الرحمن مادحا :

إذا اسودّ خطب دونه الموت أحمسرت أتت بالأيادي البيض أعلامه الصفير
فمنذ ظهرت منصوبة جُزمت بها ظهور العدى ، من رفعها انخفض الكفر (٣)

ويستخدم سعادة الأعشى بعض المصطلحات اللغوية ، ومفردات الكتابة ، كالحروف ، والخط ، والنقط ، والشكل ، والأقلام ، والمصحف ، والكتب ، يقول مادحا صلاح الدين :

وما كُنْتُ ، مذ كان ، إلا كُتائــــــــــــــــب حروف طباها في الطلي ما لها كسط
وليس له ، ما عاش ، إلا من القنسا قنا الخط ، أقلام إذا ذكر الخسط
يخط بها ما شاء من مُحفَر الطلــــــــــــــــس فطورا لها شكل وطورا لها نقسط (٤)

ويستخدم ابن سناء الطك بعض المصطلحات الفلكية كالرصد والتنجيم ، والأفلاك ، والشهب ، يقول :

(١) ديوان العشرات والقديسيات / ١٣٧ ، كتاب الروضتين : ١١٦ / ٢ .

(٢) ديوان ابن الساعاتي ٣٨٧ / ٢ .

(٣) الخريدة - قسم شعراء الشام : ٣٣٠ / ١ .

(٤) نفسه : ٤١٨ / ١ .

- نُجُومُكَ مَا أَغَيْتَ عَلَى رَأْصِدٍ لَهَا وَذَا النُّجُومُ أَعْيَا رَأْصِدًا وَمُنَجَّمًا (١)
نُصِرْتَ بِأَفْلَاكِ السَّمَاءِ فَشَبَّهَهَا خَمِيسٌ بِهِ تُرْدِي الْخَمِيسَ الْعَرْمَرَمَا (٢)

ويستخدم فتیان الشاغوري مصطلحات زراعية كقوله :

- حُمِدُوا ، وَكَانَ الْقَدَرُ بِذَرْعِهِمْ فَقَدْ دُرِسُوا بِهِ وَذُرُوا بِأَوْخَمِ بَيْتِ دُرٍ (٣)

ويستخدم الرشيد بن بدر في قدسيته مصطلحات أدبية ، كالنشر والنظم ، كما

يبدو في قوله :

- فَكَمْ نَشَرْتَهُمْ ضَرْبًا إِذَا انتَظَمُوا وَكَمْ نَظَّمْتَهُمْ طَعْنًا إِذَا انتَشَرُوا (٤)

واستخدم ابن الساعاتي مصطلحات عروضية ، كقوله في مدح السلطان :

- هُوَ مَنْقَذُ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ بَعْدَ مَا طَالَتْ فَمَا وَجَدَ الشِّفَاءَ شَكَاتُتُهُ
بَيْتٌ تَأَسَّسَ بِالسُّكُونِ وَإِنَّمَا عِنْدَ الزَّحَافِ تَحَرَّكَتْ سَكَنَاتُتُهُ (٥)

ويمكن القول بأن ظهور مثل تلك الاصطلاحات انعكاس وصدي لواقع الحياة العلمية

في ذلك العصر .

- (١) يشير الشاعر بهذا البيت إلى ارجاف النجمين بأنه عند اقتران الكواكب الخمسة في
برج الميزان في جمادى الآخرة سنة ٥٨٢ هـ . سيظهر الكوكب ، ومناسبة القصيدة
ظهور نجم في السماء لم تجر العادة بظهور مثله . انظر ديوان ابن سنن
الملك / ٢٧٠ .
(٢) ديوان ابن سنن الملك : / ٢٧٠ ، ٢٧١ .
(٣) ديوان فتیان الشاغوري / ١٤٥ .
(٤) كتاب الروضتين : ١٩٤ / ٢ .
(٥) ديوان ابن الساعاتي : ٤١٠ / ٢ ، كتاب الروضتين : ١٠٦ / ٢ .

نخلص إلى القول بأن الشعراء كانوا يصدر عن ثقافة لغوية وشعرية واسعة ، واستقوها من اطلاعهم على التراث الشعري واللغوي الموروث ، ومن أحداث واقعهم الذي يعيشون ، وكان للحركة الفكرية والثقافية النشطة في عصرهم ، كما تقدم ، أثر بارز في هذه الثقافة ، فأفرغوا ثقافتهم هذه في أشعارهم ، ما حين مهنتين واصفين . . .

* * *

ونهج الشعراء في أساليبهم نهج سابقهم في التعبير ، وقد وهم في طرق الكلام ، فوقفوا كثيراً عند حدود الموروث ، فقد غلب على أساليبهم الطابع الانشائي ، أو الانفعالي (١) ، فاستخدموا الأمر ، والاستفهام ، والنداء وغير ذلك .

أما " الأمر " فقد ورد عند الشعراء بصيغ مختلفة ، يقول العماد الأصفهاني داعياً لصلاح الدين :

دُمْ لِلْعُلَى حَتَّى يَدُومَ نَظَامُهَا وَاسْلَمْ يُعَزِّزْ بِنَصْرِكَ الْإِسْلَامُ (٢)

ويقول سمادة حاثاً إياه على فتح السواحل مستخدماً الفعل " انهض " :

فَانْهَضْ إِلَى فَتْحِ السَّوَاهِلِ نَهْضَةً قَادَتْ لَكَ الْأَعْدَاءُ بَعْدَ حِرَابِهَا (٣)

ويستخدم عرقلة الكلبي المصدر نيابة عن فعل الأمر ليحث صلاح الدين على الصبر ،

يقول :

صَبْرًا صَلاحَ الدِّينِ يَا رَبَّ السَّمَاكِ وَالْوَقَا (٤)

(١) انظر شعر الصراع مع الروم / ٣١٤ .

(٢) ديوان العماد الأصفهاني / ٣٧٨ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٦٣١ ،

مفرج الكروب : ٣٠ / ٢ .

(٣) الخريدة - قسم شعراء الشام : ٤١١ / ١ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٦٤٦ .

(٤) ديوان عرقلة الكلبي / ٦٥ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٧١١ .

ويقول الجلياني مبشرا :

أَبْشِرْ بِطُوكِ كَظْهَرِ الشَّمْسِ مُطْلِعِ
على البَسِيطَةِ فَتَاجِ بِنَشْرَتِهِمْ (١)

ويوظف ابن سعدان الحلبي اسم فعل الأمر لتحديد الفرنج وتوبيخهم ، يقول :

قُلْ لِلْفَرَنْجِيَّةِ الْخُدْلِي : رَوَيْدُكُمْ
بِالتَّأَثُّرِ أَوْ تَخْرُجُ الشَّعْرَى مِنَ الْحَمْلِ (٢)

وورد الاستغهام عند الشعراء بمعان شتى ، فقد ورد لفادة التقرير ، والنفي ،
والتعظيم ، والتحريض ، والسخرية ، وغير ذلك ، يقول الشاغوري مقررا ، ومؤكدا :

فَمَنْ الَّذِي فِي جَيْشِهِمْ لَمْ يُخْشَرْ
قَبْلًا وَمَنْ مِنْ جَمْعِهِمْ لَمْ يُؤَسَّرْ ؟ (٣)

ويقول العرقلة نافيا :

وَهَلْ أَخْشَى مِنَ الْأَنْوَاءِ بَخْلًا
إِذَا مَا يَوْسُفُ بِالْمَالِ جَادَا ؟ (٤)

ويحمل الاستغهام عند الشعراء معاني تصور انفعالاتهم النفسية ، فالاستغهام في
قول ابن سناء الملك الآتي يحمل في طياته الحيرة والتعجب ، مما يدل على عظمة
الفتوح ، يقول :

أَنْهَيْتِكَ إِذَا تَلَكَّتْ شَامًا
أَمْ نُهَيْتِكَ إِذَا تَلَكَّتْ عَذَنًا ؟ (٥)

(١) ديوان العشرات والقديسيات / ١٣٦ ، كتاب الروضتين : ١٠٣ / ٢ .

(٢) كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٧٠٤ .

(٣) ديوان فتیان الشاغوري / ١٤٢ .

(٤) ديوان عرقلة / ٣١ ، الخريدة ، قسم شعراء الشام : ١٩٩ / ١ ، كتاب

الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٣٩٤ .

(٥) ديوان ابن سناء الملك / ٣٤٠ ، مفرج الكروب : ٢٣٥ / ٢ .

ويقول الجوّاني :

أَتَرَى مُنَامًا مَا بِمَعْنِي أُبْصِرُ القَدْسُ يُفْتَحُ وَالْفَرْنَجَةُ تُكْسَسِرُ (١)

ويوظف الشعراء أسلوب النداء للتعبير عن معان مختلفة ، كالتعظيم ، والسخرية والفرح ، والحث والاغراء ، يقول الجويني معظما اعتماد صلاح الدين على الله :

يَا مَلِيكَاً يُلْقِي الْحُرُوبَ بِحَوْلِ اللَّهِ مُسْتَقْصِماً وَصَدَقَ الْيَقِينُ (٢)

ويشمر نداء تقي الدين عمر لعمه صلاح الدين بقرب تقي الدين القليبي منه ، وأنه لا يغيب عن باله ، يقول :

أَصْلَاحُ دِينِ اللَّهِ أَمْرُكَ طَاعَةٌ فَمُرِّ الزَّمَانِ بِمَا تَشَاءُ لِيَفْعَلْ (٣)

ويوظف الشعراء أساليب أخرى في التعبير كالنفي ، يقول فتیان الشاغوري مخاطباً صلاح الدين :

لَا يَعْدُ مِنْكَ الْمُسْلِمُونَ فَكَمْ يَسُدُّ أَوْلِيَّتَهُمْ مَعْرُوفُهَا لَمْ يَنْكُسِرْ (٤)

ويوظف الشعراء أسلوب الدعاء في خواتيم قصائد هم ، ويقول ابن سناء الملك :

فَلَا زِلْتَ تَتَقَى لِلنَّبِيِّ وَبَرِّينِهِ وَاتِّمَّ يَفْنَى الزَّمَانُ وَلَا تَفْنَى (٥)

-
- (١) كتاب الروضتين : ١٠٥/٢ . وانظر مزيداً من الأمثلة حول معاني الاستغمام : ديوان فتیان / ١٤٢ ، ديوان المبشرات والقديسات / ١٣٤ ، ديوان عرقلة / ٣١ ، ديوان ابن الساعاتي : ٤٠٩/٢ .
- (٢) البرق الشامي : ١٧٢/٣ ، كتاب الروضتين : ٩/٢ .
- (٣) الخريدة ، بداية قسم شعراء الشام / ١٠٥ ، مفرج الكروب : ٢٣٨/٢ . وانظر مزيداً من الأمثلة حول معاني النداء : ديوان المبشرات والقديسات / ١٣٣ ، ١٣٨ ، الخريدة ، قسم شعراء الشام : ٥٣١/١ ، ديوان العماد / ١٥٩ ، كتساب الروضتين : ١١٨/٢ .
- (٤) ديوان فتیان الشاغوري / ١٤٧ ، كتاب الروضتين : ٨٤/٢ .
- (٥) ديوان ابن سناء الملك / ٣٢٤ .

وورد من النهي قول العماد الأصفهاني ، لما عثرت فارس صلاح الدين فسي
الميدان ، وهو يلعب بالكرة :

لا تُنْكِرَنَّ لِسَابِحٍ عَثَرْتُ بِهِ
قَدَمْ وَقَدْ حَمَلَ الْخِصَمَ الرَّاحِشَا (١)

وقول ابن التعاويذي مخاطبا صلاح الدين :

فلا يُزَجِرَنَّكَ أَرْدَ حَامُ الْوَفُودِ
عَلَيْكَ وَكَثْرَةُ مَا تَبْتَذُلُ (٢)

وكانت الوفود قد اجتمعت ببابه تطلب رفقده . (٣) :

ولا تكاد تخلو قصيدة من قصائد الشعراء من استخدام صيغة المخاطب في حديثهم
عن صلاح الدين ، ولعل ذلك عائد إلى قربهم منه ، ومحبتهم له ، يقول الجويني :

لَكَ قَلْبٌ عِنْدَ اللَّقَاءِ مَكِينٌ
وَلَهُ مِنْ تَقَاهُ أَلْفُ كَمِينٍ (٤)

ويكثر الشعراء من استخدام أسلوب " كم الخبرية " لإفادة التأكيد والتفخيم ، يقول
ابن جبير الأندلسي مخاطبا صلاح الدين ومعظما إياه :

فَكَمْ لَكَ بِالشَّرْقِ مِنْ حَامٍ سَدٍ
وَكَمْ لَكَ فِي الْفَرْبِ مِنْ شَاكِرٍ (٥)

(١) ديوان العماد / ١٥٨ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٣٧٨ ، أعلام
النبلاء : ٥٠ / ٢ .

(٢) ديوان ابن التعاويذي / ٣٣٣ ، كتاب الروضتين : ١٣٨ / ٢ .

(٣) تضرع صلاح الدين بمن على بابه وهو على حصار صدد ، لما علم أن بعض أنصار
الفاطميين أرادوا إعادة الحكم الفاطمي سنة ٥٨٤ هـ . انظر الحديث عن ذلك
في الفصل الثالث من هذه الدراسة في علاقة صلاح الدين بالقاضي الفاضل .

(٤) البرق الشامي : ١٧٢ / ٣ ، كتاب الروضتين : ٩ / ٢ ، وانظر قول أبي العرف
النبيري في خريدة القصر ، قسم شعراء العراق : ٤٦٧ / ٣ ، وقول الجواني في
كتاب الروضتين : ١٠٥ / ٢ ، وغيرها .

(٥) كتاب الروضتين : ٤ / ٢ .

ويقول الرشيد بن بدر في فعل صلاح الدين بالأعداء :

فَكَمْ نَشَرْتَهُمْ ضَرْباً إِذَا انْتَقَضُوا وَكَمْ نَظَمْتَهُمْ طَعْناً إِذَا انْتَشَرُوا (١)

ووظف الشعراء " كم الخبرية " توظيفا موقفا لتصوير حال الفرنج المهزومين ، لضعاف الروح المعنوية لديهم من جهة ، ولعلائها عند المسلمين من جهة أخرى ، وهم باستخدام هذا الأسلوب يسخرون بالأعداء الصليبيين ، ويحقرونهم ، يقول الجلياني :

كَمْ قَدْ أَعَدُّوا ، وَكَمْ قَدْ هُلَّ جَنْفُهُمْ مِنْ غَيْرِ ضَرْبٍ وَلَا طَعْنٍ يُزِيلُهُ
وَأَمَّا اسْمُ صَلاحِ الدِّينِ يُذَكِّرُنِي جَيْشِ الْعَدُوِّ فَيَسْبِيهِمْ تَخِيلُهُ (٢)

* * *

ولجأ بعض الشعراء إلى المبالغة والتزهيل ، لا سيما في حديثهم عن صفات صلاح الدين ، كالكرم والشجاعة ، وقد تعدد هذه المبالغة مقبولة في هذا المجال ، لقد رأى الشعراء في البطل دليلا على عظم التضحية ، وثقل المسؤولية ، فطافقوا يضحمون الجهد الذي بذله ، هذا إضافة إلى مهمة الشاعر التي تتجاوز الوصف الحقيقي للمشاعر والأحاسيس أحيانا . ويرى الدكتور نصرت عبد الرحمن أن اللجوء الانفعالي أثرا في هذه المبالغة (٣) ، وقد رأى ابن رشيق أن لا إفراق ولا غلو إلا لضرورة (٤) ، يقول ابن الساعاتي مهورا جود صلاح الدين ، وقد فاق جود حاتم :

مَنْ حَاتِمٌ عِنْدَمَا كُنَّا كَ وَاهِبٌ حَتَّى غَدَا مَثَلًا نَاهِيكَ مِنْ مَثَلِ (٥)

ويقول فتیان الشاغوري :

كَمْ خَازِنٌ لَكَ سِمْلُ الْفَيْ حَاتِمٍ كَرَمًا وَمُلُوكٌ كَالْفَيْ عُنُسْتَرِ (٦)

- (١) كتاب الروضتين : ١٩٤/٢ ، وانظر امثلة أخرى في ديوان ابن الدهان / ٣٢ ، الخريدة ، بداية شعراء الشام / ٨٦ ، ديوان العماد / ١٩٢ .
- (٢) ديوان المبعثرات والقديسات / ١٤٦ ، كتاب الروضتين : ١٥١/٢ .
- (٣) انظر شعر الصراع مع الروم / ٣١١ .
- (٤) الحمدة : ٦٠/٢ .
- (٥) ديوان ابن الساعاتي : ٣٨٢/٢ .
- (٦) ديوان فتیان الشاغوري / ١٤٦ .

ومن مبالغات الشعراء في الحديث عن صلاح الدين قول العماد الأصفهاني الذي جعل فيه القضا يجري بإرادة صلاح الدين :

جَرَى بِالَّذِي تَهْوَى الْقَضَاءُ وَظَاهَرَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَنِ أَجْنَادُكَ الْحُسَيْنِ (١)

وقد لجأ ابن روضة إلى المبالغة في موقف انهزام الصليبيين ، فهو يسري أن طيف صلاح الدين قد أزج الأعداء ، وأن الذعر الذي يثيره صلاح الدين في صفوفهم قد أبادهم ، وفك بهم ، فما يستطيعون رقادة ، فأصبحوا يتمنون لو ينامون آمنين ، يقول :

يُرَوْنَ خِيَالَهُ كَالطَّيْفِ يَسْرِي أَبَادَهُمْ تَخَوُّهُ فَأَسَسَسَ
لَوْ هَجَعُوا أَتَاهُمْ بَعْدَ وَهْنِ مَنَاهُمْ لَوْ يَتَّبِعُهُمْ بِأَمْسَسَسَ (٢)

وعند الشعراء في أساليبهم إلى التهكم والسخرية من الأعداء الصليبيين وملوكهم حين وصفوهم ، احتقاراً لهم وتقليلاً من شأنهم ، فيكون ذلك دافعا لجنود المسلمين ولقائدهم لمواصلة الجهاد ، فيخوضون معاركهم وقد ارتفعت معنوياتهم. ومن أمثلة ذلك : قول فتیان الشاغوري ، مصورا رجوع الصليبيين عن " دياط " ، بعد أن حاصروها سنة ٥٦٥ هـ ، مهزومين انزلاء :

فَعَادُوا عَلَى الْأَعْقَابِ مِنْهَا هَزِيمَةً كَأَنَّهُمْ ذَلَّ نَعَامٌ جَوَافِلُ (٣)

ويقول الجلياني مشبها الأعداء بالفراش الذي يحرقه لهيب الحرب :
هُمُ الْفَرَّاشُ لِهَيْبِ الْحَرْبِ تَصَرَّعُهُ وَكُلُّمَا لَجَّ صَدْمًا جَلَّ مَقْتُلُهُ (٤)

وبسخر العماد الأصفهاني من الأعداء المأسورين في حطين ، لاسيما ملوكهم ، ورسم صورة مزرية لرأس البرنس " أرناط " الذي اتصف باليأس ، فما كان له علاج إلا السيف :

- (١) ديوان العماد ٢٣٢/ ، معجم الأدباء : ٢٧/٩ ، كتاب الروضتين : ١٠/٢ .
والْحُسَيْنُ : جمع أحسن وهو المشتد الصلب ، انظر القاموس المحيط (حمن) .
- (٢) الخريدة ، قسم شعراء الشام : ٤٩٢/١ ، معجم الأدباء : ٤٧/١٠ . وانظر أمثلة أخرى في : كتاب الروضتين : ١٠٧/٢ ، وديوان ابن الساعاتي : ٣٨٦/٢ ، ديوان المبشرات والقديسات / ١٤٦ . وغيرها .
- (٣) ديوان فتیان الشاغوري / ٣١٩ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٤٦١ .
- (٤) ديوان المبشرات والقديسات / ١٤٦ ، كتاب الروضتين : ١٥١/٢ .

تَقَادُ بِدَأْمَاءِ الدَّمَاءِ مُلُوكَهُمْ
سَبَايَا بِلَادِ اللَّهِ مَقْلُوءَةً بِهَيْسَا
يُطَافُ بِهَا الْأَسْوَاقُ لَا رَاغِبَ لَهَا
شُكَا يَيْسًا رَأْسُ الْبَرْنِيسِ الَّذِي بِسِوِ
حَسَا دُمُهُ مَاضِي الْفِرَارِ لِفَسْذَرِهِ
أَسَارَى كَسْنُيْنِ السِّيمِ نَطَتْ بِهَا الْقُلُوسَا
وَقَدْ شُرَيْتَ بِحَسَا وَقَدْ عُرِضَتْ نَحْسَا
لِكَثْرَتِهَا كَمْ كَثُورَةٌ تُوجِبُ الْوَكْسَا
تَنْدَى حَسَامٌ حَاسِمٌ ذَلِكَ الْيَيْسَا
وَمَا كَانَ لَوْلَا قُدْرُهُ دُمُهُ يُحْسَسِي (١)

ويقول ابن الدهان الموصلي :

وَأَشْجَعُهُمْ مَنْ حَاوَلَ الْعَيْشَ مُذْهِرَا
وَفَاتُوا الْقَنَا سُنْتَظِيمِينَ قِتَالَهُمْ
فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ أَسَارٌ وَمَقْتُلٌ
مِنَ الْخَضِرِ لَمَّا عَايَنَ الْمَوْتَ مَقْبِلَا
مِنَ الدُّلْرِ وَالْإِزْطَامِ مَا كَانَ أَقْبِلَا
فَقَدْ رَكِبُوا خِزْيَ الْفِرَارِ الْمَجْلِسَا (٢)

وسخر الشعراء من ملوك المسلمين الذين تقاعسوا عن جهاد الأعداء ، فكان همهم
احتواء الملك ، يقول ابن سناء الملك :

مَالِكٌ لَمْ يُدَبِّرْهَا مُدَبِّرُهُسَا
رَايَ بَرَايِي خَصِيٍّ أَوْ يَقْتُلُ صَبِي (٣)

ويقول القاضي ابن الفراء :

أَنَاسٌ دَبَّتِ الْأَعْلَالُ فِيهِمْ
وَلَيْسَ لَهُمْ كَسْفِيكَ مِنْ طَبِيبٍ (٤)

* * *

-
- (١) ديوان العماد الأصفهاني / ٢٣٥ ، كتاب الروضتين : ٨٣ / ٢ .
(٢) ديوان ابن الدهان / ٤٤ ، ٤٥ .
(٣) ديوان ابن سناء الملك / ٣ ، كتاب الروضتين : ٤٤ / ٢ ، منج الكروب :
١٣٨ / ٢ .
(٤) الخريدة - قسم شعراء الشام : ٣٠٣ / ١ .

وانطبع أسلوب الشعراء في فترة الحروب الصليبية بطوابع عامة ، وساروا فيها وفق مقاييس أدبية مشتركة ، فلا تكاد تخلو قصيدة من قصائدهم في ذلك العصر من التأثير بتلك الطوابع والمقاييس ، ومن أهمها : الطابع الديني أو الاسلامي ، وطابع الاتباع ، وطابع الصناعة البدعية .

وقد تأثر شعراء صلاح الدين كثيرهم من الشعراء بهذه الطوابع والمقاييس ، وسيدور الحديث الآتي حول هذه الطوابع الثلاثة .

تبدو النزعة الدينية جلية واضحة عند شعراء صلاح الدين ، نرى في تضاعف قصائدهم شيوخ الألفاظ والمعاني والصور الاسلامية ، ولعل ذلك عائد إلى طبيعة الصراع العقدي القائم بين المسلمين والصليبيين ، فقد أحس الشعراء والمسلمون جميعاً أن العدو الصليبي أراد القضاء على وجودهم وكيانهم القائم على العقيدة الاسلامية ، فهبوا ينافحون عنها بكل ما أوتوا من قوة ، وقد ساعدت ثقافتهم الدينية على ذلك .

ومن مظاهر تأثر الشعراء بالتراث الاسلامي ظهور الألفاظ والمصطلحات الاسلامية في قصائدهم ، وقد تقدم الحديث عن ذلك ، كما نجد تأثر الشعراء في معانيهم ، وتعبيراتهم ، وصورهم بالتراث الاسلامي ، لا سيما التأثر بالقرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف .

ومن أسئلة التأثر بالقرآن الكريم قول ابن التعاويذي :

ظَلَمْتُ أَهْلَ الْبَيْتِ مَجْدَلٍ لَقِيَ الْحَمَامَ وَخَائِفٌ يَتَرَقَّبُ
أَوْ هَارِبٌ ضَاقَتْ عَلَيْهِ رَحْبُهَا الْأَرْضُ الْفَسَادُ ، وَأَيْنَ مِنْكَ الْمَهْرَبُ (١)

فهو في البيت الثاني متأثر بقوله تعالى : " ... وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ " (٢)

(١) ديوان ابن التعاويذي / ٢٥ .

(٢) آية (٢٥) من سورة التوبة .

ويقول ابن سناء الملك :

وَعَوَّضْتَهُمْ مِنْ بَعْدِ سُخْطِهِمْ رِضًا وَدَلَّتَهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا (١)
فهو ينظر إلى قوله تعالى : " وَلِيُذْذِلَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا " (٢) ..

ويقول أيضا :

أَهَابَ بِكَ اللَّهُ الْبِلَادَ فَصَابَهُمَا وَهَلْ يُخْطِيهِ الْعَرَمَى وَرَيْكَ قَدْ رَمَى (٣)
وهو مأخوذ من قوله تعالى : " وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى " (٤) .

ويقول العماد الأمفياني :

وَمَا أُصْنِيُوا إِلَّا بِطَرَلٍ فَكَيْفَ لَوْ أُطِيرُوا بِوَابِلٍ (٥)
وهو متأثر بقوله تعالى : " فَإِنْ لَمْ يُجِئْهَا وَابِلٌ فَطَلٌ " (٦) .

ويقول ابن حُرَيْبٍ :

إِذَا خَفَقَتْ بُتُودُكَ فِي مَقَامٍ رَأَيْتَ الْأَرْضَ خَاشِعَةً تَتَيْسَدُ (٧)
وهو مأخوذ من قوله تعالى : " وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً " (٨) .

-
- | | |
|-----|---|
| (١) | ديوان ابن سناء الملك / ٣٢٢ . |
| (٢) | آية (٥٥) من سورة النور . |
| (٣) | ديوان ابن سناء الملك / ٢٧٢ . |
| (٤) | آية (١٧) من سورة الأنفال . |
| (٥) | ديوان العماد الأمفياني / ٣٢٤ ، كتاب الروضتين : ج١ ق ٢ / ٤٥٢ ،
مفرج الكرب : ١ / ١٧٧ . |
| (٦) | آية (٢٦٥) من سورة البقرة . |
| (٧) | الخريدة - قسم شعراء الشام : ٧٥ / ٢ ، الوافي بالوفيات : ١١٣ / ٣ . |
| (٨) | آية (٣٩) من سورة فصلت . |

ولعل تطابق اسم " صلاح الدين " مع اسم يوسف عليه السلام ، من الأمور التي دفعت الشعراء إلى اقتباس آيات كثيرة من قصة يوسف المعروفة .

فسماعة الأعشى يقتبس من الآية الكريمة " يوسف أيها الصديق " (١) ، ويقتبس من الآية الكريمة : " فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر ، وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل ، وتصدق علينا ، إن الله يجزي المتصدقين " (٢) ، يقول سماعة :

ألا أيها الصديق يوسف مسنا
فأوف لنا كيل الندى متصدقاً
من الضراً لا نستطيع به نخطو
فإن جزاء المؤمنين هو الشكر (٣)

ويقول نشو الدولة أبو الفضل :

أتى بعدما نادى بحشقي المعسر
إلى ربها : تالله مسني الضر (٤)
فهو متأثر بقوله تعالى : " وأيوب إذ نادى ربه أي مسني الضر . . . " (٥) .

وتأثر شعراء القديسات بالقرآن كثيرا ، لا سيما عند حديثهم عن الفتح والفتح ، يقول الجواني مصورا الفتح الأعظم ، فتح بيت المقدس :

قد جاء نصر الله والفتح السدي
وعد الرسول فسبحوا واستغفروا (٦)
فهو ينظر إلى قوله عز وجل : " وإذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخولون في دين الله أفواجا ، فسبح بحمد ربك واستغفره ، إنه كان توابا " (٧)

-
- | | |
|-------|---------------------------------------|
| (١) | آية (٤٦) من سورة يوسف . |
| (٢) | آية (٨٨) من السورة نفسها . |
| (٣) | الخريدة - قسم شعراء الشام : ٤١٩ / ١ . |
| (٤) | الخريدة - قسم شعراء الشام : ٢٣٠ / ١ . |
| (٥) | آية (٨٣) من سورة الأنبياء . |
| (٦) | كتاب الروضتين : ١٠٥ / ٢ . |
| (٧) | الآيات (١ - ٣) من سورة النصر . |

ويقول الجَوْنِي متأثراً بقوله تعالى : * اِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * (١) ، ويقول
عز وجل أيضا : * قَاتِلُوهُمْ يَهْذِبْهُمْ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ، وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصَرِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيُشْفِ صُدُورَ
قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * (٢) .

إِنَّ هَذَا الْفَتْحَ الْمُبِينَ شَرَاءٌ لِمُدُورٍ وَقَرَّةٍ لِعُيُودٍ (٣)

ويقول فتیان الشاغوري متحدثاً عن يوم الفتح :

وَأُرَيْتَهُمْ لَمَّا التَقَى الْجَمْعَانِ هَالِ بِمَجْدِ الْمُقَدَّسِ هَوْلَ يَوْمِ الْمَحْشَرِ (٤)
وهو متأثر بقوله تعالى : * إِنْ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ
الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا * (٥) .

ويشيد نجم الدين بن المجاور بجنود الله قائلا :

إِنَّ صَبَحُوا الْأَعْدَاءَ فِي أَوْطَانِهِمْ تَرَكُوا دِيَارَهُمْ كَقَاعٍ مَصْفٍ (٦)
فهو ينظر إلى قوله تعالى : * وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ ، فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ، فَيَذَرُهَا
قَاعًا صَفْصَفًا * (٧) .

ويصور العماد الأصفهاني المصير الذي آل إليه العدو والصليبي متأثراً بالقرآن
الكريم ، يقول :

بِوَاقِعَةٍ رَجَّتْ بِهَا الْأَرْضُ جَيْشَهُمْ دَمَارًا كَمَا بُسَّتْ جِبَالُهُمْ بَسًّا (٨)

-
- | | |
|-----|--|
| (١) | آية (١) من سورة الفتح . |
| (٢) | آية (١٤) من سورة التوبة . |
| (٣) | البرق الشامي : ١٢٣/٣ ، كتاب الروضتين : ٩/٢ ، منج الكروب : ٢٨/٢ . |
| (٤) | ديوان فتیان الشاغوري / ١٤٣ . |
| (٥) | آية (١٥٥) من سورة آل عمران . |
| (٦) | كتاب الروضتين : ١٠٤/٢ . |
| (٧) | الآيتين (١٠٥ ، ١٠٦) من سورة طه . |
| (٨) | ديوان العماد الأصفهاني / ٣٤ ، كتاب الروضتين : ٨٢/٢ . |

فهو ينظر إلى قوله تعالى : " إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ، وَسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ، فَكَانَتْ هَبَاءً مُتَّبَثًا " (١) .

ويقول الجبالي في مصورا بعض فرق الجيوش الصليبي ، " الاستتارية والداوية " :
والاستتار إلى الداوية التأملوا كأنهم سدّ يأجوج إذا استجروا (٢)
فهو ينظر إلى قوله تعالى : " قَالُوا يَا أَيُّهَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّا يَا جُوجُ وَمَأْجُوجُ يَفْسُدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا " (٣) . وإلى قوله تعالى : " حَتَّى إِذَا فَتَحْتَ بِأُجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ " (٤) .

ويقول ابن الساعاتي :

فَكُنْتُ كَيُوسُفَ الْمَدِيقِ حَقًّا لَهُ كَوْتُ الْكَوْكِيبِ سَاجِدِينَ (٥)
وهو متأثر بقوله تعالى " يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ " (٦) .

ومن أمثلة التأثير بالحديث النبوي الشريف قول فتيان الشافري في قصيدته :

يَفْزُو الْمُلُوكُ الرَّعْبُ قَبْلَ مَسِيرِهِ فِي عَسْكَرِ أَفْتِكَ بِهِ مِنْ عَسْكَرِ (٧)
فهو متأثر بقوله صلى الله عليه وسلم : " أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي ، نُصِرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ... " (٨) .

-
- (١) الآيات (٤ - ٦) من سورة الواقعة .
(٢) ديوان الميمشات والقدسيات / ١٣٧ ، كتاب الروضتين : ١١٦ / ٢ .
(٣) آية (٩٤) من سورة الكهف .
(٤) آية (٩٦) من سورة الأنبياء .
(٥) ديوان ابن الساعاتي : ١٠٨ / ٢ ، كتاب الروضتين : ٨٥ / ٢ ، مفرج الكرب : ٢٠٠ / ٢ .
(٦) آية (٤) من سورة يوسف .
(٧) ديوان فتیان الشافري / ١٤١ .
(٨) صحيح البخاري - باب الجهاد : ٦٥ / ٤ .

ويقول الجلياني في قصيدته " التحفة الجوهريّة " :

فَأَنْتَ الَّذِي انْقَضَتْ حِزْبُ مُحَمَّدٍ جِهَاداً ، وَهُمْ فِي غَلَّةِ التَّنَاسُخِ
فَحَارِثَتِ الْإِيمَانَ لَا لُفْخَائِسَ وَرَابِطَتِ الرِّضْوَانَ لَا لَمَغَانِسَ (١)

وهذا مأخوذ من مذهب الحديث " من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، فهو في سبيل الله " ، إذ انه " جاء رجل إلى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فقال : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليُري مكانه ، فمن في سبيل الله ؟ " فقال الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، الحديث السابق . (٢)

ويقول ابن جبير الأندلسي :

جَاهَدْتَ مَجْتَهِداً صَابِراً فَإِلَهُ دُرِّكَ مِنْ صَابِرٍ (٣)
فهو ينظر إلى قول الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، : " إذا لقيتموهم فاصبروا " (٤) .

ويقول الرشيد بن بدر النابلسي :

هَذَا الَّذِي كَانَتْ الْأَمَالُ تَنْقَطِرُ فَلْيُوفِ إِلَهُ أَقْوَامَ بِنَا نَكْذَرُوا (٥)
فهو ينظر إلى قوله ، صلى الله عليه وسلم ، " من نذر أن يطيع الله فليطعه " . . . (٦) .

وشة معانٍ مرتبطة بالاسلام بشكل عام وردت في ثنايا قصائد الشعراء ، ومن ذلك نصرة الدين ، والغضب له والقتال من أجله ، يقول ابن الجياور متحدّثاً عن جنود المسلمين ، مخاطباً صلاح الدين :

أَنْتَ أَصْطَفَيْتَهُمْ لِنَصْرَةِ دِينِنَا لِلَّهِ دُرُّ الْمُصْطَفَى وَالْمُصْطَفَى (٧)

-
- (١) عيون الأنباء / ٦٣١ .
(٢) صحيح البخاري : ٢٤ / ٤ ، ٢٥ .
(٣) كتاب الروضتين : ١٠٦ / ٢ .
(٤) صحيح البخاري - باب الصبر عند القتال : ٣٠ / ٤ .
(٥) كتاب الروضتين : ١١٨ / ٢ .
(٦) صحيح البخاري - باب الوفاء بالنذر - ١٧٧ / ٨ .
(٧) كتاب الروضتين : ١٠٤ / ٢ .

وقال ابن التعاويذي :

وَغَضِبْتَ لِلدِّينِ الْحَنِيفِ وَلَمْ تَنْزَلْ فِي اللَّهِ تَرْضَى مِنْذُ كُنْتَ وَتَفْضَسِبُ (١)

ومثله قول سعادة الأعشى :

غَضِبْتَ لِدِينٍ أَنْتَ حَقًّا صَاحِبُهُ فَأَرْضَيْتَ لَمَّا أَنْ غَضِبْتَ مُحَمَّدًا (٢)

وقال أسامة بن منقذ :

وَغَضِبْتَ لِلَّهِ الَّذِي أَعْطَاكَ فَضْلَ لَ الْحُكْمِ غَضِبْتَ ثَائِرَ حَسْرَانَ (٣)

ويبدو معنى القتال والجهاد من أجل الدين جلياً في قول ابن الساعاتي :

يَقَاتِلُ كُلُّ ذِي مَالِكٍ رِيَاءً وَأَنْتَ تَقَاتِلُ الْأَعْدَاءَ دِينًا (٤)

ومن المعاني الدينية التي بدت واضحة في الشعر معنى الإيمان الراسخ بالله

وينصره ، والحدود إلى القتال بدافع هذا الإيمان ، قال الجرجاني :

لَكَ قَلْبٌ عِنْدَ اللَّقَاءِ مَكِينٌ وَلَهُ مِنْ تَقَاهُ أَلْفُ كَسِينِ
يَا مَلِيكَاً يُلْقِي الْحُرُوبَ بِحَوْلِ اللَّهِ مُسْتَقْصِماً وَبِدَقِ الْيَقِينِ (٥)

وقال العماد الأصفهاني مادحاً صلاح الدين ، ومشيراً إلى التقوى المنبثقة عن

الإيمان بالله ، والمودة إلى النصر :

رَأَى النَّصْرَ فِي تَقَى إِلَهٍ ، وَكُلُّ مَنْ تَقَوَّى بِتَقْوَى اللَّهِ لَا يَعْدُمُ النَّصْرُ (٦)

-
- (١) ديوان ابن التعاويذي / ٢٥ .
 (٢) كتاب الروضتين : ١٢ / ٢ .
 (٣) الخريدة - قسم شعراء الشام : ٥٣١ / ١ ، والبيت غير موجود في ديوان الشاعر .
 (٤) ديوان ابن الساعاتي ٤٠٦ / ٢ .
 (٥) البرق الشامي : ١٧٢ / ٣ ، كتاب الروضتين : ٩ / ٢ .
 (٦) ديوان العماد الأصفهاني / ١٦٠ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٤٥٤ .

ومن مظاهر هذا الايمان الاستعانة بالله عز وجل ، وطاعته ، يقول ابن الجاور :

الجِدُّ فِي هَذَا الزَّمَانِ مُبِـسِّـنٌ وَالْهَزْلُ فِيهِ مَعَ الْغَوَايَةِ مُخْتَفٍ
بِالنَّاصِرِ الْمُهْدِيِّ ، وَالْمُهَادِيِ إِلَى سُبُلِ الْجِهَادِ أَبِي الْمُظَفَّرِ يُوسُفِ
الْمُسْتَعِينِ بِرَّهْ ، وَالْوَائِسِقِ الْمُنْصُورِ ، وَالْمُسْتَظْهِرِ الْبِرِّ الْوَفِيِّ (١)

ويقول ابن الساعاتي :

شِهَابٌ هَدَى فِي ظُلْمَةِ الشُّكِّ ثَنَا قِسْبَةٍ وَسَيْفٌ هَدَى فِي طَاعَةِ اللَّهِ مُرْهَفُ (٢)

ومن تلك المظاهر الاشتغال بشكر الله يوم النصر ، والتكبير ، والصلاة ، يقول ابن سناء الملك لما أغار صلاح الدين على " نابلس " قبل معركة حطين :

وَقَدْ شُفِيتَ عَنْ أَهْلِهَا بِسَارِهَا وَأَنْتَ بِشُكْرِ اللَّهِ فِي أَشْفَلِ الشُّفُلِ
تَكَبَّرَ فِيهَا اللَّهُ فِي الْجَامِعِ الَّذِي كَسَمْتَ بِهِ بَيْنَ الْفَرِيقَةِ وَالنَّافِلِ
وَصَلَّيْتَ فِيهَا جُمُعَةً بِجَمَاعَةٍ تَنَارُ نِكَ الْإِسْلَامِ بِأَجَامِعِ الشُّنُفِلِ (٣)

ويقول العماد الأصفهاني :

فَمَا شَكَرَ اللَّهُ حِينَ أُولَاكَ نَهْـمَـرًا فَهَوَّ نَعَمَ الْوَلَى وَنِعَمَ النَّصِيرُ (٤)

ومن المعاني الاسلامية أيضا مساعدة جند السماء المجيش الاسلامي ولقاءه ، يقول الجويني :

جُنْدُ السَّمَاءِ لِهَذَا الْمَلِكِ أَعْوَانُ مَنْ شَاكَ فِيهِمْ فَهَذَا الْفَتْحُ بَرْهَانُ (٥)

(١) كتاب الروضتين : ١٠٣/٢ .

(٢) ديوان ابن الساعاتي ج ٢ / ٤٠٩ ، مارج الكروب : ٨٤/٢ .

(٣) ديوان ابن سناء الملك / ٢٢٥ ، مارج الكروب : ١٦٣/٢ .

(٤) ديوان العماد الأصفهاني / ١٧٧ ، الخريدة - بداية قسم شعراء الشام / ٣٧ ،

كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٣٧٢ .

(٥) كتاب الروضتين : ١٠٤/٢ .

ويقول ابن سناء الملك :

مَلِكٌ جُنْدُهُ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ
هـ مُرَادِي جَاءَتْ إِلَيْهِ وَمَشْنَى (١)

ويشبه العماد الأصهباني جنود صلاح الدين بأ ملاك السماء قائلا :

جُنُودُكَ أَمْلَاقُ السَّمَاءِ وَظَنَّهُمْ
عِدَاتُكَ جِنَّ الْأَرْضِ فِي الْفَتْكِ لَا الْإِنْسَا (٢)

ومن مظاهر التأثر بالاسلام الحديث عن العقائد الاسلامية المرتبطة بذلك الدين كمكانة المكرمة ، والمدينة المنورة ، والكعبة المشرفة ، والمسجد الأقصى ، والصخرة المباركة ، والبيت الحرام ، ونحو ذلك ، يقول العماد :

بِفَتْحِهِ " الْقُدْس " الْإِسْلَامَ قَدْ فُتِحَتْ
فَنَبِي مُوَافَقَةِ " الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ " لِلَّهِ
وَالصَّخْرَةِ " وَ" الْحَجَرِ " الْعَظِيمِ جَانِبُهُ
نَفَى مِنْ " الْقُدْسِ " صُلْبَانَا كَمَا نَفَيْتَ
فِي قَمْعِ طَائِفَةِ الْإِشْرَاقِ أَبْشَابُ
" بَيْتِ الْحَرَامِ " لَمَّا تَبَيَّنَ " وَأَعْجَبَ
كَلَامُنَا لَا عَتَمَارَ الْخَلْقِ مِحْشَابُ
مِنْ بَيْتِ مَكَّةَ " أَرْلَامَ " وَأَنْصَبَ (٣)

ويقول ابن الساعاتي :

حَبَا " مَكَّةَ " الْحُسْنَى وَشَنَى بَيْتِ شَرْبِ
وَأَطْرَبَ ذِيكَ الشَّرِيحَ وَمَا ضَمَا (٤)

ويقول ابن الجاور :

يَا صَاحِ ، قُلْ الْإِنْكَتِيرَ الْكَلْبِ رَدَّ
" الْقُدْسِ " مَا فِيهِ إِمْرَجِكَ مَطْلَعِ
" وَالْمَسْجِدُ الْأَقْصَى " فَجَعَلَهُ تَقْصُ مِنْ
عَنكَ الْجُنُونِ وَخَذَ مَقَالَةَ مُنْصَفِرِ
كَلَا وَلَا نُورَ إِلَّا إِلَهُ يُعْظَمُ فِي
وَقَعَ الدَّهَابُ فِي الْأَيْتَةِ تَعْسُفِ (٥)

- (١) ديوان ابن سناء الملك / ٢٣١ .
(٢) ديوان العماد / ٢٣١ ، معجم الأديباء : ٢٤ / ١٩ ، كتاب الروضتين : ١٠١ / ٢ .
(٣) ديوان العماد الأصهباني / ٧٥ ، ٧٦ ، كتاب الروضتين : ١٠٢ / ٢ ، ١٠٣ .
(٤) ديوان ابن الساعاتي : ٣٨٥ / ٢ ، كتاب الروضتين : ١٠٦ / ٢ ، مغن الكروبي : ٢٣٤ / ٢ .
(٥) كتاب الروضتين : ٢٠٤ / ٢ .

ومن الجدير بالقول إن الشعراء تأثروا بالتاريخ الاسلامي ، فمقد ربطوا بسنين معارك المسلمين الكبرى ، وبين معارك صلاح الدين ، كمعركة حنين والقادسية ومدر وغزوة الخندق ، فنرى العماد يربط بين حصار الاسكندرية الذي تم على يدي الفرنج وشاور سنة ٥٦٢ هـ ، وبين حصار المدينة في زمن الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وقد مرّ تفصيل ذلك ، يقول مخاطباً صلاح الدين :

حَاصِرُوهَا وَمَا الَّذِي بَنَانٌ مِنْ ذِيكَ عَنْهَا وَحِطَّهَا مَحْصُورٌ
كَحِصَارِ الْأَحْزَابِ كَبَيْتَةٍ قَدْ مَسَا وَنَبِيُّ الْهُدَى بِهَا مَنصُورٌ
فَاشْكُرِ اللَّهَ حِينَ أَوْلَاكَ نَصْرًا فَهُوَ نِعْمَ الْعَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (١)

ويقرن الجويني بين وقعة " مرج عيون " التي انتصر فيها صلاح الدين على أعدائه سنة ٥٧٥ هـ ، ويوم " حنين " ، وذلك لشدة القتال ، حتى كادت الدائرة تدور على المسلمين ، يقول :

هُوَ يَوْمٌ أَضْحَى كَيْفَ حَنَنٍ سَهْلَ اللَّهُ نَصْرَهُ نِي الْحُزُونِ (٢)

ويربط الجليلاني ما بين الفتح القدسي ومعركة القادسية في قدسيته —————
" الفتحية الناصرية " ، وقد تقدم تفصيل ذلك أيضا ، يقول :

أَمَا رَأَيْتُمْ فَتَحَ الْقَادِسِيَّةَ فِيَّ أَكْنَافُ الْوَيْتَةِ تُجَلَّى وَذَا عُمَرُ (٣)

* * *

-
- (١) ديوان العماد الأصهباني / ١٨٢ ، الخريدة - بداية قسم شعراء الشام / ٣٧ ، كتاب الروضتين : ج ١ / ٢ / ٣٧٢ .
(٢) البرق الشامي : ١٨٣ / ٣ ، كتاب الروضتين : ٩ / ٢ ، مغز الكروب : ٧٨ / ٢ .
(٣) ديوان المبشرات والقدسيات / ١٣٨ ، كتاب الروضتين : ١١٧ / ٢ .

ونهج شعراء صلاح الدين في قصائدهم نهج أسلافهم من الشعراء ، لا سيما الذين عاشوا في العصر العباسي ، ولعل ذلك عائد إلى قربهم منهم زمنياً ، ومقدرة هؤلاء الشعراء الفنية التي كانوا يتمتعون بها في قصائدهم ، لمّا قبل الشعراء عليها حفظاً ودراسة ، وطفقوا يستمدون من صورها وأخيلتها وأنكارها ومعانيها وأوزانها ، وما إلى ذلك ، إضافة إلى هذا فإن تشابه الظروف يعدّ عاملاً من عوامل هذه النزعة الاتباعية ، فحروب المسلمين مع الصليبيين في عصر صلاح الدين خاصة ، وفترة الحروب الصليبية عامة تتشابه إلى حد بعيد مع حروب المسلمين مع الروم من قبل ، لذا نجد الشعر الجهادي الحماسي ، خاصة ، جاء متأثراً بالشعر الحربي الحماسي في العصور الأدبية السابقة ، لا سيما العصر المشار إليه ، فنجد تأثراً واضحاً بأبي تمام والمتنبي ، اللذين يعدان أبرز الشعراء الذين أثروا فيهم جاء بعدهم من الشعراء في هذا المجال (١) .

وينسردكتور عبد العزيز الأقصاني هذه الظاهرة بأن الناس في هذا العصر أخذوا " ينظرون إلى العصور الأولى على أنها المثل الأعلى للحياة الدينية والخلقية ، والحجة الأولى لعلوم الدين وبعض فروع الثقافة ، . . . " ، ثم إن اعتقاد الشاعر في ذلك الوقت بأن الشعراء السابقين كانوا حجة في اللغة ، لمعرفة أسرارها ، ولكونها تصدر عنهم تلقائياً وفطرياً ، كان دافعاً قوياً للاحتذاء بهم (٢) .

ويقول الدكتور محمود إبراهيم : " إن الانتاج الأدبي الموروث في فترة الحروب الصليبية أصبح مثلاً أعلى ينظر إليه باعتباره النفاية التي لا تطاول (٣) ، والتي " ينبغي أن يتوجه إليها الأدباء يستقون منها ، ويحاولون تقليدها ، دون أن يطمحوا إلى الوصول إليها ، أو الخروج عن خطوطها وقواعد ها . . . " (٤) ، ودرس الدكتور عبد الجليل عبد المهدي هذه الظاهرة في الأشعار القدسية في ذلك العصر ، وخرج بنتيجة مؤداها :

-
- (١) انظر صدى الفزوا الصليبي / ١٣٧ ، ١٨٢ ، صيت المقدس في أدب الحروب الصليبية / ٢٨٦ .
 (٢) ابن سناء الملك ومشكلة العمى والابتكار / ٢٧ ، ٢٩ .
 (٣) صدى الفزوا الصليبي / ١٨٢ .
 (٤) نفسه / ١٣٧ .

" أن الشعراء في هذا العصر احتذوا أقوال سابقهم ، واتبعوهم واقتدوا بهم ، ونهجوا نهجهم ، ولم يستطع هؤلاء الشعراء أن يصلوا إلى ما وصل إليه الشعراء السابقون من أمثال أبي تمام وأبي الطيب المتنبّي " (١) .

وحتى التجديد الذي حاوله شعراء صلاح الدين لم يخرج عن كونه شكلا من أشكال الاستنباط من القديم الموروث ، فقد أخذ بعض هؤلاء الشعراء أقوال السابقين ليصوغوها صياغة جديدة بما توحى إليهم أفكارهم وخواطرهم .

ولم تكن تلك التبعية تبهية عقوية نتيجة الزفة طويلة من قبل الشعراء للشعر الحماسي الموروث ، بل كانت تبعية واعية مقصودة ، فنجد الشعراء إضافة إلى تأثيرهم بالجوال العام للشعراء السابقين ، يقتبسون " بأسلوب مدروس متعمد الصور والأخيلة والتركيب والألفاظ والموسيقى " (٢) .

وقد تنبه النقاد القدماء إلى هذه الخزعة الاتباعية ، فرأى بعضهم أنه لا غنى للاحق من الشعراء عن اتباع السابق والتأثر به ، يقول أبو هلال العسكري : " ليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تناول المعاني ممن تقدمهم ، والمحب على قوالب من سبقهم ، ولكن عليهم إذا أخذوها أن يكسوها ألفاظا من عندهم ، ويبرزوها في معارض من تأليفهم ، ويوردوها في غير حليتها الأولى ، ويزيدوها في حسن تأليفها ، وجودة تركيبها ، وكمال حليتها ومعرضها . . . " (٣) . ويقول : " وقد أطبق المتقدمون والمتأخرون على تداول المعاني بينهم ، فليس على أحد فيه عيب ، إلا إذا أخذه بلفظه كله ، أو أخذه فأنسده وقهر فيه عن تقدمه " (٤) .

-
- (١) انظر بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية / ٢٨٥ ، ٢٨٦ .
 (٢) أنظر الحديث عن ظاهرة تأثر ابن القيسراني بالشعر الحماسي ، ولا سيما شعر أبي الطيب ، وأبي تمام في صدى الفزرو المايبي / ١٧٢ ، فقد وجدت أن هذا التأثير ينطبق على شعراء صلاح الدين أيضا .
 (٣) كتاب الصناعتين / ٢١٧ .
 (٤) نفسه / ٢١٨ .

تأثر الشعراء بأبي الطيب المتنبي كثيرا ، كما تقدم ، ومن أمثلة ذلك قول ابن سناء الملك ما دحا صلاح الدين :

يَرَى جَدْرًا لَفِي حَوْسَةِ الْحَرْبِ ضَاحِكًا فَلَا الْقَلْبُ مَنُحُوبٌ وَلَا الْوَجْهُ مُعْبِسُ (١)
فهو ينظر إلى قول أبي الطيب المتنبي :

تَعْرُبُكَ الْأَبْطَالُ كَلَمْسٍ هَزِيمَةً وَوَجْهُكَ وَجَاحٌ وَشَفْرُكَ بِاسِيسُ (٢)

وابتهاج الايمان الذي يأخذ عند الجلياني شكل العرس ، وهزيمة الكفر التي تأخذ عنده شكل النحيب والبكاء في قوله :

وَالْحَقُّ يُعْرِسُ وَالطُّغْيَانُ مَنَحَسِبُ وَالْكَفَرُ يُطَمَسُ ، وَالْإِيْمَانُ مُزْدَهِرُ (٣)

توليد من فكرة أبي الطيب القائلة بأن انتصار سيف الدولة هو انتصار للتوحيد ، وهزيمة للشرك ، حيث يقول :

وَلَمَسَتْ مَلِيكًا هَازِمًا لِنَظْمِيهِ وَلَكِنَّكَ التَّوْحِيدُ لِلشَّرْكِ هَازِمُ (٤)

ويبدو أن الجواني متأثر في قوله :

ظَارَاتُهُ جُمَعٌ فَإِنْ خَطَبْتَ لَكُ فِيهَا السَّيْفُ فَكُلُّ هَامٍ مُنْجَبُ (٥)

بأبي الطيب المتنبي حيث يقول :

مَخْلُقٌ لَهُ الْمَرْجُ مَنُصُوبًا بِمَارِخَةٍ لَهُ الْمَنَاهِرُ ، مَشْهُودًا بِهَا الْجَمْعُ (٦)

(١) ديوان ابن سناء الملك / ١٧٤ .

(٢) ديوان أبي الطيب المتنبي ٣ / ٣٨٧ .

(٣) ديوان المبرشات والقديسيات / ١٣٨ ، كتاب الروضتين : ١١٧ / ٢ .

(٤) ديوان أبي الطيب المتنبي : ٣ / ٣٩١ .

(٥) كتاب الروضتين : ١٠٥ / ٢ .

(٦) ديوان أبي الدايب المتنبي : ٢ / ٢٢٥ .

وفي ميدان الكشف عن نوايا الأعداء ومخططاتهم يتلاقى أبو الفضل الجليلاني مع أبي الطيب المتنبي ، فقد كشف الجليلاني عن مخططات الصليبيين الرامية إلى التوسيع والاستيطان في قوله :

وَقَدْ أَقْطَعَ الْكُنْدُ الْعِرَاقَ مَوْقِعًا فَأُودِعَ سِجْنًا وَسَطَ جَلْقٍ مُؤَصَّدًا
وَأَقْسَمَ أَنْ يَسْقِيَ بِدَجَلَةٍ خَيْلَهُ فَمَا وَرَدَ الْأُرْدُنَ إِلَّا مُصَفَّدًا (١)

ويقول أبو الطيب المتنبي كاشفا عن فشل زعماء الروم في تحقيق الفاية التي كانوا يخططون لها ، وهي قتال المسلمين ، وقد أقسموا برأس ملكهم على ذلك :

أَيُّنَ الْبَطَارِيقُ وَالْحَلْفُ الَّذِي حَلَفُوا بِمُفْرِقِ الْمَلِكِ وَالرَّعْمِ الَّذِي زَعَمُوا (٢)

ويقول سماعة الأعمى مادحا صلاح الدين من قصيدة :

جِبَالٌ عُلَا تَطَاوَمَهَا هِزَابٌ وَأُسْدٌ وَغَى تَوَاتَرُهَا نِشَابٌ
فَتَى لِلْمُعْتَدِينَ بِرِسِّهِ عِقَابٌ كَمَا لِلْمُجْتَدِينَ بِرِسِّهِ شَوَابٌ (٣)

ولعلنا مأخوذ من مطلع قصيدة أبي الطيب المتنبي في سيف الدولة الحمداني ، حيث يقول :

طِوَالُ قَنَا تَطَاعَنُهَا قَمَارُ وَقَطْرُكَ فِي نَدَى وَوَغَى بِخَارُ (٤)

ويلاحظ أن سماعة الأعمى قد قلد المتنبي في وزن القصيدة ، حيث اختار البحر نفسه ، وبهذا سماعة إلى أكثر من ذلك حين قلده بالموسيقى الداخلية لمطلع قصيدته ، فيلاحظ أن سماعة اختار كلمات توافق كلمات المتنبي في مطلع قصيدته في الوزن ، فقد اختار المتنبي كلمة (طوال) واختار سماعة كلمة (جبال) وكذلك (قنا) و (علا)

(١) ديوان المبعثرات والغدسيات / ١٤٠ ، كتاب الروضتين : ١١٢ / ٢ .

(٢) ديوان أبي الطيب المتنبي : ١٦ / ٤ .

(٣) الخريدة - قسم شعراء الشام : ٤٢٦ / ١ .

(٤) ديوان أبي الطيب المتنبي : ١٠٠ / ٢ .

و (تطاعنها) ، و (تطاولها) ، و (قمار) و (هضاب) ، وهذه التبعية تبعية واعية مقصودة مدروسة متعددة ، وليست عفوية كما هو واضح .

وفي مطلع قصيدة فتيان الشاغوري القدسية تأثر واضح بأبي الطيب المتنبي ، حيث بدأ الشاغوري قدسيته متحدثاً عن بناء الممالك الذي لا يكون إلا بالقوة ، يقول :

تَبْنِي الْمَمَالِكُ بِالْوُشَيْحِ الْأَسْـسَرِ وَالْبَيْتُ تُلْعَقُ فِي الْعَجَاجِ الْأَكْـدَرِ (١)

فهو ينظر إلى قول أبي الطيب في مطلع إحدى سبائياته :

أَعْلَى الْمَمَالِكِ مَا يُقْنَى عَلَى الْأَسْـكَلِ وَالطَّعْنُ عِنْدَ مُحِبِّهِمْ كَالْقُبْسِلِ (٢)

وفتيان الشاغوري في قوله :

وَأَسْتَغْظَمَ الْأَخْبَارَ عَنْكَ مَعَاشِرَ :أَسْتَخْفِرُوا مَا اسْتَغْظَمُوا بِالْمَخْـسَرِ (٣)

ينظر إلى قول أبي الطيب المتنبي أيضاً في قصيدته * على قدر أهل العزم تأتي العزائم*... حيث يقول :

وَتَعْظَمُ فِي عَيْنِ الْخَفِيرِ صِفَارُهَا وَتَضَعُ فِي عَيْنِ الْعَظِيمِ الْعِطَائِمُ (٤)

وتأثر الشعراء بأبي تمام أيضاً ، ومن أمثلة ذلك قول ابن الساعاتي :

وَمَا دَاهِيَّةٌ إِلَّا هَـدْيٌ تَرْكِعُ عَنْ أَكْفِ اللَّاسِيئِنَا
حِمَا نِ الدَّيْلِ لَمْ تُغْدِفْ بِسُوءِ وَسَلَّ عَنْهَا اللَّيَالِي وَالسَّيْنِنَا
فَسَمْتُ حَتَّى رَأَتْ كَهْؤاً فَلَا تُسْتِ وَغَايَةُ كُلِّ قَاسٍ أَنْ يَلِينَكُنَا (٥)

(١) ديوان فتيان الشاغوري / ١٤٠ .

(٢) ديوان أبي الطيب المتنبي : ٣٤/٣ .

(٣) ديوان فتيان الشاغوري / ١٤٦ .

(٤) ديوان أبي الطيب المتنبي : ٣٢٩/٣ .

(٥) ديوان ابن الساعاتي : ٤٠٦/٢ ، كتاب الروضتين : ٨٤/٢ ، مفرج الكروب :

فقد صور الشاعر طبرية عروسا بكرا ترفعت عن أكف اللامسين ، ورفضت من يتقدم لخطبتها ، وبقيت كذلك حتى جاءها من هوكدوها وهو السلطان صلاح الدين ، وهي صورة تقليدية منتزعة من قول أبي تمام في قصيدته التي يصور فيها معركة عمورية ، حيث جعل عمورية فتاة بكرا . صدت من تقدم إليها ، إلى أن جاءها كؤوها المعتمم ، يقول :

وَبَرَزَةُ الْوَجْهِ قَدْ أَغْيَتْ رِيَاضَتُهَا كِسْرَى وَصَدَّتْ صَدُودًا عَنْ أَبِي كَرْبِ
مِنْ عَهْدِ اسْكَنْدَرٍ أَوْ قَبْلَ ذَلِكَ قَدْ شَابَتْ نَوَاضِي اللَّيَالِي وَهِيَ لَمْ تَشِبْ
بِكِسْرٍ فَمَا افْتَرَعَتْهَا كَفَّ حَارِثُكَ وَلَا تَرَقَّتْ إِلَيْهَا هِمَّةُ النَّسُوبِ (١)

وتبد و هذه الصورة جلية واضحة في قول تقي الدين عمر حنين حثامه صلاح الدين على أخذ القدس ، يقول :

جَاءَتْكَ أَرْضُ الْقُدْسِ تَخْطُبُ نَاكِحًا يَا كَأَاهَا مَا الْعُذْرُ عَنْ عَذَائِهَا
زَفَّتْ إِلَيْكَ عَرُوسٌ خِذْرٌ تَجَلَّسَى مَا بَيْنَ أَعْبُدِهَا وَبَيْنَ إِمَائِهَا
إِيهِ صَلاَحَ الدِّينِ خُذْهَا غَانَةً بَكْرًا مَلُوكُ الْأَرْضِ مِنْ رُقَبَائِهَا
كَمْ خَاطِبٍ لِحِمَالِهَا قَسَدٌ رَدَّ عَنْ نَيْبِهَا أَنْ لَيْسَ مِنْ أَكْثَائِهَا (٢)

ويؤكد فتيان الشاغوري معنى الانتصار على الشرك بقوله :

فَلَقَدْ وَأَدَّتِ الشَّرْكَ يَوْمَ لَقِيَتْهُمْ وَغَدَوْتَ لِلْإِسْلَامِ عَيْنَ الْعُنْشِيرِ (٣)

ولعله ينظر فيه إلى قول أبي تمام في مدح المعتمم :

أَلَمْ أَمُورَ الشَّرْكَ شَرًّا مَسَالٍ وَأَقْرَبَ عَدَّ تَخْمِطٍ وَصِيَالٍ (٤)

(١) ديوان أبي تمام / ١٩٠ .

(٢) الخريدة - بداية قسم شعراء الشام / ٨٦ .

(٣) ديوان فتيان الشاغوري / ١٤٣ .

(٤) ديوان أبي تمام / ٢٤٤ .

وتخبط : غضب وتكبر . انظر القاموس المحيط (غلط) .

وفكرة ابن الساعاتي في قوله لما فتح صلاح الدين بيت المقدس :

(١) أَعْيَا وَقَدْ عَايَنْتُمُ الْآيَةَ الْعُظْمَى لَا يَتَرُكُ حَالٌ تَذْخُرُ النَّشْرَ وَالنَّظْمَا

فيها نظرا إلى فكرة أبي تمام في قوله :

(٢) نَتَجُّ الْفَتْحَ تَعَالَى أَنْ يُحِيطَ بِهِ نَظْمٌ مِنَ الشَّعْرِ أَوْ نَثْرٌ مِنَ الْخُطْبِ

وتكذيب ابن سناء الملك للمنجيين وادعاءاتهم في قوله :

(٣) سَعُودُكَ رَدَّتْ مَا ادَّعَاهُ الْمُنْجِسُ وَقَدْ كَذَّبَتْهُ فِي الَّذِي كَانَ يَزْعُمُ

شبيه بمعنى أبي تمام في قوله :

(٤) أَيْنَ الرِّوَايَةُ هَذَا أَيْنَ النُّجُومُ وَمَا مَاغَوْهُ مِنْ زُخْرِفٍ فِيهَا وَمِنْ كَذِبٍ

وربط الجويني بين الفتح القدسي وفتح الأنبياء التي تنزلت فيها الآيات بقوله :

لَوْ أَنَّ ذَا الْفَتْحِ فِي عَصْرِ النَّبِيِّ لَقَدْ تَنَزَّلَتْ فِيهِ آيَاتٌ وَقُرْآنُ (٥)

فهو قريب من قول أبي فراس الحمداني في سيف الدولة :

حَتَّى كَانَ الْوَحْيُ فِيكُمْ مُنْزَلٌ وَلَكُمْ تَخَصُّصٌ فَمَنْ نَزَّلَ الْقُرْآنُ (٦)

وتأثر ابن الشحنة ، المذهب أبو حفص عمر بن محمد الموصلي ببشار بن برد ، فقال

مخادبا صلاح الدين :

وَأَنْتَ امْرُؤٌ أَحْبَبْتُكُمْ لِمَكَارِمِ سَمِعْتُ بِهَا وَالْأَذُنُ كَالْعَيْنِ تَعْفَقُ (٧)

- (١) ديوان ابن الساعاتي : ٢ / ٣٨٥ ، كتاب الروضتين : ٢ / ١٠٦ ، مخرج الكروب : ٢ / ١٣٤ .
 (٢) ديوان أبي تمام : ١٨ .
 (٣) ديوان ابن سناء الملك : ٢٩١ .
 (٤) ديوان أبي تمام : ١٨ .
 (٥) كتاب الروضتين : ٢ / ١٠٥ .
 (٦) ديوان أبي فراس : ٣٠٥ .
 (٧) وفيات الأعيان : ٧ / ٢١١ .

فهو مأخوذ من قول بشار بن برد :

يا قوم أنزني لبعض الحي عارقة
والأذن تعشق قبل العين أحياناً (١)

وهذا عرقة الكلب يبد وتتأثر بأبي نواس ، فقد استوحى قصة لقاءه بصلاح الدين في مصر ، ومدحه هناك ، من قصة أبي نواس لما ذهب إلى مصر ، ومدح بها الخصيب ، يقول :

الحمد لله السميع المجيب
يا ساكني أكناف مصر ، أنسا
قد هلك الشرك وضل الطريق
أبو نواس والصلاح الخصيب (٢)

ويقول أبو نواس مخاطباً أهل مصر :

فإن يك فيكم إفك فزعون باقيماً
فإن عصا موسى بكف خصيباً (٣)

وقد عرض الشعراء صورة للجيش متأثرة إلى حد بعيد بالصورة التي رسمها أسلافهم الشعراء ، فالجيش عندهم ترافقه أسراب الطير لتأخذ نسيبها من جثث الأعداء ، ومن أشاعة ذلك قول الشاغوري :

خيمت له الرايات ظلً وفوقه
من الطير ظل يحجب الشمس سارلاً (٤)

وقول ابن الدهان الموصلي :

والطير من شقة بأكل مشبع
تبعته جيوشك فوق غاب مسبيع (٥)

فالشاعران متأثران بالصورة التي رسمها النابغة الذبياني للجيش ، فهي صورة مألوفة منذ الجاهلية ، يقول النابغة :

-
- (١) ديوان بشار بن برد : ٢١٧/٤ ، وفيات الأعيان : ٢١١/٧ .
(٢) ديوان عرقة / ١٣ ، الخريدة ، قسم شعراء الشام : ١٧٩/١ .
(٣) ديوان أبي فراس / ٣٧١ ، وشرح الديوان / ١٤٥ ، وفيات الأعيان : ٩٦/٢ .
(٤) ديوان فتيان الشاغوري / ٣١٧ .
(٥) ديوان ابن الدهان / ٣٣ ، البرق الشامي : ٢٢/٥ .

إِذَا مَا غَزَوْا بِالْجَيْشِ حَلَقَ فَوْقَهُمْ
عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ (١)

والناظر في بيت فتيان الشاغوري يرى اتكاء الشاعر على صورة النابغة ، إلا أنه
يضيف بعض العناصر إليها ، فيخرجها اخراجا جديدا ، كإضافة ظل الرايات فسوق
الجيش ، والشمس التي حُجِبَتْ بسبب تلك الطيور ، كما أضاف ابن الدهان " الغاب المسبح " .
ويرسم سعادة الأعي صورة تقليدية أخرى لجيش صلاح الدين ، فالجنود عندما
يصدرون إلى الحرب يخيلهم يشيرون فوقهم سما من النقب ، أو سحب تلمع في أحضانها
بروق من النصر ، يقول :

عَرَمَتْ كَالدَّهَى الْبَلْبَارُ مَنَتَشِيرُ
تَحْصَى الرَّمَالُ وَلَا يُحْصَى لَهُ عَسَدُ
تَسْمُو عَلَيْهِ سَمَا مِنْ عَجَاجَتِيسِهِ
مَبْنِيَّةٌ مِنْ قَنَاةٍ تَحْتَهَا عُسْدُ (٢)

ويقول :

إِذَا جَحَافِلُهُ أَشْرَنَ سَحَابُهَا
لَمَعَتْ بِرُوقِ النَّسْرِ نِي أَحْضَانِهَا (٣)

ويقول العماد الأصفهاني في مطلع طائيته معارضا طائفة المعري (٤) :

عَفَا اللَّهُ عَنْكُمْ ، مَا لَكُمْ أَيُّهَا الرَّهْطُ
قَسَطُكُمْ ، وَمِنْ قَلْبِ الْمُحِبِّ لَكُمْ قَسِطُ (٥)

ومطلع طائفة المعري :

لِمَنْ جَنِيَّةٌ سَيَمُوتُ النَّوَالُ فَلَمْ يُنْطُوا
يَهْلِكُ لَهُمْ مَا ظَلَّ يُنْبِتُهُ الْخَطُّ (٦)

ويستشهد العماد الأصفهاني بأول شطر من مطلع قصيدة المعري المذكورة ، فيختتم
به طائيته ، يقول مخاطبا صلاح الدين :

وَأَنْتَ كُنْتَ جَاراً لِلْمَعْرِيِّ لَمْ يَقْضِ
لِمَنْ جَنِيَّةٌ سَيَمُوتُ النَّوَالُ فَلَمْ يُنْطُوا (٧)

(١) ديوان النابغة / ٤٦ .

(٢) الخريدة ، قسم شعرا " الشام " : ٤١٤ / ١ .

(٣) نفسه : ٤٠٩ / ١ .

(٤) انظر كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٦٣٢ .

(٥) ديوان العماد / ٣٧٦ ، الخريدة ، قسم شعرا " مصر " ، ٢٥ / ١ ، كتاب الروضتين :

ج ١ ق ٢ / ٦٣٢ .

(٦) ديوان سقط الزند / ١٧٢ ، وشرح سقط الزند / ١٦٠٦ .

(٧) ديوان العماد الأصفهاني / ٢٨٤ ، الخريدة - قسم شعرا " مصر " : ٣١ / ١ .

وعنى شعراء صلاح الدين بالمنفعة البدعية كغيرهم من شعراء العصر ، وقد لقيت الصناعة البدعية في الأدب العربي عامة استحسانا عند كثير من النقاد والأدباء (١) ، إلا أنهم قد وضعوا لهذه الصناعة حدودا وحواجز ، فهري أبو هلال العسكري " أن هذا النوع من الكلام إذا سلم من التكلف ، وهري من العيوب ، كان غاية الحسن ، ونهاية الجود " (٢) .

وهري ابن رشيق ما يراه أبو هلال العسكري من عدم التكلف في التصنيع ، فاهيئت عنده " إذا وقع مطبوعا في غاية الجودة ، ثم وقع في معناه بيت مصنوع في نهاية الحسن لم تؤثر فيه الكلفة ، ولا ظهر عليه التحمل ، كان المصنوع أفضلها " ، وعنده أنه إذا توالى البديع وكثر " لم يجز البتة أن يكون طبعا واتفاقا ، إذ ليس ذلك من طباع البشر " (٣) ، فالاعتدال في استخدام المحسنات البدعية مستحسن .

والى مثل هذا يذهب ابن الأثير ، فهو يرى أن النون البدعية تحسن في الكلام إذا كانت قليلة مطبوعة جارية " مجرى الفرة من الوجه " ، أو كانت " كالطرار من الثوب " ، وهي إذا كثرت لا تكون مرضية لما فيها من " إمارات الكلفة " ، والكلفة عنده " وحشة تذهب برونق المنعمة " (٤) .

ويذهب النقاد إلى أن الألوان البدعية تكون مقبولة ، ومطلوبة مفضلة إذا كان المعنى هو الذي استدعاها وساقها نحوه . (٥)

-
- (١) أنظر على سبيل المثال : التلخيص في علوم البلاغة / ٣٤٧ ، أحكام صنعة الكلام / ١٢٠ .
 - (٢) كتاب الصنائع / ٢٩٤ .
 - (٣) العمدة : ١ / ١٣١ .
 - (٤) المثل السائر : ١ / ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٣٣٨ ، ٣٦٧ ، الجامع الكبير / ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ .
 - (٥) أنظر أسرار البلاغة / ١٠ ، ١٣ ، دلائل الإعجاز / ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، المشعل السائر : ١ / ٢٧٩ ، التلخيص / ٣٤٧ .

وإذا ما نظرنا إلى هذه الألوان عند شعراء صلاح الدين نجد أنها كانت أقسل شيوعاً في شعرهم الجهادي الذي نجد فيه بطولية صلاح الدين ، لاسيما القصائد القدسيات ، باستثناء بعض القصائد التي نجد فيها الإسراف في استخدام تلك الفنون ، والتكلف وطغيان الألفاظ على المعاني ، بيد وذلك جلياً في أشعار العماد الأصفهاني ، وبعض مدبجات عبد المنعم الجلياني .

ومن الشعراء الذين مالوا إلى السهولة والوضوح والاعتدال في استخدام المحسنات البديعية ، أسامة بن منقذ ، وفتيان الشاغوري ، وابن الدهان الموصلي .

ولتوضيح ما تقدم نورد بعض الأمثلة على استخدام بعض الفنون البديعية التي شاعت في قصائد الشعراء ، كالجناس ، والطباق ، والمقابلة ، والتمريع ، وغير ذلك ...

ومن أمثلة استخدام الشعراء للجناس والطباق ، قول فتیان الشاغوري مادحاً صلاح الدين :

هُوَ الْمَلِكُ عِنْدَ السَّلَامِ حُلُوْ مَذَاقُهُ	وَإِكْنُهُ فِي حَرْمَةِ الْحَرْبِ بِاسِرِ سِلْ
جَحَافِلُهُ أَسَدٌ تَزَارُ فِي الْوُغَى	وَمَا غَيَّابُهَا إِلَّا الْقَنَا وَالْقَنَابِلُ (١)

فنجد الطباق في البيت الأول بين " السلام والحرب " ، ونجد الجناس في البيت الثاني بين " القنا والقنابل " ، وملاحظ أن البديع دون تكلف ، وغير ثقل على السمع .

ونورد الجناس والطباق في قول أسامة ، مخاطباً صلاح الدين :

وَبَذَلْتُ أَمْوَالَ الْخَزَائِنِ بَعْدَ مَا	هَرَمْتُ وَرَاءَ خَوَاتِمِ الْخُزَّانِ
فِي جَمْعِ كُلِّ مُجَاهِدٍ وَمَجَالِسٍ	وَمُبَارِزٍ وَمُنَازِلِ الْأَقْسَرَانِ
مِنْ كُلِّ مَنْ يَرِدُ الْحُرُوبَ بِأَيْسَرٍ	عَضْبٍ ، وَيَمْدُرُ وَهُوَ أَحْمَرُ قَسَانِ (٢)

(١) ديوان فتیان الشاغوري / ٣١٧ .

(٢) الخريدة ، قسم شعراء الشام : ٥٣٢/١ ، والأبيات غير موجودة في ديوان الشاعر .

ويبدو والجناس والطباق في قول ابن الدهان :

مَلَأَتْ بِلَادَهُمْ * سَهْلًا وَحَزْنًا *
أَسُودَتْ غَابَاتِ الرَّسَاحِ
فَحَلُّوا أَرْضَ نَابُلُسٍ وَفِيهَا *
نُوحٌ * لَيْسَ تَخْلُو مِنْ * نُوحٍ * (١)

ولا يبدو وأي تكلف ، أو تصنع ، أو طغيان للفظ على معنى في المواطن البديعية المذكورة سابقا .

وتبدو روح الاعتدال جليلة في استخدام البديع لاسيما الجناس والطباق في قصيدة لابن الفراء ، مدح بها صلاح الدين : يقول فيها :

رَكِبْتَ إِلَى الْحُرُوبِ جِيَادَ عَزَمِ *
مُصَرَّةً عَنِ الرَّأْيِ الْمُضِيِّبِ
تَبَسَّمتِ الْبِلَادُ إِلَيْكَ أَنْسَا *
وَكَانَتْ قَبْلُ مَوْحِشَةَ الْقَطُوبِ
لَقَدْ وَلَّتْ شِمَالُ الشَّرِكِ لَمَّا *
أَنَارَ الدِّينُ مِنْ أَفْئُقِ الْجَنُوبِ

ويقول في امرأ الشام من القصيدة نفسها :

جِيَادُكَ إِنْ طَلَبْتَ الْغَزَا فِيهِمْ *
أَنَاسٌ دَبَّتِ الْأَغْصِلَالُ فِيهِمْ *
وَلَمْ يَذْخَرْكَ نُورُ الدِّيْنِ إِلَّا *
فَخَلَّيْنِ اهْنَأُ بِالسَّيْفِ مِنْهُمْ *
أَهْمُ إِلَيْكَ مِنْ فَزْوِ الثَّلَيبِ *
وَلَيْسَ لَهُمْ كَمْنِيكَ مِنْ طَبِيبِ
فَقَدْ حَبَسُوهُ فِي بَلَدٍ جَدِيبِ *
إِلَى لِقَاكَ مِنْ ضَمِّ الْحَبِيبِ (٢)

يلاحظ أن ابن الفراء لم يستخدم البديع إلا في مواطن محددة .

وأسرف عدد من الشعراء في استخدام المحسنات البديعية ، ونخص بالذكر الطباق والجناس ، ومن أمثلة ذلك قول ابن سناء الملك ، يمدح صلاح الدين من قصيدة :

(١) ديوان ابن الدهان / ٦٦ .

(٢) الخريدة - قسم شعراء الشام : ١ / ٣٠١ ، ٣٠٣ .

هَلْ الْكَرْكُ الشَّكْلَى بِأَوَّلِ دَرْهَا انْتَهَتْ
فَعْدَا بَعْلُهَا الْإِبْرَنْسُ يَلْعَنُ عَرْسَهُ
يَرَى الْخَيْلَ وَالْفُرْسَانَ يَهْشُونَ رَوْحَهُ
وَصَبَحَتْ أُخْرَى مَبْهَتَكَ بِأَهْلِهِ
فَتَابِلَسُ أَلَا أَنْ نَزَلَتْ بِرَبْعِهِ
وَقَدْ سُفِلَتْ عَنْ أَهْلِهَا بِإِسَارِهِ
تَكْبَرُ فِيهَا اللَّهُ فِي الْجَامِعِ السَّيِّدِ
وَصَلَّيْتُ فِيهَا جُمُعَةً بِجَمَاعَتِهِ
فَحَبَّكَ مَرْوُضٌ عَلَى كُلِّ مُسَابِقِهِ
عَنِ النَّسْلِ مِمَّا جَرَعَتْهُ مِنَ الشُّكْلِ
بِهَا وَهِيَ لَا تَنْفَكُ مِنْ لَعْنَةِ الْبَقْلِ
فَيُضْطَرُّ لَا سِتْعَمَالَهُ قَالَةُ الْفُقْلِ
وَسَتَّكَ إِذَا أُمْنَيْتَ وَهِيَ بِلَا أَهْلِ
أَقَامَتْ بِهِمْ حَقَّ الضِّيَافَةِ وَالنُّزْلِ
وَأَنْتَ بِشُكْرِ اللَّهِ فِي أَشْغَلِ الشُّكْلِ
جَمَعْتَ بِهِ بَيْنَ الْفَرْخَةِ وَالنَّاسِلِ
تَنَا دِيكَ لِلْإِسْلَامِ يَا جَامِعَ الشُّكْلِ
وَيُعَامُ هَذَا فَيْكَ بِالْعَقْلِ وَالنَّقْلِ (١)

نرى أن الشاعر اهتم اهتماماً بالغا في الجنس لا سيما جناس الاشتقاق ، ويلاحظ
كثرة التجنيس الحرفي أيما في أبيات ابن سناء ، هذا التجنيس الذي يهتم " بالعشاكسة
الصوتية ، مثله في تكرار حرف معين في كلمات البيت الواحد ،

ومن الجدير بالقول إن ابن سناء المالك قد تأثر باستاذة القاضي الفاضل السدي
اشتهر بهذه الصنعة .

ويبدو هذا الاسراف في استخدام الهمد في قصيدة لسعادة الأعمى ، منها قوله :
صَهْبَاءُ مَرْجُومَةٌ بِالْمِنْكَ أَوْ بِشَيْءٍ
الْقَائِدِ الْخَيْلُ تَهْوِي فِي أَعْنَتِهَا
وَاللَّيْلُ مِنْ رَهَجٍ وَالصُّبْحُ فِي قَضْبٍ
وَالشَّمْسُ شَمْعُ الضُّحَى فِي النَّقْعِ آتِلَةٌ
كَالْغَيْثِ وَالْمَائِثِ ، هَذَا مِنْهُ فِي كَحْلٍ
نَزَّكَرَ ابْنُ شَانِي " صِلَاحِ الدِّينِ وَالْأَوَّلِ
مِثْلُ الْأَجَارِلِ وَالْأَبْطَالِ فِي جَعْدَلِ
وَالْبَحْرُ مِنْ مُهْجٍ وَالْبَرْقُ مِنْ قَلْبِلِ
وَشَمْسُ هَيْتِهِ الْفَرَاءُ لَمْ تَفْرِسِلِ
عِنْدَ الْعَطَاءِ ، وَهَذَا مِنْهُ فِي وَجَسِلِ (٢)

(١) ديوان ابن سناء المالك / ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ .

(٢) الخريدة - قسم شعراء الشام : ١ / ٤٢١ .

ومن الشعراء الذين أغرقوا في استخدام الغنون البديعية العماد الأصمهاني ،
فما تكاد تخلو قصيدة من قصائده من هذه الصنعة ، فقد كان مفرما بها حتى بيدها
التكلف واضحاً جلياً عنده .

ومن المعروف أن العماد الأصمهاني كان يلتزم الصنعة حتى في نشره ، وخير ما
يمثل هذا كتابه المشهور " الفتح القسي في الفتح القدسي " .

ولم تمنع الأحداث الجسيمة العماد الأصمهاني من أن يستخدم الغنون البديعية
باسراف في قصائده ، ولعل أوضح دليل على ذلك قصيدته التي أنشأها في رثاء صلاح
الدين ، فعلى الرغم من تأثير العماد الأصمهاني ، وحزنه الشديد على وفاة بطله وصديقه الذي
لازمه زمناً طويلاً ، يرحل برحيله ، وينزل بنزواه ، والذي أحبه حباً شديداً ، إلا أنه أقرب في
استخدام البديع في تلك القصيدة ، فمن ذلك قوله :

أَيْنَ الَّذِي مَدَّ لَمْ يَزَلْ مَخْشِيَةً	مَرْجُوةً رَهْبَانَةً وَهَبَانَةً
مَنْ فِي الْجِهَادِ صِفَاحُهُ مَا أُغْبِدَتْ	بِالنَّصْرِ حَتَّى أُغْبِدَتْ مَفْحَاتُهُ
لَذَّ الْمُتَاعِبِ فِي الْجِهَادِ وَلَمْ تَكُنْ	مُدَّ عَاشٍ قَطْلَ لِدَائِهِ لَذَّاتُهُ
الَّذِينَ بَعْدَ أَبِي الطُّغْطُّغِ يُوسِفِي	أَقْوَتْ قُرَاهُ ، وَأَقْفَرَتْ سَاحَاتُهُ
جَبَلٌ تَضَعُ مِصْرَ بَيْنَ تَضَعُ رُكْنِيهِ	أَرْكَانُنَا ، وَتَهْدُنَا هِدَاتُهُ
مَا كُنْتُ أَطَامُ أَنَّ طَرْدًا شَامِخًا	يَهْوِي وَلَا تَهْوِي بِنَا مِهْوَاتُهُ
لَضَرْبِهِ سَغَا السَّحَابُ فَإِنْ يَغِيبُ	تَحْضُرُ لِرُخْمَةِ رِثْمِ سَقْيَانَتُهُ (١)

وهذا تاج الدين الكندي يُثقل أبياته في استخدام الجناس حتى طغى اللفظ
على المعنى ، يقول لما أُعْذِمَ عِمَارَةُ الْيَمَنِ :

عِمَارَةُ فِي الْإِسْلَامِ أَبْدَى خِيَانَةً	وَيَا بَيْعَ فِتْنِهَا بَيْعَةً وَصَلِيَّةً
وَأَسَى شَرِيكَ الشُّرُكِ فِي بُغْضِ أَحْمَدٍ	فَأَصْبَحَ فِي حُبِّ الصَّلَاحِ مَلِيَّةً
وَكَانَ خَبِيثَ الْمُلْتَقَى إِنْ عَجِمْتُهُ	تَجِدُ مِنْهُ عَوْدًا فِي النِّقَاقِ مَلِيَّةً
سَيَلَقَى غَدًا مَا كَانَ يَسْعَى لِأَجَابِهِ	وَيُسْقَى صَدِيدًا فِي لَطْفٍ وَصَلِيَّةً (٢)

(١) ديوان العماد الأصمهاني / ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ .

(٢) كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٥٦٦ . أبو اليمن تاج الدين : حياته وما تبقى من شعره /

"الشماع الأول : النصارى ، والثاني بمعنى مصلوب ، والثالث من الصلاه ، والرابع وذلك العظام ، وقيل هو الحديد ، أي يسقى ما يسيل من أهل النار " (١) .

نستنتج من الأمثلة السابقة أن بعض الشعراء الذين مدحوا صلاح الدين أو قالوا شعرا له علاقة به ، كانوا معتدلين في استخدامهم للبديع ، وأن بعضهم كان مغاليناً مبالغاً في هذا الاستخدام ، فجاء شعرهم متكلفاً ، يميل إلى التعقيد اللفظي ، وإيقاع السامع في المشاكلة الحرفية .

ومن الجدير بالقول إن معظم شعراء صلاح الدين لم يستخدموا البديع في شعرهم القدسي ، إلا في مواطن قليلة ، ولذلك لم يظهر فيه التكلف أو التمنع .

ولتوضيح ذلك نورد بعض الأشعار القدسية لشعراء متعددين ، فهذا الجويني لم يمتن بالبديع في قدسيته " جُنْدُ السَّمَاءِ لِهَذَا الْمَلِكِ أَغْوَانُ . . . " ، إلا في بعض المواطن ، فقد استخدم الجناس بين " الصَّيْدِ وَالْمَيْدِ " في قوله :

أَنْصَحْتُ مَأْوِكَ الْفَرَنْجِ الصَّيْدُ فِي يَمِينِهِ صَيْدًا وَمَا ضَعْنُوا يَوْمًا وَمَا هَانُوا (٢)

واستخدم الطباق بين " سِنَّةٌ وَمَقْطَانٌ " ، كما استخدم الجناس بين سِنَّةٌ وَسِنَّةٌ في قوله :

وَهَذِهِ سِنَّةٌ أَكْرَمَ بِهَا سَنَسُنَّةٌ فَالْكَثْرُ فِي سِنَّةٍ وَالنَّصْرُ يَقْطُرُ (٣)

وكذلك فعل الجواني في قدسيته " أَثَرِي مَنَامًا مَا بِفَيْئِي أَبْصُرُ . . . " .

فقد استخدم جناس الاشتقاق في قوله :

وَقَمَامَةٌ قُمْتُ مِنَ الرَّجْسِ الَّذِي بِزَوَالِهِ وَزَوَالِهَا يَتَطَهَّرُ

-
- (١) كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٥٦٦ .
 (٢) كتاب الروضتين : ١٠٥ / ٢ ، والصَّيْدُ الأَوَّلَى بمعنى المرض ، انظر المحيط (ص ١٠٥)
 (٣) كتاب الروضتين : ١٠٥ / ٢ .

واستخدم الطباقي في قوله :

نَشْرُ وَنَظْمٌ طَاعْنُهُ وَضَرَابُهُ فَالرَّمَحُ يَنْظُرُ وَالصَّهْنُ يَنْشُرُ (١)

ومثل هذا القصيدة القدسية لابن الجاور التي مطلعها " الوقت أهيق من سماع قصيدة ... " ، فلم يستخدم فيها الجناس إلا قليلا ، واستخدم الطباقي في أبيات معدودة . (٢)

وعرف عن ابن الساعاتي ولعمري باستخدام المحسنات البديعية (٣) ، إلا أنه في شعره القدسي لا بيد و متكلفا أو متعمدا ، فلم يثقل بها ، يقول في قصيدته في الفتح القدسي :

أَعْيَا وَقَدْ عَايَنْتُمُ الْآتِيَةَ الْعَظْمَى لَأَيَّةٍ حَالٍ تَذْخَرُ النَّشْرَ وَالنَّظْمَا
تَجَاوَزَتْ مَا أَعْيَا الْجِبَالَ مَنَالُهُ فَمَهْلِكُ يَقْظَةٍ كَانَتْ مَلْعِنَتِكَ أَوْ حُلْمَا
نَصَبْتُ عَلَى الْأَعْدَاءِ رَأْيَا وَرَأْيَسَةً يَغِيدُ انْهِمُ مِنْ بَعْدِ رَفْعِهِمُ الْجَزْمَا (٤)

فيلاحظ من خلال هذه الأبيات أن الشاعر استخدم الطباقي في البيت الأول بين " نشر ونظم " ، وفي البيت الثاني بين " يقظة وحلم " ، واستخدم الجناس بين " رأيا ورأية " ، وعلى هذا فإنه لم يكثر من المحسنات البديعية كما هو معروف عنه في قصائده الأخرى ، ويبدو ههنا الاعتماد عن الغلو في قصيدته المذكورة جميعها .

وثمة شعراء آخرون لهم قدسيات طوال نهجوا فيها نهج شعراء القدسيين الذين مر ذكرهم ، فلم يتكلفوا استخدام المنعة ، ولا سيما الطباقي والجناس ، ولا يتسع المجال لاستقصاء قصائد جميعا ، نذكر منهم : الرشيد بن بدر النابلسي في قصيدته التي مطلعها " هذا الذي كانت الآمال تنتظر ... " (٥) ، وفتيان الشافوري في قصيدته

(١) كتاب الروضتين : ١٠٥ / ٢ .

(٢) أنظر المصدر نفسه : ١٠٣ / ٢ ، ١٠٤ .

(٣) أنظر مقدمة ديوان ابن الساعاتي / ٣٣ ، ٣٤ - ٣٦ .

(٤) ديوان ابن الساعاتي : ٢ / ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ .

(٥) أنظر كتاب الروضتين : ١١٨ / ٢ .

التي مطلعها : " تبني الممالك بالوشيج الأسمر . . . " (١) ، وابن سناء الملك في قصيدته التي مطلعها : " لست أدرى بأى فتح تهنى . . . " (٢) .

أما قصائد العماد القدسية ، فقد تكلف فيها أيما تكلف ، وقد سعى حقاً وراء الصنعة متخذاً كل سبيل للوصول إليها ، كما يبدو في قوله في قدسيته التي مطلعها : " أطيب بأناس تطيب لكم نفساً . . . " ، قال يصف العدو والصليبي بعد هزيمته :

وَطَهَّرْتَهُ مِنْ رَجْسِهِمْ بِدِمَائِهِمْ	فَأَنْ هَبْتَ بِالرَّجْسِ الَّذِي ذَهَبَ الرَّجْسُ
سَحَبْتَ عَلَى الْأَرْضِ زَنْدًا مِنَ الْقَنَا	رَدِينَةً مُلْدَأَ وَخَطِيئَةً مُلْسَا
أَتَوْا شُكْسَ الْأَخْلَاقِ خُشْنًا فَلَيْهَنَتْ	حُدُودَ الرَّقَاقِ الْخُشْنِ أَخْلَاقَهَا الشُّكْسَا
طَرَدَتْهُمْ فِي الْمُلْتَقَى وَعَكَسَتْهُمْ	مُجِيداً بِحُكْمِ الْعِزْمِ طَرْدَكَ وَالْعَكْسَا
فَكَيْفَ مَكْنَتْ الْمُشْرِكِينَ رُؤُوسَهُمْ	وَدَأْيَكَ فِي الْإِحْسَانِ أَنْ تُطْلِقَ الْمَكْسَا
تَقَارُ بِدَأْمَاءِ الدَّمَاءِ مُلُوكُهُمْ	أَسَارَى كُنُفَنِ الْيَمِّ نَطَّتْ بِهَا الْقَلْسَا
كُرَّكَ يَيْسَا رَأْسُ الْبِرْتَسِ الَّذِي بِهِ	تَنْدَى حُسَامٌ حَاسِمٌ ذَلِكَ الْيَيْسَا
حَسَا دَمُهُ مَاضِي الْفِرَارِ لِفُجْدَرِهِ	وَمَا كَانَ لَوْلَا غَدْرُهُ دَمُهُ يُحَسَّسَا (٣)

فقد بدا الجناس في هذه الأبيات جلياً واضحاً ، لاسيما جناس الاشتقاق والتجنيس الحرفي الذي مر ذكره ، فما يكاد يخلو بيت من أبيات العماد هذه من تكرار حرفي السين والشين ، وهذا يبدو إلى القول بتكلف العماد واصطناعه .

أما عبد المنعم الجلياني فقد أنشأ قدسيات عديدة ، ذكر أبو شامة أنه وقف على بعضها ، وقد وصفها العماد بأنها " قصائد طوال كثيرة الفوائد " (٤) ، منها القدسية الثائية (٥) ، والقدسية الكبرى (٦) ، والقدسية الفتحية الناصرية (٧) ، وهذه القصائد الثلاث لم يستخدم الشاعر المحسنات البديعة فيها إلا في مواطن قليلة ، وقد جاء استخدامه لها غفولاً (٨) .

- (١) أنظر ديوان فتیان الشاغوري / ١٤٠ - ١٤٨ .
- (٢) ديوان ابن سناء الملك / ٣٤٠ - ٣٤٣ .
- (٣) ديوان العماد الأصفهاني / ٣٣٥ ، كتاب الروضتين : ٨٣/٢ .
- (٤) أنظر كتاب الروضتين : ١١٥/٢ .
- (٥) أنظر نفسه : ١٠٣/٢ ، ١١٢ ، ١١٨ .
- (٦) أنظر نفسه : ١١٢/٢ ، ١١٨ .
- (٧) أنظر نفسه : ١١٦/٢ ، ١١٢ .
- (٨) أنظر بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية / ٢٩٦ .

أما القصائد القدسية الأخرى فقد استخدم البديع فيها كثيرا حتى بدا التكلف واضحا ، والسعي وراء الصنعة ظاهرا جليا ، ويظهر ذلك في مديحته المسماة " رهسان الأذهان في مدى ذكر الملك الناصر على مر الأزمان " (١) .

واستخدم الشعراء المقابلة في شعرهم ، وهي " إيراد الكلام ثم مقابله بمثله في المعنى واللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة " (٢) ، وهذا النوع من أنواع البديع ورد كثيرا عند الشعراء ، نورد منه بعض الأمثلة ، يقول الرشيد بن بدر النابلسي ، لما أراد وصف ما حل بالأعداء المسلمين :

فَكَمْ نَثَرْتَهُمْ ضَرْبًا إِذَا انْتَضَمُوا وَكَمْ نَطَعْتَهُمْ طَعْنًا إِذَا انْتَشَرُوا (٣)

ويقول سماعة الأعمى محذرا صلاح الدين من أن يففل عن أمراء الشام :

لَا يُغْمِدُكَ مَا حَلُّوا وَمَا عَقَسُوا هُمُ الدِّقَابُ وَأَنْتَ الضَّيْفُ الْأَسَدُ
وَالْقَوْمُ قَدْ قَعَدُوا عَمَّا نَهَضَتْ بِهِ مِنَ السُّدَادِ ، فَلَا قَامُوا وَلَا قَعَدُوا
إِيَّاكَ تَفْعَلُ عَنْهُمْ مِثْلَ مَا غَالُوا إِيَّاكَ تَرْقُدُ عَنْهُمْ مِثْلَ مَا رَقَدُوا (٤)

ويجعل عبد المنعم الجاني كل لفظ في الشطر الأول يقابله لفظ في الشطر الثاني ، وذلك في تشابه تام في البناء وعدد الحروف والايقاع ، صمغيين متضادين لكل كلمتين ، يقول :

وَالْحَقُّ يُعْرِضُ وَالطُّغْيَانُ مُنْتَحِبٌ وَالْكَفَرُ يُطْعَسُ وَالْإِيمَانُ مُزْدَهِرٌ (٥)

(١) انظر ديوان المبررات والقديسات / ١٥٢

(٢) كتاب الصناعات / ٣٧١ .

(٣) كتاب الروضتين : ١٩٤ / ٢ .

(٤) الخريدة ، قسم شعراء الشام : ٤١٢ / ١ .

(٥) ديوان المبررات والقديسات / ١٣٨ ، كتاب الروضتين : ١١٢ / ٢ .

ونرى التقسيم عند شعراء صلاح الدين ، ومن أمثلة ذلك قول أسامة بن منقذ :

وَسِرَتْ سَيِّوَةٌ عَدَلٍ فِي الْأَنْصَامِ كَمَا قَضَى بِمِصْرٍ الْقَانِ : الشَّرْعُ وَالسُّورُ (١)

وقول ابن الدهان :

وَالنَّاسُ بَعْدَكَ فِي الْمَكَارِمِ وَالْعُلَى رَجُلَانِ إِمَّا سَارِقٌ أَوْ مُدْعِي (٢)

وقول سماعة في جيش صلاح الدين :

أَوَسَمْتَ فِرْعَوْنَهُمْ لَمَّا طَفَى غَرْقًا بِزَاخِرِ لُجَّتَاهُ : النَّقْعُ وَالنَّجْدُ (٣)

ومن الفنون البديعية التي وردت عند الشعراء ، التصريح ، وأمثلة ذلك كثيرة في الشعر ، لاسيما في مطالع القصائد ، حيث يجعل الشاعر العروض مقفأة تقية الضرب (٤) ، ومن ذلك قول ابن سناء الملك :

لَسْتُ أَنْ رِي بَأَيِّ فَتْحٍ تُهَنِّكُ يَا مُنِيلَ الْإِسْلَامِ قَدْ تَمَنَّى (٥)

وقول ابن الساعاتي :

جَلَّتْ عَزَمَاتُكَ الْفَتْحِ السُّبِينِ فَقَدْ قَرَّتْ عَيُّونُ الْمُسْلِمِينَ (٦)

وقول الجويني :

جُنْدُ السَّمَاءِ لِهَذَا الْمَلِكِ أَعْرَانُ مَنْ شَكَّ فِيهِمْ فَهَذَا الْفَتْحُ بِرَهْأَنُ (٧)

-
- (١) الخريدة ، قسم شعراء الشام : ٥٤٥ / ١ ، والبيت غير موجود في ديوان الشاعر .
 (٢) ديوان ابن الدهان / ٣٣ .
 (٣) الخريدة ، قسم شعراء الشام : ٤١٣ / ١ .
 (٤) انظر العمدة : ١٧٣ / ١ .
 (٥) ديوان ابن سناء الملك / ٣٤٠ ، مفرج الكروب : ٢٣٤ / ٢ .
 (٦) ديوان ابن الساعاتي : ٤٠٦ / ٢ ، كتاب الروضتين : ٨٤ / ٢ ، مفرج الكروب : ١٩٨ / ٢ ، النجوم الزاهرة : ٣٤ / ٦ .
 (٧) كتاب الروضتين : ١٠٤ / ٢ .

وقول فتيان الشاغوري :

تُبْنَى الْعَالِكُ بِالْوَشِيحِ الْأَسْمَرِ وَالْبَيْضُ تَلَمَعُ فِي الْعَجَاجِ الْأَكْمَدَرِ (١)

وقول العماد الأصهباني :

بِفَتْوحِ عَصْرِكَ يَخْرُ الْإِسْلَامُ وَبِنُورِ نَعْمِكَ تُشْرِقُ الْأَيُّسَامُ (٢)

وهكذا نرى أن الشعراء قد تأثروا بمقاييس العصر الأدبية ، فقد تأثروا بالتراث الإسلامي ، وتأثروا بمن سبقهم من الشعراء السابقين أمثال أبي تمام والمنتبي وأبي فراس الحمداني ، كما أن شعرهم جاء موسوعيا بالفنون البديعية المختلفة ، وقد كانت هذه الفنون تنمّي على شعرهم روعة وجمالا حين كانوا يستخدمونها استخداما معتدلا أو مطبوعا بعيدا عن التكلف والتعقيد ، ففي حين أن بعض الشعراء قد انحرفوا باستخدام هذه الفنون ، لاسيما الجناس والطباق ، فجاء شعرهم متكلفا ، يميل إلى التعقيد والغموض ، مما دعا كثيرا من الباحثين إلى وصف ذلك العصر بعصر المنعة البديعية .

* * *

-
- (١) ديوان فتيان الشاغوري / ١٤٠ .
 (٢) ديوان العماد / ٢٧٧ ،
 مفرج الكروب : ٢٩ / ٢ .
 الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٦٣١ .

الصورة الشعرية

تؤدي الصورة الشعرية دوراً ذات قيمة في التعبير عن الأفكار والمعاني والأحاسيس والتجربة، فهي التي تجسدها وتشخصها، فتصوغها صياغة جديدة مؤثرة تجذب انتباه القارئ أو السامع إليها ليعمل فيها فكره، ويكون تأثيرها فيه بمقدار روعتها وجمالها، وتعبيرها عن المعنى المطلوب.

تعدّ الصورة الأدبية أساس الحسن في الكلام، وهي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالنظم، فلا يظهر حسنها إلا إذا روعي فيها جمال الصياغة والنظم، فمضى حسنت الصورة الأدبية، وحسن النظم. حسن الكلام (١).

ويكن حسن النظم (الرصف) كما يقول أبو هلال العسكري في وضع الألفاظ موضعها، فإذا ما "قدّمت منها مؤخرًا، أو آخرت منها مقدّمًا أفسدت الصورة، وغيّرت المعنى" (٢).

وما من شك أن جمال الصورة الشعرية وروعتها وجودة مخرجها يعود إلى الشاعر نفسه، فالشاعر كما يصوره ابن طباطبا "كالنماذج الحاذق... والنقاش الرفيق... وناظم الجواهر..." (٣).

وللغنون البيانية، من تشبيه، واستعارة، وتمثيل، وكناية، أثر في رسم الصورة الشعرية، وجعل محاسن الكلام يعود إليها، فهي التي تجعل المعنى المجرد، الذي هو من خبايا العقل، مشخّصاً، والجمادات حية ناطقة (٤).

-
- (١) أنظر دلائل الإعجاز/ ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، الصورة الفنية في التراث النقدي / ٢٨١، ٢٨٢، ٢٩٠، أصول النقد الأدبي / ٢٤٤، قضايا النقد الأدبي والبلاغة / ٢٦٦.
 - (٢) كتاب الصناعتين / ١٢٩.
 - (٣) عيار الشعر / ١١.
 - (٤) أسرار البلاغة / ٢٦، ٤١، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي / ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨١.

ويهدف علم البيان إلى " اثبات الغرض المقصود في نفس السامع بالتخييل والتصور ، حتى يكاد يُنظر إليه عياناً " (١) .

مجد الشعراء في قصائدهم صلاح الدين ، ورسموا له صورة مثلى صادقة ، صورة الحاكم والبطل المسلم المجاهد ، والساعي لتوحيد البلاد واسترداد المقدسات من أيدي الأعداء ، وقد ساقهم تصويرهم لهذا البطل إلى تصوير الجيش الذي قسام بأعداءه ، وما يتبعه من أدوات القتال في المعركة ، وإلى تمجيد انتصاراته ، والتغني بمماركه وفتوحاته ، كما صوروا أعداءه بما يتصل بهم من الأسلحة والجيوش والقادة وغير ذلك .

وقد اعتمدوا في تصويرهم لهذه العناصر المتعددة في قصائدهم على التشخيص والتجسيم والوصف ، مستخدمين في ذلك ضروب علم البيان من تشبيه واستعارة وكناية .

ولجأوا إلى الاتكاء على الأساليب التصويرية في شعر أسلافهم من جهة ، كما لجأوا أحياناً إلى ابتكار معنى المصوّر وتوليدها من جهة أخرى ، أو الهاس المصوّر القديمة لبوسسات جديدة ضمن الاطار التصويري الموروث .

ولتوضيح الصورة الشعرية عند شعراء صلاح الدين ، نورد بعض الشواهد على سبيل المثال :

رسم الشعراء للبطل صلاح الدين صورة واضحة المعالم ، وهي متأثرة غالباً بالتراث الشعري الموروث ، فقد صوروه أسداً لاظهار شجاعته ، وهذه صورة تقليدية مألوفة لدى الشعراء من قبل ، يقول عرقلة الكلبي ، مخاطباً صلاح الدين :

إلى كم ذا التواني في دِمَشْقٍ وَقَدْ جَاءَكُمْ مُضَرَّتُهُمْ سَادَى
عُرُوسٌ بَقْلُهَا أَسَدٌ هَضْمُورٌ يَمِيدُ الْمُعْتَدِينَ وَلَنْ يُصَادَا (٢)

- (١) المثل السائر: ١/١١١ ، ٢/١٢٣ ، ١٢٤ ، وانظر العمدة: ١/٢٨٧ ، ٢٥٩ ،
خزانة الأدب / ٥٥٧ ، أنوار الربيع: ١/٢٤٣ ، ابن الأثير / ١٧٨ ، ١٧٩ .
(٢) ديوان عرقلة الكلبي / ٣٢ ، الخريدة - قسم شعراء الشام : ١/١٩٩ ، كِتَاب
الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٣٩٤ .

ويقول الحماد الأصمهاني :

مَلَأَتْ مَهَابَتُهُ الْبِلَادَ ، فَإِنَّسَهُ
أَسَدٌ ، وَإِنَّ بِلَادَهُ غَابَاتُـهُ (١)

ويقول الجويني :

الْهَمَامُ الْفَضْلُ الْمَلِكُ النَّـ
صِرُ مَوْلَى الْوَرَى صَلَاحُ الدِّينِ (٢)

وقد أضاف الشعراء إلى هذه الصورة صورة أخرى لاظهار شجاعته وقوته وعزمه ، فهو القانص الذي جعل أعداءه في يده ، كأنهم سرب من الطير ، كما يبدو في قول
عبد المنعم الجلياني :

أَهْوَى إِلَهُهُمْ صَلَاحُ الدِّينِ مُنْتَرِسًا
وَهُوَ الْفَضْلُ أَعْدَى طُفْرَةِ الطَّفَرِ
أَمَلَى عَلَيْهِمْ فَصَارُوا وَسْطَ كَتَبِهِ
كَسِرْبِ طَيْرٍ حَوَاهَا الْقَانِصُ الذَّكَرُ (٣)

ويقول الجويني :

أَضْحَتْ مَلُوكُ الْفَرَنْجِ الصَّيْدُ فِي يَدِهِ
صَيْدًا ، وَمَا ضَعُفُوا يَوْمًا وَمَا هَانُوا (٤)

وشبه الشعراء صلاح الدين بالسيف أيضا للدلالة على القوة والشجاعة ، فهو يمثل
القوة التي يعتمد عليها أمير المؤمنين العباسي في بغداد ، كما يبدو في قول ابن التعاويذي
سَيِّفُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ السَّـ
لِوَاؤُهُ بِالنَّصْرِ مَعْقُودُ (٥)

وهذا عبد المنعم الجلياني يشبه صلاح الدين بالسيف ، يقول :

سَيِّفٌ أَمَامَ فَلِسْطِينَ بَرَى أَمَمًا
خَلْفَ الْبَحَارِ لَقَدْ أَمَّهَا صَيْقَالُ (٦)

-
- (١) ديوان الحماد الأصمهاني / ٩٠ ، كتاب الروضتين : ٢١٦/٢ .
(٢) البرق الشامي : ١٧٢/٣ ، كتاب الروضتين : ٩/٢ .
(٣) ديوان المبرشات والقديسيات / ١٣٨ ، كتاب الروضتين : ١١٦/٢ ، ١١٧ .
(٤) كتاب الروضتين : ١٠٥/٢ .
(٥) ديوان ابن التعاويذي / ١٠٩ .
(٦) ديوان المبرشات والقديسيات / ١٤٦ ، كتاب الروضتين : ١٥١/٢ .

ومن الصور المتصلة بقوة صلاح الدين الصورة التي رسمها له الجواني ، فقد صور طعنه بالرمح نظماً ، وقطعه للرووس بالسيف نشرًا ، وهذا خضعت له رقاب الأعداء ، وخشعت عيونهم ، وتعفرت جباههم بالتراب ، كما أنه صور غاراته بالصاوات أيام الجمع ، وصور السيوف خطباء فوق هامات الأعداء ، وقد اتخذت منها منابر ، كما يبدو في قوله :

نَشْرٌ وَنَظْمٌ طَعْنُهُ وَضِرَابُهُ الرَّمْحُ يَنْظِمُ وَالْمُهَنْدُ يَنْشُرُ
حَيْثُ الرِّقَابُ خَوَاضِعٌ حَيْثُ الْعُيُ نُ خَوَاشِعُ حَيْثُ الْجِبَاهُ تَعْفُرُ
غَارَاتُهُ جُمُوعٌ فَإِنْ خُطِبَتْ لَكُ فِيهَا السُّيُوفُ فَكُلُّ هَامٍ مِنْسُكِرُ (١)

وهذه أيضا صورة تقليدية تأثر الجواني فيها بأبي الطيب المتنبي :

وصور العمد الأصهباني صلاح الدين بحرا لعطائه وجوده ، يقول في قصيدته التي رثاه بها :

مَا كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ بَحْرًا طَامِيًا فِيمَا يُطَمُّ وَتَنْتَهِي زَخَرَاتُهُ
بَحْرٌ خَلَا مِنْ وَارِدِيهِ وَأَمْ تَسْرَلُ مَحْفُوفَةٌ بِوُفُودِهِ حَافَاتُهُ (٢)

أما الرشيد بن بدر الفايهسي فلم يشبّه بالبحر أو بالسحاب على عادة الشعراء لظاهر جوده ، بل كنى عن هذه الصفة فجعل " الجود في كفه سبعة أبحر " ، يقول :

أَلَيْمَ بَدَارِ النَّاصِرِ الْمَلِكِ الَّذِي فِي كَفِّهِ لِلْجُودِ سَبْعَةُ أَبْحُرِ (٣)

وجعل فتیان الشاغوري بنان صلاح الدين أنهرًا كناية عن العطاء ، يقول :

تَنْهَلُ يَنْبَسَاهُ بِجَدْوَاهُ فَخَسُّ بَنَانِهِ الْخَلْأَقُ خَمْسَةُ أَنْهَرِ (٤)

-
- (١) كتاب الروضتين : ١٠٥ / ٢ .
(٢) ديوان العمد الأصهباني / ٨٨ ، كتاب الروضتين : ٢١٥ / ٢ .
(٣) كتاب الروضتين : ١١٨ / ٢ .
(٤) ديوان فتیان الشاغوري / ١٤٢ .

ويشبه عرقلة الكلبى المال بالما يسيل متدفقا من كف صلاح الدين حينما يطلبه
السائل ، وذلك اظهار لجوده وعطاءه ، يقول :

كَأَنَّ الْمَالَ فِي كَيْسِهِ مَسَاءٌ إِذَا مَا السَّائِلُ اسْتَشْقَاهُ سَنَالاً (١)

ويجمع ابن الدهان بين شجاعة صلاح الدين وكرمه بطريقة بيانية جميلة ، فيشبهه
صلاح الدين بالفيث والسيل في العطاء ، ويشبهه بالليث في الشجاعة ، والسيف في القوة
وافناء الأعداء ، يقول :

كَرِهَ عَلَى الْمَافِيثِ كَأَفْيِثٍ مُسْبِلًا شَدِيدٌ عَلَى الْعَادِيْنَ كَاللَّيْثِ مُشْبِلًا
وَسَيْلٌ إِذَا مَا الْمَالُ أَقْنَسَ فَأَجْزَلًا وَسَيْفٌ إِذَا مَا سَأَلَ أَقْنَى وَقَلَّ سَلًا (٢)

وصور الشاغوري صلاح الدين صاحب رأى سديد ، فجعل رأيه كضوء الشمس الذي يبدد
غياهب الظلام ، نبيلاً المكان نورا وضيا ، يقول :

وَرَأْيِي كَضَوْءِ الشَّمْسِ نُورًا إِذَا انْجَبَى لِيَخْطُبَ جَلَالُهَا مِنَ الشَّكِّ أَلْيَسًا (٣)

وصور العماد صلاح الدين عفواً ، وغفوه ورد يجنيه الجنة ، وسيوفه أشواك تـفـعل
في الأعداء فعلها ، يقول :

وَعَفْوُكَ وَرَدٌ وَالْجَنَّةُ جَنَاتُكَ وَبَيْضُكَ شَوْكٌ فِي الْعِدَاةِ لَهَا خَرْطٌ (٤)

وصوره الشاغوري حليماً متسامحاً ، ويشبهه هاتين الخصلتين فيه بالمسك الذي تـضـوع
أريجـه ، يقول :

وَالْحِلْمُ وَالْعَفْوُ اللَّذَيْنِ شَذَاهُمَا مَتَخَوَّعٌ كَأَرْجِحِ بِسُكِّ أَذْنُفٍ رَـرٍ (٥)

(١) ديوان عرقلة الكلبى / ٨٤ .

(٢) ديوان ابن الدهان / ٣٩ .

(٣) ديوان الشاغوري / ٤١ .

(٤) ديوان العماد الأصفهاني / ٢٨١ ، الخريدة - قسم شعراء مصر : ٢٩ / ١ .

(٥) ديوان فتيان الشاغوري / ١٤٠ .

وهكذا نرى أن الشعراء صوروا بعض صفات صلاح الدين كالشجاعة ، والكرم ، والعفو . . . ، وهي صور شاعت في التراث الشعري منذ القدم في الغالب ، وجعلوها ملموسة ، مما يجعل الكلام أكثر حسنا وجمالا .

وصور الشعراء صلاح الدين صوراً أخرى ، فهذا الجليلاني يسمّره ملكاً يحنو على الخلق ، ولذا فهو جدير بالملك ، وحرى به ، وحق به من غيره ، كما يبدو في قوله :

وَمَنْ أَحَقُّ بِمَلِكٍ إِلَّا رِضٌ مِنْ مَلِكٍ
كَأَنَّهُ مَأْكُوفٌ فِي الْخَلْقِ حَنْتَانُ (١)

وذا ابن سعدان الحلبي يدعو صلاح الدين إلى تحمل المصاعب والمشاق في سبيل الوصول إلى هدفه الأسمى ، وهو تحرير البلاد من أيدي أعدائه مستخدماً صورة من واقسع حياة الناس ، فطاب العسل لا بد من أن يتحمل لسعات النحل من أجل الوصول إليه ، يقول :

حَسْبُ الْعِدَا يَا صلاحَ الدِّينِ حَسْبُهُمْ
وَهَلْ يَخَافُ لِسَانَ النَّحْلِ مُتَتَبِعُ
أَنْ يُعْرِفُوكَ بِجُحِّ غَيْرِ مُنْذُ مَسَلِ
مَرَّتْ عَلَى أَصْبَعَيْهِ لَذَّةُ الْعَسَلِ (٢)

وفي مجال العلاقات القائمة بين صلاح الدين والخلافة العباسية ، يصور ابن الدهان الموالي الخلافة بالمقلّة ، ويصور صلاح الدين سوادها ومخبرها ، ليبيّن قوة العلاقة التي تربط الطرفين ، كما يبدو في قوله :

بَعَثَ الْإِمَامُ إِلَيْكَ الشَّعَارَ مُصَلِّوًّا
وَأَرَاهُمْ أَنَّ الْخِلاَفَةَ مُقْلَسَةٌ
لِلنَّاسِ أَنْتَ فِي الضَّمِيرِ مُصَلِّوًّا
أَصْبَحْتَ أَنْتَ سَوَادُهَا وَالْمُحْجَرُ (٣)

ويصور ابن سناء الملك صلاح الدين بدراً يبدد الظلام بسنائه ، وذلك لما قام به من تخليص المسلمين الذين كانوا يرزحون تحت نير الاحتلال ، فكان في منيعه هذا كيوسف الصديق عليه السلام ، يقول :

قُمْتَ فِي طَلْعَةِ الْكَرْبَةِ كَالْبَدْرِ
لَمْ تَقِفْ قَطُّ فِي الْمَعَارِكِ إِلَّا
رَسْنَاً وَالْبَدْرُ يَطْلُعُ وَهَنَسَا
مَضْبَقَ قَدْ صَحَّوْهُ أَوْ صَارَ غُصْنَا
كُنْتُ يَا يُوسُفُ كَيُوسُفَ حَسَنًا
تَجَنَّبِي الضَّرُّ طَبَاكَ كَسَلًا (٤)

* * *

(١) ديوان الميشارت والقديسات / ١٣٤ ، كتاب الروضتين : ١١٦ / ٢ .

(٢) كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٧٠٤ .

(٣) ديوان ابن الدهان / ٥٣ .

(٤) ديوان ابن سناء الملك / ٣٤١ .

تعرض الشعراء في شعرهم لتصوير المدن التي فتحها صلاح الدين ، والمعارك التي انتصر فيها ، وما يلزمها من عناصر قتاليه كالجهش ، وأدوات الحرب ، واعتمدوا في ذلك على التشخيص والتجسيم والوصف ، معتمدين على ألوان البيان ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، نورد بعضها على سبيل المثال .

وصور ابن سعدان الحلبي عروشه آمد غاضبة على أصحابها ، يقول :

فيا سا كنيي الرفقاء من سفح آمد
أرى عارضا ينهل بالموت ها طائفة
لئن غضبت يوماً عليكم عروشهم
فهذا ابن أيوب وهذي معاقلته (١)

وصور ابن الفراهيد البلاد تتبسم لصلاح الدين بعد أن كانت معبسة ، يقول :

تبسمت البلاد إليك أنصفا
وكانت قبل موجشة القطوب (٢)

وحاجة دمشق إلى عدل صلاح الدين حدث بالشاعر وحيد الأسدي إلى ابتكار صورة من صور الاستعارة الجميلة ، أخرج فيها مدينة دمشق إلى نطاق الأحياء ، فجعلها تسترخ البطل وتستغيثه ، فقال :

رأيت جائق شغراً لا نظير لسه
فجئتها عامراً منها السدي خربا
نادت بالذل لنا قل ناصرها
وأزمت الخلق من أوطانها هربا

وقد وسم صلاح الدين بعث الأحياء في أرجائها ، وإعادة للأمن والاستقرار في أنحائها ، يقول وحيد الأسدي في القصيدة نفسها :

أحييتهم مثل ما أحييت مصر فقده
أعدت من عدلها ما كان قد ذهبها (٣)

وصور ابن الساعاتي " تل خالد " ذليلاً عاجزاً عن إبداء الحيل أمام صلاح الدين ، ليظهر خضوع أهله وأذعانهم لصلاح الدين الذي كان يعمل من أجل الوحدة ، يقول :

ما " تل خالد " المعتز جانبيه
لذلك إلا ذليل عاجز الحيل

(١) كتاب الروضتين : ٣٩/٢ .

(٢) الخريدة : قسم شعراء الشام : ٣٠١/١ .

(٣) نفسه : ٢٤٢/١ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢/٦٠٦ .

وبصور الشاعر في القصيدة نفسها حلب فتاة حسناء ، قد خلت من الحلي ، وليس لها بعل سوى صلاح الدين ، ثم يصورها فتاة تغار من جارائها (المدن) التي أخذها صلاح الدين بطريقة استفهامية جميلة ، يقول :

هِيَ الْعَقِيلَةُ حُسْنًا وَالزَّانُ بِهَا
فَمَا سِوَاكَ لَهَا بَعْلٌ وَقَدْ عَطَلْتُ
مَتَيْمٌ كُلُّ الْأَحْشَاءِ غَيْرُ خَلِيسِي
فَحَلَّهَا بِتِلَافِيهَا مِنَ الْعَطَلِ
غَارَتْ وَحَقَّقَتْ مِنْ جَارَاتِهَا فَشَكَّ كَسَتْ
مَا مَالَهُ بَانْتِضَاعِي غَيْرُ مُحْتَمِلٍ (١)

وتقدم الحديث عن تصوير طبرية عروسا بكرًا ، وهي صورة متأثرة بصورة أبي تمام في فتح عمورية ، وتصوير الكرك شكلي لم تعد تنجب، ولعل هذه الصورة صورة جديدة ظهرت عند ابن «ننا» الحاسك .

ويجعل ابن الساعاتي للقدس قلبا مسرورا على سبيل الاستعارة ، وذلك لما قام به صلاح الدين من عمل جليل بفتح البلاد ؛ إذ أنه بهذا العمل سيحرر القدس من أيدي الأعداء ، ولولا علمه هذا لكانت القدس كثيفة ، يقول :

فَقَلْبُ الْقُدْسِ مَسْرُورٌ وَلَوْ لَا
سُطَّاسُكَ لَكَانَ مَكْنُئُهَا حَزِينًا (٢)

فالسرور والكتابة والحزن آثار انفعالات انسانية ، خلصها ابن الساعاتي على القدس ، فجعلها كالأحياء .

واتخذ الشعراء الصورة الشعرية وسيلة لتحجيد معارك صلاح الدين وفتوحاته ، فمن ذلك : غزوة صلاح الدين لغزة سنة ٥٦٦ هـ . فقد مهر سعادة الأعشى عما أصاب هذه المدينة ، بعد أن داهمتها مشاة المسلمين وخيولهم ، من خراب ، بأن جعل الرضا يبتعد عنها ، بينما جعل الغضيب والنقمة تدنو وتقرّب ، كما يبدو في قوله :

فَتَيُّمٌ غَزَا بِالْخَيْلِ وَالرَّجُلِ غَزَا
وَكُنَّا نَحْوَ جَنْبِهَا ضُحَى بَيْتَانِيبِ
نَأَى عَنْ نَوَاحِيهَا الرِّضَا وَدَنَا السَّخَطُ
مِنْ التَّرَاكِ لَا رُومَ طَغَامٍ وَلَا قَيْسُطُ (٣)

- (١) ديوان ابن الساعاتي : ٣٨٣/٢ ، ٣٨٤ .
(٢) ديوان ابن الساعاتي : ٤٠٨/٢ ، كتاب الرضتين : ٨٥/٢ ، مفرج الكسروب : ٢٠٠/٢ .
(٣) الخريدة ، قسم شعراء الشام : ٤١٩/١ .

وانتصر صلاح الدين على الصليبيين في معركة مرج عيون سنة ٥٧٥ هـ ، فمدحه الجويني بقصيدة ، ذكر فيها الفتح وجعله شفاء المصدور ، وقرة للعيون ، كناية عن الاستقرار والطمأنينة :

إِنَّ هَذَا الْفَتْحَ الْمُبِينِ شِفَاءٌ لِمُذْوِرِّ وَقَرَةِ الْعُيُونِ (١)

ومن المعارك والفتوح التي حظيت بعناية الشعراء لأهميتها معركة حطين ، وفتح بيت المقدس ، فقد بدت صورة هذين الحدثين جليلة في الشعر ، فهذا العماد الأصفياني يهني السلطان صلاح الدين بفتح بيت المقدس ، ويصور معركة حطين التي كانت مقدمة حاسمة للفتح القدسي ، معركة حامية الوطيس ، رجبت الأرض تحت أقدام الأعداء ، وجعلت جبالهم مقلقة ، كما يبدو في قوله مصوراً ما حل بالأعداء من دمار :

بِوَاقِعَةٍ رَجَّتْ بِهَا الْأَرْضُ جَيْشَهُمْ دَمَاراً كَمَا بُسَّتْ جِبَالُهُمْ بِسَسَا
بُطُونٌ ذَرَابَ الْأَرْضِ صَارَتْ قُبُورُهُمْ وَلَمْ تَرْضَ أَرْضٌ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ رِيسَا (٢)

وهذه الصورة متأثرة بتصوير القرآن الكريم .

ويصور العماد هذه المعركة ، وقد ثار الغبار فيها ، وأعجبت الشمس ، وكاد ضياؤها يختفي بفعل هذا الغبار ، وصور فيها " الأبطال عابسة " لظهور قوتها وشدةها على الأعداء ، يقول :

يَا يَوْمَ حِطِّينَ وَالْأَبْطَالُ عَابِسَةٌ هَالِعُجَا جَعَلَتْهُ الشَّمْسُ قَدْ عَمِسَا (٣)

ويصور الشعر الفتح القدسي عظيمها ، وقد تفوق على غيره من الفتح ، ولاشك هذه العظمة وهذا التفوق لجأ بهمض الشعراء إلى الانتفاع بالحكم والأمثال ؛ لما فيها من اقناع وبرهنة عقلية ، فهو كالشمس يغطي ضوءها كل ضوء ينهت من أي جسم نير ، كما يبسود في قول فتیان الشاغوري :

- (١) البرق الشامي : ١٧٣/٣ ، كتاب الرضتين : ٩/٢ ، فتح الكروب : ٧٨/٢ .
(٢) ديوان العماد الأصفياني / ٢٣٤ ، كتاب الرضتين : ٨٣/٢ .
(٣) ديوان العماد / ٢٢٩ ، كتاب الرضتين : ٨٣/٢ .

فَتَحَّ تَطَاطَا كُلُّ فَتَحٍ دُونَهُ كَالشَّمْسِ تَكْشِفُ كُلَّ جِسْمٍ نَسِيرٍ (١)

ويصور الشافعي هذا الفتح ماحية خطت بالسمهري ، وانقطعت بوقع المسمم ،
واعربت بضرب الحسام ، والجبر في ذلك كله دم الأعداء ، وما كان دفترها الا الثرى ، يقول :

أَنْشَأَتْ مَاحِيَةً تَوَلَّى مَقَاتِلَ _____
أَعْرَابُهَا ضَرْبُ الْحَسَامِ وَنَقَطُهَا _____
وَالْجَبَرُ بَخْرٌ دَمٌ تَفْطَمُطُ مُوجُّهُ
الْفَرْسَانِ بِالْعَدَدِ الْعَصْدِي لَمْ يُخْصَرْ
وَقَعَ السَّهْمُ وَخَطُّهَا بِالسَّمِّ السَّيْرِ
إِنْ لَيْسَ ثُمَّ سِوَى الثَّرَى مِنْ دَفْتَسِرٍ (٢)

ويصور الشارح مؤودا ، والاسلام دين الله مستبشرا بعد ان كان معبسا بوجسود
الاحتلال ، وكان له وجهها ، يقول :

فَلَقَدْ وَأَذَتْ الشَّرَكَ يَوْمَ لَقِيَتْهُ سُمْ
وَرَدَّتْ دِينَ اللَّامِ بَعْدَ قَطْرِ _____
وَعَدَتْ لِلْإِسْلَامِ عَيْنَ الْعُنْشِرِ
بِالْعَنَجِدِ الْأَقْصَى بِوَجْهِ مُنْشِرٍ (٣)

ويصور ابن الساعاتي البلاد المقدسة فرحة بعد أن تخلصت من الاحتلال ، كما
أضاف إلى ذلك صورة جميلة للسيوف ، إن جعلها تقبل ذاك الشفر المبتسم ، يقول :

وَأَصْبَحَ ذَاكَ الشَّفَرُ جَذْلَانِ بِأَسْمَاءِ
وَالْمَدِينَةُ الْأَعْمَادِ وَتُوسِعُهُ لَشْمَاءِ (٤)

ويصور العماد الأصفهاني مدينة بيت المقدس لابسة لباس الدين ، نازعة لباس الكفر ،
وذلك للتعبير عن عودة القداسة لها ، ولقائمة الشعائر الدينية فيها ، يقول :

تَزَعَّتْ لِبَاسَ الْكُفْرِ عَنْ قُدْسِ أَرْضِهَا
وَأَلْبَسَتْهَا الدِّينَ الَّذِي كَشَفَ اللَّيْسَا (٥)

(١) ديوان فتیان الشافعي / ١٤٢ .

(٢) نفسه / ١٤٢ ؛ ١٤٣ .

(٣) نفسه / ١٤٣ .

(٤) ديوان ابن الساعاتي : ٣٨٦ / ٢ ، كتاب الروضتين : ١٠٦ / ٢ .

(٥) ديوان العماد / ٢٣٢ ، كتاب الروضتين : ١٠٢ / ٢ .

وقد دُفعت صورة فتح القدس وتطهيره من الصليبان ، شعار الصليبيين ، وإزالة معالم الوجود الصليبي عن المسجد الأقصى والصخرة المشرفة ، العماد الأصفهاني إلى تصور فتح مكة وإعادة صورته إلى الأذهان ، بما في هذه الصورة من تحطيم الأنصاب التي كانت جاثمة في أركان الكعبة المشرفة ، وإزالة الأعلام ، وذلك حين قال :

نَفَى مِنَ الْقُدْسِ صُلْبَانًا كَمَا نَفَيْتُ
مِنْ بَيْتِ مَكَّةَ أَرْلَامًا وَأَنْصَابًا (١)

ولا مجال لاستقصاء الصور الشعرية التي رسمها الشعراء في أشعارهم القدسية، فهي كثيرة ، وإنما ذكرت بعضها على سبيل التمثيل فيما يخص الفتح والمعارك .

* * *

أما الجيش المسلم بقيادة صلاح الدين والأدوات الحربية التي استخدمت في معاركه ، فقد رسم الشعراء صوراً متنوعة مستخدمين في ذلك أساليب التشخيص والتجسيم والوصف ، معتمدين على ألوان البيان المختلفة.

صور الشعراء الجيش المسلم ، جيش صلاح الدين بصور تقليدية ، وقد أضفوا عليها أحياناً صوراً جديدة ، ومن أمثلة ذلك تشبيهه بعبادة الأعمى لهذه الجيش بالبحر لضخامته ، وهذه صورة مأثومة، إلا أن الشاعر ألبسها لبوساً جديداً ، فجعل لجج هذا البحر الغبار والعرق ، ثم صور الدروع فقايع ماء تطفوا على هذا البحر ، والسيوف خلجاناً له ، ورسم للجيش صورة أخرى أبعبر عن كثافته وضخامته فجعله كالجراد المنتشر الذي لا يحصى له

عدد ، ثم جعل سماً هذا الجيش سماً من غبار ، اعمدتها الرياح ، يقول :

أَوْسَعَتْ فِرْعَوْنَهُمْ لَمَّا طَفَى غَرْقَسًا	بِرَاخِرِ لُجَّتَاهُ : النَّقْعُ وَالنَّجَسُ
حَبَابُهُ الْبَيْتِيُّ ، وَالْبَيْتِيُّ الْجِدَادُ لَهُ	خُلَاجٌ وَأَمْوَاجُهُ لَمَّا طَفَى الزَّنَسُ
عَرَمَزَمَ كَالدَّبِيِّ الطَّيَّارِ مُنْتَشِرٍ	تُحَصَّى الرَّمَالُ وَلَا يُحَصَّى لَهُ عَدَدُ
تَسْمُو عَلَيْهِ سَمَاءٌ مِنْ عَجَاجَتِهِ	مَبْنِيَّةٌ مِنْ قَنَازٍ تَحْتَهَا عُمَسْدُ (٢)

(١) ديوان العماد / ٧٦ ، كتاب الروضتين : ١٠٢ / ٢ .

(٢) الخريدة ، قسم شعراء الشام : ٤١٣ / ١ ، ٤١٤ .

وشبه الشعراء جنود المصالحين المجاهدين بالأسود ، وهي صورة مألوقة في الشعر العربي ، يقول فتيان الشاغوري ، لما صد جنود المصالحين الشجعان الهجوم المصلي على دمياط سنة ٥٦٥ هـ :

رَأَوْا دُونَهُمْ أَسَدًا بِأَيْدِيهِمُ الْقَنَابَ وَبِيضًا رِقَاقًا ، أَحْكَمْتُهَا السَّيَاقِبِلُ (١)

وإضافة إلى تجسيد الشاغوري لصفة الشجاعة في الجيهر ، فقد أوضح حيطته ، وحذره ، واستعداد للقتال ، فهو مدجج بالسلاح ، من رماح طويلة ، وسيف رقيقة محكمة الصنع .

ويصور ابن الدهان جنود المصالحين أسودا ، غاباتها الرماح ، يقول :

كَأَلَّتْ بِلَادُهُمْ سَهْلًا وَحَزَنًا أَسُودًا تَحْتَ غَابَاتِ الرَّمَاكِ (٢)

ويقول سعادة الأعمى حين غزا صلاح الدين " غزة " :

رَمَاهَا بِأَسَدٍ مَا لَهَا مِنْ مَرَابِضٍ وَلَا أَجَمٍّ إِلَّا الَّذِي يُنْبِتُ الْخَسْفَ (٣)

ويصور العماد الأصفهاني جنود المسلمين صفورا تمتطي خيولا كأنها المقصور ، وذلك لظهور سرعتها وقدرتها على اقتناص أعدائها ، يقول :

وَكَمْ قَدْ فَلَلْتُ جُمُوعَ الْفَرَنْسَجِ بِحَدِّ اعْتِزَامِ شَبَاهِ طَرِيقِ
بِجُرْدِ عَلَيْهَا رِجَالُ الْهَيْبِ كَأَنَّ صُفُورًا عَلَيْهَا صُفُورُ (٤)

وتتكرر عند الشعراء صورة الجيش الذي ترافقه الطيور ، وهي صورة تقليدية ، مضافا إليها بعض العناصر الجديدة ،

(١) ديوان فتيان الشاغوري / ٣١٩ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٤٦١ .

(٢) ديوان ابن الدهان / ٦٦ ، كتاب الروضتين : ١١٢ / ٢ .

(٣) الخريدة ، قسم شعراء الشام : ٤١٩ / ١ ، كتاب الروضتين : ج ١ ق ٢ / ٦٤٦ .

(٤) ديوان العماد الأصفهاني / ١٩٢ ، الخريدة ، بداية قسم شعراء الشام / ٢٨ .

ويشبه ابن الدهان الجيوش بالسيول في تدافعها ، يقول مادحا صلاح الدين :

أَمْ يَذْنِبُ عَنْ نَصْرِهِ خَلْفَاءُ عَظُمُ الْعَدُوِّ وَلَا يَمُوتُ الْمَوْفِعُ
بِحَافِلٍ مِثْلِ السَّيُولِ تَدْفَعُكَ وَإِذَا السَّيُولُ تَدْفَعُكَ لَمْ تَذْفَعْ (١)

وهي صورة تقليدية ، مأخوذة من التراث الشعري الموروث .

ويصور الشعراء الرماح والسيوف والرايات في أشعارهم ، وقد تقدم شيء من ذلك .

فالرماح متحطشة لتخرق صدور الأعداء انتهب من دماهم ، وتمعب من نجيعهم ،

يقول فتیان الشاغوري :

أَوْرَدْتُ أَطْرَافَ الرَّمَا حِ صُدُورَهُمْ فَوَلَّغْنِي عُلُقِ النَّجِيعِ الْأَحْمَرِ (٢)

ورسم سعادة الأعمى صورة بديعة لرمح صلاح الدين إذ شبهها بالأعلام يخط بها

رقاب الأعداء ، وهي أنابيب من دم ، وهي أفاع إذا ما انتشرت في جيش الأعداء أخمدت أرواحهم (٣) .

ويصور ابن المجاور الرماح اتخذت من رؤوس الأعداء عمام تلبسها ، والسيوف قد

اتخذت من دماهم قهانا ، يقول :

وَأَعْجَبَ لِرِمْحٍ بِالرُّؤُوسِ مَعْتَسِمٍ وَاطْرَبَ لِسَيْفٍ بِالدِّمَاءِ مُفَاسِّمٍ (٤)

ويرسم ابن الدهان صورة للرمح فيها اغراب ، حيث خلع على الرمح الحياة ،

فجعلها يثمر كالنبات ، ولكن ثمرة رأس طاغية من الطفافة ، يقول مادحا صلاح الدين :

مَا حَلَّ رَمَحُ الْمَحَلِّ أَغْبَرَ قَانِيسًا إِلَّا وَأَصْبَحَ مِنْ نَدَاهُ أَخْضَرًا
أَوْ سَلَّ يَوْمَ الرُّوْعِ أَبْنَى صَارِسًا إِلَّا وَعَادَ مِنَ الْأَعَادِي أَحْمَرًا

(١) ديوان ابن الدهان / ٣١ .

(٢) ديوان فتیان الشاغوري / ١٤٣ .

(٣) أنظر الحديث عن رماح صلاح الدين في الفصل الثاني من هذه الدراسة عند الحديث عن عسكريته .

(٤) كتاب الروضتين : ٢ / ٢٠٤ .

أَوْهَزَنِي السَّهْبَاءُ أَشْمَرَ ذَابِلًا وَالْأَوَّلُ بِرَأْسِ طَاغٍ مُشْرِئًا (١)

وقد سبقه إلى هذا الأعراب ابن القيسراني في قوله ، حين رفع رأس الأمير
الصليبي على سنان الرمح :

عَجِبْتُ لِلْعَمْدَةِ السَّعْرَاءِ مُشْرِئَةً بِرَأْسِهِ * إِنَّ إِشْرَارَ الْقَنَا عَجَبٌ (٢)

وشبهه بهذا قول سماعة الأعمى :

وَلَا تَخَفْ بِالْعَوَالِي شَوْكُهَا ثَمَرٌ حَلَوُ الْجَنَّا ، وَالْمَعَالِي صَا بِهَا شَهْدٌ (٣)

ويصور ابن الساعاتي الرماح أغنانا يهفوا إليها الطير ، وقد قادتها السيوف
البارقات في المعركة ، وسط الفُجَار ، ويجعل ابن الساعاتي للسيوف غنا ، لذيدا ، حيث
أراد التعبير عن الصوت المنبعث من وقع السيوف على هامات الأعداء ، يقول :

إِيخْرِكَ فِي كَمَا جَمِيعِهِمْ غَنَاءٌ لَذِيذُ عِلْمِ الطَّيْرِ الْحَنِينِ
تَمِيلُ إِلَى الْمُثَقَّةِ الْعَوَالِي فَهَلْ أَمْسَتْ رِمَاحًا أَمْ غُصُونًا
يَكَاؤُ النَّقْعُ يَذُهَاهَا فَلَسُولًا هُرُوقُ الْقَاضِيَاتِ لَمَّا هُدَيْنَسَا (٤)

وشبه الشعراء سيوف صلاح الدين بالبرق ، وهي صورة تقليدية ، وقد مر الحديث
عنها .

ويصور ابن سناء الملك سيف صلاح الدين ملهيا ، وتابيته الضرب ، ومحرمسا
واحرامه تجرده من الغمد ، وهو قد سا رعاى دين الاسلام ، وتمسك بعبادته ، وما شرعه
له ، واكنه أحلَّ له شيء لم يحل لغيره ، وهو شرب ماء الأعداء :

-
- (١) ديوان ابن الدهان / ٥١ .
(٢) كتاب الروضتين : ج ١ ق ١٥٤ / ١ ، شعر ابن القيسراني / ٧٠ .
(٣) الخريدة ، قسم شعراء الشام : ٤١٤ / ١ .
(٤) ديوان ابن الساعاتي : ٤٠٧ / ٢ ، كتاب الروضتين : ٢٨٥ / ٢ ، مفسر
الكروب : ١٩٩ / ٢ .

لَهُ مُنْصَلًا لَا يَنْقُضِي فَرَضَ حَجَّاسَةٍ فَبِالنَّزْبِ لَبَّى ، وَهُوَ بِالسَّلِّ أَحْرَمًا (١)
تَنْسِكَ بِالْإِسْلَامِ لَكِنْ رَأَيْتَهُ يَحِلُّ لَهُ بِالشَّرْعِ أَنْ يَشْرَبَ الدَّمَا (١)

وهذا فتيان الشاغوري يبتكر صورة جديدة للسيف المخضب بدم الأعداء ، فهو
الذي يرى حين يشهر كانه مازال في غمد ، لما أحاطه نماء من دم متجدد ، يقول :

لَا يَنْظُرُونَ سِوَى حُسَامٍ مَشْهُرٍ وَمِنَ الدَّمَا كَانَتْ لَمْ يَشْهُرِ (٢)

ويصور العماد سيف صلاح الدين طاهرا يحسود دم القائد "أرناط" الصليبي ،
لما اتصف به من غدر ، كما يبدو في قوله :

حَسَا دَمُهُ مَاضِي الْغُرَارِ لِفُتْدَرٍ وَمَا كَانَ لَوْ لَا فُتْدَرُهُ دَمُهُ يُحْسَرِ (٣)

ويصور ابن التعاويذي السيوف عريانة منكرا أغمارها ، يقول مادحا صلاح الدين :

قَدْ هَدَيْتَنِي أَيْدِي الْخُطُوبِ عَالِي شِمَاسٍ عِطْفِي آي تَهْدِي سَبَبِ
أَوَلَقَنْتَ مُسْتَفِيدَةً كَكُورَمِ الْأَخْلَاقِ مِنْ يُونُسُفِ ابْنِ أَيْسُوبِ
رَبِّ الْمَذَاكِرِي الْجِيَادِ مُقَرَّبَةً وَالنَّمْلُ عَرِيَانُ غَيْرُ مَقْرُوبِ
تُنَكِّرُ أَفْئَادَهَا مِنْ مَلُوكِ فِي يَوْمٍ حَلَّ يَوْمِ تَأْوِيلِ سَبَبِ (٤)

أما الخيل ، فقد صورها العماد مقورا تحمل فوقها جنودا كأنهم المقصور ،
كما تقدم .

-
- (١) ديوان ابن سناء الملك / ٢٧٢ .
(٢) ديوان فتیان الشاغوري / ١٤٤ .
(٣) ديوان العماد الأصفهاني / ٢٣٥ .
(٤) ديوان ابن التعاويذي / ١٩ ، ٢٠ ، والنظر مزيدا من الأمثلة ديوان ابن
الذهبان / ٦٥ ، ديوان ابن الساعاتي : ٢ / ٣٨٧ ، ديوان
العماد / ٧٥ ، وغيرها .

والخيل عند سعادة الأعص عقبان وذئاب لسرعتها ، يقول :

خَيْلٌ هِيَ الْعُقْبَانُ فِي ظَهْرَانِهَا لَا بَلَّ هِيَ السَّيْدَانُ فِي عَمَلَانِهَا (١)

وصورها فتيان الشاغوري منتشية تتمايل من السرور لفتح بيت المقدس ، وكأنها قد سكرت :

نَشَوِي تَمِيدُ مِنَ السُّرُورِ كَأَنَّمَا صَبَحْتُ كَوْسًا مِنْ شَرَابِ مُسْكِرٍ (٢)

والخيل بعد المعركة لا تمشي إلا على رؤوس القتلى المهتمة ، ذلك لكثرة القتلى ، كما يبدو في قول الشاغوري أيضا :

شَكَّتِ الْفِيَانِي ثِقْلَ وَطْءِ جِيوشِهِ فَبَنَانُهُمْ رَصْفًا كَبَسَطِ الْمَرْمَرِ
فَالْخَيْلُ لَا تَمْشِي بِهَا إِلَّا عَلَى هَامٍ مُنْخَرِقَةٍ وَشَحْرٍ أَشَقِشِرِ (٣)

والخيل لقوتها تستطيع التحليق إلى النجوم ، والسهل والحزن عندها سيران ، يقول ابن الدهان مخاطبا صلاح الدين :

وَطَيْتَهُمْ رَفْمًا قَامَ يُفْنِ حَشْدُهُمْ وَمَنْ ذَا يَرُدُّ السَّيْلَ مِنْ حَيْثُ أَقْبَلَا
بِخَيْلٍ إِذَا أَوْلَيْتَهَا النَّجْمُ حَاقَبَتْ إِلَيْهِ ، وَلَنْ أَوْطَأَتْهُ الْحَزَنُ أَسْهَلَا (٤)

أما رايات صلاح الدين الصفراء ، فقد صورها الشعراء بصور شتى ، منها : أن هذه الرايات تحكي الأميل ، وأنها ترد ساحات الوفي عطشى ، وتحدرو وقد رويت من دماء الأعداء ، وهي ترد المعارك صفراء اللون ، وتعود منها حمراء تنج دماء الأعداء الحليبيين ، وهي تخفق بالانصراد وما ، وغير ذلك من الصور التي مر ذكرها .

* * *

(١) الخريدة ، قسم شعراء الشام : ٢١٠ / ١ .

(٢) ديوان فتيان الشاغوري : ١٤٣ .

(٣) نفسه / ١٤٥ .

(٤) ديوان ابن الدهان / ٤٤ .

وقد باتت صورة صلاح الدين وأخوة المعالم في الشعر من خلال ما تقدم ، وقد قابلتها صورة القادة الفرنج وملوكهم ، صورة ماؤها السخرية والتهمك والذل ، يقول الجلياني :

وَوَقْعَةُ يَوْمِ التَّلَّ إِذَا قُبِضَتْ بِسَيْسِهِ جَبَابِرَةُ الْإِفْرَنْجِ حَيْرَى وَشَسْرَةً
عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَاهِ سُرَادِقُ ذِائِقِهِ وَبَيْنَ ذَلِكَ مَاتَتْ نَفْسُهُ فَتَقَيَّسَدَا (١)

وهؤلاء الملوك الحاسرون يقادون في بحر من الدماء كالسفن التي تجري في البحر ، وهم ليسوا عددًا محدودًا ، بل إن بلاد الله ملوثة بهم ، ومعنى ذلك أن ثمنهم سيكون بخسًا ، وسيدل عليهم في الأسواق ، كأنهم بضاعة قد كسدت ، كما يبدو في قول العماد الأصمعي :

تَقَادُ بِدَأْمَاءِ الدِّمَاءِ مَاوَكُمْ مُسَمِّمٌ أَسَارَى كَسْفِنِ الْيَمِّ نَطَتْ بِهَا الْقُلُوسَا
سَيَايَا بِلَادِ اللَّهِ مُلَوَّاهُ بِهِمْ وَقَدْ شُرِبَتْ بِخُسَا وَقَدْ عُرِضَتْ نَخُوسَا
يُطَافُ بِهَا الْأَسْوَاقُ لَا رَاغِبٌ لَهَا لِكَثْرَتِهَا ، كَمْ كَثُرَ تَوَجُّبُ الْوَكُوسَا (٢)

ويصور الجلياني ما أصاب ملوك الفرنج من ذل وهوان في قوله :

بَيْنَمَا سَيَايَاهُ تُجَلِّسُ فِي دِمَشْقٍ إِذَا مَلِكُ الْفَرَنْجِ مَعَ الْأَتْرَافِ مُحْتَجِجُ
إِزَاهُ زُعَمَاءُ السَّاحِلَيْنِ مَعَهُ مُصْطَفَيْنِ بِحَيْلِ الْقَهْرِ قَدْ أُسِيرُوا (٣)

وهذا ابن سناء الملك يصور بعض ملوك الفرنج الحاسرين في معركة حطهم ، فملك بيت المقدس (٤) يتقلب في قيده ، ويصور القيد وقد رق له ، فيتجاوب معه في أنيه :

وَالْمَلِكُ الْعَظِيمُ فِيهِمْ أَسِيرٌ يَتَشَنَّى فِي أَوْهَسِمِ يَتَشَنَّى
رَقٌّ مِنْ رَحْمَةِ لَهُ الْقَيْدُ وَالْمَلِكُ لُ عَلَيْهِ ، فَكَلَّمَا أَنَّ أَنْسَا (٥)

(١) ديوان المبعثرات والقديسات / ١٤١ ، كتاب الروضتين : ١١٧ / ٢ ، ١١٨ .

(٢) ديوان العماد الأصمعي / ٢٣٥ ، كتاب الروضتين : ٨٣ / ٢ .

(٣) ديوان المبعثرات والقديسات / ١٣٦ ، كتاب الروضتين : ١١٧ / ٢ .

(٤) الملك المقصود في الأبيات ، ملك جاي دي لوزجنان : "Guy de Lusignan" .

أنظر حطمين بين أخبار مؤرخيها وشعر معاصريها / ٣٣ .

(٥) ديوان ابن سناء الملك / ٣٤٢ .

ورسم الشعراء صورة ما خلة متهمكة غريبة ، وشيرة " لاهرنس أرناط " الفادر ،
وهي صورة تتطابق إلى حد بعيد مع ما رواه المؤرخون تجاه هذا الأمير الملبني ، فالعماد
يصف عملية قتله بصورة فنية جميلة ، ومشهد فني مكتمل العناصر ، يشد القاري إليه ،
فيصوره محتقرا ، معفر الخد ، ويصور رأسه نجسا ، وقد اجتث السيف الطاهر ، ففسق
بالدماء ، كأنه ضئد ع يفتس في الماء ، يقول :

رَأَيْتُ فِيهِ عَظِيمَ الْكُفْرِ مُحْتَقِرًا	مُعَفَّرًا خَدَّهْ وَالْأَنْفُ قَدْ تَعَسَّسَا
يَا كَهْرُ سَيْفٍ يَرَى رَأْسَ الْبِرْنِ فَقَدْ	أَصَابَ أَعْظَمَ مَنْ بِالْشَّرِّ قَدْ نَجَسَا
وَقَاصُ إِذَا ذَاكَ الرَّأْسُ فِي دَمِهِ	كَأَنَّهُ يُفْدَعُ فِي الْمَاءِ قَدْ غَطَّسَا
مَا زَالَ يَغْطِيسُ مَرْكُومًا بِفَدْرَتِهِ	وَالْقَتْلُ تَشْمِيتُ مَنْ بِالْفَدْرِ قَدْ عَطَّسَا (١)

ويلاحظ أن الشهد احتوى جزئيات متعددة تكاثفت حتى أخرجته بهذه الصورة الفنية
الغريبة المشيرة ، معتمدا في ذلك اعتمادا كبيرا على عنصر الحركة ، كما يلاحظ أن البيت
الواحد لم يعد يكفي لإخراج الصورة الفنية ، بل تكاثفت عدة أبيات لإخراجها .

ويصوره مرة أخرى ورأسه قد شكا من اليبس ، وأيس له دواء ، إلا السيف يخسود به ؛
لما اتصف به من غدر ، ويصور العماد رأس البرنس الذي أجتت ككتلة من القطن أو الصوف ،
يقول :

شَكَاهُ يَبْسًا رَأْسُ الْبِرْنِ الَّذِي بَسَّهْ	تَدَدَى حُسَامٌ حَاسِمٌ ذَاكَ الْيُبْسَا
حَسَا دَمُهُ مَاخِي الْخِرَارَ لِفَكَدْرِهِ	وَمَا كَانَ أَوْلَا غَدْرُهُ دَمُهُ يُحَسَسُو
نَسَفَتْ بِهِ رَأْسُ الْبِرْنِ بِخِرْبَسِهِ	فَأَشْبَهَ رَأْسِي رَأْسَهُ الْعِهْنُ وَالْبَرْسَا (٢)

ويصور ابن سناء الملك "البرنس" مذبوها ، وقد ذبحه صلاح الدين بيده وفلسا
لنذره ، يقول :

وَاللَّعِينُ الْإِبْرَنْسُ أَصْبَحَ مَذْبُوحًا	حَا تَنَّى لَمْ يَعدِمِ الْيَوْمَ يُنْسَا
أَنْتَ ذَكَيْتَهُ فَوَقَّيْتَهُ نَسْأَ	كُنْتَ قَدْ مَتَّعْتَهُ فَبُورِيتَ حُسْنَا (٣)

(١) ديوان العماد الأصمهاني / ٢٢٩ ، كتاب الروضتين : ٨٣ / ٢ .

(٢) ديوان العماد / ٣٣٥ ، كتاب الروضتين : ٨٣ / ٢ ، ٨٤ .

(٣) ديوان ابن سناء الملك / ٣٤٣ .

ومصوره الجلياني غارقاً بالدماء ، وقد رآه ملك بيت المقدس ، فمات خوفاً
مع أنه ما يزال حياً ، يقول :

وعاين الملك " الأبرنس " في دمه فَمَاتَ حَيًّا وَحَيًّا وَهُوَ يَمُتُّ ذَرْ (١)

ومن الجدير بالقول إن الشعراء استخدموا في صوره عناصر اللون والصوت
والحركة ، مما يضيف على الصورة جمالا وروعة ، كما انهم كانوا يستمدون هذه الصور
من الطبيعة بما فيها من عناصر شتى ، فقد استقوها من عالم الانسان ، وعالم
الحيوان ، وعالم النبات ، وعالم الجنس أحيانا ، وما تقدم من شعريّة لاثبات
ذلك .

وهكذا نرى أن شعراء صلاح الدين ، قد أغنوا شعرهم بمورثتى منها
ما هو تقليدي موروث ، ومنها ما هو مستجد ، وغريب أحيانا ، وقد أوحى لهم أحاسيس
عصرهم بها ، فقد مواءموا الحقائق والمشاعر بصور بديعية جذابة .

* * *

(١) ديوان المبشرات والقدسيات / ١٣٨ ، كتاب الروضتين : ١١٧ / ٢ .

" صلاح الدين بين الشعر والتاريخ "

في نهاية الحديث عن الصورة الشعرية ، لا بد من القول ان صورة صلاح الدين في الشعر لا تختلف عنها في التاريخ ، بل هي مطابقة لها ، الا أن الشعر بطبيعته يقدم لنا هذه الصورة بطريقة فنية موحية معبرة ، تجذب السامع أو القاري إليها ، مما يضفيه عليها من امسات عاطفية وتخيل جذاب ، وهذه هي مهمة الشاعر التي تختلف عن مهمة المؤرخ الذي يعرض الحقائق عرضاً مجرداً ، والشعر لا يعني بالتفاصيل الدقيقة الكثيرة للأحداث والأخبار ولكن التاريخ يرصدها رصداً دقيقاً .

وإذا ما نظرنا إلى نسب صلاح الدين نجد التاريخ يذكر شرف هذا النسب وعظمه ، في حين أن الشعر يشبه عظام هذا النسب بالدوحة التي تنشر من حواشي الطيب (١). ولا نجد في الشعر حديثاً مباشراً عن ثقافة صلاح الدين ، ولكننا نجد ذلك في كتب التاريخ ، فقد روى صاحب النوادر السلطانية على سبيل المثال ، أن صلاح الدين أخذ عن كبار الفقهاء ومشايخ أهل العلم . (٢)

ويرسم لنا الشعر ملامح شخصية صلاح الدين في المراحل الأولى من حياته ، منذ أن تولى شحنة دمشق حتى موت نور الدين زنكي ، إذ اتمت شخصيته بالحزم ، والعزم ، وحسن السياسة وتدبير الأمور ، والقيادة الشجاعة ، ونجد في التاريخ حديثاً مفصلاً عن تلك المراحل ، فنجد ابن شداد في سيرته يامل القول في مسيرته في الحملات الثلاث إلى مصر مع عمه أسد الدين شيركوه ، والاعمال التي قام بها هناك فيما بعد . حتى وفاة نور الدين .

-
- (١) أنظر الحديث عن نسب صلاح الدين في الفصل الأول من هذه الدراسة ص ٢٢ - ٢٥ .
- (٢) أنظر النوادر السلطانية / ٧ ، وانظر عن ثقافة صلاح الدين في الفصل الأول من هذه الدراسة .

والحديث عن صفات صلاح الدين بين واضح في الشعر ، ولا نبالغ إذا قلنا : ما من قصيدة من قصائد الشعراء التي قيلت في صلاح الدين الا نجد فيها حديثا عن صفاته من : شجاعة ، وكرم ، وعدل ، وإيمان ، وتقوى ، وزهد ، وتواضع ، وصبر على الشدائد ، وغير ذلك ، ونجد هذا بطبيعة الحال في كتب التاريخ كافة ، التي تحدثت عن صلاح الدين . ونجد حديثا مفصلا عن صفاته في سيرة ابن شداد ، فثبتت حسن ظنه بالله ، وإيمانه به ، وذكروا له وكرمه ، وشجاعته ، وصبره ، وحلمه ، وعفوه ، وبروئه ، كل ذلك كان مشروعا بأدلة عميقة واقعية (١) .

وإذا ما قورن بين صفات صلاح الدين في الشعر ، وما أُثبت في المصادر التاريخية ، نجد أن الشعر أضفى على تلك الصفات حيوية وجمالا ، إذ جسد تلك الصفات ، وأظهرها بصورة تميزها الحواس ، وتأخذ على سبيل المثال صفة الشجاعة والبأس ، فنرى أن الشعراء ، لاظهار هذه الصفة فيه ، يشبهونها بالأسد ، ويذكر بعض الشعراء ارتعاد الأعداء ، بمجرد ذكر اسمه ، ويصور بعضهم سيفه ممثالا بالدم بعد ما استلّه عن غده (٢) ، مما يثير وجدان السامع وعواطفه في مرحلة تعد أشد مراحل الصراع مع الأعداء .

ونجد حديثا مفصلا في المصادر التاريخية عن وفاة صلاح الدين ، حيث أصيب بمرض الحمى الصفراوية ، فظهرت ^{عليه}أمارات الكسل والضعف ، ثم الارتعاش ، وامتنع عن تناول الطعام حتى عادت روحه إلى بارئها (٣) ، في حين أننا لا نجد سوى بعض الأشعار في رثاء صلاح الدين تبين صفاته وجهده ضد الأعداء (٤) ، وأعل بعض الشعر الذي قيل في رثائه قد مع ما فقد من الأشعار .

-
- (١) أنظر النوادر السلطانية ص ٣٤٧ .
 - (٢) أنظر الحديث عن صفات صلاح الدين في الفصل الأول من هذه الدراسة .
 - (٣) أنظر على سبيل المثال النوادر السلطانية / ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، كتاب الروضتين : ٢١٢/٢ ، ٢١٣ ، وأنظر مزيدا من المصادر ص ٥٤ من هذه الدراسة ، الحاشية .
 - (٤) أنظر الفصل الأول من هذه الدراسة ص ٥٤ ، ٥٦ .

ورسم الشعراء المعالم الكبرى لسياسة صلاح الدين ، فقد أمنت البلاد بوجوده ، واستقرت ، إذ قضى على الفتن والثورات والمؤامرات الداخلية كثورة السودان ، ومؤامرة عمارة اليمنى ومن معه في مصر ، وانضغ الدولة والإمراء في الشام لأمره حتى يتسنى له تحرير البلاد من أيدي الأعداء (١) ، وقدم التاريخ في ذلك صورة مفصلة .

وبين الشعراء سياسة صلاح الدين مع الخلافة العباسية ، وعلاقته بها ، وهي سياسة حكيمه ، وعلاقة حسنة ، إذ سعى لكسب ود الخليفة ورضاه ، ليتمكن له نصيراً على أعدائه ، وبمقتضى الأمر تلك العلاقة الحسنة التي كانت قائمة بين الطرفين ، فيشير بعضهم مثلاً إلى الهدايا التي كانت ترسل لصلاح الدين من الخليفة ، وقد رسم الشعراء صوراً شتى لإظهار هذه العلاقة ، ونجد التاريخ يؤكد على ما ذكره الشعراء (٢) . فعلى سبيل المثال ، يذكر ابن شداد أن صلاح الدين استأذن الخليفة الناصر بفتح آمد فأذن له (٣) ، مما يدل على حسن العلاقة بين الطرفين .

أما علاقة صلاح الدين وسياسته مع نور الدين ، فلم تظهر في الشعر ظهراً جلياً ، وإنما شمة إشارات في بعض الأبيات تدل على حسن العلاقة بين الطرفين (٤) ، ولكن التاريخ يظهر وحشة بينهما ، وإن إن معظم المؤرخين نقلوا عن ابن الأثير الذي كان يثير الشكوك في تلك العلاقة ، إذ وصفها بالوخشة ، والحق أنه لم تكن هناك وحشة أو شفرة ، وقد تقدم ذكر ذلك (٥) .

-
- (١) أنظر الفصل الثاني من هذه الدراسة ص ٨٠ - ٨٨ .
 - (٢) أنظر الفصل الثاني من هذه الدراسة ص ٨٨ - ٩٣ .
 - (٣) النوادر السلطانية / ٥٧ .
 - (٤) أنظر الفصل الثاني من هذه الدراسة ص ٩٤ ، ٩٥ .
 - (٥) أنظر أسباب الوحشة في المصادر المشبهة في الفصل الثاني من هذه الدراسة ص ٩٥ .
- . حاشية (٣) .

أما سياسة صلاح الدين مع الصليبيين وعلاقته بهم ، فقد أظهرها الشعر علاقتهم
عدائية دوماً ، تخللتها بعض المعاهدات الساعية ، وقد ظهرت اشعار قليلة في بعض
هذه المعاهدات ، ولم تظهر تفصيلاتها (١) ، ولكنها في التاريخ واضحة المعالم ،
تذكر على سبيل المثال الصالح الذي جرى بين صلاح الدين والفرنج سنة ٥٨٨ هـ . وسمي
صالح الرماة ، فقد بين التاريخ المشاورات والمراسلات التي جرت بين الطرفين ، وما تم
من خراب مستقلان مثلاً (٢) ، وذكر ابن شداد تمام هذا الصالح ، وذكر حاف ، جماعة من
الفرنج ، وحالف جماعة من المسلمين ، وغير ذلك (٣) .

وسور الشعراء صلاح الدين ساعياً للوحدة بمورثتي ، فتتبعوا خطاه في ذلك ،
فعلى سبيل المثال صور نشوء الدولة بن نفاعة دمشق تنادي صلاح الدين ، وقد ابن هو
نداءها بعد ما عانت من الظلم والفساد والاضيع ، وكذلك فعل ابن الدهان الموالي (٤)
وحمل الشعر مسؤولية حث القائد لاستكمال ضم البلاد الإسلامية إليه ، والتهنئة بنتحها ،
وهذا ما لا نجد في التاريخ ، وقد واكب الشعر أعمال صلاح الدين في الوحدة ، كما
واكبها التاريخ ، ولكن الشعر قدم مشاعر الشعراء تجاه هذه الوحدة ، بل مشاعر
الأمة ، وإذا ما نظرنا في سيرة ابن شداد الذي كان يشاهد عن كثب بعض أعمال صلاح الدين
في الوحدة ، نجد أنه يهتم بتفصيلات دقيقة ، كثبات السنوات التي ضم فيها البلاد ،
وذكر أسماء الولاة والأمراء ، وغير ذلك (٥) .

-
- (١) أنظر ما سبق ص ١٠٣ ، ١٠٤ .
 - (٢) أنظر على سبيل المثال كتاب الروضتين : ١٩٩ / ٢ - ٢٠٤ .
 - (٣) أنظر النوادر السلطانية / ٣٣٤ ، ٣٣٥ .
 - (٤) أنظر الفصل الثاني من هذه الدراسة ص ١١٣ ، ١١٤ .
 - (٥) أنظر النوادر السلطانية / ٥٠ - ٧١ .

ونرى تطابقاً بين صورة صلاح الدين البطل المجاهد والقائد العسكري في الشعر وصورته في التاريخ ، فقد رسم الشعراء له صورة صادقة فضلى ، مستخدمين شتى الأساليب البيانية ، فنجد حديثاً في الشعر عن إيمان صلاح الدين بالجهاد ضد الأعداء من أجل رفع راية الإسلام ، بل نجد أكثر من ذلك ، نجد الجانياني مثلاً يصوره عاشقاً المحارب ، ملازماً المجاهد في كل وقت ، فلا يثنيه عنه اشتداد القر ، ولا توقد الحر (١) ، وهذا ينطبق مع قول ابن شداد في جهاد صلاح الدين : " ولقد كان الجهاد حبه والشفقة به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيماً ، بحيث ما كان حديثه إلا فيه ، ولا نظر إلا في آفته ، ولا كان له اهتمام إلا برحاله ، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه ، ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده وسكنه وسائر ملأه ، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح يمتد مسرة ، ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة رجة على مرج عكا ، فلولم يكن بالبرج ولا قتاته ، ولا يزيد ذلك إلا رغبة وممايرة واهتماماً (٢) .

ونجد حديثاً في الشعر عن رعاية الله البطل المسلم صلاح الدين ومفاتيحه العسكرية من : شجاعة ، وقادة مدبرة حكيمة ، فيصوره الشعراء مثلاً قائماً أحسب بالأعداء ، وأنه صاحب خبرة في الحرب ، وأن الحرب تقترب عنده بالسلوك التعسدي ، فنرى مثلاً ابن سناء الملك يشهر في قصيدة له إلى أن صلاح الدين صلى جماعة بجاسع لخباس التي فتحها ، ويشير الجواني إلى أن صلاح الدين كان يتخير لمعاركه أيام الجمع ، وهذا يتفق مع ما رواه أبو شامة المقدسي في كتاب الروضتين (٣) ، وابن شداد في كتاب السيرة ، يقول ابن شداد في السيرة عن صلاح الدين : " وكان ابداً يقصد بوقعاته الجمع ، لا سيما أوقات صلاة الجمعة " (٤) ، وهذه حقيقة تاريخية قدسها الشعراء بصورة فنية جميلة (٥) .

-
- (١) أنظر الفصل الثاني من هذه الدراسة ص ١٢٤ ، ١٢٥ .
 (٢) النوادر السلطانية / ٢١ .
 (٣) أنظر كتاب الروضتين : ٨٠ / ٢ .
 (٤) النوادر السلطانية / ٧٥ .
 (٥) أنظر الفصل الثاني من هذه الدراسة ص ١٣١ - ١٣٣ .

ويقرن الشعراء صلاح الدين بالخلفاء والأنبياء ، وهذا ما نجده في المصادر التاريخية ، لاسيما شخصية الخليفة عمر بن الخطاب (١) .

وتتبع الشعر جبل معارك صلاح الدين مع أعدائه ، منذ أن كان وزير مصر حتى وفاته ، وقدم معلومات قيمة في ذلك تتطابق مع ما رواه المؤرخون ، فقد تحدث الشعراء من خلال وصفهم لهذه المعارك ، إضافة لحدِيثهم عن صلاح الدين ، عن الجيوش والأسلحة والأعداء وقوادهم ، والمواقع والقلاع والمدن ، فعلى سبيل المثال تحدث الشعراء عن حصار الصليبيين " لدمياط " سنة ٥٦٥ هـ ، وقيام صلاح الدين بفك هذا الحصار ، وطُرد الصليبيين وأبعدواهم عن المدينة مهزومين انذلاء ، ولم يقدم لنا الشعر تفصيلات عن هذه المعركة ، وهذا ما لا يتوقع فيه ، ولكن نجد في التاريخ ، إضافة إلى ما وجد في الشعر ، حديثاً عن التنسيق بين صلاح الدين ونور الدين في مواجهة الصليبيين مثلاً ، وحديثاً عن أنواع الأسلحة المستخدمة (٢) .

ومن أهم المعارك التي تحدث عنها الشعر معركة طبرية وطين ، ثم فتح بيت المقدس ، فقدم لنا المعالم الكبرى في هذه المعارك ، ففي معركة طين حدد بعض الشعراء يوم المعركة ، وهو يوم السبت ، والمكان الذي وقعت فيه ، ثم أشاروا إلى تخطيط صلاح الدين الذي كان سبباً من أسباب الانتصار على الأعداء ، فأشار بعضهم إلى حجب الماء عن الأعداء قبيل المعركة مما ساعد في هلاكهم (٣) ، ويقول ابن الأثير في كتاب الكامل في التاريخ : " فاجتمع عليهم (يعني الصليبيين) العطش ، وحر الزمان ، وحر النار والدخان ، وحر القتال " (٤) .

-
- (١) أنظر الاعتبار / ١٨٤ ، النوادر السلطانية / ٢٤٦ ، كتاب الروضتين : ٥ / ١ .
 - (٢) أنظر النوادر السلطانية / ٤٢ ، ٤٤ .
 - (٣) أنظر الفصل الثاني من هذه الدراسة ص ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ .
 - (٤) الكامل : ٥٣٥ / ١١ ، وأنظر كتاب الروضتين : ٧٧ / ٢ .

ومن الجدير بالقول ان ثمة مدنا وقلاعاً متعددة قام صلاح الدين بفتحها وتخليصها من أيدي الفرنج بعد معركة حطين لم تتروك في الشعر الذي بين يدي ، وقد ذكر العماد بعضهما في قصيدة سينية له على سبيل حث القائد على فتحها (١) ، وقد أوردتها المصادر التاريخية ، وأوردها ابن شداد في سيرته (٢) .

وكثر الشعر الذي يمجّد فتح البطل بيت المقدس ، إلا أن هذه الأشعار في الغالب تعبر عن نشوة النصر ، وتركز على إثارة العواطف بألاليب شتى ، وقد حوت بعض هذه الأشعار حقائق تتفق مع التاريخ ، فيذكر الشعراء ما قام به صلاح الدين من محولات الشراك ، كرفع الأذان ، ولزالة الصليبان ، ويذكر أحد الشعراء أنه مر على احتلال بيت المقدس تسعون عاماً ولم يقم أحد من ملوك المسلمين بتحريره (٣) .

ونجد في الشعر ربطاً بين معارك صلاح الدين ومعارك المسلمين الأوائل الكبرى ؛ فقد ربط بعض الشعراء بين حصار الاسكندرية سنة ٥٦٢ هـ وحصار "المدينة المنورة" زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وربطوا بين وقعة مرج عيون ووقعة "حنين" ، وربطوا بين "حطين" و"القادسية" زمن عمر بن الخطاب ، وقرنوا فتح "بيت المقدس" بفتح الخليفة عمر للمدينتين وفتح مكة زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك من أجل الاستثارة الدينية ، وصوت الحماس في النفوس ، وقد قلّ مثل هذا الربط في المصادر التاريخية ، وإن ايس من شأن المؤرخ الهباب العواطف وتحميس المعقاتين .

وتحدث الشعراء عن الأسرى الفرنج الذين أسرههم البطل وجنده ، فقد بين أن عدداً كبيراً من قادة الفرنج وجيشهم ، ونسائهم قد أسروا ، وأنهم أصبحوا يباعون بأبخس الأثمان (٤) ، وكان من بين الأسرى "البرنمن أرناط" ، الذي قتله صلاح الدين لفدرة بالمسلمين من قبل ، وصور الشعراء حل بملك بيت المقدس من ذعر وخوف نتيجة هذا الموقف (٥) ، وقد انتهت

- (١) أنظر ما سبق ص ١٤٧ .
- (٢) أنظر النوار السلطانية ص ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٩ .
- (٣) أنظر الفصل الثاني من هذه الدراسة ص ١٤٨ - ١٥٠ .
- (٤) أنظر الفصل الثاني من هذه الدراسة ص ١٤٢ ، ١٤٤ .
- (٥) أنظر الفصل الثاني من هذه الدراسة ص ١٤٢ - ١٤٤ ، وانظر ص ٣٢٧ ، ٣٢٨ .

خاتمة

محمد ، فهذه دراسة تناوأت موضوع " صلاح الدين في الشعر العربي في فترة الحروب الصليبية " يستشف من خلالها أن للشعر دورا ، كما هو للتاريخ ، في الكشف عن أبعاد الأمة ، الذين استشهدوا في سبيل الدفاع عن الاسلام ، وتحرير المقدسات ، والذين ينتظرون ، وما بداوا تبديلا .

قدمت هذه الدراسة باديء ذي بدء ، احقة عامة عن حركة الشعر في عهد صلاح الدين ، فبيّنت أنها حركة نشطة مستمرة باستمرار الحياة ، وأنها صدى وانعكاس لحياة الناس آنذاك في شتى الميادين .

وقدّمت صورة واضحة المعالم عن سيرة صلاح الدين ، وبيّنت بعض التفضيلات عين حياته العامة والخاصة ، كما بيّنت الصفات الرفيعة التي تحلت بها شخصيته ، وأنها صفات الشخصية الإسلامية .

وأبانت الدراسة عن كفاية صلاح الدين السياسية والإدارية ، حيث أظهرت قدرته على التعامل مع من حوله من الجهات السياسية ، فقد ظهرت قدرته على إخماد الفتن والثورات الداخلية في مصر ، وعلاقته بالدولة الفاطمية وسياسته الحكيمة في التخلص من الخطبة لها على المنابر ، واستطاع أن يكسب ولاء الخلافة العباسية ، لتكون له سندا في وحدة البلاد والتمسدي للأعداء ، وبيّنت الدراسة علاقته الحسنة بهنور الدين ، واتباعه سياسة حكيمة تجاه أمراء الشام ، مؤثرا : دعوتهم إلى الصلح والانضواء تحت لوائه ، أو قتالهم لتحقيق الوحدة ، مع قدرته على المحافظة على الجبهة الداخلية للبلاد ، والتمسدي للأعداء ، وسياسته معهم .

وبيّنت الدراسة تمسك صلاح الدين بالشرعية الإسلامية في سياسته ، وجهاده ، وإدارته لدفة دولته .

وبيّنت الدراسة جهد صلاح الدين في وحدة البلاد بعد موت نور الدين ، وأن هذا الجهد كان جسرا لفتح بيت المقدس الذي تآقت نفوس نور الدين إليه من قبل ، كما بيّنت دور الشعراء في حث القائد على هذه الوحدة ، والوقوف بجانبه من أجل تحرير بيت المقدس .

وأبرزت الدراسة صلاح الدين بطلا مسامحا مؤمنا بأن الجهاد فرض من فروع الإسلام ، كما أبرزته قائما على حماية هذا الدين ، جاعلا كلمة الله هي العليا ، وأنه كان قائدا عسكريا ناجحا ، تمثلت في شخصيته سمات فضلى .

وتتبعت هذه الدراسة البطال في معاركه ضد الأعداء ، منذ أن كان قائدا في جيش عمه أسد الدين جنى وفاته سنة ٥٨٩ هـ . ، وسجلت بعض تفصيلات هذه المعارك ، تلك التفصيلات التي أثرت هذا البحث ، إذ أنها تحدثت عن عناصر متعددة في المعركة ، كالحدث عن الجيشين ، والأسلحة ، والقادة ، ومواقع المعارك والقلاع والحصون ، وفيه ذك ، وهنا ينبغي أن يشار إلى أن هذه الدراسة كشفت عن مادة غنية تناولت بأسه حساب العناصر المذكورة في معارك سنة ٥٨٣ هـ . باعتبارها المعارك الحاسمة ضد الصليبيين التي توجت بفتح بيت المقدس وقدّمت الدراسة في هذا المجال صورة لصلاح الدين فاتح بيت المقدس ، وأم تدور الشعراء في حث القائد وتمنيته بالفتوحات والمعارك ، وقدّمت الدراسة صورة عن صلاح الدين المقتدي بالسلف الصالح من الخلفاء والأنبياء .

ومن هذا البحث حب صلاح الدين للشعر ، كما بيّن أنه كان له مجالس شعر ، كان يستمع فيها لما يقواه الشعراء ، بل كان ينقد أحيانا ما يعرض عليه منه ، ثم كشف هذا البحث عن علاقة صلاح الدين بالشعراء تلك العلاقة القائمة على الرعاية والمحبة ، إضافة إلى تسوية بعضهم مناصب يستحقونها في دولته ، وبيّنت أن صلاح الدين لم يكن راضيا عن بعض الشعراء لسبب سياسي يتمثل بالاتصال بالفرنج ، أو لسبب اجتماعي يتمثل في تلب أعراض الناس ؛ لذا أوقع بهم العقوبات التي يستحقونها ، غير خارج عن حكم الشرع .

وعلى المستوى الفني ، فقد تناوأت الدراسة أهم السمات الفنية للشعر بالتحميل ،
فتبين من ذلك أن الشعراء قد حافظوا على الصورة الأصلية للشعر العربي ، لاسيما فني
العصر العباسي ، من حيث : بناء القصيدة ، واللغة والأسلوب ، والصورة الشعرية ،
وقد كان الشعراء يراعون ذلك عن وعي منهم لهذا الشعر ، دون أن تمنعهم تلك المحافظة
من التعبير عما يجول في صدورهم نحو البطل المدحج ، مع ملاحظة التجديد أو التوليد
في بعض المعاني والصور .

وقد ظهر من خلال هذا التحليل نوعان من القوائد التي تمجد ملاح الدين :
قوائد تستعمل بعقد مات غزلية ، وغالبا ما يحسن الشعراء التخلل إلى المدح ، وقوائد تبدأ
بدايات حاسمة موحية معبرة عن الموضوع والغرض الأساسي فيها .

كما ظهرت القوائد المطولة ، لاسيما القوائد القدسية ، والمقطوعات الشعرية
التي تتناول فكرة موجزة سريعة في ذهن الشاعر ، كما أن بعض الشعراء نظموا الموشحات
والدميات .

وتؤكد الدراسة أن جل الشعراء الذين مدحوا ملاح الدين ، قد اتسمت أشعارهم
بالبديح ، إلا أن معظم هذا الشعر مرام يفسد ، ولم يظهر في كثير منه التكلف أو التعقيد .
وأكدت الدراسة مطابقة الشعر للتاريخ ، وأن كلا منهما سند الآخر ، متم لسه ،
ولا ينفصل عنه .

ومن أهم النتائج التي افرزتها هذه الدراسة أن الشعراء أدوا دورا فعالا في وحدة
البلاد ، حيث شجعوا في حب القائد على الوحدة وتمنيته لضم البلاد الإسلامية ، كما أدوا
دورا ذات قيمة عظمى يتمثل في حب القائد على كسر شوكة الأعداء وارجاع الأراضي المحتلة
والمقدسات من أيديهم ، وهم يصدرون في ذلك عن عواطف جياشة تجاه بطالهم ووطنهم
ودينهم ، يهيبون عن الاقليمية ، وسعيرين تعبيرا صادقا عن مشاعر الأمة جمعاء .

وأم يهتم دور الشعراء على الكلمة ، بل نجد ان عددا منهم كان يخوض مع صلاح الدين أعنف معاركه .

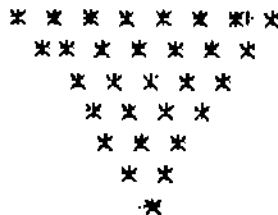
وكشفت الدراسة عن أسماء عشرات من هؤلاء الشعراء ، وترجمت لمعظمهم ، وأثبتت كثيرا من أشعارهم الموزعة في المصادر المختلفة ، مما يحفز الباحثين على التدقيق عنهم وعن أشعارهم .

وأثبتت الدراسة من خلال غزارة المادة الشعرية وكثرة الشعراء أن الشعر العربي في تلك الفترة استمر في النمو والتقدم ، وأن جذوته لم تخفت أو تنطفيء ، كما يتصور بمسئري دارسي الأدب العربي لفترة الحروب الصليبية بشكل عام ، إذ وصفوا هذه الفترة بالانحطاط والجمود والتأخر الفكري والأدبي .

والله أرجو ان تكون هذه الدراسة قد أضافت جديدا إلى ما قدمه الباحثون في الأدب العربي في فترة الحروب الصليبية خاصة ، والأدب العربي عامة .

وأخيرا أسأل الله أن اكون قد أصبت في بحثي هذا ، إذ لا توفيق إلا بالله ، ولن زلت بي القدم ، فأرجو العفو من العفو الغفور .

والحمد لله أولا وآخرا



ثبت المصادر والمراجع
=====

— القرآن الكريم —

١. إبراهيم السامرائي : في لغة الشعر، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان ١٩٨٤.
٢. أبركزي لاسـل : قواعد النقد الادبي ، ونقله إلى اللغة العربية : محمد عوض محمد ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، دون تاريخ .
٣. ابن الأثير (ت: ٦٣٧هـ) ، ضياء الدين : الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام المنشور، تحقيق وتعليق : مصطفى جواد ، وجميل سعيد ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٩٥٦.
٤. ابن الأثير (ضياء الدين) : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، قدّسه وحققه وعلق عليه : أحمد الجوفي ، وبدوى طبانة ، مكتبة نهضة مصر، الطبعة الاولى بالقاهرة : ج ١ : ١٩٥٩ ، ج ٢ : ١٩٦٢ .
٥. ابن الأثير (عزالدين) ، علي بن أبي الكرم ، محمد بن محمد بن عبد الكريم — عبد الواحد الشيباني ، المعروف بابن الأثير : (ت ١٢٠ هـ) : التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية (بالوصل) وتحقيق : عبد القادر أحمد طلحيات ، دار الكتب الحديثة — القاهرة ١٩٧٩ .
٦. ابن الأثير (عزالدين) : الكامل في التاريخ ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٩ .
٧. احسان عباس : تاريخ النقد الادبي عند العرب ، نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثالث الهجري ، دار الامانة ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الاولى ، بيروت — لبنان ١٩٧١ .
٨. احسان عباس : فن الشعر، نشر وتوزيع دار الثقافة — بيروت — لبنان ، الطبعة الخامسة ، ١٩٧٥ .

٩. أحمد أحمد بدوي : الحياة الادبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ،
الطبعة الثانية ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة -
القاهرة (دون تاريخ) .
١٠. أحمد أحمد بدوي : الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ،
دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة - القاهرة (دون تاريخ) .
١١. أحمد أحمد بدوي : القاضي الغاضل (دراسة ونماذج) ، مكتبة نهضة مصر
بالقاهرة ، ١٩٥٩م .
١٢. أحمد الشايب : الأسلوب : دراسة نقدية تحليلية لأصول الأساليب
الأدبية ، المطبعة الفاروقية ، ١٩٢٩م .
١٣. أحمد الشايب : أصول النقد الأدبي ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة
الثانية ، ١٩٧٣م .
١٤. أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ، الطبعة
السادسة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٢م .
١٥. أحمد الشنقاوي ، ابراهيم خورشيد : دائرة المعارف الاسلامية ، خوارزم
- فوست - الجزء التاسع .
١٦. أحمد عبد الجواد الروي : صلاح الدين الأيوبي ، الناصر لدين الله ، منشورات
المكتبة المصرية ، صيدا - بيروت - (دون تاريخ) .
١٧. أحمد المرشلي ، عبد الهادي حاشم ، أنيس الصايغ : الموسوعة الفلسطينية ، المجلد
الأول ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٤م .
١٨. أسامة بن منقذ (ت : ٥٨٤هـ) : كتاب الاعتبار ، تحقيق وتقديم : قاسم السامرائي ،
مؤسسة دار الأصاله للثقافة والنشر والاعلام ، الرياض ، ١٩٨٧م .
١٩. أسامة بن منقذ : الهدية في البديع في نقد الشعر ، حققه وقدم له : عبد آ .
علي سنها ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة
الأولى ، ١٩٨٧م .

٢٠. أسامة بن مقبـــــــد : ديوان أسامة ، حققه وقدم له : أحمد أحمد بدوي ، وحامد
عبد المجيد ، عالم الكتب ، الطبعة الثانية ١٩٨٣م .
٢١. ابن أبي أصيبعة (ت : ٥٦٦هـ) : موفق الدين أبو العباس ، أحمد بن القاسم بن
خليفة بن يونس السعدي الخزرجي المعروف بابن أبي أصيبعة :
عيون الأبناء في طبقات الأطباء ، شرح وتحقيق : نزار رضا ،
منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦٥م .
٢٢. أسنة البيطار : تاريخ العصر الأيوبي ، دار الطباعة الحديثة بدمشق ، ١٩٨١ -
١٩٨٢م .
٢٣. ابن رياس الحنفي ، محمد بن أحمد : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق : محمد
مصطفى ، الجزء الأول ، القسم الأول ، الطبعة الأولى ، دار
النشر : فرانز شتاينر فيبادن ، ١٩٧٥م .
٢٤. البحتـــــــــــــري : ديوان البحتري ، عن تحقيقه وشرحه والتعليق عليه :
حسن كامل الصيرفي ، دار المعارف ، ١٩٦٣م .
٢٥. بسام المسلي : صلاح الدين الأيوبي ، دار النفائس ، بيروت ، الطبعة الثانية ،
١٩٨٠م .
٢٦. البكري ، أبو عبيد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي (ت : ٤٨٧هـ) : معجم
استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، تحقيق : مصطفى
السقا ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة
والنشر ، ١٩٤٥م .
٢٧. البغدادي ، الفتح بن علي : سنا البرق الشامي ، مختصر كتاب البرق الشامي للعباد
الأصفهاني ، تحقيق : فتحية النبراوي ، مكتبة الخانجي بدمشق ،
١٩٧٩م .

- ٣٦ . الجرجاني ، عبد القاهر الجرجاني : دلائل الاعجاز في علم المعاني ، صححه وعلّق حواشيه : محمد رشيد رضا ، مكتبة القاهرة ، (١٩٦١) .
- ٣٧ . الجرجاني ، علي بن عبد العزيز الجرجاني (ت : ٣٩٢ هـ) : الوساطة بين المتبهي وخصومه ، تحقيق وشرح : محمد أبو الفضل إبراهيم ، علي محمد البجاوي ، الطبعة الأولى ، دار احياء الكتب العربية ، (١٩٤٥) .
- ٣٨ . الجلياني ، عبد المنعم محمد بن حسان الفسائي الأندلسي الجلياني : ديوان التدبّيع أو : ضاح الساج وروضة المآثر والمفاخر في خصائص الملك الناصر * ، مخطوط ، نسخة صورة بالقاعة الهاشمية في مكتبة الجامعة الاردنية ، رقم ١٩٩ .
- ٣٩ . الجلياني : ديوان المشرقات والقدسيات ، جمع وتحقيق ودراسة : د . عبد الجليل عبد المهدي ، دار البشير للنشر والتوزيع ، (١٩٨٩) .
- ٤٠ . الحاتمي ، أبو علي محمد بن الحسن الحاتمي الكاتب (ت : ٣٨٨ هـ) : الرسالة الموضحة في ذكر سرقات أبي الطيب المتنبي وساقط شمعة ، تحقيق : محمد يوسف نجم ، دار صادر - دار بيروت ، بيروت ، (١٩٦٥) .
- ٤١ . ابن حجة الحموي ، تقي الدين أبو بكر علي ، المعروف بابن حجة الحموي (ت : ٨٣٧ هـ) : خزانة الأدب وغاية الأرب ، مطبعة بولاق ، (١٨٧٤) .
- ٤٢ . ابن حجة الحموي : ثمرات الاوراق في المحاضرات ، شرحه وضبطه : منيد محمد قحمة ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان - الطبعة الاولى ١٩٨٤ .
- ٤٣ . حسن ، حسن : أسامة بن منقذ : حياته وآثاره : أسامة بن منقذ حياته وشعره ، الجزء الاول ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الاسكندرية (دون تاريخ) .

- ٤٤ . حسين مؤسس : نور الدين محمود (سيرة مجاهد صادق) الدار السمودية للنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٤م .
- ٤٥ . حسين مؤسس : الأطلس التاريخي ، مؤسسة الزمراء للإعلام العربي ، الطبعة الاولى ، ١٩٧٧م .
- ٤٦ . الحميري ، محمد بن عبد الخضم الحميري (ت : ١٠٠ هـ) : الروض المطار في خبر الأقطار ، تحقيق احسان عباس ، مكتبة لبنان - بيروت - ١٩٧٥م .
- ٤٧ . الحنبلي ، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد العلبي القدسي ، الحنبلي ، أبو اليمن ، مجير الدين (ت : ٩٢٨ هـ) : الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، مكتبة المحاسب ، عمان - الاردن - ١٩٧٣م .
- ٤٨ . ابن خلدون ، عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي المغربي (٨٠٨ هـ) : تاريخ ابن خلدون المسمى - كتاب المهر وديوان الهنداء والخسبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، مؤسسة الأعلي للمطبوعات ، بيروت - لبنان - ١٩٧١م .
- ٤٩ . ابن خلكان (ت : ٦٨١) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، ١٩٦٨ ، دار صادر ، بيروت لبنان ، ١٩٦٩م .
- ٥٠ . دريد عبد القادر نوري : سياسة صلاح الدين الأيوبي في بلاد مصر والشام والجزيرة بفداد ، مطبعة الارشاد ، ١٩٧٦م .
- ٥١ . ابن الدمان ، أبو الفرج مذهب الدين عبد الله بن أسعد الوصل (ت : ٥٨١ هـ) : حقه عبد الله الجبوري ، مطبعة المعارف ، بفداد ، الطبعة الاولى ، ١٩٦٨م .

- ٥٢ . الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) : دول الاسلام في التاريخ ، مطبعة دائرة المعارف
النظامية ، حيدرآباد ١٩١٢ م .
- ٥٣ . الذهبي : سير اعلام النبلاء ، تحقيق بشارة عواد معروف ، محيي هلال
السرحدان ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٤ م .
- ٥٤ . الذهبي : المعبر في خبر من غير ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، طبع
في مطبعة حكومة الكويت ١٩٦٣ م .
- ٥٥ . ابن رشيح القيرواني (ت ٥٦٤ هـ) : المصدا في محاسن الشعر وآدابه ، حققه وفصله
وعلق حواشيه محمد محيي الدين عبد الحميد ، الطبعة الثانية
المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ، ١٩٦٣ م .
- ٥٦ . رنسيان ، ستيفنسن رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية ، نقله إلى العربية السيد
الباز المعري ، دار الثقافة - بيروت - لبنان ، الطبعة
الأولى ، ١٩٦٨ م .
- ٥٧ . زاهد : معجم الأثساب والأشراط الحاكمة في التاريخ الاسلامي ،
أخرجه زكي محمد حسن ، وحسن أحمد محمود ، مطبعة
جامعة قواء الاول ١٩٥١ م .
- ٥٨ . الزبيدي ، المرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥ هـ) : ترويح القلوب في ذكر الطوائف بنسبي
أيوب ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٦٩ م .
- ٥٩ . الزركلي ، خير الدين الزركلي : الأعلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة
السادسة ١٩٨٤ م .
- ٦٠ . ابن الساعاتي (ت ٦٠٤ هـ) : ديوان ابن الساعاتي ، تحقيق أنيس المقدسي ،
المطبعة الاميركانية ، بيروت ، الجزء الاول ١٩٦٨ م . الجزء
الثاني ١٩٦٩ م .

- ١١٠ . سامي مكي ، هلال ناجي : أبوالمين تاج الدين ، زهد بن الحسين الكندي البغدادي المتوفي سنة ١١٣ هـ ، (حياته وما تبقى من شعره) ، الطبعة الاولى ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٧٧ م .
- ١١٢ . سبط ابن التعاويذي : ديوان ابن التعاويذي ، اعتنى بنسخه وتصحيحه د . س . مرجليوت ، دار صادر ، ١٩٠٣ م .
- ١١٣ . سبط ابن الجوزي (ت ٦٥٤ هـ) : مرآة الزمان في تاريخ الاعيان ، الطبعة الاولى ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدآباد ، ١٩٥١ م .
- ١١٤ . السبكي ، تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي (ت ٧٧٢ هـ) : طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق محمود محمد الطناجسي ، عبد الفتاح محمد الحلوة ، الناشر عيسى الحلبي وشركاه ، الطبعة الاولى ، ١٩٧٠ م .
- ١١٥ . سميد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية (صفحة مشرقة من تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى) ، الجزء الثاني ، مكتبة الانجلو المصرية الطبعة الاولى ١٩٦٣ م . ، الطبعة الثانية ١٩٧٦ م .
- ١١٦ . ابن سناء الملك (ت ٥١٠ هـ) : دار الطراز في عمل الموشحات ، تحقيق جودت الركابي ، الطبعة الثانية ، دار الفكر بدمشق ، ١٩٧٧ م .
- ١١٧ . ابن سناء الملك : ديوان ابن سناء الملك ، تحقيق محمد ابراهيم نصر ، مراجعة حسين محمد نمار ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٧ م .
- ١١٨ . سهيل زكــــــــــــــــسار : حطين مسيرة التحرير من دمشق إلى القدس ، دار حسسان للطباعة والنشر ، دمشق ، الطبعة الاولى ، ١٩٨٤ م .
- ١١٩ . السيد الباز العربي : الشرق الادنى في العصور الوسطى (الايوبيون) ، دار النهضة للطباعة والنشر ، ١٩٦٧ م .

٥٧٠. السيوطي (ت ٩١١ هـ) : بنية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق
محمد ابوالفضل ابراهيم ، طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي
وشركاه ، ط ١٩٦٥ م .
٥٧١. السيوطي : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، ج ١ + ٢ ، القاهرة
مصطفى فهمي الكتبي ، ١٩٠٢ م .
٥٧٢. ابن شاعر الكتبي (ت ٧٦٤ هـ) : عيون النواير ، تحقيق فيصل الباسم ، نبيلا
عبد النعم داود ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٧٧ م .
٥٧٣. ابن شاعر الكتبي : فوات الوفیات ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ،
١٩٧٤ م .
٥٧٤. أبو شامة المقدسي ، شهاب الدين ابو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل المعروف
بأبي شامة المقدسي الدمشقي (ت ٦٦٥ هـ) : تراجم رجال
القرنين السادس والسابع ، المعروف بالذهيل على الروضتين ،
صححه محمد زاهد بن الحسن الكوثري ، غني بنشره ومراجعة
أصله عزت العطار الحسيني ، دار الجيل ، بيروت ،
ط ١ ١٩٤٧ ، ط ٢ ١٩٧٤ م .
٥٧٥. أبو شامة المقدسي x : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (الغورية والصلاحية)
ج ١ : تحقيق محمد حلي أحمد ، مراجعة محمد مصطفى
زيادة - القسم الأول : ١٩٥٦ ، القسم الثاني : ١٩٦٢ ،
القاهرة ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، المؤسسة المصرية
العامة للتأليف والطباعة والنشر .
- x كتاب الروضتين في أخبار الدولتين - ج ١ ، ج ٢ - دار الجيل
بيروت (دون تاريخ) .
٥٧٦. ابن شداد ، بهاء الدين ابن شداد (ت ٦٣٢ هـ) : النوادر السلطانية والمحاسن
اليوسفية ، المعروف بسيرة صلاح الدين ، تحقيق جمال الدين
الشيال ، ط ١ ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٤ م .

٥٧٧. ابن شداد، عز الدين محمد بن علي بن ابراهيم الحلبي (ت ٦٨٤هـ) : الاعلاق
الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، عن بنشره وتحقيقه
ووضع فهرسه سامي الدمان، المعهد الفني للدراسات
العربية، دمشق ١٩٦٢م.
٥٧٨. شوقي ضيف : عصر الدول والامارات في مصر والشام، دار المعارف، القاهرة
١٩٨٤م.
٥٧٩. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أبيه الصفدي : نكت الهميان في نكت الهميان،
وقف علي طبعه أحمد زكي، المطبعة الجمالية، مصر ١٩١١م.
٥٨٠. الصفدي، صلاح الدين : الوافي بالوفيات، ج ١ : باعتناء هلموث ريتز، الطبعة
الثانية، دار النشر فرانز شتاينر بميسيان، ج ٢ : باعتناء
س. د. س. رينغ، استنبول، وزارة المعارف، ١٩٤٩م. ج ١٢
باعتناء رمضان عبدالنواب، ١٩٧٩م. ج ١٥ : باعتناء برنارد
راتكه، ١٩٧٩م.
٥٨١. صفى الدين البغدادي، عبد المؤمن بن عبد الحق (ت ٧٢٩هـ) : مرآة الاطلاع
على أسماء الأمكنة والبقاع، وهو مختصر معجم البلدان، تحقيق
علي محمد البجاوي، دار احياء الكتب العربية، ١٩٥٤م.
٥٨٢. صفى الدين الحلبي، عبدالعزيز السنهسي (ت ٧٥٥هـ) : شرح الكافية البديمية
في علوم البلاغة وسعاسن البديع، تحقيق نسيب نشاوي،
مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق ١٩٨٢م.
٥٨٣. أبوطاهر البغدادي، محمد بن حيدر (ت ٥١٧هـ) : قانون البلاغة في نقد النثر
والشعر، تحقيق محسن غياض عجيل، مؤسسة الرسالة،
بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨١م.

- ٨٤ . الطباخ الحلبي ، محمد راغب بن محمود هاشم : أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء .
الطبعة الأولى ، ١٩٢٤ م .
- ٨٥ . ابن طباطبا ، محمد بن أحمد العلوي (ت ٣٢٢ هـ) : عيار الشعر ، شرح وتحقيق
عباس عبد الساتر ، مراجعة نعيم ززور ، دار الكتب العلمية ،
بيروت ، لبنان - الطبعة الأولى ١٩٨٢ م .
- ٨٦ . عادل جابر صالح محمد : شعر ابن القيسراني ، رسالة دكتوراة ، بإشراف
محمود إبراهيم ، الجامعة الأردنية ، ١٩٨٢ م .
- ٨٧ . عبد الجليل عبد المهدي : بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية ٩٢-٤٦٤ هـ
دار البشير ، عمان ١٩٨٩ م .
- ٨٨ . عبد الجليل عبد المهدي : بيت المقدس في شعر الحروب الصليبية (٩٢-٤٦٤ هـ)
دار البشير للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ١٩٨٩ م .
- ٨٩ . عبد الجليل عبد المهدي : الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصر
الأيوبي والسلوكي ، مكتبة الأقصى ، عمان ، الأردن ١٩٨٠ م .
- ٩٠ . عبد الجليل عبد المهدي : الحياة الأدبية في الشام في القرن الخامس الهجري ،
مكتبة الأقصى ، عمان ، الطبعة الأولى ١٩٧٧ م .
- ٩١ . العبدري ، محمد بن محمد العبدري الحبيبي : رحلة العبدري المسماة الرحلة
المغربية ، حققه وقدم له وعلق عليه محمد الفاسي - الرباط -
١٩٦٨ م .
- ٩٢ . عبد العزيز الأهواني : ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر ،
مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٢ م .
- ٩٣ . عبد القادر محمود : الفلسفة الصوفية في الإسلام ، دار الفكر العربي ، القاهرة ،
١٩٦٧ م .

- ١٤٠ . عبد الكريم توفيق العبود : الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد (٥٤٢ - ٦٥٦ هـ) ، منشورات وزارة الاعلام الجمهورية العراقية - ١٩٧٦ م .
- ١٥٠ . عبد الله ناصح علوان : صلاح الدين الأيوبي (بطل حطين ومحرر القدس) - الصليبيين ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع ، ط ٦ ، ١٩٨٥ م .
- ١٦٠ . عبد اللطيف البغدادي : الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعانيمة بأرض مصر ، تحقيق أحمد غسان سبانو ، نشر وتوزيع دار قتيبة - دمشق - ١٩٨٣ م .
- ١٧٠ . عبد اللطيف حمزة : أدب الحروب الصليبية ، الطبعة الثانية ، دار الفكر - ١٩٨٤ م .
- ١٨٠ . عبد الواحد حسن الشيخ : قضايا النقد الأدبي والبلافة عند اللغويين في القرن الثالث الهجري ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٠ م .
- ١٩٠ . ابن العديم ، عمر بن أحمد بن هبة الله ، كمال الدين (ت ٦٦٠ هـ) : زبدة الحلب من تاريخ حلب ، نشره وحققه ووضع فهرسه سامي الدهان ، ١٩٦٨ م .
- ١٠٠ . ابن عساكر (ت ٥٧١ هـ) : الحافظ ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي المعروف بابن عساكر : تهذيب تاريخ دمشق الكبير ، الجزء الرابع والجزء السابع ، دار الميسرة ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٧٩ م .
- ١٠١ . العسقلاني ، شهاب الدين أبو الفضل ، أحمد بن علي بن حجر (ت ٨٥٢ هـ) : لسان الميزان ، الجزء السادس ، منشورات مؤسسة الأعلمسي للطبوعات ، الطبعة الأولى ، بيروت ، لبنان ، ١٩٧١ م .

- ١٠٢ . العصامي الحكي ، عبد الملك حسين بن عبد الملك العصامي الحكي : سبط النجوم
الموالي في أنباء الاوائل والتوالي ، الجزء الرابع ، المطبعة
السلطانية (دون تاريخ) .
- ١٠٣ . أبوالمعالي المعري (ت ٩٤٤ هـ) : ديوان سقط الزند ، شرح وتعليق د . ن . رضا ،
منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦٥ ، وشرح سقط
الزند ، تحقيق مصطفى السقا ، وعبد الرحيم محمود ، وعبد السلام
هارون ، وابراهيم اليازجي ، وحامد عبد المجيد ، بإشراف الدكتور
طه حسين ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، السفسر
الثاني ، القسم الرابع - ع .
- ١٠٤ . علي بن موسى ، أبو الحسن ، ابن سعيد الاندلسي : (ت ٦٨٥ هـ) : الفصول الياضعة
في محاسن شعراء المائة السابعة ، بتحقيق ابراهيم اليازجي ،
دار المعارف بمصر ، (دون تاريخ) .
- ١٠٥ . العباد الاصفهانسي (ت ٩٧٧ هـ) : البرق الشامي ، ج ٣ : تحقيق مصطفى الحماري ،
الطبعة الأولى ، مؤسسة عبد الحميد شومان ، ١٩٨٧ م .
- ج ٥ : تحقيق وتقديم فالح صالح حسين ، الطبعة الأولى ،
مؤسسة عبد الحميد شومان ، ١٩٨٧ م .
- ١٠٦ . العباد الاصفهانسي : خريدة القصر وخريدة العصر :
x قسم شعراء الشام ، عنى بتحقيقه شكري فيصل ، المطبعة
الهاشمية بدمشق ، ج ١ : ١٩٥٥ ، ج ٢ : ١٩٥٨ ، ج ٣ : ١٩٦٤ ،
بداية قسم شعراء الشام ، الشعراء الامراء ١٩٦٨ م .
- x قسم شعراء مصر ، نشره أحمد أمين ، وشوقي ضيف ، وإحسان
عباس ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥١ م .

- × قسم شعراء العراق ج ١ : حققه وضبطه وشرحه وكتب مقدمته :
محمد بهجت الأثرى ، أعد أصله وشارك في تحقيقه ومعارضة
نسخه ، وصنع فهرسه جميل سعيد ، ١٩٥٥ م .
ج ٢ : تحقيق محمد بهجت الأثرى ، ١٩٦٤ م .
ج ٣ : حققه وشرحه محمد بهجت الأثرى ، وزارة الثقافة
الجمهورية العراقية +

- ١٠٧ . العماد الاصفهاني : ديوان العماد الاصفهاني ، تحقيق ناظم رشيد ، ١٩٨٣ .
١٠٨ . العماد الاصفهاني : الفتح القسي في الفتح القدسي ، تحقيق وتقديم محمد
محمود صبح ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٥ .
١٠٩ . ابن العماد الحنبل : هداية ، أبو الفلاح بن العماد الحنبل (ت ١٠٨٩ هـ) :
شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، دار المسيرة ، ١٩٧٩ .
١١٠ . عمارة اليمنى : نجم الدين عمارة بن أبي الحسن الحكيم اليمني (ت ٥٦٧ هـ) :
اعتناء وتصحيح هرتويغ درنبرغ ، باريس ، ١٨٩٧ م .
١١١ . عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين ، مكتبة المشي ، ودار احياء التراث العربي للطباعة
والنشر ، بيروت ، لبنان ، ١٩٥٢ م .
١١٢ . عمر كمال توفيق : الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين (دراسات
تحليلية وثائقية في التاريخ الدبلوماسي ، ٤٩١ - ٦٩٠ هـ) :
مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر ، الاسكندرية ، ١٩٨٦ م .
١١٣ . عمر موسى باشا : الأذنب في بلاد الشام : عصور الزنكيين والأيوبيين والساليك
المكتبة الحباسية ، دمشق ، ١٩٧٢ م .
١١٤ . فتيان الشاغوري (ت ٦١٥ هـ) : ديوان فتيان الشاغوري ، تحقيق أحمد الجنسدي ،
مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، المطبعة الهاشمية
بدمشق ، ١٩٧٦ م .

- ١١٥ . أبو الفداء ، عماد الدين إسماعيل (ت ٧٣٢ هـ) : المختصر في أخبار البشر ، دار الكتاب اللبناني - بيروت ، المجلد الثاني ، ١٩٦٠ م .
- ١١٦ . أبو فراس الحمداني : ديوان أبي فراس ، دار صادر ، دار بيروت ، بيروت ١٩٦١ م .
- ١١٧ . فنسك ، وآخرون : دائرة المعارف الإسلامية ، ترجمة محمد ثابت الفسيدي ، أحمد الشنتناوي ، إبراهيم زكي خورشيد ، عبد الحميد يونس ، طهران ، انتشارات جهان (دون تاريخ) .
- ١١٨ . الفيروز آبادي ، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٧ هـ) : القاموس المحيط ، دار الجيل ز ، بيروت ، (دون تاريخ) .
- ١١٩ . ابن قاضي شهبه (ت ٨٧٤ هـ) : الكواكب الدرية في السيرة النورية ، تحقيق إسحاق محمود زايد ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، لبنان ، ١٩٧١ م .
- ١٢٠ . القاضي الفاضل (ت ٥٩٦ هـ) : ديوان القاضي الفاضل ، الجزء الأول تحقيق أحمد أحمد بدوي ، مراجعة إبراهيم الأبياري ، دار المعرفة ، القاهرة الطبعة الأولى ، ١٩٦١ م .
- ١٢١ . قدامة بن جعفر (ت ٣٢٧ هـ) : نقد الشعر ، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان (دون تاريخ) .
- ١٢٢ . قدری قلمجسي : صلاح الدين الأيوبي (قصة الصراع بين الشرق والغرب خلال القرنين الثاني والثالث عشر للميلاد) ، دار الكتاب العربي ، الطبعة الخامسة ، ١٩٧٩ م .
- ١٢٣ . القرطاجني ، حازم القرطاجني ، أبو الحسن (ت ٦٨٤ هـ) : منهاج البلفاء وسراج الأدياء ، تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة ، دار الكتب الشرقية ، تونس ، ١٩٦٦ م .
- ١٢٤ . القرمانسي ، أبو العباس ، أحمد بن يوسف ، أحمد الدمشقي القرمانسي : أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ ، عالم الكتب ، (دون تاريخ) .

- ١٢٥ . القزويني ، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني (ت ٧٣٩ هـ) : التلخيص
في علوم الخلافة ، ضبطه وشرحه عبد الرحمن البرقوقي ، دار
الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ١٩٠٤ م .
- ١٢٦ . القفطي ، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي : إنباء الرواة على أنباء
النحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، دار الكتب
المصرية ، ١٩٥٢ م .
- ١٢٧ . ابن قلاؤس ، ديوان ابن قلاؤس ، تحقيق سهام الفريخ ، مكتبة العملاء ، الكويت ،
الطبعة الأولى ، ١٩٨٨ م .
- ١٢٨ . القلقشندي ، أحمد بن علي القلقشندي (ت ٨٢١ هـ) : صح الأعشى في صناعة
الإنشاء ، شرحه ، وعلق عليه وقابل نصوصه محمد حسين شمس
الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة
الأولى ، ١٩٨٢ م .
- ١٢٩ . القلقشندي : مآثر الانافة في معالم الخلافة ، الجزء الثالث ، تحقيق
عبد الستار أحمد فراج ، الكويت ، ١٩١٤ .
- ١٣٠ . ابن كثير ، الحافظ ، اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي ، أبو الفداء (ت ٧٧٤ هـ) :
البداية والنهاية في التاريخ ، وفق أصوله وحققه أحمد
أبو ملح وأخرون ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ،
الطبعة الأولى ، ١٩٨٥ ، والثانية ، ١٩٨٦ ، والثالثة ،
١٩٨٧ م .
- ١٣١ . الكلاعي ، ذو الوزارتين ، أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي الشبيلي الأندلسي :
احكام صنعة الكلام ، تحقيق محمد رضوان الداية ، دار الثقافة ،
بيروت ، لبنان ، ١٩٦٦ م .

- ١٣٢ . كمال الدين عبدالرزاق القاشاني (القرن الثامن الهجري) : اصطلاحات الصوفية ، تحقيق وتعليق محمد كمال ابراهيم جعفر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مركز تحقيق التراث ، ١٩٨١م .
- ١٣٣ . لامب ، هارولد لامب : شعلة الاسلام (قصة الحروب الصليبية) ، ترجمة محمود عبدالله يعمقوب ، مراجعة جمال الشيال ، مكتبة المتنبي ، بغداد ، ١٩٦٧م .
- ١٣٤ . لويس ، دى سيميل : الصورة الشعرية ، ترجمة أحمد ناصيف الجنابي ، مالك مهري ، سليمان حسن ابراهيم ، مراجعة عناد فزوان اسماعيل ، مؤسسة الغايج للطباعة والنشر ، الكويت ، ١٩٨٢م .
- ١٣٥ . ليونز ، وجاكسون : صلاح الدين ، نقله الى العربية علي ماضي ، راجعه وحققه نقولا زيادة ، وفهبي سعد ، الأهمية للنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٨٨م .
- ١٣٦ . المتنبي : ديوان أبي الطيب المتنبي ، بشرح أبي البقاء العكبري المسمى بالتهيان في شرح الديوان ، ضبطه وصححه ووضع فهارسه مصطفى السقا ، و ابراهيم الابياري ، وعبد الحفيظ شليبي ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان (دون تاريخ) .
- ١٣٧ . محمد التنوخسي : المعجم الذهبي (معجم فارسي - عربي) ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦٩م .
- ١٣٨ . محمد حسن عبدالله : الصورة والبناء الشعري ، مؤسسة دار الكتب الثقافية ، الكويت ، ١٩٧٩م .
- ١٣٩ . محمد زغلول سلام : الأدب في العصر الأيوبي ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٧م .
- ١٤٠ . محمد زغلول سلام : ضياء الدين بن الاثير وجهوده في النقد والبلاغة ، منشأة المعارف بالاسكندرية (دون تاريخ) .

١٤١ . محمد عبدالعال أحمد : الأيوبيون في اليمن (مع مدخل في تاريخ اليمن الاسلامي
إلى عصرهم) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، فرع الاسكندرية

٢١٩٨٠ .

١٤٢ . محمد علي الصابوني : صفوة التفاسير ، دار القرآن الكريم ، بيروت ، الطبعة الأولى

٢١٩٨١ .

١٤٣ . محمد علي الهزفي : شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام ،
مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ٢١٩٨٠ .

١٤٤ . محمد فنيهي هلال : القائد الادبي الحديث ، دار العودة ، بيروت ، الطبعة
الأولى ، ٢١٩٨٢ .

١٤٥ . محمد القزاز : الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير
(٥١٢ - ٦٥٦) ، مطبعة الفضاء ، النجف ، ١٩٧١ .

١٤٦ . محمد كرد علي : خطط الشام ، المطبعة الحديثة ، دمشق ، ٢١٩٢٥ .

١٤٧ . محمود ابراهيم : حطين بين أخبار مؤرخيها وشعر معاصريها ، دار البشير ،
عمان ، ١٩٨٢ .

١٤٨ . محمود ابراهيم : صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ، دار البشير
للنشر والتوزيع ، عمان ، ١٩٨٨ .

١٤٩ . مظهر السوداني : الشعر العراقي في القرن السادس الهجري ، منشورات
وزارة الاعلام ، الجمهورية العراقية ، دار الرشيد ، ١٩٨٠ .

١٥٠ . ابن المستوفي ، شرف الدين أبو البركات ، المبارك بن أحمد اللخمي ، الاربلي ،
المعروف بابن المستوفي : تاريخ اربل المسمى : نباهة
البلد الخامل بين ورده من الاثائل ، حققه وعلق عليه سامي
الصقار ، القسم الاول ، منشورات وزارة الثقافة والاعلام ، العراق

٢١٩٨٠ .

- ١٥١ . مصطفى الديباغ : بلادنا في ديار الجليل - جند الاردن - الجزء الاول
القسم السادس ، دار الطليعة للطباعة والنشر والتوزيع
الطبعة الاولى ، ١٩٧٤م .
- ١٥٢ . ابن معصوم ، علي صدر الدين بن معصوم (ت. ١١٢ هـ) : أنوار الربيع في أنواع
البديع ، تحقيق شاكرو هادي شكر - الجزء الثالث ، مكتبة
المعرفان - كربلاء - العراق ، الطبعة الاولى ، ١٩٦٩م .
- ١٥٣ . المقرئ ، احمد بن محمد المقرئ التلساني : نفح الطيب من غصن الاندلس
الربط ، تحقيق احسان عباس ، المجلد الثاني ، دار صادر
بيروت ، ١٩٦٨م .
- ١٥٤ . المقرئ ، تقي الدين احمد بن علي المقرئ (ت. ٨٤٥ هـ) : اتماظ الحنفيا
بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، تحقيق محمد حلي أحمد ،
القاهرة ، ١٩٧٣م .
- ١٥٥ . المقرئ : السلوك لمعرفة دول الملوك ، معحه ووضع - واشيه محمد
مصطفى زيادة ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، مطبعة لجنسة
التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٦م .
- ١٥٦ . المقرئ : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، المعروف بالخطوط
المقرئية ، مكتبة العتيق بغداد .
- ١٥٧ . الملك الأمجد ، مجد الدين بهرام شاه الأيوبي (ت. ٦٢٨ هـ) : ديوان الملك
الأمجد ، دراسة وتحقيق ناظم رشيد ، مطبعة وزارة الاوقاف ،
الجمهورية العراقية ، ١٩٨٣م .
- ١٥٨ . ابن ماتي ، اسعد أبو المكارم بن مهذب (ت. ٦٠٦ هـ) : قوانين الدواوين ، جميع
وتحقيق عزيز سوربال عطية ، الجمعية الزراعية الملكية ،
القاهرة ، ١٩٤٣م .

١٥٩ . ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١) : لسان العرب، دار صادر
دار بيروت، ١٩٥٥، ١٩٥٦م.

١٦٠ . النابغة الذبياني : ديوان النابغة الذبياني ، جمع وشرح محمد الطاهر حسن
عاشور، نشر الشركة التونسية للتوزيع ، والشركة الوطنية
للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٦م.

١٦١ . نصرت عبدالرحمن : شعر الصراع مع الروم في ضوء التاريخ (العصر العباسي
حتى نهاية القرن الرابع) ، مكتبة الاقصى ، عمان ، الطبعة
الاولى ، ١٩٧٢م.

١٦٢ . النعمي ، عبدالقادر بن محمد النعمي الدمشقي (ت ٩٢٧هـ) : الدارس في
تاريخ المدارس ، نشر وتحقيق جعفر الحسيني ، مطبعة الترقى
بدمشق ، ١٩٥١م.

١٦٣ . النواجي ، شمس الدين ، محمد بن حسن المعروف بالنواجي (ت ٨٥٩هـ) :
مقدمة في صناعة النظم والنثر ، تحقيق محمد بن عبدالكريم
منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت (دون تاريخ) .

١٦٤ . أبو نواس : ديوان أبي نواس ، برواية الصولي ، تحقيق بهجت عبدالغفور
الحديثي ، دار الرسالة للطباعة والنشر ، بغداد ، ١٩٨٠م.

١٦٥ . النويري ، شهاب الدين ، أحمد بن عبدالوهاب النويري (ت ٧٣٢هـ) : نهاية الارب
في فنون الادب ، وزارة الثقافة والآثار القومي ، المؤسسة
الصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة ،
(دون تاريخ) .

١٦٦ . أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) : كتاب الصناعتين : الكتابة والشعر ، تحقيق وضبط
مفيد قمحية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة
الاولى (١٩٨١) . الطبعة الثانية ١٩٨٤م.

- ١٦٧ . ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم بن واصل (ت ٦٩٧هـ) : مفرج الكروب
في أخبار بني أيوب ، تحقيق وضبط وتعليق جمال الدين
الشيال ، الجزء الأول : مطبعة جامعة فؤاد الأول ، ١٩٥٣م .
الجزء الثاني : المطبعة الأميرية بالقاهرة ، ١٩٥٧م .
- ١٦٨ . ياقوت الحموي ، شهاب الدين ، ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي
(ت ٦٢٦هـ) : معجم الأدباء : عشرون جزءاً ، دار احياء
التراث العربي ، دار الاستشراق ، بيروت - لبنان (دون
تاريخ) .
- ١٦٩ . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ،
١٩٧٩م .
- ١٧٠ . يوسف حسين بكار : بناء القصيدة في النقد العربي القديم (في ضوء النقد
الحديث) ، دار الاندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ،
لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٣م .

الدوريات :
=====

- ١ . مجلة آداب الرافدين : العدد التاسع ، ١٩٧٨ م .
 - ٢ . مجلة لواء الاسلام ، المجلد الحادي عشر ، السنة الحادية عشرة ، العدد الحادي عشر ١٩٥٨ م .
 - ٣ . مجلة المورد ، المجلد الخامس ، العدد الثالث .
* * *
- النسخة الفرنسية :
*** Dozy, Reinhart Pieter Anne: Supple'ment aux Dictionnaires, arabes, Beyrouth, Librairie du Liban, 1968.
- النسخة العربية المترجمة :
دوزي ، رينهارت : كلمة المعاجم العربية ، ترجمة محمد سليم النعيمي ، العراق
دار الرشيد للنشر ، ١٩٨٠ م .

فهرست الأعلام

(أ)

- ابن الأثير (ضياء الدين) : ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٣٠٩ .
- ابن الأثير (عز الدين) : ٩٥ ، ٣٤٤ .
- أحمد بدوي : ٢١٣ .
- أحمد بن حنبل : ١٠٦ .
- أحمد الدوحى : ٢٣ .
- أحمد بن صلاح الدين : ٢٧٠ ، ٢٣٦ ، ٥٢ .
- أحناف بن قيس : ١٨٥ ، ١٨٤ .
- أرنط : ١٠٢ ، ١٣٩ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ٢٨٠ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٣١٤ ، ٣٣٤ ، ٣٣٧ ، ٣٤٥ .
- ٥٤٦ .
- أسامة بن منقذ : ٤ ، ٩٣ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٣١ ، ٤٧ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٧ ، ٧٩ .
- ١٢٦ ، ٣١١ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٨٦ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ٢١٤ .
- ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٣١ ، ٢٥٣ ، ٢٩٦ ، ٣١٠ ، ٣١٨ .
- أسد الدين شيركوه : ٢٢ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٤ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٧ ، ٦٦ .
- ٨٠ ، ٩٤ ، ١١١ ، ١٢٩ ، ١٥٤ ، ١٦٧ ، ٢٠٣ ، ٢٠٦ ، ٢٣٧ .
- ٢٤١ ، ٣٣٩ .
- الاسكندر المقدونى : ١٧٧ ، ١٧٨ ، ٣٠٥ .
- أسعد بن يحيى السنجارى : ١٩٤ .
- اسماعيل بن صلاح الدين : ٥١ .
- اسماعيل بن طفتكين : ٢٣ .
- الأفضل أبو الحسن علي بن السلطان صلاح الدين : ٣٦ .
- الأمجد بهرام شاه : ٣١ ، ١٩٠٥ .
- أموري أو (عموري) أو (مسري) : ٢٣٧ ، ٢٨٠ .

- جب هملتون : ٣٨ ، ٤١ ، ٦٣ ، ٩٥ ، ٩٨ ، ١٣٧ ، ١٤٥ ، ١٥٤ ، ١٥٨ ، ١٦٥ ، ١٧٦ ، ١٨٠ ، ٢٣٩ ، ٢٨٦ ، ٢٩٥ .
- ابن جبير : ١٥ ، ٢٨ ، ٣٢ ، ٤٢ ، ٩١ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٢٥ ، ١٥٨ ، ١٧٦ ، ٢٨٦ ، ٢٣٩ ، ٢٩٥ .
- الجرجاني ، علي : ٢٧١ .
- جعفر بن شمع الخلافة : ٥٦ ، ٥٥ ، ١٧٥ ، ٢٣٩ ، ٢٤٥ .
- جمال الواسطي : ٢٣٤ .
- الجواني : ١٤٨ ، ١٨١ ، ٢٣٩ ، ٢٤٦ ، ٢٥٨ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٣٠٢ ، ٣١٤ ، ٣٢٣ .
- الجويني : ٥٧ ، ١٢٩ ، ١٣٣ ، ١٣٦ ، ١٤٩ ، ١٧٧ ، ١٨٤ ، ٢٣١ ، ٢٣٥ ، ٢٥٠ ، ٢٩٩ ، ٢٩٧ ، ٢٩٦ ، ٢٩٣ ، ٢٨٦ ، ٢٧٤ ، ٢٥٨ ، ٢٥١ .
- ٣٢٨ ، ٣٢٢ ، ٣١٨ ، ٣١٤ ، ٣٠٦ .
- حاتم

(ح)

- حاتم الطائي : ٦٢ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ٢٣٦ .
- ابن الحاجب : ٣١ ، ٣٨ .
- حازم القرطاجني : ٢٤٦ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٦٣ ، ٢٦٧ .
- ابن حريصة : ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ١٩٥ ، ٢٣٩ ، ٢٩١ .
- حسان التدمري : ١٥ ، ٧٠ ، ١٩٧ ، ٢٣٥ .
- الحسن بن أبي الحسن (ملك النخاعة) : ٣ .
- الحيزانسي : ٢٣٢ .
- حسين عطوان : ٤ .

(خ)

- خاتسون : ٥١ .
- ابن خلدون : ١٤٦ .
- الخصيب ، أبو نصر بن عبد الحميد : ٣٠٧ ، ٢٠٤ .
- ابن خلّكان : ١٨٨ ، ٨٩ ، ٤٢ ، ٢٩ ، ٢٣ ، ٢٢ ، ٢٠ ، ٣٠١ .

(د)

- داود عليه السلام : ١٨٤ ، ٤٨ .
- دريد عبد القادر : ٢٣ .
- ابن الدهان الموالي : ١٠٢ ، ٩٧ ، ٩٠ ، ٨٩ ، ٧٦ ، ٧٤ ، ٦٥ ، ٦٤ ، ٥٨ ، ٢٤ ، ٥ .
- ١١٣ ، ١٣٠ ، ١٣٩ ، ١٥٦ ، ١٦١ ، ١٨٤ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩١ .
- ١٩٨ ، ٢٢٣ ، ٢٥٤ ، ٢٦٦ ، ٢٨٩ ، ٣٦٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٠ .
- ٣١١ ، ٣١٨ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥ ، ٣٤٢ .

(ذ)

- ابن الذّروي : ٢٨٠ ، ٣٧٠ ، ١٧٠ .
- ذو القرنين : ٢٩٤ ، ٢٧٤ .

(ر)

- الرّبعي : ٢٣٨ .
- الرشيد بن بدر النابلسي : ٢٥٠ ، ٢٣٤ ، ٢٠٠ ، ١٧٨ ، ١٥٣ ، ١٥٠ ، ١٢٥ .
- ٣٢٣ ، ٣١٧ ، ٣١٥ ، ٢٩٥ ، ٢٨٧ ، ٢٨٢ ، ٢٧٩ ، ٢٧٤ .
- ابن رشيق القيرواني : ٣٠٩ ، ٢٨٧ ، ٢٧١ ، ٢٧٠ ، ٢٦٣ ، ٢٥٦ .

- رنسيمان : ١٣٦ ، ١٤٥ ، ٢٣٧ .
- ابن رواحة : ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٥٩ ، ١٩٦ ، ٢٣٣ ، ٢٨٠ ، ٢٨٨ .
- ريتشارد (قلب الأسد) : ١٥٣ ، ٢٩٨ .

(ز)

- الزمخشري : ٦٢ .
- ابن الزنجاري : ١٠٨ .

(س)

- ابن الساعاتي : ٤٠٣ ، ١١٥ ، ٢٥٠ ، ٦٢ ، ٧١ ، ٧٧ ، ١٠٣ ، ١٢٠ ، ١٢٤ ، ١٢٨ ، ١٣٨ ، ١٤١ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٦٢ ، ١٦٩ ، ١٧٠ .
- ١٧١ ، ١٧٥ ، ١٨٠ ، ١٨٥ ، ١٩٨ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٤٦ .
- ٢٤٨ ، ٢٥١ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ .
- ٢٨٧ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣١٥ .
- ٣١٨ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٩ ، ٣٣٣ .
- سبط بن التعاويذي : ٦٠ ، ٦١ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٩ .
- ١١٢ ، ١٢٧ ، ١٣٢ ، ١٣٦ ، ١٤٠ ، ٢١٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٦٠ .
- ٢٧٧ ، ٢٨٦ ، ٢٩٠ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٣٤ .
- سبط بن الجوزي : ٢٢٨ ، ٢٤٥ .
- سفارة الأعمى : ٥٩ ، ٦١ ، ٦٨ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ١١٦ ، ١١٩ ، ١٢٧ ، ١٣٥ ، ١٣٧ .
- ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٠٦ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٨ .
- ١٩٤ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٧٣ ، ٢٧٩ ، ٢٨١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٦ .
- ٣٠٣ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢٧ .
- ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥ .

- شرف الدين بن أبي عصرون : ١٢، ١٦، ٢٩، ٣٤، ٩٥ .
- الشهرزوري (تاج الدين) : ٦ .
- الشهرزوري (كمال الدين) : ٢٩ .
- الشهرزوري (محيي الدين) : ١٢ .
- شلشع : ٢٣٨ .

(ص)

- الصالح اسماعيل بن نور الدين : ٩٥، ٩٦ .
- الصالح بن رزيك : ٢٤، ٤٨، ٥٧، ١٩٢ .
- صفي الدين بن القابض : ٧٣ .

(ض)

- ضرغام أبو الأشبال : ٤٣ .

(ط)

- أبو طالب الخشاب : ٢٣٨ .
- أبو طاهر بن عوف : ٣٤، ٣٥ .
- ابن طباطبا : ٣٢٠ .
- أبو طي النجار : ١٢١، ١٩٩، ٢٣٩ .

(ظ)

- الظاهر بن صلاح الدين : ٣٢، ١٠٩ .

(ع)

- عائشة رضي الله عنها : ١٨٨ .
- العاضد : ٢٧ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٦٧ ، ٨٦ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٩٤ .
- عبد الجليل عبد المهدي : ١٧٣ ، ١٦٣ ، ٣٠٠ .
- عبد الخالق بن أسد بن ثابت الدمشقي : ١٦ .
- العبدري : ١٥ .
- عبد السلام يوسف بن مقلد الدمشقي : ١٣ .
- عبد العزيز الأهواني : ٣٠٠ .
- عبد القادر محمود : ١٤ .
- عبد اللطيف البغدادي : ٣٢ ، ٣٣ .
- عبد الله بن الزبير : ١٨٨ .
- عبد المنعم الجاني : ١ ، ٥٠ ، ٥٨ ، ٧٢ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ١٢٤ ، ١٢٨ ، ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٤ .
- ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٨٠ ، ١٨١ .
- ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٩ ، ١٨٨ ، ٢١٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٦٣ ، ٢٧٤ .
- ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٤ .
- ٢٩٥ ، ٢٩٩ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣٢٢ .
- ٣٢٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٨ .
- عبد النبي بن مهدي : ٣٩ .
- أبو عبيدة : ٣٨٠ .
- عثمان (رضي الله عنه) : ١٨١ ، ١٨٢ .
- ابن العديم : ٦٠ ، ١٩١ .
- عرقلة الكبيسي : ٨٥ ، ٩٠ ، ١٥٠ ، ٢١ ، ٢٧ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٢ ، ٥٩ ، ٦١ .
- ٨٤ ، ١٠٧ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٦٩ .
- ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٣٠٧ ، ٣٢١ ، ٣٢٤ .

- عز الدين جرد يـك : ٤٣ .
- العزيز بن صلاح الدين : ٧١ .
- عزيز مصر : ١٨٣، ١٨٢، ٥٠ .
- عضد الدين أبو الفرج : ٢٢٦ .
- ابن عساكر : ١٣٢، ٣٠، ٢٤، ٤، ٣، ١ .
- أبو العلاء المعري : ٣٠٨، ١٩٣ .
- علم الدين الشاذلي : ٢٣٣، ١٩٧، ١٦١، ١٩ .
- علي بن أبي طالب : ٢٠٣، ١٨٨، ١٨١، ٨٤ .
- علي بن أحمد : ٢٣٦ .
- علي بن الأنجب : ١٢ .
- علي السخاوي : ٦٢ .
- العمار الأصفهاني : ورد في معظم صفحات الرسالة .
- عماد الدين زنكي : ٩٤، ٥٧، ٤١، ٤٠ .
- عمر اليمني : ٢٤٠، ١٨٣، ١٦٧، ١٣٤، ١٠٤، ١٠١، ٨٥، ٨١، ٥٠، ٤٨ .
- ٣٤١، ٣١٣، ٢٤٤، ٢٤٣، ٢٤٢، ٢٤١ .
- عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : ٣٤٤، ١٨٢، ١٨١، ١٨٠، ١٧٨، ١٥١، ٧٩ .
- ٣٤٥ .
- عمر بن عبد العزيز : ١٨١، ٧٩ .
- عمرو بن العاص : ١٠٧ .
- ابن عسكـين : ٢٤٥، ٢٤٤، ١٧، ١٦، ٧، ٥، ٤، ٣ .
- عون الدين بن هبيرة : ١٠٦ .
- عيسى عليه السلام : ١٤٣ .
- عيـلان : ٢٢ .

— الفاعزين الظانفـر : ٨٤ .

- [illegible]

— القاضي الناضل : ٢٦٠٢٥٠٣

- القاضي الناضل : ٢٨٦، ٧٣، ٦٠، ٥٣، ٥٢، ٤٠، ٣٥، ٣٤، ٣١، ٢٦، ٢٥، ٢ :
٢١١، ٢٠٨، ٢٠٠، ١٩٢، ١٩١، ١٥٩، ١٣٣، ٩٨، ٩٢
٢٨٦، ٢٤٤، ٢٣١، ٢٢٧، ٢٢٤، ٢١٧، ٢١٥، ٢١٢
٣١٢
- قدرى قلمجي : ٢٣
— قطب الدين النيسابوري : ٣٤
— ابن قلاقس : ١٣، ١٧
— ابن القيسراني : ٣٣٣

(ك)

- الكندي (تاج الدين) : ١٩٠٤ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٨ ، ٨٥ ، ١٢٥ ، ٢٤٠ ، ٣١٣
- كنز الدولة : ٨٦ ،

(م)

- مأجوج : ٢٩٤ .
- مالك (الامام) : ٣٥ .
- مالك بن الحارث : ١٨٨ .
- ابن الجاور ، نجم الدين يوسف : ٧١ ، ٣٠ ، ١٠٢ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣١ ، ١٥٨ ، ١٧٥
- ٢٣١ ، ٢٥١ ، ٢٩٣ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٣٢
- المتنبي : ٢٤٦ ، ٢٥١ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣١٩
- ٣٢٩ .
- محمد الحميري : ١٨٧ .
- محمد زغلول سلام : ٢٨ .
- محمد بن هبة الله بن مكسي : ٢٦ ، ٢٤٠ .
- محمود ابراهيم : ١٠٩ ، ٣٠٠ .
- محيي الدين بن الزكي : ٢٩ ، ١٢٢ ، ٢٣٩
- المرتضى الزبيدي : ٣٠ ، ٧٤ .
- مرجليوت : ٢٢٦ .
- مرهف بن أسامة : ١٨ ، ٢٣١ .
- ابن المطهران : ٦ ، ٣١ ، ٣٨ ، ٢٤٥ .
- المستضي بالله : ٨٣ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٣ ، ٢٢٦ .
- المعتصم : ٣٠٥ .
- المقرئزي : ٢٢ ، ٣٧ ، ١٠٨ .
- ملكشوم : ٨٣ ،

(ه)

- هارون الرشيد : ٢٠٤ .
- هبة الله بن كامل : ٢٤٤ .
- هبة الله بن وزير : ٢٣٦ ، ١٣١ ، ٥٧ .
- الهريري : ٣٢ .
- الهگاري : ٢٩ .
- أبو هلال العسكري : ١٤٦ ، ٢٥٧ ، ٢٠١ ، ٣٠٩ ، ٣٢٠ .
- الهنري : ٢٧٩ .
- هومروس : ١٧٧ .

(و)

- ابن واصل : ٢٢ ، ٢٣ ، ٥١ .
- وحيثر الأسدي : ٧٣ ، ٩٩ ، ١٢٠ ، ٢٣٩ ، ٢٤٨ ، ٣٢٦ .

(ی)

- یاجوج : ٢٩٤ .
- يحيى بن أبي طلي : ٩٤ ، ٩٥ ، ١٢١ ، ١٩٩ .
- يعقوب (عليه السلام) : ١٨ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٥٠ ، ١٣٧ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ٢٠٣ .
- ٢٠٦ ، ٢٣٨ ، ٢٥٩ .
- يوسف البراعيني : ٢٣٩ .
- يوسف الصديق (عليه السلام) : ٩ ، ١٨ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٥٠ ، ١٣٧ ، ١٨١ .
- ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ٢٠٣ ، ٢٣٨ ، ٢٢٥ .

(i)

- أذربيجان : ٢٣ .
- أرسوف : ١٤٦، ١٤٧ .
- الاسكندرية : ٣، ٣٠، ٣٢، ٣٥، ٤٥، ٤٦، ٥١، ١٠١، ١٢٩، ١٣٢، ٢٠٠ .
- ٢٠٦، ٢٠٩، ٢١٧، ٢٣٢، ٢٩٩، ٣٤٥ .
- أسوان : ٨٦، ٢٣٦، ٢٣٨ .
- أصبهان : ٣٠ .
- آمد : ٦٣، ٩٢، ٩٨، ١١٨، ١٢٠، ١٢٨، ٢٢٨، ٢٤٨، ٢٥٩، ٣٢٦ .
- أنطاكية : ٢٦٥ .
- أورفة : ١١٥ .
- ايران : ٢٣ .

(٤)

- باکو : ۲۳ .
— بانیاس : ۲۴ ، ۱۳۶ ، ۱۳۷ ، ۱۴۶ ، ۱۶۷ ، ۲۷۹ .
— برقة : ۱۱۱ .
— بعلياك : ۲۹ ، ۴۰ ، ۴۱ ، ۴۹ ، ۱۱۳ ، ۱۱۴ ، ۱۶۸ .
— بغداد : ۱ ، ۳۰ ، ۳۴ ، ۶۰ ، ۷۳ ، ۹۸ ، ۱۰۶ ، ۱۱۱ ، ۱۲۵ ، ۱۶۱ ، ۲۰۷ .
— ۲۲۶ ، ۲۲۷ ، ۲۳۵ ، ۳۲۲ .
— بلبيس : ۴۳ ، ۱۹۶ .
— بيت الأحزان : ۱۳۷ ، ۱۳۸ ، ۱۶۹ ، ۲۴۷ ، ۲۵۹ ، ۲۶۰ .
— بيت المقدس : ورد في معظم صفحات الرسائل .
— بسيرت : ۸۷ ، ۱۳۹ ، ۱۴۶ ، ۱۴۷ .

(ت)

(5)

(2)

— حَرَّان : ۱۱۵، ۱۱۶، ۱۱۷ .
— حَمَّان : ۲۱۹ .
— حَمْن كَيْفَا : ۶۳، ۲۱۵ .
— حَطَّيْن : ۱۰۳، ۱۰۹، ۱۱۰، ۱۱۱، ۱۳۱، ۱۴۱، ۱۴۲، ۱۴۳، ۱۴۵،
۱۴۶، ۱۵۱، ۱۵۲، ۲۲۹، ۲۷۶، ۲۷۸، ۲۸۸، ۲۸۹
۳۲۸، ۳۳۶، ۳۴۵ .
— حَلَب : ۱۵، ۲۹، ۳۲، ۴۰، ۵۲، ۸۷، ۹۰، ۹۶، ۱۰۹، ۱۱۱، ۱۱۵ .

١١٦، ١١٧، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥،

١٧، ١٩٩، ٢٢٥، ٢٢٣، ٢٣٩،

— حمالة : ٢٩، ٧٠، ٧١، ٨٧، ١١٤، ١٣٢، ١٦٧، ٢٠٢، ٢٣٥ .

— حمص : ٢٩، ١١٣، ١١٤، ١١٩، ١٥٤، ١٦١، ١٩٥، ١٩٨، ٢٠٧، ٢٢٣،

٢٥٤ .

(خ)

— الخسز : ١٥٩ .

(د)

— دمشق : ورد في كثير من صفحات الرسالة .

— دميطة : ١٠٠، ١٣٤، ١١٧، ١٢١، ٢٣٣، ٢٧٤، ٢٨٨، ٣٣١، ٣٤٤،

— دوين : ٢٣ .

— ديار بكر : ٦٣، ١١٥، ١٦١ .

(ر)

— الرانقة : ١١٧ .

— الرقة : ١١٧ .

— الرملة : ١٠١، ١٠٤، ١٣٤، ١٣٥، ٢٠٨، ٢٤٢ .

— الرها : ١١٥، ١١٦ .

(j)

- { ٨ : زميد -

(س)

- ۶۲ : سنخ —
• ۱۹۴ : سنجر —

- سنچسار : ۱۹۴ .

(ثر)

- شائبان : ۱۶۱ •

- شاغسور : ۲۴ .

(ص)

- الصادريّة : ١٦٠ .

- 2876 212 : is

- صفوينة : ١٣٩، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣

- مقلية : ١٥٩ .

- ۱۷۲ : صور -

- صید : ۱۶۷۱

(b)

- طبرية : ١٢٤، ١٣٧، ١٤١، ٢٢٩، ٢٧٨، ٣٠٥، ٣٢٧،

(ع)

- العباسية : ١٩٧ .
- عسـدن : ٨٩ .
- عزاز : ١١٨، ١١٧ .
- عسقلان : ١٠٤، ١١٢، ١٣٤، ١٣٥، ١٤٦، ١٤٧، ٢٠٨، ٢٤٢ .
- عكـسا : ١٢٦، ١٣٢، ١٤٦، ١٤٧، ١٨٨، ٢١١، ٢٣٣ .
- عموريـة : ١٧٢، ٣٠٥، ٣٢٧ .
- عين جالسوت : ١٣٩ .

(غ)

- غـزة : ١٠١، ١٣٤، ١٤٦، ١٤٧، ١٩٦، ٢٠٨، ٢١٨، ٣٢٧ .

(ف)

- فاقـوس : ١٩٦ .

(ق)

- القادسيـة : ١٥١، ٢٧٤، ٢٩٩، ٣٤٥ .
- القاـهرة : ٢٢، ٢٣، ٥٥، ١٩٠ .
- قـوص : ٣٢ .
- قيساريـة : ١٤٦ .

(ك)

- الكرك : ١٠١، ١٣٩، ١١١، ٢١٢، ٣١٢، ٣٢٧
- كوكب : ٧٣ .

(ل)

- لبنان : ٨٧ .
- لويحة : ١٥١، ٢٧٤ .

(م)

- مرجعيون : ١٠١، ١٣٦، ١٤٦، ٢٢٧، ٢٣٥، ٢٦٠، ٣٢٨، ٣٤٥
- مرطبان : ٤٨ .
- مصياف : ٨٧ .
- مغة : ٤٨، ٧١، ٨١، ١٠٥، ١٥١، ١٥٢، ٢٣٠ .
- الموصل : ٢٩، ٤٠، ١١١، ١١٥، ١٢٢
- منبج : ١١٦

(ن)

- نابلس : ١٠١، ١٣١، ١٣٩، ١٤٠، ١١١، ٢١٢، ٣١٢، ٣٤٣
- نيرب : ١١ .
- نيبور : ٣٤ .

(۵)

• ۳۴ : میدان

(۷)

• 187 : L. 24 -

— يثرب : ٧ ، ٨ ، ١٥١ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٤٥ —

— اليمين : ١٨ ، ٥١ ، ٦٩ ، ٨٩ ، ١٠٦ ، ١١١ ، ١٨٨ .

فهرست الموضوعات

<u>الموضوع</u>	<u>الصفحة</u>
— المقدمة :	أ - و
— التمهيد : " حركة الشعر في عهد صلاح الدين " :	١ - ٢١
— الفصل الأول : " سيرة صلاح الدين الأيوبي مستقاة من الأدب في ضوء التاريخ " :-	٢٢ - ٧٩
* حياته ونشأته	٢٢
* صفاته	٥٧
— الفصل الثاني : " صلاح الدين الأيوبي في الشعر العربي في فترة الحروب الصليبية " :	٨٠ - ١٨٥
* السياسي والإداري	٨٠ - ١١٠
* الساعي للوحدة الإسلامية	١١١ - ١٢٣
* البطل المجاهد :	١٢٤ - ١٧٨
— القائد العسكري الساعي لاسترداد البلاد	١٢٩ - ١٦٥
— فاتح بيت المقدس	١٦٦ - ١٧٨
* المقتدى بالسلف الصالح	١٧٩ - ١٨٥
— الفصل الثالث : " صلاح الدين وشعره " عصره	١٨٦ - ٢٤٥
— الفصل الرابع : " الدراسة الفنية " :	٢٤٦ - ٣٤٦
* بناء القصيدة	٢٤٦ - ٢٧٠
* اللفظة والأسلوب	٢٧١ - ٣١٩

الموضوع

الصفحة

٢٢٨ - ٢٢٠

* الصورة الشعرية

٢٤٦ - ٢٣٩

* صلاح الدين بين الشعر والتاريخ

٢٥٠ - ٢٤٧

— الخاتمة

٢٧٢ - ٢٥١

— ثبت المصادر والمراجع

٢٨٥ - ٢٧٢

— فهرست الأعلام

٢٩٢ - ٢٨٦

— فهرست البلدان

٢٩٤ - ٢٩٢

— فهرست الموضوعات

Contents

This thesis discusses the subject of "Salah AL-Din AL-Aiubi in the Arabic poetry during the period of crusade wars". It consists of an introduction, four chapters and a conclusion.

In the introduction I discussed the difficult circumstances of the Moslem Nation as a result of the foreign occupation at the end of 5th Century and during the 6th Century of AL-Higra and how Allah (God) had given the Moslem Nation Leaders who rescued it from its difficulties .

One of these Leaders is Salah AL-Din AL-Aiubi who was able to unite the Nation and to liberate Jerusalem from Foreign occupiers .

The reasons that encouraged me to write in this subject are many . From these reasons :

- 1- Richness of the poetic literature.
- 2- Interest in the personality of the leader .
- 3- Similar circumstances of our Nation with those which were prevailing during the period of Salah AL-Din .

In addition I stated in the introduction the system that I followed in my study .

In the preface ,I discussed the poetic situation during the period of Salah Al-Din and his role in it .

In the first chapter, the biography of Salah AL-Din was discussed looking at poetry in the light of history.I talked about his genealogy, his culture, different stages of his

life up to his death ^{and} finally about his characters that showed out clearly in poetry .

In the second chapter ,the picture of Salah AL-Din ^{in the} poetry ^{during} the crusade wars was discussed. This chapter dealt with Salah AL-Din the politician and the administrator who was working to unite the Nation . Also it dealt with Salah AL-Din the "Mujahid" the military leader who liberated the land and recovered Jerusalem and after that the picture of Salah AL-Din the follower of ideal, islamic ancestors.

In the third chapter I talked about the relationship between Salah AL-Din and the poets of his era. He was surrounded by many poets who wrote poems describing his actions and the different aspects of his personality Consequently a strong relationship was built between Salah AL-Din the poets. I started this chapter by pointing out the interest of Salah AL-Din in poetry, his poetic seminars which I arranged chronologically. Then I talked about his relationship with the poets who are divided into two categories:

TABLE 1.

- 1- The first one includes the elite poets in his state .
- 2- The second one includes poets of second rank who established different links with Salah AL-Din .

In the fourth chapter, the technical aspects of the study are discussed .I analyzed the most important characteristics of the poetry such as the poem make-up, language, style and the poetic picture .

Finally, I summarized in the conclusion the most important results obtained.

At the end I listed the references which I used in my study. Also I put three indexes, one for persons, a second for towns and a third for subjects.